مَنْهَجُ الإسْلام

في

السِّلْمِ وَالحَرْبِ

العقيد الركن / محمد مهنا العلي



مَنْهَجُ الإسْلام

في

السِّلْمِ وَالحَرْبِ

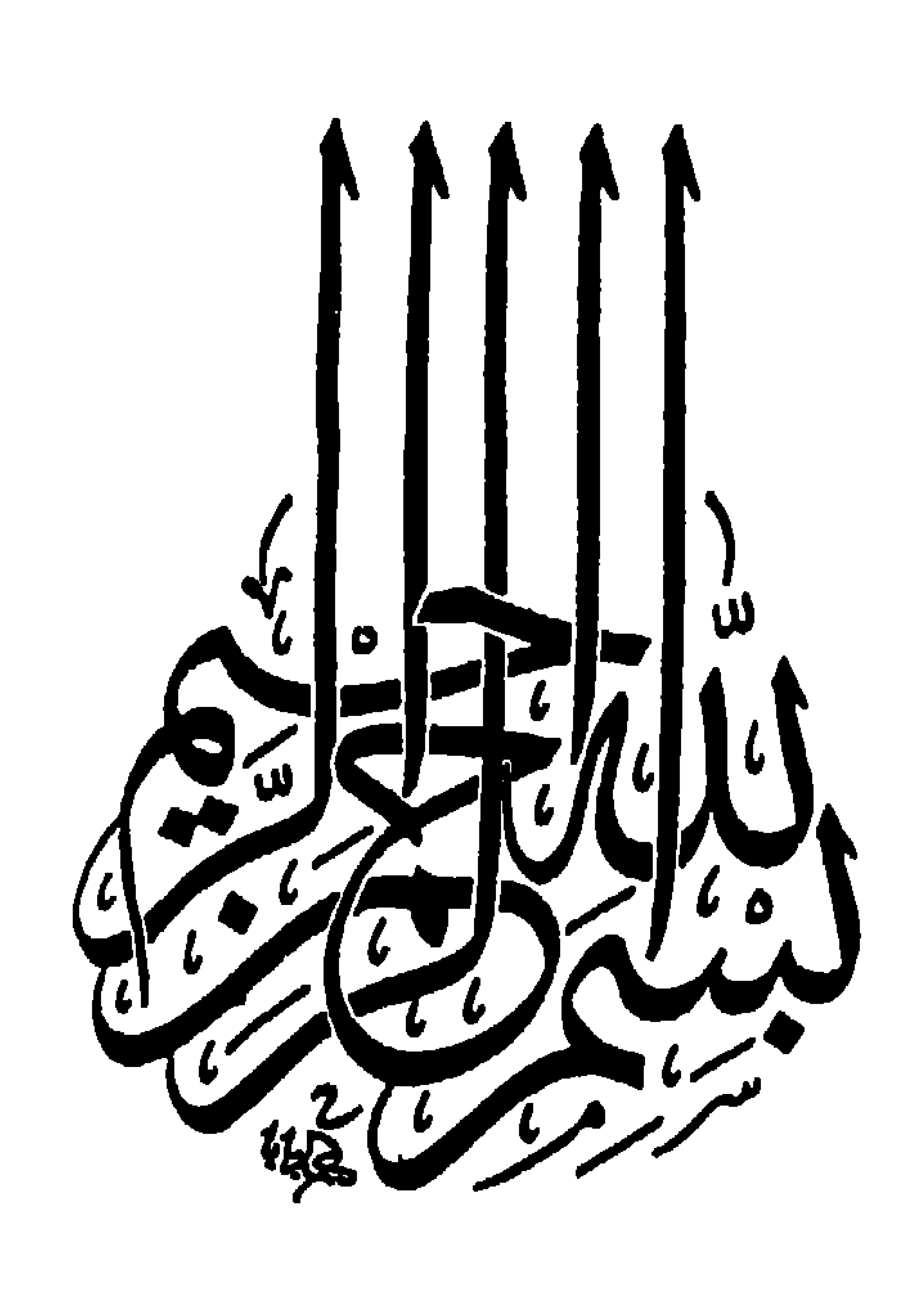
العقيد الركن / محمد مهنا العلي





ص.ب ٤٣١٩٨ ـ الرياض ١١٥٦١
هاتف ٤٠٢٦٨٣٨
المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى:

﴿فليقٰتل في سبيل الله الذين يشرون الحيٰوة الدنيا بالآخرة ومن يقٰتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً، ومالكم لا تقٰتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هـذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً، الذين آمنوا يقٰتلون في سبيل الله والذين كفروا يقٰتلون في سبيل الطٰغوت فقٰتلوا أولياء الشيطٰن إنَّ كيد الشيطٰن كان ضعيفاً، ألم ترَ إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متٰع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقٰى ولا تظلمون فتيلاً، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإنْ تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإنْ تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هٰؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلنٰك للناس رسولاً وكفٰى بالله شهيداً، من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولٰى فما أرسلنٰك عليهم حفيظاً، ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طآئفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفٰى بالله وكيلاً، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلٰفا كثيراً، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطٰن إلا قليلاً، فقٰتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً﴾.

سورة النساء (٧٣ ــ ٨٤)

الإهــداء

إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات

وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

المؤلــف

المقدمــة

الحمد لله الواحد الأحد الذي يذكر من يذكره ويجيب من التجأ إليه ودعاه، ويغفر لمن استغفره وأناب إليه، ويتوب على من تاب إليه.. أحمده وبه أستعين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، عباد الله المخلصين، وبعد...

لحكمة لا يعلمها إلا مدبر الكون سبحانه وتعالى، خلق الإنسان من طين ونفخ فيه من روح الله ـــ خالقه وموجده من العدم، ثم أمرت الملائكة بالسجود له، ثم استخلف في الأرض.. وتلك مظاهر التكريم الإلهي للإنسان والتي لا يدرك مدلولاتها إلا المسلم الذي تأدب بأدب القرآن وتفيأ بظله الكريم، وفي ذلك يقول الخالق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل وقوله الحق ﴿**ولقد خلقنا الإنسٰن من صلصٰل من حمأ مسنون، والجان خلقنٰه من قبل من نار السموم، وإذ قال ربك للملائكة إني خٰلق بشراً من صلصٰل من حمأ مسنونٍ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له سٰجدين**﴾ سورة الحجر: ٢٦ ـــ ٢٩، ويقول أيضاً وقوله الحق ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صٰدقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يٰآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون، وإذ قلنا للملٰئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكٰفرين، وقلنا يٰآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظٰلمين، فأزلهما الشيطٰن عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدو ولكم في الأرض مستقر ومتع إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمٰت فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ سورة البقرة: ٣٠ ـــ ٣٨.

وهذا الإنسان الذي كرمه خالقه بروح من روحه سبحانه وتعالى وبسجود الملائكة له وباستخلاف الرحمن له في الأرض، قد تكفل بحمل الأمانة التي أعرضت عنها السمٰوات والأرض والجبال، وذلك في قوله تعالى **﴿إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسٰن إنه كان ظلوماً جهولاً﴾** سورة الأحزاب : ٧٢. ولهذا ميزه الله سبحانه وتعالى: بالعقل، فالعقل هو منطلق التكليف إذ لا تكليف للمجنون أو الصبي أو النائم لعدم تمتع أي منهم بالعقل، وعليه نجد العديد من آيات الذكر الحكيم تستحث الإنسان على إعمال العقل واستغلاله في تمييز هذا الأمر من ذاك كقوله تعالى **﴿يعقلون، يتدبرون، يعلمون، يبصرون يتفكرون﴾**

ثم بيّن سبحانه وتعالى الأسباب التي من أجلها خلق الإنسان وكُرم ومُيز بالعقل عن سائر المخلوقات بقوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ سورة الذاريات: ٥٦

ولكي لا يجنح ذلك الإنسان الظلوم الجهول عن طريق الحق الذي خلق واستخلف في الأرض من أجله، فإنه قد توالت لأجل ذلك رسالات السماء، وتتابع الرسل، وذلك في قوله تعالى **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾**سورة يوسف: ١٠٩، وقوله تعالى **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾**سورة الأنبياء: ٢٥.

ثم أتت رسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم كرسالة خاتمة للرسالات السماوية وموجهة إلى الناس كافة، ومهيمنة على كل ما سبقها من رسالات، ولتبقى دعوة الإسلام ورسالة الإسلام وعقيدة الإسلام ما بقي من عُمر الإنسان على هذه الأرض يقول الحق سبحانه وتعالى **﴿وما أرسلنٰك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** سورة سبأ: ٢٨.

وعليه ندرك أن الرسالات السابقة للإسلام منذ آدم عليه السلام والتي بعث بها الرسل عليهم السلام أجمعين إلى أمم أو فئات أو جماعات معينة، كانت تمثل المقومات الضرورية لرسالة الإسلام الجامعة والشاملة والدائمة. في حين أن رسالة الإسلام تمثل/ رشد الإنسانية وكمالها، يقول الحق سبحانه وتعالى **﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم**

الإسلٰم ديناً﴾ سورة المائدة: ٣. ولهذا أتت رسالة الإسلام شاملة ومهيمنة ومتضمنة كل ما فيه خير الإنسان وسعادته في الحياة الدنيا وبعد الممات.

وعليه فإن هذا الاستمرار في دين الإسلام ــ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهذه الهيمنة على كل ما أتت به الرسالات السماوية السابقة، وهذا الشمول في الإسلام واحتواؤه على كل ما فيه خير الإنسان وما يكفل سعادته في الدنيا ونعيمه في الآخرة كل هذه العوامل قد جعلت من الإسلام ديناً ودنيا، لا تنس ما قلناه إن الإنسان طين أو جسد وروح، ولابد من الموازنة فيما بينهما، وجعلت من الإسلام دينا قادرا على أن يرسم للإنسانية في عهد رشدها الطريق السوي الذي لا عوج فيه.

ومن هذا المنطلق نجد أن الإسلام قد حدد معالم الطريق للإنسانية نحو النظم التي تضمن لها تحقيق الأهداف التي تسعى إليها، كالنظم الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعسكرية والسياسية والإدارية. تلك النظم التي حملها رواد الفتح الإسلامي وقادته من أصحاب الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وتابعيهم إلى مشارق الأرض ومغاربها، ونشروها بين تلك الأمم والشعوب التي وجدت في عقيدة الإسلام ونهج الإسلام ونظم الإسلام ضالتها التي لم تجدها في أي دين عدى الإسلام.

وسادت نظم الإسلام الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية والعسكرية قروناً عديدة، وصلت الشعوب الإسلامية في ظلها إلى غاية ما تنشده البشرية وتسعى إليه... ثم انكفأ المسلمون واستكانوا واكتفوا من الإسلام ببعضه، وهم المدركون أن الإسلام لا يمكن أن يكون وبأي حال من الأحوال إلا دنيا وديناً ، ولا يمكن أن يكون إلا نظاماً شاملاً للحياة، ولا يمكن أن يكون إلا ديناً واقتصاداً وسياسة واجتماعاً وإدارة وعسكرية وتقنية. يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله : (إن كل هداية لا تتحول من صلاح نفسي إلى إصلاح اجتماعي فهي في باب الخير كالجنين الذي سقط قبل استكمال نموه، فما قدرت له حياة ممتدة ولا عرف له تاريخ مشرف، وبديهي أن ينهزم الخير السلبي أمام الشر الإيجابي). ويقول أيضاً رحمه الله: (ماذا فعل صالحونا في قرون الضعف لما آثروا العبادة في زواياهم وتركوا لغيرهم أن يكتشف استراليا والدنيا الجديدة وينقل إليها عقائده وتقاليده. ما أفاد الدين من سيرتهم شيئاً طائلاً على حين ظفر بالحياة من ظفر).

ثم أتت حملات الغزو الفكري التي شنها تحالف اليهودية العالمية والإمبريالية الصليبية العالمية لديار الإسلام، لتزيد الفجوة وتسعى لتعميق الهوة بين المسلمين، والإسلام، داعية

عن طريق أدواتها من مستشرقين ومبشرين، وعملائها وصنائعها من أبناء المسلمين إلى فصل الدين عن الدنيا، وذلك لعزل الإسلام المتجدد دائماً عن واقع حياة المسلمين في جوانبها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإدارية والعسكرية، ليبقى الإسلام مجرداً من أي من أسحلته المختلفة ـــ وأقصد بها تلك النظم الربانية التي سعدت بها الشعوب التي اعتنقت الإسلام قروناً عديدة.

وعندما تم لتحالف اليهودية العالمية والإمبريالية الصليبية العالمية ما أرادوا، تقدموا بتلك النظم التي وضعوها لأنفسهم كبديل للنظم الربانية لدى الشعوب الإسلامية. وأخذتها الشعوب الإسلامية المغلوب على أمرها، كأمر طبيعي لأن المغلوب قد جبل على تقليد الغالب والاعتزاز بما يقدمه له كما يقول المؤرخ الاجتماعي المسلم ابن خلدون رحمه الله.

وهكذا أصبح الإسلام عند المسلمين المعاصرين مجرد عبادات تزاول دون إدراك حتى لمدلول هذه العبادات والحكمة الإلهية التي من أجلها فرضت تلك العبادات.. وهكذا انعزل المسلمون عن واقع الإسلام في جانبه الحركي المتجدد والمتدفق. وبهذا سلموا مقود البشرية إلى أعدائها الماديين من رأسماليين وشيوعيين، وأتاحوا الفرصة لهم ليهيمنوا بما ابتكروه من نظم اقتصادية وضعية (الرأسمالية والشيوعية)، ونظم سياسية وضعية (الديمقراطية والاشتراكية)، ونظم اجتماعية وضعية تسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية كذباً وافتراء دون أن تدرك معنى ومدلول ومرامي العدالة الاجتماعية. وعن هذه النظم الرئيسية (الاقتصادية والسياسية والاجتماعية) انبثقت النظم الفرعية كالنظم الإدارية والنظم العسكرية.

ثم قام التحالف اليهودي الصليبي بنشر هذه النظم والترويج لها في ظل حملات الغزو العسكري والاقتصادي والسياسي والفكري في بقية أجزاء المعمورة، ومنها الدول الإسلامية التي أخذت بهذه النظم بعد أن انسلخت من ثوبها الإسلامي ظناً من القائمين على أمور تلك الدول أن هذه النظم هي الطريق الأنسب والأوحد للوصول إلى ما وصلت إليه أوروبا في ظل هذه النظم من تقدم اقتصادي واجتماعي وتقني.. وطبيعي أن يكون حصاد الدول الإسلامية من كل هذا، ليس إلا مزيداً من الانتكاس والفشل، حيث أنها نبذت النظم التي ارتضاها لها خالقها سبحانه وتعالى وتبنّت النظم التي ارتضاها الأوروبيون لأنفسهم.. وطبيعي أن يكون الطريق الذي يوصلك إلى هدفك من المسير ليس بالضرورة

هو ما يوصلني إلى هدفي من المسير، وطبيعي أن النظم التي ارتضاها الأوروبيون وحققوا من ورائها بعض المكاسب الدنيوية المحدودة ليست بقادرة على تحقيق ما يسعى إليه المصريون أو الأتراك أو الإيرانيون من أهداف دنيوية محدودة، لأنها لم توضع بما يتناسب مع بيئة المصريين أو الأتراك أو الإيرانيين ومع تطلعاتهم وأمانيهم.

وهكذا انسلخ المسلمون وتخلوا عن ماضيهم ولم يستطيعوا أن يحققوا أياً من أهدافهم الدنيوية التي أغراهم التحالف اليهودي الصليبي ببريقها، ولعل أوضح الأدلة لنا اليوم هي تركيا الكمالية التي غيّرت العادات والتقاليد وطمست التاريخ وبدّلت الحروف في لغتها بالأحرف اللاتينية.. ومع هذا فلم تجنِ تركيا سوى الضياع على الطريق والعيش بلا جذور ولا أصالة.

وطبيعي أن يكون عمل الإنسان قاصراً مهما سعى وظن أنه بلغ الكمال، لأن الله سبحانه وتعالى وصف الإنسان بالظلم والجهل حين خلقه ورضي بتحمل الأمانة التي أعرضت عنها السموات والأرض والجبال... وعليه فإن الوضعية التي ابتكرها ذلك الإنسان وارتضاها لنفسه، قاصرة أيضاً. ولعل هذا القصور والنقص هو الذي قاد الأمم والشعوب التي هيمنت عليها النظم الوضعية إلى الضياع والخراب السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وهو الذي قاد إلى الصراعات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية العنيفة في معظم أنحاء المعمورة، وهو الذي دفع بالعديد من الدول إلى ساحات الصراعات العسكرية التي أحرقت الأخضر واليابس في سبيل أهداف دنيوية محدودة، وهو الذي دفع بأمريكا وهي التي تدعي تربعها على عرش التقدم والديمقراطية وحقوق الإنسان وغيرها من الشعارات الزائفة إلى إحراق النسل والضرع والحياة في هيروشيما ونجازاكي، وهو الذي دفع بألمانيا النازية إلى التضحية بما يناهز الستة ملايين ألماني من أجل تحقيق هدف دنيوي محدود هو ألمانيا فوق الجميع.

وفي ظل هذا الضياع الفكري، وفي ظل هذه الهيمنة الفكرية لنظم العالم المادي، وفي ظل الغزو العسكري والفكري لعالمنا الإسلامي واحتلال الإمبريالية اليهودية لفلسطين واستعمار الإمبريالية الصليبية لبقية أجزاء العالم الإسلامي إلا ما ندر ظهرت أجيال من أبناء المسلمين الغيورة على إسلامها ونظمها الربانية وتراثها وتاريخها الإسلامي، وأدركت أن الإسلام ليس صلاة وصوماً وحجاً فحسب، بل أن الإسلام ليس إلا حصيلة الإيمان والمبادىء والعمل.

إيمان يحفظ للإنسان كرامته وحريته التي يسترخص في سبيلها الحياة، ومبادىء تنظم علاقته مع المجتمع بشكل يكفل له حياة أهناً وعيشاً أرغد ثم أدركوا أن محصلة كل هذا تتمثل في: تنظيم مفهوم الحياة الدنيا وما قبلها وما بعدها.

ثم أدركوا أن تلك المصلحة هي الحضارة... أي أن الإسلام هو الحضارة الربانية الحقة التي ارتضاها الله لعباده.

لقد أراد التحالف اليهودي الصليبي بالإسلام وبالمسلمين سوءاً في غزوهم للعالم الإسلامي، في حين أراد الله بالإسلام وبالمسلمين خيراً **﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾** سورة آل عمران: ٥٤. فمن حيث لا يدرون أسهموا في الصحوة الإسلامية المعاصرة في ديار الإسلام، ومن حيث لا يدرون أصبحت غزواتهم الشرسة لعالمنا الإسلامي جرساً يدق في آذان النائمين من أبناء الإسلام، معلناً لهم الخطر، ودافعاً لهم للنهوض والسير من جديد في طريق الحق الذي ارتضاه الله لعباده.

وفي إطار هذه الصحوة الإسلامية، أبدى العديد من رجالات الإسلام وأبنائه، ونساء الإسلام وبناته، رغبتهم في تغيير المنكر الذي استشرى في ربوع العالم الإسلامي من جراء حملات الغزو الفكري، وتبيان مآثر الإسلام وماهية النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإدارية والعسكرية التي اشتمل عليها دين الإسلام كنظام شامل للحياة.

وفي هذا الإطار كان مؤلفي «الإدارة في الإسلام»، وكان مؤلفي صراعنا مع اليهودية بين الصالح المستحيل والمواجهة الحتمية وهأنا أشرع في هذا المؤلف «منهج الإسلام في السلم والحرب» لتبيان هذا الجانب المهم من الفكر الإسلامي، حيث أن النظم العسكرية السائدة اليوم في عالمنا الإسلامي، إما نظم شرقية أو نظم غربية، لا تمت بأي صلة لنظام الجندية الإسلامية ولا إلى ما احتواه الفكر الإسلامي من قوانين للسلام أو الحرب.

منك العون ربي وعليك الاتكال.

المؤلف

البــاب الأول

تمهيـد

قبل أن أبدأ الحديث عن السلام في الإسلام، وعن الحرب في الإسلام، وموقف الإسلام من قضية السلام والحرب بصورة عامة وفي ضوء نصوص القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم. وقبل الحديث عن بعض من معارك الإسلام وحروبه العادلة والتي شهد الأعداء بعدالتها قبل الأصدقاء... أود أن أخصص الفصل الأول من هذا الكتاب للحديث عن أبجديات الحرب وعمومياتها، كالإنسان والحرب منذ الأزل، وأهداف الحرب ووسائلها قديماً وحديثاً، والعلم ودوره في تطور آلة الحرب وفنونها المتعددة، والحرب والعقيدة، والطبيعة الفكرية لإدارة الحرب، ومبادىء الحرب، وفن الحرب، وطبيعة الحرب. وذلك لتبيان هذه الأبجديات والعموميات للأخوة القراء من غير العسكريين الذين لابد وأن يكونوا على بينة من بعض الأمور البديهية للحرب قبل أن نتحدث إليهم عن مفهوم الحرب والسلام في ضوء تعاليم الإسلام.

كما أود أن أتحدث في الفصل الثاني من هذا المؤلف وقبل الحديث أيضاً عن السلام والحرب في ضوء تعاليم الإسلام، عن الحرب في ظل النظم الوضعية (الرأسمالية والفاشستية والنازية والشيوعية) والتي رُزئت البشرية بحربين عالميتين على أيديها، وكذلك دور اليهودية الحاقدة في ظهور تلك النظم الوضعية الجانحة، لكي تكون وسيلة بيد اليهود لتدمير الحكومات والمجتمعات الأممية وأديانها، حيث تسعى اليهودية من خلالها إلى تقسيم العالم إلى كتل متصارعة متنافرة، تقتتل هذه الكتل المتنافرة لتبيد كل منها الأخرى وبذلك تتاح الفرصة لليهودية العالمية لبسط هيمنتها على مقدرات العالم.

وحديثي هذا عن الحرب في ظل النظم الوضعية لا يأتي في سبيل المقارنة مع الحرب ونظم الحرب وفكر الحرب في الإسلام، فأنا أرفض أن أقارن الفكر المستمد من نصوص الآيات القرآنية الكريمة ومن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وسنته القولية أو الفعلية أو التقريرية مع الفكر الوضعي المستمد من آراء نتشه أو ماركس أو ميكيافلي. كما أرفض أن أقارن النظام الذي ارتضاه رب العباد للعباد مع ذلك النظام الذي وضعه كارل ماركس أو كارل ريتر بإيعاز من اليهود أهل المكر والحقد والتدبير وأمم الأرض عن ذلك غافلة.

كما أرفض أن أقارن أي نظام فرعي من نظم الإسلام الشاملة مع أي نظام من النظم الفرعية الوضعية.. إذ لا أساس للمقارنة ولا أرضية لمثل هذا العمل، فالمقارنة من الممكن أن تكون بين النظام الاجتماعي في الإسلام مع النظام الاجتماعي في التوراة... ولكن أين التوراة الحقة التي على ضوئها نستطيع أن نقارن؟. والمقارنة تكون واقعية حين نقارن النظام الاقتصادي الرأسمالي بالنظام الاقتصادي الشيوعي، فكلاهما وضعي فلذلك فإن قاعدة وأرضية المقارنة واحدة ومشتركة.

إن ما أردت الوصول إليه بكتابة هذا الفصل هو أن يعي القارىء المسلم الذي من أجله شرعت في كتابة هذا المؤلف. كم هو عظيم الإسلام.. وكم هي حقيرة تلك النظم الوضعية السائدة؟!

الفصل الأول: أبجديات الحرب وعمومياتها

* الإنسان والحرب
* أهداف الحرب ووسائلها
* العلم والحرب
* الحرب والعقيدة
* الطبيعة الفكرية لادارة الحرب
* مبادىء الحرب
* فن الحرب
* طبيعة الحرب.

الإنسان والحرب

الحرب تعني في أبسط معانيها: لجوء أحد طرفي النزاع ـــ فرداً أو جماعة أو فئة أو طائفة أو قبيلة أو دولة أو مجموعة دول ـــ إلى القوة، لحسم النزاع لصالحه.

وعليه فالإنسان سواء كان فرداً أو جماعة فإنه هو الذي يوجد أسباب الصراع، وهو الذي يحدد أدواته ووسائله، وهو الذي يحدد مكانه وزمانه... أي أنه هو قطب الرحى ومحور الارتكاز في أي نزاع يتسم بالقوة (الحرب).

ولكن لماذا يلجأ الإنسان إلى القوة بأي مظهر من مظاهرها لحسم النزاع؟ ولماذا النزاع أساساً ؟ إن الإجابة على هذين التساؤلين قد تُبين لنا العلاقة الأزلية بين الإنسان والحرب من جهة وبين جوانب الخير وجوانب الشر في الإنسان نفسه من جهة أخرى.

القرآن الكريم هو المصدر الرئيسي الأول للتشريع والفكر في الإسلام، وعليه فحين نجد في القرآن ما يدلنا على مبتغانا، فلا مشروعية لنا بالبحث فيما سواه. وقد تضمن محكم التنزيل الإجابة الشافية الكافية على هذين التساؤلين والتي تبين العلاقة بين الإنسان والحرب وبين جوانب الخير وجوانب الشر في الإنسان نفسه. وحين نتتبع آيات الذكر الحكيم بحثاً عن الإجابة نجد:

أولاً: أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان من طين ثم كرمه حين نفخ فيه من روحه ثم كرمه مرة أخرى حين أمر الملائكة عليهم السلام بالسجود له. يقول جل وعلا عن كل هذا في محكم التنزيل: ﴿**ولقد خلقنا الإنسٰن من صلصٰل من حمأ مسنونٍ، والجان خلقنٰه من قبل من نار السموم، وإذ قال ربك للملٰئكة إني خٰلق بشراً من صلصٰل من حمأ مسنونٍ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له سٰجدين**﴾ سورة الحجر: ٢٦ ـــ ٢٩.

ثانياً: أن هذا التكريم الإلهي لآدم (الإنسان) قد دفع بإبليس إلى الكفر والاستكبار والخروج عن طاعة الله سبحانه وتعالى غيرة وحسداً لآدم الذي خلق من صلصال من حمأ مسنون في حين أنه المخلوق قبل ذلك من نار. يقول المولى جل وعلا عن كل هذا في محكم التنزيل: ﴿**فسجد الملٰئكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى**

أن يكون مع السٰجدين، قال يا إبليس مالك ألا تكون من السٰجدين، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصٰل من حما مسنون﴾.

سورة الحجر: ٣٠ ــ ٣٣

ثالثاً: أن هذا الكفر والاستكبار والخروج عن طاعة الله سبحانه وتعالى، من قبل إبليس بعد غيرته وحسده لآدم (الإنسان) الذي خلق من صلصال من حمأ مسنون قد تسبب في خروج إبليس من حضرة الله والملائكة وإتباعه باللعنة إلى يوم الدين. يقول المولى جل وعلا في محكم التنزيل: ﴿**قال فاخرج منها فإنك رجيم، وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين**﴾ سورة الحجر: ٣٤ ــ ٣٥.

رابعاً: أن هذا الطرد لإبليس من حضرة الله والملائكة، وإتباعه اللعنة إلى يوم الدين ــ واللعنة كما نعلم تعني الطرد من رحمة الله ــ قد تسببت في حقد إبليس (المطرود) على آدم (الإنسان) الذي كان سبباً في هذا الطرد والإبعاد. وعليه جاء توسل إبليس (الذي أدرك أنه غوى) بأن يمهله ربه إلى يوم يبعث العباد، (أن يجعل له الوسيلة عليهم إلا من كان عبداً مخلصا لله خالقه وموجده من العدم ومكرمة. يقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿**قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم، قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين**﴾ سورة الحجر: ٣٦ ــ ٤٠.

خامساً: عند ذلك أمر الله سبحانه وتعالى آدم (الإنسان) أن يسكن وزوجه الجنة، وأن يأكلا منها رغدا حيث يريدان، ثم حذرهما سبحانه وتعالى من أن يكونا من الظالمين وذلك بالابتعاد عن شجرة معينة.. وهنا يأتي أول القيود على حرية الإنسان، فالحرية مقيدة في الإسلام بالعديد من الضوابط كما سنرى فيما بعد. ولله سبحانه وتعالى حكمته البالغة التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، حيث أذن لآدم عليه السلام وزوجه بأن ينعما بكل ما في الجنة إلا هذه الشجرة. يقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿**وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظٰلمين**﴾ سورة البقرة: ٣٥.

سادساً: أن هذا التكريم الإلهي لآدم (الإنسان) وزوجه، والإذن لهما بالتمتع بكل ما خلقه

الله لهم في الجنة، وكذلك طرد الله سبحانه وتعالى لإبليس منها، قد دفع بإبليس للمباشرة في الإغواء الذي مكنه الله منه وأذن له بمزاولته إلى يوم يبعث الله عباده... وهنا يبدأ الصراع بين الخير والشر داخل الإنسان نفسه، وهنا يبدأ الصراع بين الإنسان والشيطان. يقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: **﴿فوسوس لهما الشيطٰن ليبدي لهما ما وري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهٰكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخٰلدين، وقاسمهما إني لكما لمن النٰصحين، فدلهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطٰن لكما عدو مبين، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخٰسرين﴾**. سورة الأعراف: ٢٠ ــ ٢٣.

سابعاً: هنا كان القرار الإلهي بخروج آدم (الإنسان) وزوجه من الجنة وهبوطهما إلى الأرض. لتتحقق إرادته سبحانه في استخلاف الإنسان في الأرض، وذلك في قوله تعالى: **﴿وإذ قال ربك للملٰئكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾** سورة البقرة: ٣٠ وليكفر الله سبحانه وتعالى خطيئة آدم وزوجه ويتوب عليهما ــ وذلك عكس ما ابتدعه اليهود في ديانتهم وورثوه عن الديانات الوثنية في الهند وفارس وجزيرة العرب ووادي النيل وبابل وأرض كنعان، ومنها عقيدة التكفير والتي أورثوها للمسيحيين ودفعوهم للاعتقاد أن صلب المسيح عليه السلام، ما هو إلا تكفير عن خطيئة آدم عليه السلام وزوجه وعدم إذعانهما لأمر الله، ويقول المولى سبحانه وتعالى: **﴿فأزلهما الشيطٰن عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتٰع إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمٰت فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾**. سورة البقرة: ٣٦ – ٣٧ . وليبدأ الصراع الأزلي بين الخير والشر... بين الإنسان وعدوه الشيطان الذي حذره منه الرحمٰن سبحانه وتعالى. بين الإنسان وعدوه وابن جنسه وأخيه الإنسان، يقول المولى جل وعلا في محكم التنزيل: **﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتٰع إلى حين، قال فيها**

تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون، يا بني آدم لا يفتننكم الشيطٰن كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وإذا فعلوا فحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون، قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون، فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ سورة الأعراف: ٢٤ - ٣٠.

ولتحقيق إرادة الله سبحانه وتعالى وأمره حين أمهل إبليس إلى يوم يبعث الله عباده، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿**قال رب فانظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم، قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلاّ عبادك منهم المخلصين، قال هذا صراط على مستقيم، إن عبادي ليسلك عليهم سلطٰن إلا من اتبعك من الغاوين، وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾** سورة الحجر: ٣٦ - ٤٣ .

ثامناً: وتحققت إرادة الله سبحانه وتعالى، وبلغت حكمته التي لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، وهبط آدم وزوجه إلى الأرض، ثم تبعهما إبليس إلى الأرض وكان أول الضحايا على الأرض هما قابيل وهابيل يقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿**واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلنك إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحٰب النار وذلك جزاء الظٰلمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخٰسرين، فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتىٰ أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النٰدمين﴾** سورة المائدة: ٢٧ ــ ٣١.

تاسعاً: وبعد ما تحققت إرادة الله في هبوط آدم وزوجه إلى الأرض، وبدء إبليس بتتبع ذريتهم على هذه الأرض، أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين لبني آدم لكي لا يأخذهم كيد إبليس دون وعي وإدراك منهم. يقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿**يٰبني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آيتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآيتنا واستكبروا عنها أولـئك أصحـٰب النار هم فيها خـٰلدون**﴾ سورة الأعراف ٣٥ ــ ٣٦.

عاشراً: بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى للإنسان على الأرض أن الفيصل بين الحق والباطل هو الكتاب الذي أنزله مع رسله إليهم كمبشرين ومنذرين. يقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جآءتهم البينـٰت بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ سورة البقرة: ٢١٣.

أحد عشر: بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى للناس أن جزاء الذين يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء بغير الحق ويبغون ويتجبرون ولا يأبهون لحدود الله سبحانه وتعالى ويحاربونه ويحاربون رسله، هو القتل أو الصلب أو تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو نفيهم من الأرض ويقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلـٰف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾. سورة المائدة: ٣٣.

.. هكذا يبين لنا القرآن الكريم العلاقة الأزلية بين الإنسان والحرب أو بين الإنسان والشيطان الذي يكون سبباً دافعاً وعاملاً مشعلاً لفتيل الحرب على الأغلب. فالحرب في منظورنا لا تخرج عن أحد التصورات التالية:

١ ــ حرب يشنها الإنسان ضد الشيطان ووساوسه وإغراءاته، وهذه حرب دفاعية مشروعة إذ أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان لعبادته ﴿**ما خلقت الجن والإنس**

إلا ليعبدون﴾ سورة الذاريات: ٥٦ في حين أن الشيطان يسعى جاهدا ليحيد بالإنسان عن ذلك الصراط المستقيم الذي خلق الله الإنسان للسير فيه **﴿يٰبني آدم لا يفتنكم الشيطٰن كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيلة من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾** سورة الأعراف: ٢٧.

٢ ــ حرب يشنها الشيطان ضد الإنسان ليخرجه من نور الحق إلى ظلام الباطل، ومن حزب الله إلى حزب الشيطان، ومن الإيمان إلى الكفر، وهذه حرب عدوانية غير مشروعة تخرج الإنسان عما خلقه الله من أجله.

٣ ــ حرب يشنها الإنسان ضد الإنسان بإغراء وإيحاء من الشيطان، وهذا النوع من الحرب تتعدد أشكالها ودوافعها بتعدد وسائل الشيطان ليحيد بالإنسان عن طريق الحق، فمنها التي تقوم بدوافع عقدية لإخراج إنسان أو جماعة عن دين الحق إلى ما عداه من أديان الكفر والضلال، ومنها التي تقوم لدوافع اقتصادية لسلب مقدرات إنسان أو جماعة قوتهم وممتلكاتهم وأرضهم، ومنها التي تقوم لدوافع سياسية لسلب إنسان أو جماعة إرادتهم وحريتهم.... الخ.

وهي تلتقي في النهاية مع النوع الثاني والتي قلنا يشنها الشيطان ضد الإنسان، حيث إن الشيطان هو العامل المشترك في كلا النوعين وتحت هذا النوع من الحروب يدخل أغلب الصراعات والحروب التي عرفتها البشرية منذ أن هبط آدم عليه السلام وزوجه إلى الأرض، فقتال قابيل وهابيل ليس إلا بداية لها، وقتال جند الشيطان لكل رسول والمؤمنين به من جند الله، وحروب الأقوياء لسلب قوت وعيش وإرادة الضعفاء في كل زمان ومكان، ليست إلا أشكالاً وواجهات متعددة لهذا النوع من الحرب التي هي عدوانية غير مشروعة.

٤ ــ حرب يشنها الإنسان ضد الإنسان بأمر من الله سبحانه وتعالى، إما لإعلاء كلمة الله لقوله تعالى: **﴿وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين﴾** سورة البقرة: ١٩٣، وقوله تعالى: **﴿وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾**. سورة الأنفال: ٣٩.

وإما للتمكين من أحكام الله وإقامة حدوده بالقسط وتثبيت ميزان العدالة لقوله تعالى: **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينٰت وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنٰفع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾** سورة الحديد: ٢٥. وإما لنصرة المستضعفين وإنقاذهم لقوله تعالى **﴿وما لكم لا تقٰتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾** سورة النساء: ٧٥. وإما لردع الباغين الخارجين على الجماعة لقوله تعالى **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقٰتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾** سورة الحجرات ٩. وأي من تلك كان دافع هذه الحرب فهي حرب دفاعية مشروعة... دفاعية لأنها دفاع عن سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً، ودفاع عن شريعته التي ارتضاها لعباده، ودفاع عن إنسانية الإنسان الذي خلقه الله سبحانه وتعالى أساساً لعبادته.. ومشروعه لأن الله أمر بها عباده وشرعها لهم وهو خالقهم وموجدهم من العدم لعبادته وتحطيم كل ما يعبد سواه سبحانه وتعالى.

أهـداف الحرب ووسائلها

وجدت الحرب كما بينا منذ أن خرج إبليس عن أمر ربه حين أبى واستكبر من أن يكون من الساجدين، وحين حقد على الإنسان الذي كان السبب في غضب الله عليه وطرده من حضرة الله والملائكة وإتباعه اللعنة. وستبقى إلى يوم القيامة لأن إبليس كما وضحت لنا الآياتُ القرآنية الكريمة قد طلب من ربه المهلة إلى يوم يبعث الله عباده، وقد أعطاه الله سبحانه وتعالى المهلة كما أعطاه الوسيلة والقدرة على إغواء الإنسان إلا عباد الله المخلصين فليس له سبيل عليهم.

إذن تبقى الحرب ــ بما تحمله من آلام ومآسي ــ ما بقي الإنسان وإبليس في الدنيا أي إلى يوم يبعث الله عباده، وهي فترة الإبتلاء والاختبار لبني آدم على الأرض التي استخلفهم الله سبحانه وتعالى فيها. وعليه فهي أزلية ما دامت الحياة الدنيا مرتبطة بوجود الإنسان وإبليس، ولتكون أداة للتعبير عن:

- تضجر الباطل من باطل مثله، حيث يلتقيان على أرضية الباطل الذي يسعى الشيطان وقبيله لكي يهيمن، ويفترقان في النظرة الدنيوية المادية للأشياء. وبذلك يكون السبب في انفجار الصراع والحرب فيما بين المعسكرين:
- ضيق الباطل من الحق، حيث يختلف المعسكران بطبيعة الحال على كل شيء، فيسعى معسكر الباطل إلى فرض هيمنته على معسكر الحق عن طريق تفجير الصراع الموجود أساساً وإشعال الحرب. وتلك هي الحالة التي يكون فيها معسكر الحق ضعيفاً في العدد والعدة ولا قبل له بفرض الهيمنة على معسكر الباطل... وهي حرب عدوانية لا مشروعية لها في ظل رسالات السماء جميعها.

ــ ضيق الحق من الباطل، حيث يختلف المعسكران كما قلنا، فيسعى معسكر الحق إلى فرض إرادة ودين الله على معسكر الباطل عن طريق الدعوة والنصح والإرشاد. وحين يوصد معسكر الباطل الأبواب والأذان دون ذلك، فلا مجال والحال هكذا أمام معسكر الحق إلا أن يشن الحرب التي أمر الله بها في جميع كتبه السماوية، والهادفة إلى إعلاء كلمة الله ونشر العدل والسلام.

وحيث إنها أداة للتعبير عن ضيق فرد بآخر أو فئة بأخرى أو مجتمع بآخر أو دولة بأخرى أو مجموعة دول بمجموعة أخرى، فهي مرتبطة بوجود الأهداف ـــ الهدف من الحرب، إذ ليس هناك من يشن الحرب لمجرد الرغبة في القتل والتدمير دون أن يسعى بذلك القتل والتدمير إلى تحقيق هدف أو مجموعة أهداف معينة.. وحتى تلك العصابات اليهودية التي دخلت أريحا وأخواتها بقيادة يوشع بن نون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد والتي قتلت كل ذي روح ونفس في مدن وقرى كنعان كما تنص التوراة التي وضعها اليهود شريعة لأنفسهم، فقد جاء في الإصحاح السادس من سفر يشوع (وحرموا ـــ أي قتلوا وأهلكوا ـــ كل ما في المدينة ـــ أي أريحا ـــ من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد فجعلوها في خزانة بيت الرب..)، وجاء في الاصحاح العاشر من السفر نفسه سيء الذكر (وأخذ يوشع مقيّدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرّم ـــ قتل ـــ ملكها وكل نفس بها، لم يبق شاردا، وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا، ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل ـــ العصابات اليهودية ـــ معه إلى لبنة وحارب لبنة، فدفعها الرب هي أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها، لم يبق شارداً وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا، ثم اجتاز يوشع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلبنة، ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وضربوها بحد السيف وحرّم كل نفس بها في ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلخيش ثم صعد إلى حبرون ـــ الخليل ـــ وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها، لم يبق شاردا حسب كل ما فعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها، وضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها، لم يبق شاردا بل حرّم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل، فضربهم يوشع من قادش برنيع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جبعون..).. وحتى تلك العصابات اليهودية التي دخلت دير ياسين وأخواتها بقيادة زعماء الإرهاب اليهود مثل ابن جوريون ودايان وبيجن وشامير وبيريز وشارون في غزواتهم المعاصرة لفلسطين تلك العصابات التي لم تميز بين المحاربين وغير المحاربين أو بين القادرين وغير القادرين.. وحتى المجرمين الذين تعلموا في مدرسة التوراة والتلمود أو الذين تلقوا تعاليم التوراة والتلمود من غير اليهود ومادبروه وقادوه من حروب عدوانية إجرامية كالحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية

والحرب التي يدبرونها ويديرونها في الخفاء بين دول العالم الثالث اليوم.. أقول كلها حروب وأعمال إجرامية لم تقم ولم تتم إلا لتحقيق أهداف معينة، وإن كانت شريرة كتعاليم التوراة والتلمود.

إذن الحرب ترتبط بالهدف أو مجموعة الأهداف، وهذه الأهداف هي التي تحدد هوية الحرب: إما حرب عادلة حيث عدالة الأهداف وموضوعيتها، وإما حرب غير عادلة حيث انحراف الأهداف وانبثاقها من عقيدة إجرامية منحرفة ضالة، وهذا يقودنا لربط أهداف الحرب بالعقيدة التي تسود المجتمع المحارب كما سنرى فيما بعد. وعليه فإن هناك العديد من الحروب التي أشعلت أوزارها دول أو جماعات أو طبقات ظالمة جانحة من أجل تحقيق أهداف مادية وشيطانية منحرفة كالنهب والسلب والاضطهاد والاستعمار والاستغلال وفرض الهيمنة وإرادة الشيطان. كما أن هناك العديد من الحروب التي أشعلت أوارها دول أو جماعات أو طبقات أمينة نزيهة من أجل تحقيق أهداف سامية كإعلاء كلمة الله والتحكيم لأحكامه وإقامة حدوده وتثبيت ميزان القسط والعدالة الذي وضعه سبحانه وتعالى لعباده وردع الباغين من البشر بصرف النظر عن عقيدتهم، وإنقاذ المستضعفين وحماية كرامة الإنسان وإنسانيته وماله وعرضه ودمه، إذن يصعب تحديد أهداف الحرب أو الحروب، ولكنها إجمالا لا تعدو كونها أهدافاً عادلة أو غير عادلة، وعدالة الأهداف أو غير عدالتها تحدد بالتالي وكما قلنا عدالة الحرب أو غير عدالتها.

يعرّف الجنرال «كارل جون كلاوز فيتز» الحرب بقوله: «عمل من أعمال العنف، يستهدف إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا.. أو هي بتعبير آخر... التجاء مجتمع إلى القوة المسلحة لكي يكسر إرادة مجتمع آخر ويفرض عليه مشيئته كاملة... أو هي بتعبير آخر... استمرار للسياسة بوسائل عنيفة هي السلاح».

ويعرّفها «ماوتسي تونغ» بقوله «الحرب هي أعلى أشكال الصراع لحل التناقضات بين الطبقات أو الأمم أو الدول أو المجموعات السياسية، عندما تتطور تلك التناقضات إلى مرحلة معينة، وقد وجدت هذه الظاهرة منذ بزوغ الملكية الفردية وتكون الطبقات.

ويعرفها «هنري كيسنجر » بقوله «الحرب عمل سياسي شامل يلجأ لى القوة المسلحة في مرحلة من مراحله لتحقيق هدف معين لا يستدعي بالضرورة كسر إرادة الخصم أو فرض مشيئة المنتصر عليه كاملة».

إذن هي عند منظري النظم الوضعية من عسكريين وسياسيين، رأسماليين كانوا أم شيوعيين، مرتبطة بالسياسة، والسياسة كما نعلم مرتبطة بالاقتصاد عند أصحاب الفلسفتين الماديتين: الرأسمالية والشيوعية... وعليه فإنها نوع من العلاقات الدولية ونمط من أنماطها، التي يلجأ فيها المجتمع إلى القوة المسلحة في تعامله ـــ علاقاته ـــ مع مجتمع آخر.

أما في ظل الإسلام فهي مرتبطة بالعقيدة وحدها. إذ لا تشن الحرب لأسباب ودوافع سياسية أو اقتصادية. ولعل هذا الاختلاف من أهم وأعظم الاختلافات والفروق بين الحرب عند المسلمين وعند من سواهم ممن يعيشون في ظل عقائد الانحراف والظلال... وسوف نأتي لتفنيد ذلك في موضعه إن شاء الله.

إذن وبصورة مجملة وعلى ضوء التعريفات السابقة ندرك أن الحرب قديما وحديثا واحدة لا تتبدل في الجوهر والمضمون، وإنما تتبدل في الأهداف والوسائل.. وأن الوسائل هي التي تبدلت من حرب لأخرى ومن عصر لآخر، لتكون انعكاساً للمدى الذي توصل إليه الفكر البشري من النضج والعلوم والتقدم، وسوف نفرد حديثاً خاصاً بالعلم والحرب والأثر المتبادل فيما بينهما.

ابتدأ الإنسان في استخدام فكره وغرائزه في تصميم وسائل الحرب البدائية التي كان يحتاجها في حربه مع أخيه الإنسان ـــ إما للاعتداء وإما للحماية، وما يحتاجه لحماية نفسه من الوحوش المفترسة من حوله.. فكانت الأسلحة (الوسائل) البدائية والمأخوذة من البيئة المحيطة كالأحجار وغصون الأشجار، هي وسائل الإنسان البدائي في حربه الدفاعية والهجومية. ثم اهتدى بفطرته إلى الحديد الذي أنزله الله سبحانه وتعالى وجعل فيه للناس منافع وجعل فيه بأسا شديدا، يقول وقوله الحق ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينٰت وأنزلنا معهم الكتٰب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنٰفع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز**﴾ سورة الحديد: ٢٥.

ومن ذلك الحديد ابتكر الإنسان وصمم العديد من وسائل الحرب التي سادت قروناً عديدة كالرماح والنبال والسيوف، وللاحتماء من رماح الأعداء ونبالهم وسيوفهم ابتكر الدروع. وقد استمر استخدام الإنسان لهذه الوسائل قروناً عديدة، وكان تكتيك الأسلحة (تمرينات الأسلحة) مقتصراً على إجادة حركات الطعن بالرماح والخناجر ورمي السهام والضرب بالسيف أو كيفية استخدام الدرع لتلافيها. استمرت هذه الوسائل التقليدية قروناً

عديدة إلى أن تم اكتشاف البندقية في القرن السابع عشر ثم شاع استخدامها في القرن الثامن عشر، وأصبح تكتيك الأسلحة (تمرينات استخدام الأسلحة) يعني اتقان أساليب حمل البندقية وأوضاع الرماية بها وتعميرها بالذخيرة وطرق التسديد والإطلاق وهكذا. وكانت الخيول والجمال والبغال والحمير هي وسائل المناورة والنقل والتموين لقرون عديدة، ثم كانت العربات التي تجرها الخيول والبغال لنقل المؤن والتموين والذخائر، واستمرت تلك الحيوانات وعرباتها هي وسائل الحركة في المعارك إلى أن تم للإنسان صنع العربات والدبابات والطائرات التي قلبت تكتيكات المعارك واستراتيجيات الحروب رأسا على عقب، حيث أصبحت المعارك أكثر ضراوة والحروب أكثر شراسة وسفكا لدماء الإنسانية في ساحات المعارك وبعيدا عنها حيث لم تعد القذائف التي تقذفها الدبابات والمدفعية البعيدة المدى والطائرات، تميز بين المحارب والمسالم أو بين الصغير والكبير.

واستمرت هذه الأسلحة هي سيدة المعارك والحروب المعاصرة، واستمر الإنسان يدعم القدرات التدميرية للمدفع والدبابة والطائرة، وتنوعت الذخائر وزادت قدرتها التدميرية ودقة إصابتها للقدرات التقنية التي سخرها لها الإنسان... وهذا ما يقودنا إلى الحديث عن العلم والحرب الذي سنفرد له موضوعا مستقلا.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، ظهرت وسيلة فتاكة من وسائل الحرب التي ابتكرها الإنسان، تلك هي القنبلة الذرية التي ألقتها الولايات المتحدة الأمريكية على مدينتي هيروشيما ونجازاكي اليابانيتين في يومي السادس والتاسع من شهر أغسطس من عام ١٩٤٥ على التوالي، لتحسم بهما الصراع لصالحها حيث أعلنت الإمبراطورية اليابانية استسلامها على إثر ذلك الهجوم النووي الأمريكي في حين كانت قواتها البحرية والجوية تقاتل على سواحل أمريكا، حيث ظنت أن لدى الولايات المتحدة الأمريكية مزيداً من هذه الأسلحة ذات التدمير الشامل.

وبعد الحرب العالمية الثانية وانقسام حلفاء هذه الحرب إلى معسكرين متناحرين هما: أمريكا ودول أوروبا الغربية والتي يجمعها حلف شمال الأطلسي، وروسيا ودول أوروبا الشرقية والتي يجمعها حلف وارسو، شهدت وسائل الصراع والحرب تطوراً مذهلاً لما تشهده الحقبة التاريخية المعاصرة من تسابق في التسلح وتطور في العلوم الطبيعية التي سخرها الإنسان لصنع وسائل الحرب وتطويرها، حتى أصبح المخزون النووي لدى

المعسكرين يكفي لتدمير العالم مئات إن لم يكن آلاف المرات.. وقد دفع هذا التسابق النووي المحموم بين المعسكرين بالعديد من الدول إلى السعي إلى امتلاك القدرات النووية لكي تجد مكانها بين الأمم إلا الدول الإسلامية التي كان الأحرى بها أن تكون السباقة إلى هذا المضمار امتثالا لقوله تعالى **﴿واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾** سورة الأنفال: ٦٠.

وبعد الحرب العالمية الثانية وظهور الأسلحة النووية أصبحت وسائل الحرب أكثر تعقيدا ودمارا، وأصبحت الحروب بالتالي أكثر تعقيداً ودماراً وكلفة. وانعكس هذا بدوره على الاستراتيجيات الدفاعية (العسكرية) للدول، فأصبح هناك استراتيجية للتسلح، وأصبح هناك استراتيجية للردع النووي، وأصبح هناك استراتيجية الحرب المحدودة، وأصبح هناك استراتيجية الحرب الشاملة، وهكذا.. وهي كلها تدور في فلك الاستراتيجية العليا للدولة أو مجموعة الدول (التحالف) كما سنرى عند حديثنا عن الاستراتيجية. وبعد الحرب العالمية الثانية وظهور الأسلحة النووية كوسيلة من وسائل التدمير الشامل في الحروب المعاصرة، حلت استراتيجية الحرب المحدودة التي تستهدف تبديل قناعات الخصم وإلحاق الهزيمة به معنويا بدلا من الانتصار عليه عسكرياً وتدميره مادياً، محل استراتيجية الحرب التقليدية التي كانت سائدة حتى الحرب العالمية الثانية. ذلك أن تجاوز إطار الحرب المحدودة في ظل التهديد النووي وما تمتلكه الدول النووية من مخزون نووي يعد عملاً جنونياً قد يدفع بالمتحاربين نحو الانتحار المتبادل.

خلاصة القول إن وسائل الحرب هي العامل الديناميكي المتبدل من حرب لأخرى، ومن عصر لآخر كما إنها هي التي جعلت الحروب أكثر شمولا وأشد تدميرا وخصوصا بعد ابتكار الأسلحة النووية وما تلاه من تطور للتقنية النووية، إلى الحد الذي جعل وسائل الحرب الحديثة تلك سببا في تحول ميادين الصراع بين القوتين العظميين إلى ميادين دول العالم الثالث ـــ أي حروب بالوكالة، تقوم بها الدول الفقيرة والصغيرة والدائرة في فلك الدول العظمى نيابة عن هذه الدول العظمى نتيجة لاستحالة الصراع المسلح بين هاتين القوتين لما تمتلكه تلك القوى من أسلحة الدمار الشامل (الأسلحة النووية) التي ستجعل أي حرب مباشرة فيما بينهما تعني نهاية كل منهما وانتحاره.

إن تطور وسائل الحرب مرتبط بتطور العلوم الطبيعية والفكر بصفة عامة، ولهذا سوف نفرد الموضوع الثاني للحديث عن العلم والحرب.

العلـم والحـرب

تحدثنا في الموضع السابق عن وسائل الحرب، وعرفنا أن الإنسان تمكن من تطويرها جيلا بعد جيل، وعبر القرون العديدة التي عاشها على الأرض، من العصي والحجارة والهراوات والنبال إلى القنابل الفراغية والذكية الموجهة والذرية والنيوترونية كما عرفنا أن العلم والتطور الذي شهدته العلوم الطبيعية كان وراء هذا التطور المذهل في وسائل الحرب وقدرتها التدميرية. ولكن العلم لا يعني صنع الوسائل فقط، وإنما يعني: ابتكار وتصميم وصنع واستخدام تلك الوسائل... أي أن العلم وراء تطور وقدرة الإنسان على إيجاد الوسائل واستخدامها.

إذن الإنسان هو محور الارتكاز في العملية أو العمليات العسكرية حتى بعد أن تطورت الوسائل الحربية وأصبح بمقدور الجندي أن يدمر مدينة كاملة وهو لا يراها حيث يقبع في غرفة أو عربة تبعد مئات وربما آلاف الأميال عن تلك المدينة التي يدمرها بزر يكبسه.. فالإنسان هو الإنسان إلا أن العلم وحده هو القادر على الانتقال به من دور إلى دور أكثر نضجا ووعيا وتقدما فكريا.

يقول «العقيد ميكشة» أحد أساتذة فن الحرب في كلية الحرب البرتغالية العليا، وأحد النقاد العسكريين المشهورين في العالم[1]: «يبدو أنهم لم يفهموا حتى الآن أن التقنية ليست هدفا في حد ذاتها، بل إنها وسيلة لتحقيق غرض من الأغراض. فهم يحاولون أن يردوا على القنابل ذات الطاقات التدميرية الكبيرة بقنابل أخرى أكثر طاقة منها، وعلى الطائرات السريعة أسرع، وعلى الصواريخ الموجهة بأخرى قادرة على اعتراضها أو سبقها بمئات الكيلو مترات. وهم ينسون أن «الإنسان هو معيار كل شيء». وقد غاب عن أذهانهم أن معظم الحروب تنفجر مستقلة عن التقنية، وبالتالي فإنهم لا يستطيعون حل كل المعضلات بالوسائل التقنية الحديثة فقط» إن ميكشة في نقده هذا للأوضاع الدفاعية

(١) أكرم ديري. آراء في الحرب، الطبعة الثانية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨١)، ص ٦٤.

المعاصرة، لم يحاول الحط من قيمة الإنجازات التقنية المعاصرة، ولكنه ينبه إلى أن اعتماد الجيوش على التقنية سوف يخلق جنودا هم أقل مستوى من المقاتل الحقيقي، ويوضح قوله ذلك بتساؤله: ماذا ستكون النتيجة حين يقتحم جندي بحربته غرفة عمليات يقبع فيها الجنرالات وراء أزرتهم؟ لقد أسهم العلم في تطور وسائل الحرب، حيث سخره الإنسان وبإغراء من الشيطان لخدمة أهدافه وتطلعاته وسعيه لكسر إرادة الخصم، يقول المقدم بسام العسلي «في كتابه الحرب والحضارة»[٢]: الحرب هي ميدان الحوار للإرادات المتصارعة، ومن خلال هذا الحوار يظهر الإبداع في حل المشكلات المعقدة والقضايا الصعبة التي تبرز فوق مسرح الأعمال القتالية، وتبرز تلك المشكلات والقضايا بصورة مباغتة أحيانا وبصورة متوقعة في أحيان أخرى: ويكلف العقل المبدع للإنسان ببحث الحلول الممكنة من خلال الإمكانات المتوفرة أو المتاحة، وفي مناسبات كثيرة يتجاوز ما هو متوفر لإيجاد ما هو أفضل من الوسائط والإمكانات، ولكن هذه المبتكرات الجديدة كثيرا ما تدفع الطرف الآخر لإيجاد الوسائط المضادة أو الوقائية وتتسع آفاق البحث بصورة مذهلة عبر حوار الإرادات، كل جديد يستثير العقل ويحفزه إلى إبداع ما هو أكثر جدة وأكثر تقدما وتطورا. ونظرا لما تتميز به الحرب من إطلاق الفاعليات العقلية حتى حدودها القصوى، فإن الحروب تبقى أبداً أقوى الحوافز لتطوير العلوم في كل المجالات، ويبقى (الهدف «هو» وقاية الإنسان» وضمان تفوقه حتى يستطيع فرض إرادته على خصمه، ويتمثل هذا الخصم أحيانا بقوى الطبيعة، وأحياناً بقوى العدو ــ أو الأعداء المحتملين ــ وفي أحيان بقوى الطبيعة وقوى العدو. ويأتي «العلم» ليضع حلولا لكل الصعوبات أو بعضها. وهكذا يستمر التفاعل، ويتعاظم التلاحم بين العلم والحرب، ويبقى دور «العلم» متقدماً، إذ أنه يسبق الحرب ويرافقها ويتابع نتائجها، وهذا هو سبب مجموعة التطورات التي تظهر بصورة متسارعة في مجموعة العلوم «الرياضية، والفيزيائية، والاجتماعية والديمرغرافية... إلخ»).

من مقولتي «ميكشة» و «بسام العسلي» والعديد من الآراء المشابهة والتي تمتلىء بها صفحات المراجع العسكرية، ندرك أن الفكر العسكري المعاصر لا يرى للعلم دورا في

---

(٢) المقدم بسام العسلي: الحرب والحضارة، الطبعة الأولى بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م)، ص٥١.

الحروب إلا من خلال ما يقدمه من وسائل للصراع والحرب وما يجب أن يقدمه لـلإنسان المحارب ليكون أكثر مهارة في تخصصه، وأكثر احترافا لجنديتـه كمـا يـرى ميـكشة فـي مقالته التي نوهنا إليها آنفا.

نعم لقد أسهم العلم في تطوير آلة الحرب (وسائلها) منذ ما قبل أرخميدس الـذي يـرى العسلي أنه البداية، وأصبحت الحروب من أقـوى الحوافـز لتطويـر العلـوم وبالـذات العلـوم الطبيعية.. ولكن الهدف لم يكن وقاية الإنسان كما يـتصور العسلـي، وإنمـا كـان الهـدف إشباع الغرائز الإنسانية المتوحشة في ظـل النظـم الوضعيـة التـي صاغت الفكـر العسكـري المعاصر.

نعم لقد أسهم العلم في اكتشافه البارود وفي تحويل قذائف الحجارة إلى قذائف بـارود ومتفجرات، وفي تحويل وسائل قذف الحجارة إلى بنادق ومدافع يزداد دمار قذائفها يومـاً بعـد آخـر، وفـي تحويـل الـدرع إلـى دروع متحركـة تحمـل الجنـود والمـؤن والمدافـع والصواريخ، وفي تحويل النبال إلـى صواريـخ مـن مختلـف الأنـواع والمسافـات والأعيـرة والمهام، وفي ابتكار الطيران وتحويله إلى آلات تحمل الدمار، وفي ابتكار الأسلحة النووية وجعلها كابوساً يؤرق البشرية حين تفكر به ناهيك عن نتائجه حين تبتلى بـه، وفـي ابتكـار الحاسبات الألكترونية وتسخيرها لخدمة وسائل الحرب التدميرية الشاملة.

نعم لقدم أسهم العلم في تحويل الحرب إلى حرب أزرة مريحة لا يتقابل فيها الخصمان في ميدان حقيقي للقتال، ولكنها حرب مؤلمة في نتائجهـا علـى المـدى القصيـر والطويـل معا... ثم ماذا؟ ماذا بعد ربط العلم وتسخيره لتطوير وسائل الحرب ؟ ماذا كان يحدث لـو أن ذلك العلم سخر لخدمة البشرية وحمايتها وتطوير وسائل عيشها وحمايتهـا مـن الجـوع والمرض والكوارث؟ ماذا كان يحـدث لـو سخـرت القـدرات النوويـة لمـا يضمـن توفيـر القوت والعلاج للأمم والشعوب التي يفتك بهـا الجـوع والمـرض؟ مـاذا كـان يحـدث لـو سخر البارود وغيره من المتفجرات القديمة والحديثة لشق الطرق والقنوات وتفجير العيون والأنهار في الأرض التي سخر الله سبحانه وتعالى كل ما عليها لخدمة الإنسان؟ مـاذا كـان يحدث لو سخرت الحاسبات الآلية للأغراض العديدة التي ترتقي البشرية عن طريقهـا إلـى قمم الرفاة والرقي والتقدم، بدلاً من تسخيرها للأغراض التي تغوص بهـا وعـن طريقهـا فـي ظلمات الجهل والفقر والمرض؟

إن العلم نعمة من نعم الله العديدة على الإنسان، كان الأجدر بهذا الإنسان أن يسمو بها

ويسخرها لما فيه خيره ورفاهه وتقدمه، وأن يجعل من الحرب ـــ التي هي أزلية كما بينا إلى يوم يبعث الله عباده ـــ أسيرة للعلم، سائرة في ركابه، وضمن ما يرسمه لها من طرق وقوانين... أي استخدام العلم لتقنية الحرب.

ولكن النظم الوضعية التي وضعها أعداء الله ورسله، الوثنيون، قتلة الأنبياء! كيداً من عند أنفسهم لرسالات السماء والمؤمنين بها، تلك النظم التي ارتضتها البشرية في عصور الجاهلية والانحطاط، أبت إلا أن تسخر العلم للحرب وتجعله أسيراً لها وسائراً في ركابها، فكانت النتائج المؤلمة التي شهدتها البشرية، وخصوصاً في عصر التقدم العلمي الهائل الذي شهده القرن الحالي، الذي يمثل قمة الجاهلية والانحطاط، وإن كان يمثل قمة التقدم العلمي وتطور العلوم الطبيعية.

الحــرب والعقيــدة

حين تحدثنا عن أهداف الحروب ووسائلهـا، تعرفنـا علـى ارتبـاط الحـرب بالأهـداف، حيث قلنا إن الهدف أو الأهداف التي يسعى مجتمع أو طائفـة أو دولـة إلـى تحقيقهـا هـي التي تحدد هوية الحرب: إمـا حـرب عادلـة، لعدالـة الهـدف أو الأهـداف التـي ترمـي إلـى تحقيقها، وإما حرب غير عادلة لعدم عدالة الهدف أو الأهداف التي ترمي إلى تحقيقها. ثم قلنا إن الأهداف (عادلة أو غير عادلة) إنما تنبع من العقيدة التي تدفع بهذا المجتمـع أو ذاك للحرب سعياً لتحقيق الأهداف.. إذن هناك ارتباط بين الحرب والعقيدة.

العقيدة كما نعلم هي [٣]: ما عقد عليه القلب والضمير، وما تديّن به الإنسان واعتقـده. أو هي بصياغة أخرى ما يؤمن به الإنسان من أفكار ومبـادىء يكتسبهـا بالتعلـم والاقتنـاع. والعقائد تصنف إجمالاً إلى عقائد حق ووحدانية، وهي تلك المنبثقة من رسالات السمـاء. وعقائد ضلال ووثنية، وهي تلك المحرفة عن رسالات السماء ومـا بنـي عليهـا مـن عقائـد ونظم وضعية ضالة.

لقد أنزل الله سبحانه وتعالـى التـوراة علـى مـوسى عليـه السلام لتكـون عقيـدة وهـدى وشريعة لبني إسرائيل، وفيها بين الله لهم ماهية الحرب التي يجب أن يخوضهـا، والأسبـاب الدافعة لمثل هذه الحرب التي يأمر الله سبحانه وتعالى بها عباده في كل زمان ومكان. عـن ذلك يخبرنا الله سبحانه وتعالى فـي القـرآن الكريـم بقولـه: **﴿ألـم تـر إلـى المـلأ مـن بنـي إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابـعث لنـا ملكـاً نقٰتـل فـي سبيـل الله قـال هـل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنـا من ديٰرنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظٰلمين، وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحـن أحـق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله أصطفٰه عليكـم وزاده بسطـة فـي العلم**

---

(٣) الرائد محمد مهنا العلي: الإدارة ودورها في تحديد معالم المستقبل، الطبعة الأولى (جدة: الـدار السعودية للنشر والتوزيع ١٩٨٧) ص، ١٤٥.

والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هٰرون تحمله الملٰئكة، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيدة فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملٰقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصٰبرين، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكٰفرين، فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت وآتٰه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العٰلمين، تلك آيٰت الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ سورة البقرة: ٢٤٦ ــ ٢٥٢.

ثم أنزل الله الإنجيل على عيسى بن مريم عليهما السلام ليقوم بها ما اعوّج من سلوك بني إسرائيل وليعيدهم إلى شريعة الله لهم في التوراة.. أي أن الإنجيل ليس إلا استمراراً لشريعة التوراة. جاء في الإصحاح السادس من إنجيل لوقا ــ المحرف طبعاً ــ ما نصه: «لكني أقول لكم أيها السامعون أحبوا أعداءكم أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضاً، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضاً، وكل من سألك فاعطه، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه».
وجاء في الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متى ــ المحرف طبعاً ــ ما نصه: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا في أيام آبائنا لما شاركناهم في دم الأنبياء، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم قتلة الأنبياء، فاملأوا أنتم مكيال آبائكم، أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم، لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينة إلى مدينة، لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح».. ولكنهم لم يستقيموا ولم ينتهوا ولم يتناهوا عن منكر فعلوه كما سنرى بعد قليل.

ثم أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن، خاتم الرسالات السماوية، على محمد صلى الله

عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين، ليكون هدى وشريعة وطريق حق لا عوج فيه للبشرية جمعاء، ما تبقى لها من حياة على هذه الأرض.. أي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وقد بين الله سبحانه وتعالى لعباده المخلصين ماهية الحرب التي يجب أن يخوضها، والأسباب الدافعة لهذه الحرب، وهي نفس الأسباب التي أقر سبحانه وتعالى اليهود بالقتال من أجلها في التوراة التي أنزلها سبحانه على موسى عليه السلام، تلك الحرب التي تتلخص هويتها في كونها: في سبيل الله. عن ذلك يخبرنا المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل بقوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحيٰوة الدنيا من الأخرة فما متٰع الحيٰوة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير، إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصٰحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم، انفروا خفافا وثقالا وجٰهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكٰذبون، عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبيّن لك الذين صدقوا وتعلم الكٰذبين، لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجٰهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين، إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون**﴾ سورة التوبة ٣٨ ـــ ٤٥.

.. إذن هناك حرب واحدة تدعو إليها شرائع السماء وكتب الله المنزلة على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، تلك الحرب التي لا تسعى إلا لإعلاء كلمة الله ونشر دينه الحق وكبح جماح البغي وردع العدوان إذ لا عدوان إلا على الظالمين، وتلك هي الحرب العادلة والتي تستمد عدالتها من عدالة العقيدة التي تنبثق منها ـــ عقيدة التوحيد الخالدة، وتلك هي الحرب التي لا نهاية لها إلا بنهاية الوثنية والجاهلية وسيادة ما ارتضاه الله طريقا لعباده ـــ الإسلام، وتلك هي الحرب التي لا يتطلع فيها القاتل (المجاهد) إلى مغنم أو إلى سؤدد أو إلى مجد وإنما يتطلع إلى النصر أو الشهادة، وتلك هي الحرب التي لا يسمى فيها المؤمن قتيلا وإنما يدعى شهيدا لقوله تعالى ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ سورة آل عمران: ١٦٩.

هذا عن الحرب المرتبطة والنابعة من عقيدة التوحيد ــ عقيدة الرسالات السماوية الواحدة في نهجها وهدفها.

فماذا عن الحرب المرتبطة والنابعة من عقائد الوثنية والزيغ والضلال ؟

المعروف أن اليهود مسخ وأراذل، وقد حرفوا شريعة التوراة لتتناسب مع أهوائهم وإرادتهم لا مع إرادة مُنزل التوراة سبحانه وتعالى على عبده ورسوله موسى عليه السلام، ثم امتدت أيديهم الآثمة إلى الإنجيل من التوراة وصاغوه بما يتلاءم مع طباعهم وما يتناسب مع أهوائهم. يقول المولى سبحانه وتعالى عنهم وعن أعمالهم تلك، في محكم التنزيل وقوله الحق: ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلٰم الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون، أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ومنهم أميون لا يعلمون الكتٰب إلا أماني وإن هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾ سورة البقرة: ٧٥ ــ ٧٩.

وعن هؤلاء الأراذل وأوليائهم من جند الشيطان ظهرت العقائد التوراتية والتلمودية التي ابتليت بها الأمم والشعوب قديماً وحديثاً، تلك العقائد وما انبثق عنها من نظم وضعية، إنما تنظر إلى الحرب بمنطق التوراة التي علمنا من قبل أنها دعوة للحرق والقتل والتدمير، (وأحرقوا المدينة ــ أريحا ــ بالنار مع كل ما بها، إنما الذهب والفضة وآنية النحاس والحديد اجعلوها في خزانة بيت الحرب..) الإصحاح السادس من سفر يشوع، (ولما رأى يشوع جميع إسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة وأن دخان المدينة ــ عاي ــ قد صعد انثنوا واضربوا رجال عاي..) وتنظر إلى الحرب بمنطق الغاية تبرر الوسيلة التي هي فلسفة يهودية تلمودية منذ القدم، فالتلمود ــ الذي تستند إليه العقائد والنظم الوضعية التي ابتكرها اليهود ــ هو الذي يقول لليهود إن الأمميين لم يخلقوا على هيئة البشر إلا لخدمة اليهود الذين هم وحدهم البشر الحقيقيون، وهو الذي يقول لليهود وإن لكم الحق في أن تسرقوا الأمميين وتسفكوا دماءهم وتنتهكوا أعراضهم وتسلبوا كرامتهم وأقواتهم، لأن العبد وما ملك لسيده والأمميين ليسوا إلا عبيداً لليهود.

لهذا نجد أن الحروب التي أسعرتها تلك النظم الوضعية المعاصرة، وتلك التي تسعرها

كل يوم وفي كل بقعة منكوبة بنفوذهم، ليست إلا حروباً عدوانية غير عادلة، ولا تسعى إلا لتحقيق أهداف دنيوية مادية قذرة.. وهي لا تستند في عدوانيتها تلك وقذارة ما تشعله من حروب إلا لعقيدة التوراة والتلمود الضالة.

.. إذن من طابع الحرب وأساليب قادتها وجنودها في التعامل مع الخصم، تكاد تتعرف ومباشرة على العقيدة التي يعتنقها هؤلاء الجند والقادة. فالتوارة المحرفة كما تعلم من النصوص التي أوردناها ليست إلا دعوة للقتل والحرق والدمار دون التمييز بين المحارب والمسالم أو القادر والعاجز، ودون التمييز بين هدف حيوي للحرب وبين مرفق اقتصادي ليس له أي دور في الحرب أو مرفق إنساني لا دور له في الحرب لا من قريب ولا من بعيد كالمستشفيات ودور الأيتام والعجزة والمدارس. وهكذا النظم الوضعية المعاصرة (الرأسمالية والشيوعية) التي هي مستمدة من توراة اليهود. في حين أن القرآن الكريم دعوة للسلام والطمأنينة، لا يرى الحرب إلا ضرورة كقوله تعالى: **﴿وقٰتلوا في سبيل الله الذين يقٰتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقٰتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقٰتلوكم فيه فإن قٰتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكٰفرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين﴾** سورة البقرة: ١٩٠ ــ ١٩٣.

والعقائد والنظم الوضعية هي كما نعلم مادية النهج دنيوية الأهداف، تنتهي حروبها حين تتحقق تلك الأهداف ثم تستعر من جديد لبروز أهداف دنيوية مادية أخرى.. أي أن الحرب قاعدة والسلام استثناء.

أما عقيدة التوحيد فهي كما نعلم ربانية النهج دينية الأهداف، لا تنتهي حروبها إلا بعلو كلمة الله التي يجاهد في سبيل إعلائها المسلم بنفسه وماله. وحين تعلو كلمة الله وينتشر الإسلام في الأرض فإنه ينشر السلام معه، فالسلام هو الإسلام، حينئذ تنتهي الحرب وإلى الأبد... فالسلام قاعدة والحرب استثناء في ظل شريعة الإسلام، ولعل هذا أهم الفروق بين الحربين وأعظم الروابط بين الحرب والعقيدة. يحلو لبعض المفكرين العسكريين أن يعطي للحرب العديد من التصنيفات والتقسيمات، ومنها قولهم: حرب تقليدية وحرب نووية أو حرب محدودة وحرب شاملة أو حرب تقليدية وحرب عقائدية، ثم يطلقون على الحرب العقائدية لفظ: الحرب المقدسة... ولا أدري كيف تكون هذه الحرب عقائدية وتلك

لا عقائدية؟! أليس المجتمع أو الدولة هو الذي سعى للحرب وأشعلها ؟ أليس لهذا المجتمع أو لهذه الدولة عقيدة يدين بها ؟ وأليست تلك العقيدة هي التي ترسم طريق تلك الحرب، وتقرر عدالة الحرب من عدمها ؟

إن التاريخ والواقع يقول لنا إن الحروب التي عرفتها البشرية منذ عهد آدم عليه السلام حتى يومنا هذا، هي جميعاً عقائدية، حروب تدفعها العقائد. إذ لا مجتمع بلا عقيدة، حيث العقيدة كما عرَّفناها في أول الحديث تعني: الأفكار والمبادىء التي يؤمن بها الإنسان والمجتمع والتي يكتسبها بالتعليم والاقتناع، وحيث ليس هناك إنسان أو مجتمع بلا أفكار ومبادىء، فإنه بالتالي ليس هناك إنسان أو مجتمع بلا عقيدة.. وحيث أصبحت العقيدة أمراً مسلماً به وفق هذا المنطق، فإن هذه العقيدة سوف توجه جبرياً سلوك الفرد والمجتمع في السلم والحرب والسياسة والاقتصاد والسلوك الإداري والاجتماعي... ومن هنا تبرز أهمية الحديث عن الحرب والعقيدة والأثر المتبادل فيما بينهما والتوجيه الجبري الذي تفرضه على السلوك العسكري للدول والجيوش إن في السلم أو في الحرب.

الطبيعة الفكرية لإدارة الحرب

اختلاف فنزاع فصراع، إذن الصراع هو قمة الاختلاف والتنازع بين الفئات والطوائف والشعوب والأمم والدول. وأي صراع بين كتلتين لابد أن يحسم سياسيا أو اقتصادياً أو نفسياً أو عسكرياً.. وحيث إننا سنتحدث فيما بعد عن تصنيفات الحروب تلك تحت عنوان طبيعة الحرب، فإننا سنقصر حديثنا هذا على جانب الصراع المسلح.. أي الحرب العسكرية والتي تستأثر في الغالب دون غيرها بلفظ الحرب. من ذلك نستنتج أن الحرب صراع يسوي بالدم بين المتنازعين. وقد عرفتها البشرية ومارستها منذ القدم كما أسلفنا، منذ عهد قابيل وهابيل، وفي ساحاتها وميادينها أزهقت ملايين الأرواح وحيث نقول مارستها فإننا نعني بذلك أنها مهنة.. فما علاقة هذه المهنة بالمهن البشرية الأخرى؟ وما علاقة رجل الحرب برجل الفكر؟ وهل سمت هذه المهنة وتطورت لتصبح علماً؟ إن الإجابة على هذه التساؤلات هي في نظري التي تحدد: الطبيعة الفكرية لإدارة الحرب التي نحن بصددها.

العديد من العلوم الإنسانية التي نعرفها اليوم، ظهرت كمهن بدائية مارسها الإنسان البدائي واهتدى إليها بفطرته التي فطره خالقه سبحانه وتعالى عليها. وتسخيره سبحانه وتعالى كل ما على الأرض للإنسان الذي استخلفه في هذه الأرض.

وعليه فقد وجدت الخلية البشرية الأولى (الأسرة) على الأرض، فكان من متطلبات حياتها أن تبحث عن مصادر رزقها، فكان الرعي، وكانت الزراعة، البذرة الأولى لمهنة الاقتصاد التي تطورت بتطوير الإنسان لمصادر رزقه تلك جيلاً بعد جيل حتى أصبح الاقتصاد أحد العلوم المعاصرة. وكان من متطلبات حياة هذه الخلية البشرية الأولى أن تقوم بتقسيم الأعمال داخل كيان الأسرة، فالأب يعمل على تأمين قوت زوجه وأولاده، والأم تعمل على تربية الأولاد وتهيئة البيت والطعام والملبس للأسرة، والأولاد يعملون في رعاية الماشية وجلب الحطب والماء، وكان ذلك التقسيم بمثابة البذرة الأولى لمهنة الإدارة التي تطورت بتطوير الإنسان لأساليبه في إدارة أعماله وأعمال أسرته وجماعته وقبيلته ودولته، وهكذا حتى أصبحت الإدارة أحد روافد العلوم الاجتماعية المعاصرة..

وحين تعددت الخلايا البشرية (الأسر)، أصبح من متطلبات حياة كل أسرة أن تعمل على حماية نفسها من عدوان الأسر الأخرى، وأصبح هناك صراعات أسرية حول الماء والمرعى والأراضي الزراعية وخلاف ذلك، وكانت تلك الصراعات بمثابة البذرة الأولى لمهنة الحرب التي طورها الإنسان جيلاً بعد آخر حتى أصبحت أحد العلوم المعاصرة.. وهكذا الحالة بالنسبة إلى العديد من العلوم التي يعرفها العالم اليوم، والتي ظهرت بادىء ذي بدء كمهن مارسها الإنسان البدائي دون أن يدرك مدلولاتها، ثم طورها حتى وصلت إلى قدر معين من النضج، أصبحت بعده علوماً في نظر العديدين من المتعاملين مع هذه المهن، في حين يراها البعض منهم مهناً وأنها لم ولن تبلغ مرتبة العلوم.. فما هو العلم؟ وما الفن ؟ وهل الحرب علم أم فن؟

العلم هو ما لا يفترض إلا المعرفة، والذي يستند إلى عناصر تمتاز باستقرار وثبات نسبي. إننا حين نقول إن الماء يتجمد عند درجة الصفر ويغلي عند درجة المئة، فنحن نتحدث ونتعامل مع ثابتة من الثوابت التي لا تتبدل إلا بتغيير أي من الثوابت كأن يكون الماء غير نقي، أو أن تتغير الظروف المحيطة كأن يتغير الضغط الجوي عن درجة ٧٦ وهكذا. وكذلك عندما تقول أن هذا المركب يقضي على ذلك الفيروس، فنحن نتحدث ونتعامل أيضاً مع ثابتة من الثوابت التي لا تتبدل إلا بتغيير أي من الثوابت أيضا، أو أن تتغير الظروف المحيطة. وكذلك عندما نقول إن مساحة المستطيل هي حصيلة ضرب الطول في العرض، فنحن نتحدث ونتعامل مع ثابتة من الثوابت التي لا تتبدل إلا بتغيير أي من الثوابت كأن يصبح المربع شبه منحرف مثلاً. على هذه الثوابت استند أرخميدس وفيتاغورث وانيشتاين وفلمنج وغيرهم من العلماء فيما قاموا به من تنظير في الجوانب العديدة للمعرفة، والتي إليها تستند العلوم التطبيقية كالفروع المتعددة للهندسة، تلك العلوم التي تستند أيضا إلى القدرة الخلاقة على الإبداع (الفن).. وهذه وتلك هي التي نطلق عليها: العلوم الطبيعية، وتشمل العلوم التي تقوم على الثوابت في تفسيرها وتطبيقها، وهي أيضا القابلة للتنظير.. وهذا بيت القصيد.

يقابل ذلك ما نطلق عليها: العلوم الاجتماعية، وهي تلك التي تعرّف الإنسان البدائي على معظمها وزاولها كمهن، ثم تطورت جيلاً بعد جيل حتى وصلت إلى قدر معين من النضج دفع بالبعض أن يطلق عليها لفظ: علم ويلبسها ثياب العلمية، كالاقتصاد والسياسة والإدارة على سبيل المثال. والعلوم الاجتماعية بصفة عامة تكاد تخلو من الثوابت التي هي

أساس التنظير، وذلك هو مدخل الذين يرون أن وصفها بالعلمية يعد تساهلاً لا مبرر له، وأن خلوها من تلك الثوابت كما هي في العلوم الطبيعية يجعلها تبقى فنوناً تتطور بما يمتلكه الإنسان من قدرة على الابتكار والإبداع الخلاق.

ولكي ندرك مدى التفاوت فيما بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، نلاحظ أن الاقتصاد وهو أكثر العلوم الاجتماعية نضجاً وتطوراً يكاد يخلو من الثوابت والنظريات، اللهم إلا تلك المحاولات التي لا تسمو إلى مرتبة النظرية كقولهم نظرية العرض والطلب والتي لا يمكن أن تكون أزلية كما هي نظرية النسبية أو نظرية فيثاغورث، أو كما هي الحال حين نقول إن الماء يتجمد عند درجة الصفر ويغلي عند درجة المائة.

إذن العلم هو ما لا يفترض إلا المعرفة، أما الفن فهو ما يعتمد على الإبداع الناتج عن القدرات الخلاقة لدى الإنسان. يقول «كلاوزفتز»(٤): «ليس هناك إجماع في استخدام التعبيرين» «قدرة ومعرفة»، ونحن نستخدم كلمة علم عندما يكون الهدف الوصول إلى المعرفة، وكلمة فن عندما يكمن الغرض في القدرة ويقوم عليها». وبعد أن أوضحنا بعض الفروق بين العلم والفن، نأتي للإجابة على التساؤل الثاني وهو:

لقد بينا أن الصراع (الحرب) ظهر منذ القدم وممارسة الإنسان كأحد المهن العديدة التي اهتدى إليها بفطرته ودفعته ضرورات الحياة ومستلزماتها إلى التعرف عليها وممارستها، ثم طورها جيلاً بعد جيل. وقد ساهم تطور بعضها في تطور البعض الآخر وذلك لتداخل العديد منها وتأثيره في الآخر كالاقتصاد والسياسة والإدارة والحرب، والتي ترتبط بالعديد من الروابط والمفاهيم والمصطلحات المشتركة.. وهذا يقودنا للحديث عن الاستراتيجية والتي سنفرد أحد مواضيع هذا الفصل للحديث عنها.

إذن الحرب مهنة (فن الحرب)، مثلها مثل الاقتصاد والسياسة والإدارة وسائر العلوم الاجتماعية، ولكنها مهنة لتسوية النزاع بالدم، وهذا ما يقودنا إلى القول بأن وصف الحرب بالمهنة محاط بالعديد من المحاذير كما يقول الجنرال «كلاوزفتز» والذي عبر عن رأيه في وصف الحرب بالعلم ووصفها بالفن ونعتها بالمهنة بقوله(٥): إن كل عمل فكري هو فن. فالفن يبدأ حيث يرسم رجل منطقي خطا، أي عندما تنتهي مقدمات البرهان التي هي نتاج

(٤) الجنرال كارل فون كلاوزفتز: الوجيز في الحرب، الطبعة الثانية، ترجمة: أكرم ديري والهيثم الأيوبي (بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٠)، ص ١٦٦.

(٥) المرجع السابق، ص ١٦٧.

قوة الإدراك والتمييز ليأخذ الحكم مكانها. كما أن آراء الفكر نفسها هي حكم أيضاً وبالتالي فهي فن، وفي كلمة المطاف، تكون المعارف المكتسبة بواسطة الحواس فنا أيضا بدون شك. وفي كلمة واحدة لا يمكن أن نتصور كائنا بشريا قد وهب القدرة على المعرفة دون القدرة على الحكم، كما لا يمكن أن نتصور العكس. لذا يتعذر فصل الفن عن المعرفة فصلا كاملا. فكلما تجسدت عناصر الضوء الدقيقة هذه في أشكال العالم الخارجي، كلما انفصلت ممالكها. وأكرر مرة ثانية: إن مجال الإبداع والإنتاج هو مجال الفن، ولكن عندما نستهدف البحث والمعرفة يسود العلم. ونستنتج من كل هذا أن قولنا « فن الحرب » أفضل من قولنا « علم الحرب ».

ولكننا لن نتردد في التأكيد بأن الحرب ليست فناً أو علماً بالمعنى الحقيقي الدقيق للتعبير نفسه. وانطلاقا من هنا ارتكبت خطيئة أدت إلى تشبيه الحرب بفنون أخرى أو علوم أخرى، وهذا ما أتاح المجال لمجموعة من التشبيهات الخاطئة.

هذا ما أحس به بعضهم في الماضي عندما قيل إن الحرب مهنة، ولقد خسرنا بهذا التعبير أكثر مما ربحنا، فليست المهنة إلا فناً من درجة دنيا، كما أن اعتبار الحرب مهنة جعلها خاضعة لقوانين أكثر دقة وجموداً. والواقع أن فن الحرب تطور لفترة من الزمن في عصر الكوندويثيري. ولكنه اتخذ هذا الاتجاه لأسباب خارجية لا داخلية، وقد أظهر التاريخ إلى أي حد كانت هناك هذه التسمية مصطنعة وغير مرضية.

وهكذا يمكننا أن نقول إن الحرب لا تخص ميدان العلوم والفنون، ولكنها تخص الوجود الاجتماعي، إنها نزاع بين المصالح الكبرى يسويه الدم، وبهذا وحدة تختلف عن النزاعات الأخرى. ومن الأفضل، بدلاً من مقارنتها بأي فن من الفنون، مقارنتها بالتجارة التي هي أيضاً نزاع بين المصالح والنشاطات البشرية. وهي أكثر شبهاً بالسياسة التي تعتبر بدورها، ولو بجزء منها على الأقل، نوعاً من التجارة على مستوى عال. إن السياسة هي الرقم الذي تنمو فيه الحرب، وتختفي فيه الملامح التي تكونت بصورة أولية، كما تختفي خصائص المخلوقات الحية في أجنتها).

ومع احترامنا لآراء الجنرال «كلاوزفتز إلا أننا نرى أنه جانب الصواب ــ على الأقل في منظورنا المعاصر ــ للعلاقة بين مناحي العلوم والمعرفة والفنون، فكلاوزفتز الذي عاش في زمن لم تتطور فيه الدراسات المقارنة كما هي عليه الآن، لا يرى مجالا لتشبيه الحرب بأي من الفنون الأخرى، ولهذا يرى أن هذا التشبيه هو الذي قاد إلى القول بأن الحرب

مهنة، ثم يعود للمقارنة بين الحرب والتجارة من جهة وبالسياسة من جهة أخرى، إذ يشبه الحرب بهذه وتلك.. والواقع أن الحرب شبيهة بالتجارة كما يقول والتجارة تعود إلى الاقتصاد والذي هو أعم وأشمل، ثم إن الحرب شبيهة بالسياسة ونابعة من أحشائها. السياسة تعود إلى الاجتماع الذي هو أعم وأشمل.. إذن مجال التشبيه والمقارنة كبير وواسع بعكس ما يراه كلاوزفتز، وهذا يقودنا إلى القول بأن الحرب فن وإلا لما وجدت أوجه الشبه والمقارنة، وأن الحرب مهنة وإلا لما وجدت أوجه الشبه والمقارنة، مع تحفظنا على وصفها بالمهنة لوجود العديد من المحاذير كما قلنا. وفن الحرب الذي عرفه الإنسان منذ القدم، وزاوله ومارسه كمهنة منذ القدم طورها جيلاً بعد جيل إلى أن احترفتها فئات من المجتمعات دون غيرها من المهن، حيث يقال: ما مهنة الرجل؟ فيقال جندي.. أي محترف للحرب وممتهن الجندية. وقد مّر فن الحرب في تطوره بالعديد من الأطوار التي استغل فيها الإنسان مهاراته وملكاته الإبداعية في ابتكار السلاح الذي يلزمه في معاركه مع الخصوم، والذي يضمن له التفوق في قتالهم، ومن ثم أصبحت الحرب تشتمل على: إرادة القتال والإعداد للقتال والقتال نفسه، وأصبح فن الحرب كما يقول كلاوزفتز يعني: فن معرفة استخدام وسائل معينة في القتال.

والحرب التي اشتملت على إرادة القتال والإعداد له وإرادته لتحقيق التفوق على العدو في ميادين القتال، أصبحت بتطور الفكر والوسائل عملية معقدة تتضمن التجنيد والتسليح والتجهيز والتدريب والإعداد النفسي والمعنوي للمقاتلين وإعداد القادة القادرين على دمج العمليات الفرعية بما يضمن تحقيق الأهداف التي من أجلها وجد الصراع ونشبت الحرب، ومنه ظهور ما اصطلح على تسميته بالتكتيك الذي يعني وسائل وطرق ومهارات فن استخدام السلاح الذي ابتكره الإنسان، أو هو كما يقول كلاوزفتز: نظرية استخدام القوات المسلحة في الاشتباك.. أي أنه مرتبط بمرحلة معينة كما سنرى. وحيث إن الحرب ليست اشتباكا واحدا بل مجموعة من الاشتباكات المتعددة، تعرّف المحارب على ما اصطلح عليه تسميته بالاستراتيجية التي تعني في نظر كلاوزفتز: نظرية استخدام الاشتباكات في خدمة الحرب، ثم أصبح فن الحرب يعني: الاستراتيجية والتكتيك والعمليات. وحيث أن هناك تداخلا فيما بين كافة مناحي العلوم والمعرفة، فقد تبلورت الأستراتيجية والتكتيك في مجال علم الاقتصاد والذي سبق بقية العلوم الاجتماعية في النضوج، ثم استخدمت وبشكل أوسع في مجال علم الإدارة حيث وظيفة التخطيط التي

صنفت الخطط في إطارها إلى: خطط استراتيجية وخطط تكتيكية وخطط تنفيذية أو عملياتية.

وقد ساهم تطور أساليب الإعداد للقتال وإدارة القتال، وكذلك تطور العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية المتداخلة مع فن الحرب والمؤثرة فيه، وكذلك مساهمات رجال الفكر المنتمين إلى فروع العلوم الإنسانية الأخرى، وتعقد العمليات الحربية، في ظهور المدارس العسكرية التي أصبحت ضرورة ملحة، كما أصبح من الضروري التعامل مع الحرب كفن وعلم.. وهكذا لم تعد الحرب مقتصرة على كونها فناً يخضع للابتكار والإبداع الخلاق، وإنما فن يطور وينمى ويصقل بالعلم، وأصبحت القوة العسكرية عند أي دولة لا تقاس بما تشتمل عليه من أعداد، ولا بما تمتلكه من أسلحة، وإنما بما تنفقه هذه الجيوش على التدريب وتهيئة الجندي مادياً ومعنوياً ونفسياً لخوض المعارك وإحراز النصر فيها على الخصم.. ومنه أصبحت الحرب نظرية بحد ذاتها، تدرس هذه النظرية في مدارسها الخاصة في كل دولة أو مجموعة دول كما تدرس أي من النظريات والعلوم الطبيعية أو الاجتماعية.

وفي مدارس الحرب تلك أحس المفكرون بمدى الحاجة الملحة للاعتماد على القوانين والمبادىء، لكي يتوصل النقاش الطبيعي جداً في التاريخ العسكري والآراء المتصارعة إلى استنتاج معين، كما يقول كلاوزفتز حيث التأملات في أحداث الحرب ازدادت غزارة، واتخذ التاريخ شيئا فشيئا طابعا دقيقا، فلم يعد للآراء المشتقة والتي لا تخضع لأي قانون أي قدرة على أن توحي للفكر البشري بأي شيء سوى النفور. وعليه فقد ظهرت قوانين الحرب ومبادئها كأحد الإفرازات والنتائج الحتمية لعملية الحرب، وعن القوانين والمبادىء يقول «الجنرال دولا شابيل»[٦] (إن الحرب هي القواعد التي سمحت التجربة الطويلة من الحروب بوضعها لاستخدام الوسائل العسكرية استخداماً حسناً . أما قوانين الحرب فتقع في مستوى أعلى، لأنها تدير الحرب ذاتها.. والمبادىء تقول لنا كيف نقاتل، أما القوانين فإنها تقودنا إلى تحديد الهدف بصورة فعلية وإلى القدرة على القتال).

ومن هنا ظهرت علاقة رجل الحرب برجل الفكر، وهي العلاقة التي يقول عنها «جان غيثون» إنها علاقة خفية بين طرائق رجل الحرب وطرائق رجل الفكر، وإن هذه الطرائق

---

(٦) أكرم ديري: آراء في الحرب، مرجع سابق، ص ٧٥.

قادرة على أن توضح بعضها وتدعم بعضها البعض. ويقول في موضع آخر [٧]: (نستخلص أولا أن وظيفة الفكر تزداد عند استخدام العنف.. وأن هناك ثورة تتحقق في هذا المجال، وأنه لكي نتحرى بدقة معنى ما يحدث تحت بصرنا، علينا أن نتجاوز اختصاصات الحرب والسياسة والقانون والأخلاق، وأن نحاول رؤية الفكر الذي يمثل أساس العلاقات الداخلية لهذه الأشكال المختلفة للعمل، وأن ننظر إلى كل شيء نظرة شاملة واحدة بسيطة). وسوف نتحدث عن مبادىء الحرب في موضوع مستقل بإذن الله تعالى وذلك لأهميتها.

(٧) جان غيثون: الفكر والحرب، ترجمة المقدم الهيثم الأيوبي وأكرم ديري الطبعة الأولى (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م) ص ٣٩,٩.

مبادىء الحــرب

فرضت الحرب نفسها كفن وعلم بعد أن أسهم التاريخ العسكري وما ضم في طياته من سير الحروب، وتطور الدراسات المقارنة، وكذلك تطور العلوم الطبيعية، والعلوم الاجتماعية، في إثراء الدراسات العسكرية ودفعها إلى قدر معين من النضج، وحيث إنه لا بد لأي فن وعلم من قوانين ومبادىء يدار بها كما بينا، فقد أسهم المفكرون والقادة العسكريون في إرساء العديد من القوانين والمبادىء.

وحيث أن المبادىء تقول لنا كيف نقاتل كما يقول «الجنرال دولاشابيل»، فإن المفكرين والقادة العسكريين حاولوا تدوين مبادىء للحرب معتمدين على دراساتهم للحروب التي دونتها سجلات التاريخ وعلى خبراتهم الخاصة في ميادين القتال.

وحيث أن العلوم الاجتماعية بصفة عامة تستحيل على التنظير، فإن تلك المحاولات من قبل المفكرين والقادة العسكريين لم تتوصل إلى مبادىء ثابتة ومتفق عليها، كما والحال في علم الإدارة أو أي وظيفة من وظائف الإدارة أو أي من العلوم الاجتماعية. وعليه فإن هناك العديد من المبادىء المتفق عليها للحرب لدى هؤلاء المفكرين والقادة، كما أن هناك العديد من المبادى التي يراها البعض منهم دون البعض الآخر.. وهذا بطبيعة الحال أمر حتمي لاختلاف الخبرات والتجارب لدى هؤلاء المفكرين والقادة من جهة، واختلاف المذهبية العسكرية التي ينتمي إليها أي منهم أو أي مجموعة منهم. واتفاقهم على بعض هذه المبادىء واختلافهم على البعض لا يعني بحال من الأحوال إنكار بعضهم لأي من هذه المبادى ولكن الاختلاف هو في إبراز البعض منهم لهذا المبدأ أو ذاك وفق خبرته وتجاربه وإجماله لهذا المبدأ أو ذاك ضمن مبادىء أو مبادىء أخرى حيث لا يراه بارزا كسابقه، في حين يراه البعض الآخر بارزاً وربما أكثر بروزاً من غيره، وهذا بطبيعة الحال عائد كما قلنا لاختلاف المذهب العسكري والخبرة والتجربة.

إن الخبرة والتجربة هي التي أفرزت تلك القواعد والمبادىء التي نعرفها اليوم، وحيث أن التجربة تختلف من معركة لأخرى ومن ميدان لآخر، فإننا نجد أن هذه المبادىء المعروفة اليوم والتي يقول البعض إنها عشرة بينما يقول البعض إنها ثمانية وآخرون يقولون

إنها ستة وهكذا، إنها لا يمكن أن تتواجد في مكان واحد وزمان واحد، أو في كل عملية أو معركة أو حرب، بل إن بعضها ربما يتعارض ويتناقض مع البعض الآخر وذلك في ظروف مغايرة وأمكنة وأزمنة متباعدة.. إنها لا يمكن أن توجد أو أن تطبق بحذافيرها في عملية أو معركة أو حرب لاستحالة ذلك، وذلك مشابه لصفات القائد التي لا يمكن أن توجد وبحذافيرها في رجل واحد. والخبرة والتجربة هي أيضا التي دفعت بالبعض إلى تصنيف المبادىء إلى مبادىء أساسية ومبادىء متفرعة عنها، وعدم وضوح الحدود الفاصلة في هذه وتلك هو الذي جعل «فوش» مثلا يراها أحد عشر مبدأ، في حين لم يتقيد «كلاوزفتز» بعدد معين إلا أنه ركز على خمسة مبادىء في حين ركز «فوللر» على خمسة مبادىء مغايرة لتلك التي عند كلاوزفتز، في حين ركز «ليدل هارت» و «جورديان» على مبدأين، وكذلك «لاغارد»، أما «فورست» فقد قال: (إنني أكون الأول دائما، مع القوات الأقوى». وهنا أجمل ستة من المبادىء.. ثم يأتي دور «المارشال دوساكس» الذي لا يرى لهذه المبادىء أي وجود حيث يقول[8] إن الحرب علم مغطى بالظلمات، لا يستطيع الإنسان أن يسير في عتمتها خطوة مؤكدة [9] فالروتين والمبررات هي أسسها. وكنتيجة طبيعية لهذا الجهل.. فإن لكل العلوم مبادىء وقواعد، ولكن ليس للحرب مثل هذه المبادىء والقواعد أبدا).

إذن الحصيلة أن ليس هناك إتفاق على هذه المبادىء، والأسباب وإن كنا تحدثنا عنها لماما فإننا نجملها فيما يلي:

١ ــ أن العلوم العسكرية (علم الحرب) هي أحد العلوم الاجتماعية، وهذه تشملها جميعا خاصية: صعوبة التنظير أو إخضاعها لقواعد ومبادىء ثابتة ومحددة، وذلك أنها ترتبط بالسلوك الاجتماعي وتخص الوجود الاجتماعي.

٢ ــ اختلاف المذهبية العسكرية، ذلك أن الذين حاولوا التنظير في مجال الحرب عبر القرون العديدة، قد أرسوا مذاهب مختلفة للحرب. وهذه المذاهب هي خليط ديناميكي من المبادىء العقائدية والأساليب التطبيقية الواقعية. وكل مذهب ليس إلا

(٨) إيريك موزيز: مدخل إلى التاريخ العسكري، ترجمة / أكرم ديري والمقدم الهيثم الأيوبي، الطبعة الثانية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م).

(٩) العقيد/ صفا: الحرب، الطبعة الأولى (بيروت: الشركة اللبنانية للطباعة والاعلام، ١٩٨١م)، ص ٨٢.

مجموعة من الأنماط والأساليب والطرائق والتقاليد الحربية لهذه الأمة أو تلك والنابعة من معتقدات الأمة نفسها.

٣ ــ اختلاف الخبرة والتجربة عند المفكرين والقادة العسكريين الذين حاولوا تفنيد هذه المبادىء أو الذين عملوا على إرسائها، فما يراه على سبيل المثال جنرال أمريكي عاصر نهاية الحرب العالمية الأولى قد لا يراه جنرال فرنسي عاش هذه الحرب من أولها وبظروف مغايرة لظروف ذلك الأمريكي وهكذا.

وقبل أن نتحدث عن كل مبدأ على حدة أرى أن ننوه إلى مجمل هذه المبادىء كما تصورها بعض الذين أسهموا في توضيح هذه المبادىء. من ذلك ما يراه كلاوزفتز:

١ ــ حشد القوى.
٢ ــ المفاجأة.
٣ ــ المبادأة.
٤ ــ المطاردة.
٥ ــ الاحتياط.

أما الجنرال الأمريكي فورست فيرى أنها:

١ ــ الحشد.
٢ ــ الاقتصاد في القوى.
٣ ــ المفاجأة.
٤ ــ التعرض.
٥ ــ وحدة التصرف.
٦ ــ الحركية.

أما الجنرال الإنجليزي فوللر فيرى أنها:

١ ــ الحشد.
٢ ــ المفاجأة.
٣ ــ توحيد الجهود.
٤ ــ الحركية.
٥ ــ الحيطة.

أما الإنجليزي ليدل هارت والألماني جورديان فيريان أنها:

١ ــ المفاجأة.

٢ ــ الحركية.

وتحددها العسكرية الأمريكية على النحو التالي:

١ ــ ملاحقة هدف واحد.

٢ ــ التعرض.

٣ ــ حشد الوسائط.

٤ ــ الاقتصاد في القوى.

٥ ــ الحركية.

٦ ــ المفاجأة.

٧ ــ الحيطة.

٨ ــ العمل الموحد.

٩ ــ البساطة.

أما العسكرية البريطانية فتحددها على النحو التالي:

١ ــ الحشد (تركيز القوات).

٢ ــ الاقتصاد بالجهد والقوات.

٣ ــ الأمــن.

٤ ــ الحركيــة.

٥ ــ الهجــوم.

٦ ــ المفاجــأة.

٧ ــ وحـدة القيادة.

٨ ــ المحافظة على الهدف.

٩ ــ المبادرة.

١٠ ــ تقدير الحلقة الحاسمة.

وسوف نتحدث وبإيجاز عن هذه المبادىء العشرة، ولكن قبل ذلك أود التنويه إلى أن بعضاً من هذه المبادىء هو عسكري الطابع، في حين أن البعض الآخر يتصف بالعمومية

والشمول إذ هو مبدأ عمل لأي نشاط بشري. من ذلك على سبيل المثال المركزية في القيادة والمحافظة على الهدف والاقتصاد في الجهد والقوى وهكذا. وهذا بطبيعة الحال نابع من تداخل العلوم الاجتماعية كما قلنا وارتباط هذه العلوم بالسلوك الاجتماعي.

أولاً: الحشد:

أحد مبادىء الحرب القديمة والحديثة وأهمها على الإطلاق، وهو من المبادىء التي يكاد يجمع عليها القادة والمفكرون والعسكريون كما رأينا آنفاً، فالعسكرية البريطانية تضعه ضمن مبادئها العشرة، وكذلك العسكرية الأمريكية تضعه ضمن مبادئها التسعة، وهو ضمن مبادىء الحرب التي تصورها كلاوزفتز، وضمن المبادىء الستة التي وضعها الجنرال فورست، وضمن المبادىء الخمسة التي وضعها الجنرال فوللر.. أي أن هناك شبه إجماع على مبدأ الحشد.

والحشد أو تركيز القوات كما يطلق عليه البعض يعني توفير أكبر قوة ممكنة متفوقة على قوة العدو تفوقاً يضمن لها إحراز النصر، وذلك بزج القوى والوسائط في اتجاه العمليات الرئيسية، ودون إهمال أي من هذه القوى والوسائط. يقول كلاوزفتز موضحا ذلك: (إن البلد يحكم على نفسه بالهزيمة عندما يمتنع عن استخدام جزء من وسائله في الوقت الذي يصمم فيه خصمه على استخدام وسائله كلها) ويقول نابليون أيضا في هذا الصدد: (إن كل فن الحرب يمكن تلخيصه بمبدأ واحد، وهو أن تجمع في جبهة واحدة قوة أكبر من قوة عدوك).

والحشد أو تركيز القوات لا يعني إشراك القوى والوسائط مجتمعة في معركة واحدة كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما يعني حشد هذه القوى والوسائط لتحقيق الهدف من الحرب بادىء ذي بدء، ثم يتم إشراك أجزاء وأنواع من هذه القوى والوسائط في المعارك المختلفة بما يضمن حسم هذه المعارك لصالحنا، وهي التي بالتالي تكون لبنات في بناء النصر الذي ننشده وتحقيق الهدف الذي نحارب من أجله.

وطبيعي أن حشدنا لكافة القوى والوسائط المتاحة سوف يبرز مشكلة المساندة الإدارية اللازمة لإعاشة وتمويل وإصلاح وإخلاء هذه القوات، وعليه فإن الحرب الحديثة التي تتطلب أقصى قدرة الحشد وطاقاته والتي أصبحت تعتمد على الأجهزة التقنية المعقدة، أصبحت تستنزف من موارد الدولة لأغراض التدريب والإسناد ما قد يفوق تكاليف القوى والوسائط نفسها.. لهذا لابد من أن يكون هناك الجهاز الإداري الكفء

ليعمل في إطار الاستراتيجية الإدارية للدولة بصفة عامة.

ثانياً ــ الاقتصاد بالجهد والقوات:

أحد المبادىء التي برزت في الحروب الحديثة وذلك لتعدد القوى والوسائط التي يتم حشدها في ميادين القتال وساحات المعارك، وهو لا يتعارض كما يتبادر إلى الذهن مع مبدأ الحشد وإنما يأتي كل منهما مكملا للآخر، حيث لا يعني الحشد كما بينا الزج بكل ما تم حشده في معركة واحدة، كما لا يعني الاقتصاد في القوى أن تضن ببعض من هذه القوى والوسائط وهي ضرورية لحسم المعركة وتحقيق النصر على العدو.

والاقتصاد بالقوى يعني أن نسعى إلى تحقيق الأهداف وأفضل النتائج بأقل قدر ممكن من الجهد والقوات، ومن هنا تبرز ضرورة ما يسمى بالاحتياط الذي يراه البعض أحد مبادىء الحرب، بينما هو في الواقع يعني الاقتصاد في القوى، ومنه تبرز أيضا مسألة توزيع القوات وتوزيع الأدوار، بحيث يكون توزيع القوات وتوزيع الأدوار منسجماً وفي إطار خطة شاملة ومرنة وقادرة على تلبية متطلبات قائد مسرح العمليات من وقت لآخر وفق ما يقتضيه الموقف.

إننا حين نزج بالقوى والوسائط المتاحة وفي إطار تنسيق دقيق بين الأسلحة المشتركة في المعركة الحديثة، فإننا دون شك نكون قد أوجدنا شكلا من أشكال الاقتصاد في القوى وذلك من منطلق أن عملنا هذا سوف يحقق لنا النصر في وقت قصير وحاسم مما يوفر لنا قدراً من الجهد والقوات. ولابد أن ندرك أن مسألة الاقتصاد في القوى لا تعني كما قد يفهم البعض أن نخضع عملياتنا الحربية لمبدأ الربح والخسارة، فالربح والعائد علينا من الحرب هو معنوي سياسي عقائدي في أسمى معانيه، ولكنه لا يعني بأي حال من الأحوال ربحا وعائدا اقتصاديا. إن منطق هذا المبدأ ينبع من عدم وجود القدرة على توفير القوات الكافية لتغطية كل النقاط بقوى متساوية، وخصوصا عندما تتسع الجبهة وتتعدد ميادين القتال، وعليه فالاهتمام والأخذ به يتناقص لدى القوى التي تمتلك ضخامة في القوات وضيق في الجبهة مع العدو.

ثالثاً: الأمــن:

يعتقد البعض أن الأمن هو أحد مبادىء الحرب الحديثة حيث نادى به الجنرال الإنجليزي فوللر ثم أخذت به العسكرية البريطانية وكذلك الروسية، والواقع أن الأمن من

مبادىء الحرب قديماً وحديثاً من قبل حتى أن يصبح هناك علوم عسكرية فالخندق الذي ضرب حول المدينة المنورة في غزوة الأحزاب وسور الصين الشهير والقلاع والحصون، كلها وسائل أمنية عرفها الإنسان المقاتل من قبل أن تصبح العسكرية علما ومن قبل أن تتبلور مبادىء الحرب أو يتحدث عنها العسكريون بشكلها المعاصر، إلا أنه تطور بتطور القوى والوسائط والأهداف العسكرية ليأخذ أبعادا لم تكن معروفة أو سائدة من قبل.

والأمن يعني كافة الإجراءات والتدابير التي تباشرها القيادة في مسرح العمليات لتأمن عن طريقها من مباغتة العدو والتي تسمح للقائد بقدر معين من المناورة بعيدا عن أعين العدو. وهو لا يرتبط بالدفاع فقط كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هو مطلب ضروري في حالات الدفاع والتعرض على السواء، ففي حالات الدفاع نجد أوضح تعبير عن مبدأ الأمن الوسائل والإمكانات التي تجند لتحقيقه كما هي تحصينات خط ما جنو أو خط بارليف على سبيل المثال، أما في حالات التعرض فلابد من الأخذ بمبدأ الأمن لتأمين الخطوط الداخلية وخطوط تحرك المناورة والأجنحة المكشوفة قبل الاشتباك وخلاله، وذلك لكي لا يؤدي الإخلال بمبدأ الأمن إلى فتح ثغرات للعدو في أوضاعنا الدفاعية أو الهجومية مما يتيح له تحقيق أهدافه التكتيكية أو الاستراتيجية.

إلا أن الأخذ بمبدأ الأمن يجب أن يبقى في إطاره الإيجابي وذلك بعدم المبالغة في هدر القوى الوسائط وكذلك المبالغة في الحذر (والعرب تقول يؤتى الحذر من مأمنه). الأمر الذي يمنع القائد من تجنيد ما يملكه من قوى ووسائط لكسب النصر أو يمنعه من المغامرة والمجازفة في المعركة، ذلك أن مبدأ الأمن إذا ارتبط بعامل الخوف فإنه سيتحول إلى أمن سلبي.. أي أن تكون تحت رحمة العدو الذي يقرر في هذه الحالة نوعية الحركة والقرار عندك، وهنا تكمن المشكلة.

رابعاً: الحركيـــة:

ترتبط الحركية بالمناورة والمبادرة حيث أنها تتضمن خفة الحركة وسرعتها وحريتها وسريتها وأمنها، ولهذا نجد أنها أحد مبادىء الحرب الرئيسية قديما وحديثا، وقد ازدادت أهميتها بظهور المركبات والدروع وتطورها.

ومبدأ الحركية يعني القدرة على نقل القوى والوسائط استعداداً لزجها في المعركة الحاسمة، وهي لا ترتبط في هذه الحالة بأوضاع التعرض كما قد يتبادر إلى الذهن وإنما

تمتد لتشمل أوضاع الدفاع، ذلك أن الدفاع الثابت لم يعد ذا جدوى في ظل التقدم التقني الذي مكّن أقل الدول موارد وإمكانات من تجهيز الجيوش الآلية القادرة على التكيف السريع مع متطلبات العمليات في ميادين القتال. وأهمية مبدأ الحركية تنبع من إجماع العقائد والمذاهب العسكرية المعاصرة على أن الحرب المتحركة هي الشكل الأنسب والأجدى للقتال، إذ لا متسع في هذه العقائد والمذاهب لحرب الخنادق التي وإن اضطرت ولجأت إليها الجيوش المعاصرة، فما ذلك إلا تحفز للهجوم عند اكتمال حشد القوى والوسائط اللازمة لحسم الصراع المسلح.

ومبدأ الحركية في الحرب الحديثة مع مبدأ الحشد من المبادىء التي تحتم وجود الجهاز الإداري الفاعل لتقديم كل متطلبات الحشد والحركية في إطار خطة محكمة للمساندة الإدارية، وهذا بالتالي سوف يحد من القدرة الحركية للقوات في مسرح العمليات، حيث أن وجود هذا الجهاز الإداري الضخم لتقديم الإسناد الإداري سيكون سببا في ظهور العديد من المشاكل التي تتسبب بالتالي في الحد من قدرة القوات الحركية. يقول «ماوتسي تونغ» عن أهمية الحركية: (إنه لمن الضروري صرف أكثر الوقت في الحركة، لا في القتال، ولكنها حركة من أجل القتال. إن الحرب المتحركة تشمل مسائل: الاستطلاع، الحكم، القرار، توزيع القوات، القيادة، الاختفاء، التركيز الزحف، التوزيع، الهجوم، الملاحقة، الهجوم المفاجىء، الهجوم على المواقع، الدفاع عن المواقع، أعمال مضادة، انسحاب، قتال ليلي، عمليات خاصة، تجنب القوي وضرب الضعيف، محاصرة العدو لضرب تحصيناته، هجمات تضليلية، الدفاع ضد الطائرات، العمل بين قوات العدو، عمليات تخطي، عمليات تنفيذ، عمليات بدون مؤخرة، الحاجة للراحة واستعادة النشاط وتجميع القوة..)

خامساً: الهجـــوم:

الأشكال الأساسية للحرب هي: الدفاع والهجوم، والدفاع وإن كان أحد الأشكال الأساسية للحرب فهو لا يعدو أن يكون مرحلة سابقة للهجوم، أو بالأصح مرحلة استعداد وتجهيز للهجوم، إذ ليس هناك قائد أو جيش أو عقيدة أو مذهب عسكري لا يتطلع للهجوم حتى وإن لم يكن لديه أي أطماع أو تطلعات عدوانية تجاه خصمه، وذلك ما يعبر عنه بالهجوم الوقائي أو الهجوم من أجل الدفاع.. ومن هنا تنبع أهمية الهجوم كأحد

مبادىء الحرب الحديثة. يقول الجنرال كلاوزفتز عن العلاقة بين الدفاع والهجوم[١٠]: (ما دام للأعمال الدفاعية غرض سلبي هو: المحافظة، وللأعمال الهجومية غرض إيجابي هو: الاحتلال، وما دام الاحتلال يضاعف من مواردنا الحربية الخاصة، بينما لا يفعل الاحتفاظ بالأرض ذلك، فإن علينا أن نقول لكي نعبر عن فكرنا بدقة ووضوح: إن الشكل الدفاعي للحرب، هو بحد ذاته أكثر قوة من الشكل الهجومي.

فإذا كان الدفاع هو الشكل الأقوى لإدارة الحرب، مع أن هدفه سلبي، فإن المسلم به أننا لا نلجأ إليه إلا إذا أضطرنا ضعفنا إلى ذلك، وأن من الواجب التخلي عنه عندما نحس بكفاية قوتنا لتحقيق هدف إيجابي. ولكن ما دامت قوتنا النسبية تزداد عادة عند الحصول على نصر بفضل الأعمال الدفاعية التي قمنا بها، فإن البدء بالدفاع والانتهاء بالهجوم هو تطور طبيعي في الحرب.

ومن التناقض مع مفهوم الحرب، أن نفترض أن الدفاع هو هدف الحرب النهائي، وأن نعتقد بأن السلبية ليست مجالا من مجالات الأعمال الدفاعية في مجموعها فحسب، بل هي أيضا مجال من مجالات كل الأفراد المختلفة للدفاع. وبعبارات أخرى: إن الحرب التي لا تفيد الانتصارات فيها إلا لصد الضربات، والتي لا نحاول فيها رد كل ضربة مماثلة، حرب سخيفة، كالمعركة التي يسود فيها الدفاع المطلق السلبية في كل التدابير المتخذة) إذن الهجوم هو العنصر الحاسم في القتال لأن الدفاع لا يمكن أن يكسب حربا إلا إذا تحول عندما يسميه كلاوزفيتز: نقطة التحول الكيفي.. ومنه نصل إلى القول إن: الموت المحقق لمن يتبنى جانب الدفاع السلبي، كما إن الفشل سيرافق على الأغلب من يتبنى الهجوم في جميع الحالات.. ولكن العقل والمنطق يؤكدان أن النصر حليف من يتبنى جانب الدفاع الإيجابي، ثم يبادر بالهجوم المدروس جيدا، ولعل الحربين العالميتين والحروب العربية اليهودية تثبت لنا صحة تلك الموازنة بين الدفاع والهجوم.

من ذلك ندرك أن من متطلبات الدفاع الإيجابي أن تكون هناك قوة قادرة على صد هجوم العدو وتكسيره في مواقعها الدفاعية الثابتة أو المتحركة، وأن تكون هناك قوة احتياطية قادرة على القيام بالهجوم المضاد بعد أن تقوم قوة الدفاع بتكسير قوة العدو المهاجمة. كما أنه لابد من إدراك ضرورة تفوق قوة الهجوم، وبأي شكل من أشكاله،

---

(١٠) الجنرال/ كارل فون كلاوزفيتز: الوجيز في الحرب، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

على قوة العدو المدافعة كما وكيفا، وذلك لضمان تدمير دفاعات العدو وقواته الاحتياطية قبل أن تبادر تلك القوات إلى القيام بالهجوم المضاد. كما أنه لابد من إدراك ضرورة توفر القوى والوسائط القادرة على الاستمرار بالهجوم حتى نهاية الحرب، وذلك لأن تحولنا من الهجوم إلى الدفاع سوف يعطي العدو الفرصة لانتزاع زمام المبادرة من أيدينا، ولعل حرب العاشر من رمضان خير برهان على ما نقول، ولكن ذلك يتطلب تفوقا كبيرا على العدو وقدرة فائقة لدى الجهاز الإداري الموكل إليه مهام الإسناد الإداري.. ولعل هذا هو مقتل الدول التي تعتمد في تسليحها على معسكرات الشرق أو الغرب.

سادساً: المفاجأة:

يعتقد البعض خطأ أن المفاجأة هي من مبادىء الحرب القديمة، والتي لا مكان لها بين مبادىء الحرب الحديثة في ظل تطور وسائل التجسس والتقاط الصور الجوية من الطائرات بدون طيار والأقمار الصناعية وغير ذلك من وسائل حكمت على مبدأ المفاجأة بالخروج من قائمة مبادىء الحرب. إن هؤلاء ـ البعض ـ هم الذين يربطون مبدأ المفاجأة بالهجوم ولا يضعون له محلاً في الدفاع، والذين يربطون مبدأ المفاجأة بالزمان والمكان فقط.

إن المفاجأة هي أحد مبادى الحرب القديمة والحديثة على السواء، وإن اختلفت الوسائل والأساليب، وذلك تبعاً لاختلاف القوى والوسائط. فالمفاجأة قديماً كانت تتم إما بتضليل العدو عن زمان الهجوم، وإما بتضليله عن مكان الهجوم الرئيسي، وإما بتضليله وبأساليب خداعية لمنعه من معرفة حجم القوات المهاجمة وتسليحها، ولهذه ارتبط مبدأ المفاجأة بالهجوم وعلق في أذهان الكثيرين على هذه الصورة. أما المفاجأة في الحروب الحديثة فهي تتجاوز كل هذا بطبيعة الحال إلى ما عداه، ذلك أنه من العسير اليوم إن لم يكن من المستحيل أن تضلل عدوك عن زمان الهجوم، ومن العسير أيضاً أن تضلله عن مكان الهجوم الرئيسي، ومن العسير أيضاً أن تجد الوسائل التي تمنعه من التعرف على حجم قواتك وحجم تسليحها. ولكن ليس من العسير أن تفاجىء عدوك بسلاح جديد غير معروف، وليس من العسير أن تفاجىء عدوك باستخدام سلاح معروف بأسلوب مغاير للمألوف والمعروف. وليس من العسير أن تفاجىء عدوك بتطوير تقنية سلاح معروف، وليس من العسير أن تفاجىء عدوك بتكتيكات جديدة لم يألف العدو منك اتباعها من قبل.

وعليه فإن المفاجأة في الحروب الحديثة تتنوع لتشمل: المفاجأة في الزمان، المفاجأة في المكان، المفاجأة في استخدام السلاح، المفاجأة في تطوير السلاح، المفاجأة بالسرعة، المفاجأة بالأسلوب، المفاجأة بالحركة، المفاجأة بالمبادأة، المفاجأة بالتركيز، والمفاجأة بالأمن.... الخ. ولهذا فهي لا تقتصر على الهجوم كشكل من أشكال الحروب، وإنما تمتد لتشمل الدفاع أيضاً، وهي وسيلة لسد ثغرات الخطط الدفاعية أو الهجومية حيث تعوض عن نقاط الضعف سواء من الأعداد أو التسليح أو التكتيك، فبها تستطيع أن تضع وتربك خطط العدو في الدفاع أو الهجوم وتمزق تماسك قواته وتزرع الاضطراب في عقله وصفوفه. يقول الجنرال كلاوزفيتز عن المفاجأة [11]: (تولد الإرادة العامة لبلوغ تفوق نسبي إرادة أخرى من طبيعة عامة أيضاً، هي مفاجأة العدو. فمفاجأة العدو هي بشكل أو بآخر أساس كل المشاريع العسكرية، وبدونها لا يمكن فهم التفوق في نقطة حاسمة.

والمفاجأة، بناءً على ذلك، وسيلة اكتساب التفوق العددي، ولكن أثرها المعنوي يدفعنا إلى اعتبارها مبدأ مستقلاً . وعندما تنجح المفاجأة، فإنها تنشر الارتباك، وتحطم شجاعة الخصم. والأمثلة على ذلك كثيرة، وتظهر كلها سواء أكانت أمثلة صغيرة أم كبيرة إلى أي مدى يمكن للمفاجأة أن تضاعف النجاح. وليست المفاجأة التي أقصدها هي المفاجأة عند الإغارة التي هي جزء من الهجوم، ولكنها إرادة مباغتة العدو وبالتدابير العامة التي تتخذها لاسيما بالطريقة التي نوزع بها قواتنا. ويمكن ملاحظة ذلك وفهمه في الدفاع أيضاً، فللمفاجأة أهمية كبرى في الدفاع التكتيكي).

سابعاً: وحدة القيادة:

وحدة القيادة أحد المبادىء المعاصرة للحرب والذي ينصرف في مجمله في مركزية القيادة والخطط وكذلك التنفيذ، ولهذا لم يتفق على تسمية موحدة له لدى الجميع، فهناك من يطلق عليه مبدأ وحدة القيادة، في حين أن هناك من يطلق عليه مبدأ التعاون والتنسيق، وهناك من يسميه مبدأ مركزية القيادة والخطة والتنفيذ. وهو من المبادىء الشمولية والتي نراها في العديد من العلوم الاجتماعية وخصوصا الإدارة ووظائفها المتعددة، وهذا نابع كما نوهنا من قبل من وحدة الأصل في العلوم الاجتماعية التي عرفها الإنسان جيلا بعد

(١١) المرجع السابق، ص ١٩٧.

جيل، ومبدأ وحدة القيادة يبرز جليا في وظيفة التنظيم كإحدى وظائف الإدارة، حيث ينص هذا المبدأ على أن قيادة التنظيم واحدة مهما كبر حجم التنظيم أو صغر، إذ ليس هناك من تنظيم بقيادتين، وفي وظيفة التنظيم أيضا يتضح لنا الفرق بين مبدأ وحدة القيادة ومبدأ المركزية واللامركزية حيث ربما يخلط البعض بين مفهوم وحدة القيادة والمركزية، إذ أن وحدة القيادة أمر حتمي في أي تنظيم مهما صغر أو كبر أما المركزية أو اللامركزية فهو مبدأ يخضع لمتطلبات ذلك التنظيم وأهدافه التي وجد من أجل تحقيقها وقد تأخذ قيادة التنظيم بالمركزية وقد تأخذ باللامركزية وقد تخلط فيما بينهما وفق ما تراه سليما وجديرا بتحقيق الأهداف.

التشكيلات العسكرية ليست إلا تنظيمات، فالجيوش هي مكونات في تنظيم أكبر هو القوات المسلحة، والفرق هي مكونات في تنظيم أكبر هو الجيش، والألوية هي مكونات في تنظيم أكبر هو الفرقة وهكذا، وسواء أكانت هذه التشكيلات في حالة السلم أم في حالة الحرب، فهي لابد أن تخضع للأسس والمبادىء التي يقوم عليها التنظيم، أي تنظيم، عسكري أم مدني، ولهذا استعنت بمبادىء التنظيم كإحدى الوظائف الإدارية لإيضاح مبدأ وحدة القيادة كأحد مبادىء الحرب.

إن مبدأ وحدة القيادة يعني خطة واحدة متماسكة، فالحظيرة كأصغر تشكيل ممكن لابد أن تعمل في إطار خطة واحدة منبثقة عن رؤية القيادة العليا لمسرح العمليات، سواء كانت هذه القيادة قيادة جيش أم فرقة أم لواء. ومبدأ وحدة القيادة يعني تنسيقاً كلياً بين أجزاء القوة أو التشكيل، وتنسيقاً بين الخطط الفرعية، وبين كل خطة جزئية والخطة العامة الشاملة لكل هذه الخطة، ومبدأ وحدة القيادة يعني تقييماً واحداً متماسكاً وقرارات موحدة ومتماسكة لكافة الوحدات الفرعية في التشكيل الأعلى، ومبدأ وحدة القيادة يعني أن لا تعمل الحظيرة ــ وهي أصغر تشكيل ممكن ــ بمعزل عن الخطة التي ترسمها قيادة أكبر تشكيل في مسرح العمليات. ومبدأ وحدة القيادة يعني أن وجود الخطط المتضاربة والجهود غير المنسقة على أي مستوى في داخل الجبهة المحاربة يعني دمارها، وأن فقدان التنسيق بين الكل والجزء يعني فقدان السيطرة على الوضع برمته.

ثامناً: المحافظة على الهدف:

لا يقوم أي تنظيم عسكري أم مدني دون وجود الهدف أو الأهداف التي لابد لهذا التنظيم من تحقيقها، ومن وجود الأهداف تبرز الحاجة إلى التنظيم. وعليه فإن التنظيم لابد

أن يحافظ على الهدف الذي هو سنده في الوجود، ولابد أن يسعى جاهدا لتحقيقه. لهذا نجد العديد من المذاهب العسكرية والقادة العسكريين يرون أن مبدأ المحافظة على الهدف ليس إلا تحصيل حاصل، إذ لابد من المحافظة على الهدف والسير باتجاه تحقيقه. إلا أن المذهبية العسكرية البريطانية ترى غير ذلك حين تفرد وتبرز المحافظة على الهدف كأحد مبادىء الحرب دون غيرها من المذاهب العسكرية المعاصرة.

ومبدأ المحافظة على الهدف في نظر «فوللر» و «باليت» وغيرهم من المنظرين العسكريين البريطانيين، ينطلق من التفريق بين الهدف وبين خطة تنفيذه، حيث أن أي قائد تشكيل من التشكيلات الميدانية يأخذ هدفه (مهمته) من القيادة الأعلى منه، أما الخطة فهي من تصميمه، وكل ما في الأمر أن تسعى الخطة إلى تحقيق الهدف (المهمة). ولهذا فإن هذا المبدأ والمنظرين البريطانيين يضعون المهمة وخطة تنفيذها على مستويين مختلفين من حيث المسؤولية والأولوية[١٢].

من هذا المنطلق نجد أن من حق القائد ـــ أي قائد ـــ أن يجري تعديلاته على الخطة أو الخطط التي يقوم بوضعها لتنفيذ المهمة وتحقيق الهدف، وذلك لأنها خطته أو خططه ولا بد أن تتصف الخطة بالديناميكية التي تجعلها مرنة بالقدر الذي يضمن تنفيذ المهمة وتحقيق الهدف. ولكن ليس من حقه أن يجري أي تعديلات على المهمة (الهدف) لأنه لم يضعها وإنما هو أداة تنفيذ فيها، وهنا يبرز الاختلاف بين التخطيط والتنفيذ، وعليه في هذه الحالة أن يشعر القيادة الأعلى منه مباشرة والتي تبلغ منها بالمهمة (الهدف) عن استحالة تحقيق الهدف الذي كلف بتحقيقه، وذلك لكي تتولى الجهة التي وضعت المهمة وحددت الهدف تغيير ذلك إن كان هناك ضرورة للتغيير. إن هذا أمر طبيعي فتغيير الخطة بما يضمن تحقيق الهدف أمر ضروري، بل حتمي في بعض الأحيان، أما تغيير الهدف فهو قد يعطل كامل العملية، وبهذا تخرج عن إطارها الصحيح ويخرج التنظيم عن الطريق الذي وجد من أجله الأصل.

تاسعاً: المبــادرة:

المبادرة أو المبادأة كما يطلق عليها البعض هي أحد مبادىء الحرب القديمة والحديثة على السواء، ومن اللفظ نفسه يظن البعض خطأً أن المبادرة تعني أن تبادر بالهجوم على

(١٢) منير شفيق: علم الحرب، الطبعة الثالثة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠) ص ١٠٧.

خصمك وأن تسبقه في توجيه الضربة الأولى، وهذا نوع من أنواع المبادرة دون شك ولكنه ليس هو بالتعريف الجامع المانع لمبدأ المبادرة التي تعني اقتناص الفرصة كلما سنحت سواء في الانسحاب أو الدفاع أو الهجوم. واقتناص الفرصة يعني العمل من خلال هذه الفرص السانحة على إحباط مخططات العدو أو على الأقل إرباك خططه ودفعه بالتالي إلى التخلي عن تنفيذها وتبني خطط عاجلة وعشوائية تؤدي بالتالي إلى عدم تحقيق العدو لأهدافه التي حارب من أجلها، وهذا يعني بالتالي تحقيق خططنا وأهدافنا التي حاربنا من أجلها... أي النصر.

من ذلك ندرك أن المبادرة تعني حسن التصرف ضمن الحالة المعطاة وبما تسمح به الظروف المستجدة، لهذا نجد أن المخططين العسكريين يتركون حيزا للحركة واستغلال القائد المنفذ لما قد يستجد من ظروف أثناء التنفيذ، هذا الحيز وذلك الاستغلال هو ما نطلق عليه المبادرة... أي أن القائد المخطط والقائد المنفذ يسهمان معا في تحقيق مبدأ المبادرة، ذلك في خطته وذلك في تنفيذه.

ومنه ندرك أن مبدأ المبادرة يعني حتمية الخروج المدروس أحيانا عن الخطة الموضوعة، وذلك لاستغلال ما قد يسنح من فرص أثناء التنفيذ إما لاستغلال خطأً وقع به العدو وإما لمعالجة حالة خاصة طارئة.. وعليه فمبدأ المبادرة يتعارض أحيانا مع التطبيق الحرفي للتعليمات والقواعد والإجراءات المتفق عليها.

عاشراً: تقدير الحلقة الحاسمة:

مبدأ تقدير الحلقة الحاسمة من المبادىء الشمولية الذي نجده في علم الاقتصاد كما في علم الإدارة كما في علم الحرب، وهو من المبادىء التي يجب أن يراعيها ويأخذ بها المخطط سواء كان يخطط لإنتاج منتج معين أو تسويق سلعة معينة أو كسب معركة معينة.

وهو من مبادىء الحرب الحديثة الذي لا بد من الأخذ بها سواء في الدفاع أو الانسحاب أو الهجوم، فليس لمبدأ تقدير الحلقة الحاسمة ارتباط بعملية معينة أو مرحلة محددة، وتنبع أهميته في الحروب الحديثة من عدم تمكن القائد ـــ أي قائد ـــ من توزيع قواته على النقاط توزيعا متساويا في العدة والعدد، وإن تساوي التوزيع في العدة والعدد فإنه لن يتساوى في النوعية والخبرة والكفاءة والروح المعنوية وهكذا. كما تنبع أهميته من

صعوبة الاهتمام بكافة القضايا والظروف المحيطة اهتماما متساويا.. لهذا لا بد للقائد من تقدير الموقف ثم يقرر أين وكيف ومتى يكون توزيع القوات؟ وبماذا ولماذا يكون الاهتمام، أبهذه القضية أم بتلك يكون الاهتمام أكثر؟

ومبدأ تقدير الحلقة الحاسمة لا يقتصر الأخذ به على أشكال المعركة أو مراحلها، وإنما يمتد إلى مراحل الإعداد للحروب والمعارك، فهو يعني تحديد المسألة الأهم، والتركيز عليها. وقد تكون هذه المسألة الأهم في التدريب مثلا أو نوع معين من أنواع التدريب لأهميته، وقد تكون في التسليح أو في نوع معين من التسليح، أو في رفع المعنويات أو توجيه الاهتمام نحو هدف معين (التثقيف) وهكذا.

تلك هي بإيجاز مبادىء الحرب العشرة التي تأخذ بها العسكرية البريطانية والتي هي أعم وأشمل من مبادىء الحرب عند الآخرين، وذلك ما دفعني للحديث عنها دون غيرها. ومبادىء الحرب لا تعني بالضرورة تطبيقها جميعا في حرب معينة أو معركة من معارك هذه الحرب أو تلك، وإنما هي مبادىء لابد من مراعاتها لتحقيق النصر دون التقيد بحرفيتها التي ربما لا تقتضي الظروف أو لا تسمح لنا بأن نأخذ بهذه المبادىء مجتمعة.

ولتقريب ذلك إلى الأذهان نقول: الحشد هو أحد مبادىء الحرب، ولكنك ربما لن تتمكن من الأخذ به إما لظروف الزمان أو المكان، وربما لا تستطيع أن تأخذ به لقلة القوى والوسائط المتاحة لديك. وكذلك الاقتصاد في القوى هو أحد مبادىء الحرب، ولكنك ربما تضعه جانبا إذ تقرر مهاجمة كتيبة معادية بمجموعة لواء لأسباب معنوية ونفسية أنت تسعى لتحقيقها والوصول إلى أهدافك من خلال تحقيقها، وهكذا.

ومبادىء الحرب على العموم هي أشبه ما تكون بمعالم على الطريق، تستدل بها أثناء مسيرك إلى هدفك، ولكنك قد تضطر لتجنب أحد هذه المعالم لظروف معينة في ذلك الطريق ومسيرك فيه. وهي لا تعدو كونها وسائل مساعدة لخلق الظروف التي تتفوق بها على العدو أو لتعطيل تفوق العدو أو إرباك خططه وخلق ظروف غير ملائمة له، وهي لا تنفصل عن العديد من الصفات والدوافع الإنسانية الظاهرة والكامنة مثل الشجاعة والتضحية ودرجة الوعي والمعنويات، كما لا تنفصل عن كفاءة ومقدرة القوى والوسائط التي تمتلكها.

وحيث أن لكل حرب ظروفها التي تميزها عن أي حرب أخرى فإن تلك المبادىء وتطبيقها بما يخدم تحقيق الأهداف، وبما ينسجم مع الصفات والدوافع الإنسانية العديدة،

وبما ينسجم مع ظروف الزمان والمكان، تعود في النهاية إلى مقدرة العقل البشري على التقييم السريع للمواقف والأحداث ثم التحليل ثم اتخاذ القرار..

فـــن الحـــرب

حاجة الإنسان هي منطلق أي اكتشاف أو ابتكار أو تطوير (وقديما قيل الحاجة أم الاختراع) فالحاجة الملحة عند الإنسان تدفع بعقله الذي حباه الله بقدرات كامنة ومحدودة. إلى اكتشاف أو ابتكار أو تطوير ما يشبع به الرغبة والحاجة وحيث أن الإنسان هو مصدر هذه الرغبات والحاجات، فإن العلوم جميعا تضافرت لإشباع هذه الرغبات وأدركت ضرورة التداخل والنفع المتبادل لأنها تخدم كياناً واحداً ، هو الإنسان.. وعليه فإن العلوم الإنسانية أصبحت كالمكنة التي تشتمل على العديد من الرؤوس التي تدور وتعمل لتحقيق منتج واحد.

ومن تداخل تلك العلوم ونفعها المتبادل ما نحن بصدد الحديث عنه: فن الحرب، فالتخطيط ظهر بادىء الأمر في ميدان الصراع المسلح والحروب، وقد تعرّف عليه الإنسان ومارسه بشكل بدائي في حروبه الدفاعية والهجومية حيث كانت حاجته، وعليه فهو لم يكن ليظهر إلا ليشبع رغبة من رغبات الإنسان ويسد حاجة من حاجاته. ثم ظهر على الاقتصاد أيضا لحاجة الإنسان ورغباته، سابقا الصراع والحرب في تطوره وسابقاً أيضاً الإدارة في تطوره وفي حقل علم الاقتصاد ثم تعريف التخطيط وتصنيف الخطط وإيضاح الحدود الفاصلة بين أنواع التخطيط ومستوياته. ثم ظهر علم الإدارة أيضا لحاجة الإنسان ورغباته، وفي حقل علم الإدارة استخدم التخطيط بشكله العلمي الواسع المتعارف عليه اليوم.. والخطط تصنف ابتداء من حيث الأهمية (أهمية التخطيط) إلى:

١ ــ خطط استراتيجية.

٢ ــ خطط تكتيكية.

٣ ــ خطط عملياتية (تنفيذية).

إذن أساس هذا التصنيف للخطط ومنطلقه هو حقل الصراع وميدان الحرب، وذلك لحاجة الإنسان كما قلنا إما للدفاع عن نفسه ضد الأعداء، وإما لمهاجمة الأعداء الذين يتربصون به.. وعليه فإن: فن الاستراتيجية وفن العمليات وفن التكتيك مصطلحات عسكرية الأصل والمنشأ، تطورت في حقل علم الاقتصاد، وشاع وانتشر استخدامها في حقل علم الإدارة.

ومنذ ظهور العلوم العسكرية، أصبح العلم العسكري هذا يشتمل على فن الحرب الذي يشتمل بدوره على:

١ ــ الاستراتيجية.

٢ ــ التكتيك.

٣ ــ العمليات.

ومفردات فن الحرب هذه مع عدد آخر من الأمور الهامة كالأوضاع الاقتصادية والسياسية للبلاد وكذلك مدى ما تتمتع به الأمة من معنويات ومدى ما تمتلكه من قدرات علمية وتقنية تكون ما نطلق عليه العلم العسكري. وبهذا نجد أن هناك تشابها بين أقسام الفن العسكري (الاستراتيجية والتكتيك والعمليات) وبين تصنيف الخطط من حيث الأهمية (خطط استراتيجية وخطط تكتيكية وخطط عملياتية)، ولعل ذلك أهم فوائد تداخل العلوم الاجتماعية حيث أن تطوير أحد هذه العلوم لابد أن يعود بالنفع والفائدة على بقية العلوم الأخرى.

إذن فن الحرب (الفن العسكري) هو جانب من جوانب العلم العسكري، وهذا الجانب من جوانب العلم العسكري يكاد يكون خلاصة تجارب الحروب التي خاضتها الأمم والشعوب وما استخلصه منها القادة والمفكرون من العبر والآراء والأفكار والاجتهادات التي أطلق عليها: فن الحرب.. أي أنه الجانب أو القسم التاريخي والاستنتاجي والتطبيقي من العلم العسكري، أو ما نستطيع أن نطلق عليه الجانب الديناميكي في العلم العسكري حيث يمثل الجانب النظري منه الجانب الساكن.

ولكي تتضح لنا حقيقة فن الحرب الذي هو كما يقول كلاوزفتيز: فن معرفة استخدام وسائل معينة في القتال بالمعنى الدقيق، لابد من الحديث ولو بإيجاز عن محتوياته على النحو التالي:

أولاً: الاستراتيجية:

كلمة الاستراتيجية مشتقة أصلا من الكلمة اليونانية «STRATEGOS» والتي تعني «فن قيادة القوات»، وهو الفن الذي عرفه الإنسان منذ القدم، ثم مارسه العديد من القادة القدماء دون أن يكون له أية أصول منهجية ودون أن يدون أي من هؤلاء القادة العظماء عنه وعن خبراتهم أي شيء يذكر. وعليه فقد ساد الاعتقاد بأن الاستراتيجية لا تعدو كونها فناً

مارسه ويمارسه بعض من القادة الموهوبين، وأن ليس لها أي أسس أو قواعد علمية. وهذا بالطبع شأن فن الحرب عموما وفن الإدارة وغيرهما من العلوم الاجتماعية التي عرفها الإنسان ومارسها كمهن تستند إلى الفن الذي يبرع في عمله الإنسان عن حدس وعبقرية وموهبة.

إلا أنه وبتطور العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية في أوروبا إبان عهد النهضة في القرن الثامن عشر، بدأت دراسة الحرب دراسة علمية أدت إلى تناول كافة المواضيع والأمور المتعلقة بفن الحرب بالدراسة على أسس علمية عقلانية، ومن بين هذه المواضيع: فن الاستراتيجية.

ومن ذلك الوقت ومفهوم الاستراتيجية يتطور عبر مختلف عصور التاريخ العسكري، تطوراً خضع ويخضع في مجمله إلى تطور العلوم الطبيعية التي أفرزت التقنيات العسكرية المختلفة، وتطور العلوم الاجتماعية التي أسهم تطورها كما قلنا في تطور العلوم العسكرية. كما خضع ويخضع لآراء القادة والمفكرين الذين تصدوا لتعريف الاستراتيجية من واقع خبراتهم ومذاهبهم العسكرية ومدارسهم الفكرية التي ينتمون إليها.. ولهذا تعددت التعاريف دون الوصول إلى تعريف جامع مانع للاستراتيجية، وحيث ارتباط الحرب بالسياسة فقد تناول العديد ممن حاولوا تعريف الاستراتيجية بحوثهم من منطلق هذا الارتباط.

من بين هذه البحوث والدراسات ما قام به الضابط الروسي «كلاوزفتيز» في كتابه السالف الذكر «الوجيز في الحرب» والذي حدد فيه مفهومه للاستراتيجية على النحو التالي: (نظرية استخدام المعارك كوسيلة للوصول إلى هدف الحرب أو هي: نظرية استخدام الاشتباكات في خدمة الحرب) وتعريف كلاوزفتيز هذا نابع من اعتقاده الراسخ ومفهومه الأساسي عن الحرب من حيث أن: الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى.

ثم بحوث ودراسات الكاتب والناقد الإنجليزي المشهور «ليدل هارت» في كتابه «الاستراتيجية وتاريخها في العالم» والذي وجه فيه نقده لمفهوم الاستراتيجية عند كلاوزفتيز حيث رفض اعتبار الاشتباك الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هدف الحرب، ثم رفض ما فعله كلاوزفيتز حين أدخل الاستراتيجية في مجال السياسة الأمر الذي يرى أنه دفع كلاوزفيتز إلى الخلط فيما بين الاستراتيجية العسكرية والاستراتيجية العليا للدولة والتي تكون الاستراتيجية السياسية محور ارتكازها. ثم قدم تعريفه للاستراتيجية على النحو

التالي: (فن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق هدف السياسة)، والواضح أن تعريف ليدل هارت هذا يرتكز أساسا على تعريف كلاوزفيتز من حيث أن الاستراتيجية قائمة على أساس تحقيق أهداف السياسة، إلا أنه حصرها بفن استخدام القوات العسكرية.

ثم بحوث ودراسات «ريموت آرون» في كتابه «السلم والحرب بين الأمم» والتي حاول فيها التوفيق بين وجهات النظر حيث قال: (إن الاستراتيجية هي مجمل العمليات العسكرية، أما الدبلوماسية فهي توجيه العلاقات مع الدول الأخرى، على أن تكون الاستراتيجية والدبلوماسية تابعتين للسياسة). والواضح من ذلك أن هذا التنفنيد وتلك المحاولة لم تأتِ بجديد، وهي أشبه ما تكون بتحصيل حاصل.

ثم بحوث ودراسات الجنرال الفرنسي «أندريه بوفر» في كتابه «مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية» الذي نقد فيه محاولة سلفه ـــ ريمون آرون ـــ السالفة الذكر، ثم أتى إلى تعريف الاستراتيجية على النحو التالي: (هي فن استخدام القوة للوصول إلى أهداف السياسة. أو هي: فن حوار الإرادات التي تستخدم القوة لحل خلافاتها).

بجانب هذه التعاريف للاستراتيجية هناك العديد من التعاريف التي قدمها القادة والمفكرون من أمثال «جوميني» و «هامل» و«فوش» و«فوندرجولتز» و«مولتكي» و«تروتسكي» و «ستروكوف» و«جرينفيلو» و«ماوتسي تونغ» و «سوكو لوفسكي» و«ستالين» وغيرهم. وهي تعاريف يجمع بينها أن الاستراتيجية العسكرية تعني: علماً وفناً ينصرفان إلى الخطط والوسائل التي تعالج الوضع الكلي للصراع الذي تستخدم فيه القوة بشكل مباشر أو غير مباشر من أجل تحقيق أهداف السياسة التي يتعذر تنفيذها بغير القوة. وهي تعاريف تربط الاستراتيجية العسكرية بالاستراتيجية السياسية دون سواها، وتغفل دور الاقتصاد في تسيير السياسة التي تأتي الحرب لتنفيذ وتحقيق أهدافها وتطلعاتها، وتغفل أي دور للعقيدة في تسيير العجلة برمتها بما فيها من تروس الاقتصاد والسياسة والحرب.. ولنا عودة للحديث عن هذا في فصل الإسلام والحرب.

ثانياً: التكتيك:

غالبية الذين تحدثنا عن دراساتهم التي ضمنوها تعريفاتهم للاستراتيجية، تحدثوا أيضا عن التكتيك أو التكتيك والعمليات، وهذا يوحي بالعلاقة الأكيدة فيما بين الاستراتيجية والتكتيك من جهة وبين التكتيك والعمليات من جهة أخرى. وحين نستعرض تعريفات

هؤلاء القادة والمفكرين للتكتيك نجد أن هناك نوعا من الاتفاق. أو لنقل الانسجام بين هذه التعاريف أكثر مما هو في تعريفاتهم للاستراتيجية ولعل هذا أمر مبدئي من حيث أن التكتيك والعمليات يعتبران أدوات الاستراتيجية في تنفيذ مخططاتها في ساحات القتال الجزئية والمختلفة.. أي أن الاستراتيجية لا يمكن أن تكون منفذة عمليات دون أن تختار وتستخدم تكتيكات ملائمة ودون أن تتبع في عمليات سليمة.

من بين التعاريف المقدمة للتكتيك، تعريف «كلاوزفيتز» الذي حدد فيه التكتيك على النحو التالي: نظرية استخدام القوات المسلحة في الاشتباك «المعركة» ثم تعريف «أندريه بوفر» الذي حدد فيه التكتيك على النحو التالي: فن استخدام الأسلحة في المعركة بطريقة تجعله يمارس أكبر تأثير ويحقق أقصى مردود. ثم تعريف «ليدل هارت» الذي حدد فيه التكتيك على النحو التالي: الاستعدادات التي تتخذ لاستخدام وسائط الحرب في المعركة. وتعريف «ماو تسي تونغ» الذي عرف فيه التكتيك على النحو التالي: دراسة قوانين الحرب التي تتعلق بأوضاع الحرب الجزئية. هذا بجانب العديد من التعاريف المقدمة من قادة ومدارس مختلفة العقائد والمذاهب، والاستراتيجيات، وهي تعاريف تدور في إطار محدد وهو أن التكتيك يعني كما جاء في الموسوعة العسكرية التي أعدتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر: علم اكتشاف حركة القوانين الموضوعية التي تتحكم في إعداد وإدارة أعمال القتال الجزئي خلال مرحلة تاريخية معينة من مراحل تطور قوى الإنتاج وتقنية التسليح والحماية والحركة والفكر العسكري المرتبط بها جميعا. كما إنه: فن تطبيق هذه القوانين الموضوعية على الحالات الخاصة والمتنوعة والمتغيرة للاشتباكات والمعارك المختلفة في البر والبحر والجو.. وعليه فهو علم في معرفته وإعداده المنهجي المسبق، وفن في تطبيقه العملي المتغير[١٣].

إذاً التكتيك هو أحد أركان نظرية فن الحرب التي تقوم كما قلنا على ثلاثة أركان هي: الاستراتيجية، التكتيك والعمليات عند البعض، والاستراتيجية والعمليات والتكتيك عند البعض الآخر. ومن التعاريف التي أشرنا إليها من قبل والعديد غيرها، ندرك أن جوهر التكتيك قائم على: الضرب (التسليح) والحماية (الدروع) والحركة (المرونة والميكانيكية).

(١٣) الموسوعة العسكرية، المجلد الأول (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨١)، ص ٢٩٥.

ثالثاً: العمليات:

تشكل العمليات مع الاستراتيجية والتكتيك وحدة عضوية متكاملة لا تختلف أي من مكوناتها التي هي نظرية فن الحرب كما بينا، إلا في جزئية أو خصوصية حقل النشاط الذي يعمل فيه وحدوده في الزمان والمكان.

والعمليات تعني علم وفن تنظيم العمليات الحربية وإدارتها في جبهات القتال أي نظرية وتطبيق تنظيم العمليات وإدارتها. وتنظيم العمليات وإدارتها يشتمل على[١٤]:

ـ وضع الخطط وتنظيم العمليات.
ـ دراسة مختلف أشكال العمليات.. تعرضية ودفاعية.
ـ قيادة العمليات.
ـ تنظيم المؤخرات وتسييرها.
ـ دراسة العدو.

التكتيك عند البعض هو حلقة الوصل فيما بين الاستراتيجية والعمليات، في حين أن العمليات عند البعض الآخر هي حلقة الوصل فيما بين الاستراتيجية والتكتيك.. أي أن هناك من يقدم التكتيك على العمليات، في حين أن هناك من يقدم العمليات على التكتيك في تسلسل مكونات نظرية فن الحرب بعد الاستراتيجية. والواقع أن العلاقة فيما بين العمليات والتكتيك مرت بالعديد من المراحل بحيث تَنَقَّلَ مركز الثقل بين التكتيك والعمليات مرات عديدة، وبحيث مرّ الاثنان بمراحل اندماج. ففي مرحلة ما قبل القرن الثامن عشر تقدم فيها التكتيك على العمليات حيث تميزت حروب تلك الحقبة بأولوية المعركة على العمليات وكان الأساس هو الاشتباك والمناورة التكتيكية. ثم انتقل مركز الثقل إلى العمليات في الفترة التي تلت ذلك، وكان نابليون أستاذ ذلك التطوير. ثم حدث نوع من التوازن في الفترات التي تلت ذلك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. ثم أتت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى لتعيد التكتيك إلى مركز الثقل وذلك مع تطور الدبابات والطيران التي أعادت للحركة التي هي جوهر التكتيك كما قلنا كل هويتها وثقلها. ثم أتت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية لتعيد العمليات إلى مركز الثقل حيث

---

(١٤) العقيد/ صفا: الحرب، مرجع سابق، ص ٧١.

التطور الكبير في الطيران الذي قد ينقل القوات جوا إلى المناطق الخلفية للعدو لتبدأ مناورتها وتفرض المعركة[١٥].

والواقع أنه مع المرحلة المعاصرة وفي ظل تطور تقنية الآليات وقدرتها الفائقة على الحركة والمناورة والتي هي جوهر التكتيك، وكذلك تطور تقنية الأسلحة النووية. فإنني أرى أن العمليات قد اندمجت في الاستراتيجية والتكتيك ولم تعد حلقة وصل فيما بين الاستراتيجية والتكتيك كما كانت في إحدى المراحل السالفة الذكر، كما لم تعد قابعة بعد التكتيك حيث كان حلقة وصل بين الاسنراتيجية والعمليات كما كان في إحدى المراحل السالفة الذكر.

وعليه فإن نظرية فن الحرب المعاصرة ــ في نظري ــ أصبحت تشتمل على:

١ ــ الاستراتيجية والعمليات.
٢ ــ التكتيك والعمليات.

أي بمعنى أنها هنا وهناك دون أن تكون مكوناً مستقلا من مكونات نظرية فن الحرب.

---

(١٥) منير شفيق: علم الحرب، مرجع سابق، ص ١٢٥.

طبيعة الحـــرب

لا بد من التذكير بتعريف الحرب الذي هو منطلق الحديث عن أي جانب من جوانب وأسس نظرية الحرب، فالحرب عند كلاوزفيتز كما قلنا تعني: عملاً من أعمال العنف الذي يستهدف إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا.. إذن هي تهدف إلى نزع سلاح العدو، والذي بدونه لن نتمكن من إخضاع الخصم لإرادتنا وإجباره على تنفيذها. وهي أيضا أعمال عنف مقابل أعمال عنف أخرى ـ أي شوط لعبة متبادل من العنف والعنف المضاد. ولا يختلف الأمر حين يكون العنف أو العنف المضاد أشد قوة وأكثر وحشية. وأعمال العنف هذه لا تقترن إلا بالنزر اليسير من القيود التي يطلق عليها قوانين الحرب الدولية والتي أسهمت الحضارات قديما وحديثا بإقرارها (يخرج من ذلك الحرب الإسلامية التي شرع قوانينها الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم).

ونزع سلاح العدو بالعنف لم يتحول عن مطلبه القديم والمتجدد على الدوام والمتمثل في[١٦]:

- تدمير إمكانات العدو.
- وتحطيم إرادته ومعنوياته.
- وقتل آماله.
- وإجباره على الاستسلام.
- وعدوله عن أهدافه.
- وخضوعه في النهاية لمشيئة الغالب.

من ذلك يتضح لنا أن الحرب ليست غاية بحد ذاتها، بل هي وسيلة من وسائلنا المتاحة لإكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا وإخاضعه لمشيئتنا. وحين نعلن الحرب فإننا نسعى من ورائها إلى نزع سلاح العدو.. أي أن نزع سلاح العدو وسيلة من وسائل الحرب لإكراه

---

(١٦) العقيد/ صفا: الحرب، مرجع سابق، ص ١٠١.

الخصم، ولكنه ليس الوسيلة الوحيدة إذا أدركنا أن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى.. إذن الحرب وسيلة لتحقيق غايتين هما:

١ ــ تحقيق أهداف السياسة، وذلك من منطلق فرض الإرادة على العدو.

٢ ــ نزع سلاح العدو، وذلك من منطلق أن سلاح العدو هو الذي يمنعه من الرضوخ لمشيئتنا والإذعان لتنفيذ إرادتنا وتحقيق رغباتنا.

وحيث أن أهداف السياسة بحد ذاتها إنما تنبع لتحقيق غاية اقتصادية أو اجتماعية أو عقائدية، فإن السياسة هنا تصبح وسيلة لتحقيق إحدى هذه الغايات الثلاث أو تحقيقها مجتمعة. وحيث أن نزع سلاح العدو في ظل تطور العلوم العسكرية والمفاهيم الاستراتيجية والتكتيكية من جهة، وتطور العلوم الطبيعية وما أفرزته من مدنية وتطور تقني أثر في قدرة السلاح على الفتك بالخصم ومنعه من إحراز أهدافه بيسر وسهولة من جهة أخرى.

فإن طبيعة الحرب لم تعد مقتصرة على السعي إلى نزع سلاح العدو لتحقيق أهداف السياسة كما كانت من قبل، وإن كانت طبيعتها لم تتبدل من حيث أنها عمل من أعمال العنف الذي يستهدف إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا. بل تحتم أن يسبق المعارك أو يزامنها أنواع أخرى من أنواع العنف، ولكنه عنف غير مسلح: عنف سياسي أو عنف اقتصادي أو عنف هو خليط من هذا وذاك أو ما نطلق عليه العنف الشمولي.. ومنه نصنف الحرب إلى:

١ ــ حرب سياسية.

٢ ــ حرب اقتصادية.

٣ ــ حرب عسكرية.

٤ ــ حرب شاملة.

إذن طبيعة الحرب هي التي حددت معالم الطريق المفضي إلى تصنيف الحرب، وتصنيف الحرب هذا هو الذي يفسر لنا مقولة كلاوزفيتز من أن الحرب: شكل من أشكال العلاقات البشرية. ثم إن طبيعة الحرب هي التي تحدد أيضا تصنيف الحرب إلى: حرب يأمر بها الرحمن (حرب عادلة) لتمكين أمر الله في الأرض وإعلاء كلمته ونصرة المظلوم وإقرار الحق والعدل، وحرب يأمر بها الشيطان (غير عادلة) لنشر الفساد وظلم العباد وسلب قوتهم وأرضهم ومالهم وعرضهم.

وطبيعة الحرب تتنوع كما يقول كلاوزفيتز في كتابه «الوجيز في الحرب» الذي جاء فيه قوله عن تنوع طبيعة الحرب[١٧]: (بقدر ما تكون دوافع الحرب كبيرة وقوية وبقدر ما تؤثر في وجود الأمة ذاته ويزداد عنف التوتر الذي يسبق الحرب، تطابق الحرب شكلها المجرد. وبقدر ما يكون السعي إلى تدمير العدو حثيثا، ويتطابق الهدف العسكري مع الأهداف السياسية، تبدو الحرب عسكرية بحتة وتقل مظاهرها السياسية. لكن، بقدر ما تكون الدوافع والمؤثرات ضعيفة، ينطبق العنف ــ وهو الميل الطبيعي للحرب ــ على متطلبات السياسة، وتبتعد الحرب عن ميلها الطبيعي ويزداد الفرق عمقا بين الصورة السياسية وهدف الحرب المثالية وتبدو الحرب وكأنها سياسة.

إذن ليست الحرب حرباً حقيقية فحسب، تبدل طبيعتها في كل حالة ملموسة، ولكنها، كظاهرة عامة، ومن حيث الاتجاهات والميول المسيطرة فيها، ثالوث مدهش نجد فيه أولا العنف الأساسي في عنصرها والحقد والغضب، التي ينبغي اعتبارها اندفاعة طبيعية عمياء، ثم لعبة الصدفة والاحتمالات التي تجعل منها عملا حرا من أعمال النفس، ثم طبيعتها كتابع للسياسة وأداة من أدواتها، تلك الطبيعة التي بها تنتمي إلى الفهم أو الإدراك الفكري ــ المحض. ويهتم الشعب بالصفة الأولى، وتهتم القيادة والجيش بالثانية، أما الصفة الثالثة فهي أمر يخص الحكومة. فمن الضروري أن يكون الشعب المستعد للحرب مشبعا بالأهواء التي تتأجج خلال الصراع، على حين يتعلق حجم لعبة الشجاعة والموهبة في حقل الصدفة وتقلباتها بشخصية القائد والجيش، أما الأهداف السياسية فتحددها الحكومة وحدها.

إن لهذه الميول الثلاثة ــ التي تبدو كقوانين تشريعية ــ جذورا عميقة في طبيعة الأمر، مع اختلاف في الحجم والتأثير. وكل نظرية تحاول أن تتجاهل أحد هذه الميول، أو تخلق بينها علاقات غير متوازنة تضع نفسها على أمور في تناقض مع الحقيقة، وهذا وحده كاف لإسقاطها واعتبارها عدما.

إذن يجب الاحتفاظ بالنظرية وسط هذه الميول الثلاثة، وكأنها معلقة بين مراكز جاذبية ثلاثة).

---

(١٧) الجنرال كارل فون كلاوزفتيز: الوجيز في الحرب، مرجع سابق، ص ٩١.

نعود الآن وبعد أن بينا طبيعة الحرب، للحديث عن أصناف الحروب حيث نوضحها على النحو التالي:

أولا: الحرب السياسية:

تُعَدُّ الحرب السياسية أعلى درجات حوار الإرادات السياسية المتضاربة، وذلك قبل أن تتحول الأجهزة السياسية إلى أعنف وسائل الحرب وهو الصراع المسلح العلني.. إذن هناك حرب وهناك عنف، ولكنه ليس العنف المسلح الذي يكون جوهر الحرب العسكرية عندما تخفق الأجهزة السياسية في الدولة في تحقيق أهدافها بوسائل الحرب السياسية.

والحرب السياسية التي تعني استخدام القوى السياسية وإماكاناتها المتاحة داخل معسكر الأعداء وجبهاتهم الداخلية سعيا لتحقيق الأهداف السياسية للدولة المحاربة، لا تتحدد في زمان أو مكان. فالعمل أو النشاط السياسي لابد أن يسبق الحرب العسكرية، كما أنه يرافقها، كما أنه لابد أن يستمر بعدها وذلك لكي يحقق ما تبقى من أهداف لم تستطع الحرب العسكرية أن تحققها أو أن يحققها هو في مراحل الحرب العسكرية وما قبلها. وهي بالطبع تسعى إلى ما تسعى إليه الحرب العسكرية وتستخدم العنف كما تستخدمه الحرب العسكرية، إلا أنه عنف مغاير للعنف المسلح، فالعنف المسلح الذي هو جوهر الحرب العسكرية يستخدم السلاح لإهراق دم الخصم، يقابله عنف غير مسلح هو جوهر الحرب السياسية ويستخدم الفكر لتحطيم قدرات العدو على الصمود.. إذن الحرب السياسية هي حرب فكرية نفسية تتضمن العديد من الأنشطة السرية والعلنية والمعتمدة أساسا على الحرب النفسية أكثر من اعتمادها على أي من الوسائل الأخرى. والحرب النفسية التي تعتمد عليها الحرب السياسية وكذلك الحرب العسكرية كما جاء في الموسوعة العسكرية هي(١٨): (مجموعة الأعمال التي تستهدف التأثير على أفراد العدو، بما في ذلك القادة السياسيين والأفراد غير المقاتلين بهدف خدمة أغراض مستخدمي هذا النوع من الحرب. وتهدف الحرب النفسية إلى خلق تصورات معينة لدى العدو، أو نفي تصورات، عن طريق الدعاية أو عمليات عسكرية استعراضية، والتنسيق بين العمل العسكري والدبلوماسي لخلق تصورات معينة، وإحداث الفوضى والبلبلة في معسكر العدو للتأثير على روح الجنود المعنوية، وعلى انضباطهم، وعلى قرارات ضباطهم وقادتهم. هذا

(١٨) الموسوعة العسكرية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٧٦٧.

بالإضافة إلى عمليات «غسل الدماغ»، وهي عمل منظم يخضع له عادة أسرى الحرب، أو متتبعي برامج إذاعة العدو وإرساله التلفزيوني. والحرب النفسية مهمة جدا في أي صراع بين قوتين، لأن للعمليات العسكرية العادية وكذلك الدبلوماسية زاوية نفسية يجب استغلالها لتحقيق مكاسب أفضل).. إذن الحرب النفسية التي تعتمد عليها الحرب السياسية، هي أشبه ما تكون بحلقة وصل فيما بين الحرب السياسية والحرب العسكرية، اللتين تكمل كل واحدة منهما مجهودات وأعمال الأخرى في الصراع الكلي مع الأعداء.

والحرب السياسية تدخل في معظمها في إطار العلاقات الدولية والأنشطة الدبلوماسية، ولهذا نجدها تتميز بجهودها المتشعبة التي تستهدف تحطيم قدرات العدو على الصمود، وكسب الأنصار الدوليين إلى جانب قضيتنا، وعزل العدو وتفريق الأنصار من حوله، ودفعه إلى تحمل أعباء الحرب ونتائجها وحده بدون أي نصير أو معين، وبالتالي الخضوع لإرادتنا التي من أجلها نخوض الحرب بكل أبعادها ومعانيها، ونتحمل في سبيلها المخاطر والنفقات.

وما الحرب الباردة التي عرفتها الأمم قديما وحديثا إلا جزءا من الحرب السياسية وأحد أساليبها، حيث تهدف الحرب الباردة إلى تحطيم معنويات الأعداء، والتأثير على قراراتهم السياسية والعسكرية، مما قد يساعد على تحقيق بعض من أهداف حربنا السياسية والعسكرية على السواء.

من كل هذا ندرك أن الحرب السياسية لا تقل أهمية عن الحرب العسكرية، وعليه فلابد أن يكون لدى الدولة الأجهزة القادرة على إدارة الحرب السياسية بجدارة ومهارة وبكافة الإمكانات المتاحة، سواء في السر أو العلن معتمدة على أساليب الحرب النفسية أو غيرها من أساليب الحرب السياسية المتعارف عليها، والتي بواسطتها نكسب الأصدقاء ونفرقهم من حول الخصم، والتي بواسطتها نحطم جبهات العدو العسكرية والداخلية ليذعن لإرادتنا سلما، أو تكون حربنا العسكرية معه سهلة ومضمونة النتائج.

ثانياً: الحرب الاقتصادية:

صنف من أصناف الحروب التي عرفتها البشرية منذ القدم، وضرب من ضروب العلاقات الدولية، والحرب في مجملها شكل من أشكال العلاقات البشرية التي تخص الوجود الاجتماعي كما يقول كلاوزفيتز. وقد شاع استعمال اصطلاح الحرب الاقتصادية

في العلاقات الدولية إبان الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، وهي وإن تحددت معالمها وتبلورت مفاهيمها في تلك الفترة، إلا أنها عُرِفَتْ قديما حيث مارستها الجماعات والشعوب والأمم منذ أقدم العصور لتحقيق أهدافها المتمثلة في إخضاع الخصم لإرادتنا، فهي لابد أن تقترن بالعنف مثلها مثل الحرب العسكرية والسياسية، إلا أنه عنف غير مسلح مثل ذلك الذي تقترن به الحرب السياسية، إلا أن وسائل هذه تختلف عن وسائل تلك.. فالهدف واحد والأسلوب واحد، إلا أن الوسائل تختلف.

وحيث نتحدث عن الوسائل، نجد أن الحصار الاقتصادي هو أهم هذه الوسائل وأنجحها على الإطلاق، حيث يشكل عامل ضغط على العدو بما ينتج عن الحصار الاقتصادي من أزمة اقتصادية وشل للفعاليات الاقتصادية عنده والحد من قدرة العدو الاقتصادية على دعم قدراته القتالية. والحصار كوسيلة من وسائل الحرب الاقتصادية ليس وليد الفكر العسكري الحديث، وإنما عرفته الجماعات والطوائف والشعوب والأمم منذ القدم، وأعمال الحصار التي تحفل بها سجلات التاريخ القديم والحديث شاهد على ذلك، وإن كانت أعمال حصار عسكري في ظاهرها، إلا أنها تهدف فيما تهدف إلى محاصرة العدو اقتصاديا. ففي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد تم حصار طروادة الشهير والذي دام ما يربو على عشر سنوات حتى سقطت المدينة وفي أوائل القرن السابع الميلادي حيث بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام بادرت قريش إلى حصار المسلمين لتجبرهم على الردة والعودة إلى عبادة الأوثان وقد اضطرت قريش إلى إنهائه دون أن يحقق أيا من النتائج التي كانت ترجوها. وفي عام ١٨٥٤م تم حصار سيبا ستوبول لمدة ٣١٦م يوما. وفي الحرب العالمية الثانية تم حصار لننغراد لمدة ٤٥٥ يوما حتى رفع الحصار عام ١٩٤٢م دون أن تسقط المدينة.

وحيث أن الهدف من أعمال الحصار هو اقتصادي الطابع على الأغلب، فقد شهدت الحروب أنواعا من الحصار البحري لأن البحر هو المنفذ الاقتصادي الأهم والأعظم لأي دولة. ولهذا اعتبر تطور الحرب الاقتصادية وتبلور مفهومها الحديث انعكاسا للتطورات في الآراء والنظريات القديمة لمفهوم (الحصار البحري) وبالذات في بريطانيا التي أنشأت وزارة للحصار البحري إبان الحرب العالمية الأولى، ثم استبدلتها قبل الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة بوزارة الحرب الاقتصادية بمفهومها المعاصر.. وبهذا نجد أن الحرب الاقتصادية هي امتداد للحصار الاقتصادي، وإن كان الحصار الاقتصادي يختلف في

أهدافه عن الحرب الاقتصادية في العديد من مظاهرها.

الحرب الاقتصادية إذن هي تدابير تتخذها الدولة أو مجموعة الدول بهدف إنزال الهزيمة بالعدو وحرمانه من الوسائل المادية المتاحة عنده والتي تساعده على المقاومة، وتخريب اقتصاده الذي يستند إليه في حربه وذلك لمنعه من الاستمرار في الحرب. وعليه نجد أن الحرب الاقتصادية هي وسيلة دعم في أغلب الأحيان للحرب العسكرية إلا أنه ليس بالضرورة دائما فقد تحقق الحرب الاقتصادية الأهداف المبتغاة دون اللجوء إلى العنف المسلح (الحرب العسكرية) شأنها شأن الحرب السياسية.. ومنه ندرك العلاقة الأكيدة والأزلية بين السياسة والحرب والاقتصاد، ومنه ندرك مدى تأثير تطور أي من هذه العلوم الثلاثة على العلمين الأخرين.

والحرب الاقتصادية وإن كانت لا ترافق بعمليات عسكرية في بعض الأحيان، إلا أن البعض يربطها بالحرب العسكرية ويعطيها طابعاً عسكرياً كما هو الحال اليوم في كل من بريطانيا وأمريكا، فالتعريف البريطاني للحرب الاقتصادية كما ذكره «مدليكوت» في كتابه «الحصار الاقتصادي» ينص على أنها عملية عسكرية ولا تنفصل عن الحرب العسكرية بأي حال من الأحوال، وينص التعريف على ما يلي[١٩]: (الحرب الاقتصادية عملية عسكرية يمكن أن تقارن بعمليات الأسلحة المقاتلة الثلاثة ــ أسلحة البر والبحر والجو ــ في أن هدفها هو هزيمة العدو. وأنها استمرار لعمليات الأسلحة الثلاثة هذه، من حيث أن مهمتها هي حرمان العدو من الوسائل المادية للمقاومة، ولكن خلافا لعمليات القوات المسلحة فإن نتائجها لا تتحقق بالهجوم المباشر على العدو فحسب، بل كذلك بالضغط على الدول المحايدة التي يحصل العدو منها على تموينه وإمداده، وهذا بالطبع مخالف للواقع وخلط للمفاهيم، حيث أن أي من الحربين السياسية أو الاقتصادية ليس من المحتم أن تقترن بالحرب العسكرية، بل من الممكن أن تسبقاها أو أن تأتيا بعدها.. ولكن لابد أن ترافقاها، كما لابد أن تسعيا لتحقيق الأهداف نفسها المتمثلة في فرض الهيمنة وإجبار العدو على الرضوخ لرغباتنا والانصياع لإرادتنا.

إن الحربَ الاقتصادية التي تستهدف تدمير اقتصاديات العدو ومنعه من الاستيراد والتصدير سعيا لإيقاعه في أزمة اقتصادية تدفعه للإذعان لرغباتنا هي نوع من الحرب

---

(١٩) المرجع السابق، المجلد الأول، ص ٥٢٨.

النفسية ووسيلة من وسائلها، وذلك لما تتركه من أثر سلبي في معنويات العدو سواء على مستوى القيادة السياسية والعسكرية أو على مستوى الأفراد وسواء في الجبهات العسكرية أو الجبهة الداخلية. ذلك أن الجندي الذي يقاتل على الجبهات العسكرية حين يعلم أن موانئه وأجواءه محاصرة ولا سبيل لوصول الإمدادات إليه، سوف لن يقدر على الصمود حتى وإن توفرت لديه الأسلحة والذخائر التي تؤهله للاستمرار في القتال. وكذلك المواطن الذي يدعم جبهات القتال بالأعمال التي يزاولها في الجبهة الداخلية حين يعلم أن موانئه وأجواءه محاصرة ولا سبيل لوصول الغذاء والدواء والكساء إليه، سوف لن يقدر على الصمود والقيام على خدمة الجبهات العسكرية.. ولهذا قال حكماء المسلمين قديما.. ويل لأمة تأكل ما لا تزرع وتلبس ما لاتصنع، ولهذا يقول المفسرون إن المقصود بقوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.. الآية**﴾ هو الاعتماد الذاتي في كل ما تحتاجه الدولة الإسلامية لقتال الأعداء ودحرهم من سلاح وذخائر وأغذية وأدوية وملابس وخدمات وغيرها.

ولقد برزت الحرب الاقتصادية في القرن العشرين وبرز أثرها الذي لم يعد بأقل قدراً من أثر الحرب العسكرية أو السياسية، وذلك كنتيجة حتمية لتطور الآلة العسكرية التي هي دعامة الحرب الحديثة، والتي تحتاج إلى المحروقات والذخائر وقطع الغيار وهي التي لن تتوفر إذا لم يكن هناك العجلة الاقتصادية المنتجة بالقدر الذي تتطلبه تلك الحروب المعاصرة. كما تبرز أهميتها مراحل المعركة الجوية الحديثة حيث يخصص جزء من القوات الجوية في المرحلة الثانية بعد أن تفرغ من إحراز السيطرة الجوية في المرحلة الأولى، لضرب الأهداف الاقتصادية المعادية في عمق الدولة المعادية لتدمير فعاليتها وشل قدرتها الاقتصادية على الصمود.

ونظرا لأهمية الاقتصاد في تسيير عجلة الحرب العسكرية، ونظرا لبروز دور الحرب الاقتصادية وأثرها الكبير وخصوصا إبان فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، فإن الدول تلجأ إلى تحويل اقتصادها إلى ما يطلق عليه: إقتصاد حرب، وذلك بإخضاع الاقتصاد الوطني برمته لسياسة وطنية عسكرية محددة، تخدم الاستراتيجية العليا للدولة، كما تخدم المجهود الحربي للدولة طيلة الحرب وربما لفترات بعد أن تضع الحرب العسكرية أوزارها بقصد إعادة تعمير وبناء ما دمرته الحرب العسكرية.

ثالثاً: الحرب العسكرية:

الحرب في مجملها كما قلنا شكل من أشكال العلاقات البشرية منذ أن حمل الإنسان سلاحه لقتل أخيه الإنسان، وهي شكل من أشكال العلاقات الدولية في العصر الحديث بين الدول أو تكتلات الدول، وذلك استنادا إلى أن الحرب تخص الوجود الاجتماعي كما يقول كلاوزفيتز. والحرب العسكرية هي التي يستخدم فيها العنف المسلح لإرغام العدو على الإذعان لإرادتنا والخضوع لها، بعد أن تخفق الوسائل الدبلوماسية وغيرها من وسائل الحرب السياسية وأساليبها في تحقيق ذلك.. أي أن الحرب العسكرية وأسلوب العنف المسلح إنما تأتيان تتويجا لتحرك الصراع على الأصعدة الدبلوماسية والاقتصادية وما يرافقها من حروب نفسية، وبهذا يتحقق كونه امتداداً للسياسة والتي هي بدورها إنما تعبر عن الأهداف العقائدية أو الاقتصادية أو الاجتماعية للأمة أو الدولة أو مجموعة الدول التي تجمعها عقيدة واحدة أو تطلعات اقتصادية واجتماعية واحدة.

منه ندرك أن الحرب العسكرية هي الأساس وما عداها من حروب سياسية أو اقتصادية لا تمثل إلا وسائل مساندة ومؤازرة في الغالب، إلا في حالة واحدة وذلك عندما تحقق الحرب السياسة أو الاقتصادية الهدف الذي نحارب من أجله وهو: إجبار خصومنا على الخضوع لإرادتنا، حيث لا مكان للحرب العسكرية وما يرافقها من عنف مسلح إذا تحقق ذلك عن طريق الحرب الاقتصادية أو السياسية التي لا مجال فيها للعنف المسلح وإهراق الدماء. والحرب العسكرية هي الأساس أيضا حيث أنها أول أصناف الحروب التي عرفها الإنسان، ثم توصل بعد قرون وأجيال إلى الأصناف الأخرى من الحروب لتحقيق أهدافه، بعد أن تطور فكره وأدرك أن إهراق الدماء بحد ذاته ليس الهدف الأساسي من الحرب، وأن إهراق الدماء عمل لا مبرر له إذا تحققت الأهداف التي يسعى إليها الإنسان دون اللجوء إليه. إلا أن ذلك أمر غير قابل للتسليم المطلق به، إذ أن هناك في بعض الأحيان ضرورة إلى إهراق الدماء في حروب عسكرية دون انتظار ما قد تتوصل إليه الدوائر السياسية والاقتصادية في حروبها السياسي منها والاقتصادي، وذلك عندما يكون الأمر متعلق بالعقيدة والأرض والعرض والكرامة كتلك الأوضاع القائمة والتي يتعرض لها العرب والمسلمون على أيدي اليهود في دولتهم التي أقاموها على أرض فلسطين العربية المسلمة.

وحيث أن الحرب العسكرية هي أول أصناف الحروب التي عرفها الإنسان ومارسها، وحيث أن الأسر البدائية لجأت إلى التكتل لتواجه الأخطار، فكانت الجماعات ثم كانت

القبائل ثم كان تحالف القبائل وتكتلها. فإن مهمة القتال لم تكن لتقتصر على أفراد بعينهم، بل كانت فريضة الخدمة الحربية والقتال تمتد لتشمل الجماعة أو القبيلة أو مجموع القبائل بأسرها ودون استثناء. ثم استمرت فريضة الخدمة الحربية على جميع المواطنين بعد أن تكونت الدول بشكلها البدائي البسيط.

ثم أدركت الدول أن تجييش الأمة بأسرها وفرض الخدمة الحربية عليها، عمل لا مبرر له في ظل الأهداف والغايات المحدودة لتلك الدول، وفي ظل نفقات الحروب وصعوبة تأمين الغذاء والكساء والسلاح وغير ذلك من النفقات ومستلزمات الإسناد والإدارة.. وعليه أصبح لا مجال للجندية الشاملة وتكونت الجيوش الممتهنة وحل الجندي المحارب بأجر والمعد لهذا الغرض، محل المواطن المكلف دون إعداد مسبق في أغلب الأحوال.

إلا أن تلك الوضعية لم تستمر، فقد ظهرت الثورة الصناعية بالعديد من المعطيات التي جعلت تسليح الملايين من المواطنين أمراً ممكنا، وكذلك إمكانية نقلهم إلى ساحات المعارك داخل البلاد وخارجها، وكذلك تأمين غذائهم وكسائهم ودوائهم وغير ذلك العديد من المعطيات التي أفرزتها الثورة الصناعية والتي جعلت المستحيل في فترة ما قبل القرن الثامن عشر، أمرا ممكنا وميسورا فأصبحت الخدمة العسكرية في الدول الأوروبية منذ ذلك الوقت إلى اليوم تقوم على دعامتين:

ـ الدعامة الأولى : نظام الامتهان (الجيش الممتهن) وهو الجيش الذي تكون دعامته من الجنود الذين يتخذون من الجندية مهنة لهم، والذين يحاربون نظير أجر مادي. وهذا النظام يقوم على التطوع إذ لا يجبر أحد على الانخراط في صفوف الجيش دون رغبته.

ـ الدعامة الثانية: نظام التكليف (الجيش المكلف) وهو الجيش الذي تكون دعامته من الجنود الذين يكلفون بالجندية عند إعلان النفير العام (التعبئة العامة) ثم يعودون إلى أعمالهم خارج نطاق القوات المسلحة بعد أن تضع الحرب أوزارها. وهذا النظام يقوم على التكليف إذ يجبر المواطن تحت شروط ومواصفات معينة على الخضوع للتدريب فترة معينة ثم يسرح ليعود في فترات بسيطة ومتقطعة للتدريب في الوحدة المكلف بالعمل بها ويكون جاهزا لحظة الاستدعاء للحضور في المكان المحدد وللعمل في القطاع المحدد.. وهذا ما يطلق عليه الاحتياط، وعملية الاستدعاء إما أن يطلق عليها: النفير العام أو التعبئة العامة أو استدعاء الاحتياط. وهذه تتم برموز واصطلاحات تعلن في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، حيث يدرك القارىء أو السامع من جنود الاحتياط ماذا تعني هذه الرموز

فيتجه فورا إلى المكان الذي حدد له سلفا ويستلم سلاحه ليعمل جنبا إلى جنب مع الجندي المحترف.

وتأخذ بهذا الخليط من نظامي الخدمة دول العالم بشكل عام دون استثناء إلا في حالات نادرة، حيث يوفر ذلك على الدول الآخذة به العديد من الميزات والمكاسب الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

والحرب العسكرية التي هي محور الارتكاز لأصناف الحروب الأخرى. والتي عرفها الإنسان ومارسها قرونا عديدة قبل أن يهتدي إلى أصناف الحروب المساندة من سياسية وإقتصادية، لم تعد محدودة الزمان والمكان والنتائج كما كانت من قبل، وذلك بفضل تطور علم وفن الحرب من جهة، وتطور تقنيات الأسلحة والذخائر والنقل والإسناد من جهة أخرى وذلك بفضل تقدم العلوم الطبيعية والاجتماعية على السواء.. وعليه فإن الحرب العسكرية لم تعد جموعا من المقاتلين الذين يتبارزون في زمن معين ومحدود، وفي مساحة محدودة من الأرض التي تسمى جبهة أو جبهات القتال، كما لم تعد وسائل القتال مقتصرة على الأسلحة المعروفة والمتداولة والتي لا يمتد أثرها وقدرتها التدميرية ليشمل مساحات شاسعة وهي الأسلحة التي تسمى اصطلاحاً بالأسلحة التقليدية، كما لم تعد أهداف وغايات الدول من الحروب محدودة في ظل النظم الوضعية التي تسعى للاستعمار والاستيطان واستغلال الإنسان.

ففي ظل هذه الظروف والمستجدات أصبح للحروب العسكرية أنواع وأشكال متعددة فمن حيث الأنواع يقال:

١ ــ حروب دولية، وذلك حين تنشب الحرب بين دولتين أو أكثر من الدول التي تتمتع بمستوى حضاري واحد وإن اختلفت العقائد وما ينبثق عنها من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية، وذلك كالحرب العالمية الأولى. والثانية التي نشبت بين دول تنتمي إلى حضارة واحدة (الحضارة الأوروبية المعاصرة).

٢ ــ حروب استعمارية، وذلك حين تنشب الحرب بين دولتين أو أكثر من الدول التي تتباين حضاريا، بحيث تسعى دولة إلى فرض هيمنتها وحضارتها على دولة أخرى، وذلك كالحروب العربية الإسرائيلية وحرب التحرير الفيتنامية ضد الهيمنة والغزو الأمريكي لفيتنام وحرب الجهاد والتحرير الأفغانية ضد الهيمنة والغزو الشيوعي الروسي لأفغانستان وحرب الجهاد والتحرير الجزائرية ضد الهيمنة والغزو الإمبريالي

الفرنسي للجزائر.. وإن كان البعض يضع الحروب التحررية تحت تصنيف آخر هو: الحروب الثورية.

٣ ــ حروب أهلية، وذلك حين تنشب الحرب بين جماعتين أو طائفتين أو فئتين أو حزبين أو أكثر داخل حدود الدولة الواحدة وضمن إطار الأمة الواحدة أو الشعب الواحد، وهي تبقى تحت هذا الإطار وهذه التسمية رغم تدخل أطراف دولية عديدة إلى جانب هذه الفئة أو تلك وذلك على شكل تدخل دول أو أحزاب أو جماعات وطوائف متعاطفة مع هذا الطرف أو ذاك، وذلك كالحرب الأهلية الأمريكية والحرب الأهلية الأسبانية والحرب الأهلية اللبنانية المستعرة منذ اثني عشر عاما بين العديد من الطوائف والأحزاب والفئات اللبنانية العميلة لهذه الدولة أو تلك، والتي جعلت من الدم اللبناني والعرض اللبناني والأرض اللبنانية مسرحا لتصفية خصوماتها وحساباتها غير آبهة باللبناني (مسلم أو مسيحي) الذي جند نفسه لخدمة الشيطان وجنوده من يهود وشيوعيين ورأسماليين استيطانيين وغيرهم من أعداء لبنان وعروبته وإسلامه.

وإلى جانب أنواع الحرب العسكرية هذه، فقد أفرزت التقنية الحديثة مفرزاتها العديدة، بتعدد أشكال الحروب العسكرية، حيث سخر الإنسان ماحباه الله سبحانه وتعالى من فكر وعقل وإدراك لابتكار العديد من أسلحة الدمار والتي بظهورها واستخدامها أصبح للحرب العسكرية العديد من الأشكال المرتبطة إما بفن الحرب (استراتيجية وعمليات أو تكتيك وعمليات)، وإما بتقنية تصنيع السلاح واستخداماته الميدانية، وعليها أصبح يقال: حرب تقليدية وحرب محدودة وحرب شاملة وحرب الكترونية وحرب ذرية وحرب كيماوية وحرب بيولوجية، وغير ذلك من أشكال الحروب العسكرية المعاصرة.

وتطور تقنية السلاح وتعدد أشكال الحروب العسكرية يقودنا للحديث عن: أبعاد الحرب العسكرية الحديثة، والتي تتحدد على النحو التالي:

١ ــ البعد الأول: البر (القوات البرية) والتي تعمل في السهول والصحاري والجبال والغابات والأدغال والمدن وتشتمل على المشاة والمدرعات (عناصر المناورة) ووسائل إسنادها من مدفعية وإشارة ومهندسين ودفاع جوي وتموين وصيانة ونقل وطبابة وخلافه.

٢ ـــ البعد الثاني: البحر (القوات البحرية) والتي تعمل في المياه الاقليمية والدولية وتكلف بالعديد من المهام كالدفاع عن الشواطىء والموانىء والمرافق الحيوية التي تقع قرب الشواطىء، كما تكلف بقصف موانىء العدو وشواطئه ومرافقه الحيوية التي تقع في مدى الأسلحة البحرية، كما تكلف بالعمل في أعالي البحار لضرب الحصار حول موانىء العدو وسواحله لمنع وصول المؤن والذخائر والأغذية وخلافها إلى العدو والتي بها يزداد صموده وقدرته القتالية والمعنوية.

٣ ـــ البعد الثالث: الجو (القوات الجوية والدفاع الجوي) والتي تعمل في الأجواء إما للدفاع ضد الهجمات الجوية المعادية التي يشنها الطيران المعادي، وإما للهجوم وقصف عناصر مناورة العدو في جبهات القتال ووحدات إسنادها، وكذلك قصف القواعد الجوية المعادية ووسائط الدفاع الجوي، وكذلك قصف قواعد وخطوط الإمداد المعادية، وكذلك قصف المصانع، والمرافق الحيوية المعادية التي تزيد من قدرة العدو على الصمود والاستمرار في القتال.

والحرب العسكرية بأبعادها الثلاثة، سالفة الذكر لم تكن معروفة بهذا الشكل منذ القدم، وإنما هي نتيجة تطور التقنية في البر والبحر ثم الجو. فالحروب القديمة كانت ولعدة قرون تدور رحاها على الأرض وباستخدام السلاح البدائي (الخنجر، السيف، الرمح، المقلاع، المنجنيق ... إلخ) ووسائل الحركة البدائية (الخيل، البغال، الجمال، الحمير، العربات التي يجرها الإنسان والحيوان والأفيال... الخ)، وذلك في إطار البعد الأول للحرب وهو: البر. ثم قام الإنسان بنقل أسلحته إلى سطح الماء وسلح المراكب المائية مدخلا بذلك بعداً آخر للحرب العسكرية وهو: البحر الذي لم يكتف الإنسان بالاقتتال على سطحه بل نزل إلى أعماقه للاقتتال فيها وتصيد القطع البحرية المعادية في العمق وعلى السطح. ثم ظهرت الطائرة في مطلع هذا القرن وسخرها الإنسان لحرب أعدائه حيث قام بتسليحها، وتطورت إلى الشكل المعاصر حيث أصبح هناك العديد من الطائرات ذات المهام الدفاعية والهجومية ومهام المساندة المتعددة، وتطورت الوسائل المضادة للطائرة سواء الأرضي منها أو ما كان محمولا على الطائرات الدفاعية نفسها، وبهذا يكون الإنسان أدخل: الجو كبعد ثالث للحرب العسكرية المعاصرة.

ترتبط أبعاد الحرب هذه بما نطلق عليه: العناصر المادية للحرب والتي تشمل:

١ ـــ الحماية.

٢ ـ السلاح.

٣ ـ الحركة.

حيث أن الحركة اليوم يعبّر عنها بوسائل النقل الآلية، والتي إما أن تكون برية أو بحرية أو جوية، ومنه ندرك أن الحركة إما أن تتم ببعد واحد وإما أن تتم ببعدين، وإما أن تتم بثلاثة أبعاد.. وقريبا نستطيع القول إن للحرب الحديثة أربعة أبعاد وذلك حيث تنجح محاولات الإنسان للحرب في الفضاء، أي حين يصبح الفضاء بعدا رابعا للحرب.

وقد أدى التطور التقني إلى تطوير وتنويع الأسلحة البرية والبحرية والجوية على السواء، وهذا التطور والتعدد في السلاح والحركة، أوجد صورا شتى من التعقيد في المفاهيم الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية، وإلى ضخامة التنظيمات، وتعدد التخصصات والقيادات، وضخامة الخطط ومهام الأركان. كما أدى إلى تنوع العمليات: عمليات برية وعمليات بحرية وعمليات جوية، ثم ظهرت العمليات المشتركة حين تدعى القوات الجوية لمساندة القوات البرية أو البحرية أو كليهما.

وعليه لم تعد الحرب العسكرية مقتصرة على منطقة معينة وزمان محدد، وإنما أصبحت في الجهات العسكرية كما هي في العمق كما هي في الجو كما هي في المياه الإقليمية وفي أعالي البحار، وهذا ما أضفى على الحرب العسكرية المعاصرة مزيدا من التعقيد، ومزيدا من الفتك والدمار، سواء كانت حرباً تقليدية محدودة أو شاملة.

رابعاً: الحرب الشاملة:

يظن البعض خطأ أن الحرب الشاملة تعني الحرب العسكرية عندما تشترك في عملياتها كل من القوات البرية والجوية والبحرية، وتستخدم فيها كافة أسلحة تلك القوات دون تمييز بين الأهداف العسكرية والمدنية. وإن اصطلاح: الحرب الشاملة لم يكن معروفا قبل ظهور الطائرة إبان الحرب العالمية الأولى وشيوع استخدامها في القتال، حيث لم تعد ساحات المعارك مقتصرة على الجبهات العسكرية وإنما أصبحت تشتمل على كل أراضي العدو (على الجبهات وفي العمق ومياهه الإقليمية وأعالي البحار).

والواقع أن الحرب الشاملة تعني دمج وإدارة مجهودات دوائر الصراع السياسي والاقتصادي والعقائدي والنفسي بشكل تكاملي بهدف تحقيق الأهداف التي من أجلها وجد الصراع.

ولهذا نجد أن الحرب الشاملة لا تندلع إلا عندما يكون سبب النزاع وأهدافه كبيرة جدا، وعندما يحس أي من طرفي النزاع بأن خليه عن أي من تلك الأهداف يعّد خطأ استراتيجيا شنيعا جدا. ولهذا أيضا نجد أن الحرب الشاملة لابد وأن تكون باهظة التكاليف صعبة المراس، لاتتصدى لها إلا الدوائر السياسية والاقتصادية والعسكرية التي هي على قدر كبير من النضج والبلوغ والاتزان ولهذا نجد أيضا أن هزيمة أي من طرفي النزاع هي من النوع الاستراتيجي الذي يفقد بعدها هذا الطرف استقلاله السياسي أو الاقتصادي أو العسكري أو الكلي، وذلك بعد أن تضطره الهزيمة تلك للإذعان لإرادة خصمه (الطرف الثاني للنزاع). لقد عرفت الحرب الشاملة منذ أمد بعيد، ولكن فكرتها لم تتبلور قبل الحرب العالمية الأولى حيث نمت وترعرعت إبان تلك الحرب (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) وكذلك الفترة التي أعقبت الحرب، ثم تطور مفهومها في شكله النهائي المتعارف عليه اليوم إبان الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م). وقد ساهم في تطورها أربع مدارس أوروبية هي[٢٠].

أ ـ المدرسة الألمانية والمدرسة الإنجلولاتينية وذلك في فترة الحرب العالمية الأولى وما تلاها وكذلك في فترة الحرب العالمية الثانية، وقد انهزمت المدرسة الألمانية في الحربين العالميتين كما نعلم أمام المدرسة الإنجلولاتينية في الحرب العالمية الأولى، وأمام مدرستي الحرب الشاملة السوفيتية والإنجلوسكسونية في الحرب العالمية الثانية، وذلك رغم أن المدرسة الألمانية قد سبقت كل المدارس في تبني الحرب الشاملة.

ب ـ المدرسة السوفيتية والمدرسة الإنجلوسكسونية وذلك في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها حيث اشتركت المدرستان في هزيمة المدرسة الألمانية وكذلك إزاحة المدرسة الإنجلولاتينية.

لقد كانت قمة انتصارات هاتين المدرستين على المدرسة الألمانية في الميادين السياسية والاقتصادية للحرب حيث أرغمتا معظم دول العالم على التحالف معهما أو الوقوف على الحياد وأن يضربا حصارا اقتصاديا وسياسيا محكما حول دول المحور التي تتبنى المدرسة الألمانية في الحرب الشاملة. هذا علما بأن الانتصارات العسكرية كانت في

(٢٠) عقيد/ صفا: الحرب، مرجع سابق، ص ١٢٩.

البداية من نصيب دول المحور ومدرستها الألمانيـة، إلا أن إدارة الحلفـاء للحـرب الشاملة وبراعتهم في ذلك حولت النصر الألماني إلى هزيمة واستسلام في النهاية.

ويسود العالم اليوم المدرستان السوفيتية والإنجلوسكسونيـة، رغـم أن الحـرب الشاملة أصبحت أمرا أشبه بالمستحيل فيما بين الكتلتين ــ الشرقيـة والغربيـة ــ فـي ظـل التهديـد النووي والدمار الذي يدرك العملاقان أنه سيلحق بهما وبحلفائهما وبالعالم أجمع من جراء حرب شاملة.. ولهذا أصبح الطريق لتصفية حسابات العملاقين وتحقيق أهدافهما السياسيـة وأطماعهما الاقتصادية، هو تلك الحروب المحـدودة بيـن دويـلات العالـم الثـالث، والتـي يتحارب العملاقان من خلالهما بأسلحتهم وبواسطة عملائهم وأتباعهم هنا وهنـاك.. وهـي الحروب التي نستطيع أن نسميها: حروب بالوكالة، كتلك التي اشتعلت بين العراق وإيـران والتي أسهم العالم أجمع في إشعالها وإستمرارها لأنها بين بلدين مسلمين، الخاسر فيها هـو الإسلام.

الفصل الثاني

النظم الوضعية والحرب

★ ماهية النظم الوضعية.

★ نشأة النظم الوضعية.

★ النظم الوضعية في أوروبا المسيحية.

★ الفكر والحرب في ظل النظم الوضعية.

★ الحصاد اليهودي من حروب الأمميين.

ماهيــة النظــم الوضــعية

كثيرا ما نسمع باصطلاح النظم الوضعيـة ولربمـا لا نـدرك مـا المـقصود بـه، وقبـل أن أتحدث عن النظم الوضعية والحرب، أود أن أبين مدلولات ومعنى ذلك الاصطلاح الـذي يكثر استعماله عند المسلمين بالذات عندما يكون الحديث عن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعقائدية.

النظم جمع نظام وهو الأسس والقوانين التي تحدد معالم وطرق الأخذ بالشيء والتعامل داخل إطار تلك المعالم والطرق. وعليه نقول نظام اقتصادي حـر أو نظـام اقـتصادي مقيـد لنحدد معالم وطرق هذا النظام أو ذاك والأسس والقوانين التي يقوم عليها أي منهما وكيفية التعامل والتفاعل الاقتصادي داخل إطار هذا النظام أو ذاك، وعليـه قس أيـا مـن النظـم التـي يتعامل بها البشر في حياتهم ومعيشتهم، والتي تكون النظام الكلي الذي يسير حياة الجماعة أو الطائفة أو الدولة أو مجموعة دول أو البشرية جمعاء.

وهذه النظم تصنف عند المسلـم ـــ الـذي عـرف حقيقـة الوجـود البـشري علـى هـذه الأرض، كما عرف حقيقة الوجود البشري قبل ذلك، كما تعرّف على نهايـة هـذا الوجـود ومآل البشرية إلى النعيم أو إلى الجحيم والعياذ بالله، وذلك عن طريق آيات الذكر الحكيـم التي آمن بها وأحاديث الرسول الكريم الذي صدق به عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم ـــ إلى صنفين من النظم:

ـــ نظم ربانية يشملها النظام الواحد الذي ارتضاه الله لعباده ـــ الإسلام.

ـــ نظم وضعية متفرقة لا يجمعها إلا الضلال والانحراف عن جادة الصواب، ومتعـددة بتعدد الشعوب والقبائل التي خلقها الله، وقاصرة بقصور الفكر والعقل البشري بصفة عامة.

إذن النظم الربانية هي من وضع خالق الكون وما فيه من مخلوقات، أما النظـم الوضعيـة فهي من وضع الإنسان الظالم لنفسه.. وشتان بين هذا وذاك إذ لا مجال للمقارنة بين هـذه النظـم وتـلك، ولهـذا السبب لـم أطلـق علـى عملـي هـذا لفـظ «دراسة مقارنـة» كمـا هـو المفروض في مثل هذه الأعمال، وذلك من منطلق قناعتي ورفضي لما يقوم به البعض حين يتحدثون عن جانب من جوانب الإسلام أو نظام من نظمه الفرعية العديدة ويقارنونه بأحـد

النظم الوضعية تحت لفظ «دراسة مقارنة».. إذ كيف يحق لنا كمسلمين ارتضينا الإسلام دينا ونظاما أن نقارن عمل المخلوق بعمل الخالق، وقدرة المخلوق بقدرة الخالق، تنزه الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا (أستغفرك ربي إن زللت).

والنظم الربانية هي النظم التي ارتضاها الله لعباده داخل إطار النظام الكلي الشمولي للحياة البشرية والذي أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل ليبلغوا مضمونه للعباد ويحددوا لهم المعالم التي تحدد إطار هذا النظام الرباني للحياة. يقول سبحانه وتعالى وقوله الحق: **﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلٰم ديناً﴾** سورة المائدة: ٣، ويقول أيضا في محكم التنزيل: **﴿إن الدين عند الله الإسلٰم وما اختلف الذين أوتوا الكتٰب إلا من بعدما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بئايـٰت الله فإن الله سريع الحساب﴾**سورة آل عمران: ١٩، ويقول أيضا سبحانه وتعالى: **﴿ومن يبتغِ غير الإسلٰم ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخٰسرين﴾** سورة آل عمران: ٨٥.. إذن الإسلام هو الطريق والنظام الذي ارتضاه الله لعباده، وفيه العديد من النظم الفرعية التي تعالج أمور البشر السياسي منها والاقتصادي والعسكري والإداري والاجتماعي إلى جانب العبادات التي أوجبها الله لعباده، إنما بلغ لهم بواسطة رسل منهم، كما جاء في قوله تعالى **﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عٰقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون﴾** سورة يوسف: ١٠٩.

وبرسالات السماء ودعوة الرسل آمن من آمن فدخل في كنف نظام الإسلام واستظل بظلاله، وكفر به من كفر فراح يبحث لنفسه عن نظام آخر غير ذاك، وبادر إلى وضع ما يتفق مع آرائه وأهوائه وغرائزه البهيمية.. وتعددت النظم الوضعية عند البشر بتعدد طوائف الكافرين، وبتعدد آراء وأهواء المارقين الذين اختلفوا فيما أنزل الله سبحانه وتعالى على رسله، والذي حددهم الله بقوله في محكم التنزيل **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتٰب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينـٰت بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** سورة البقرة: ٢١٣.

وحيث أن الذين (أوتوه من بعد ما جاءتهم البينٰت) هم اليهود والنصارى، فإن النظم الوضعية التي عرفها الإنسان قديما وحديثا تعود في أصولها إلى عقائد اليهود وأباطيلهم التي توارثوها منذ خروجهم من مصر، وخروجهم في الغالب عن طوع رسول الله إليهم موسى عليه السلام، وما النصارى إلا ضحية من ضحايا اليهود وكيدهم وأباطيلهم، وما عقائدهم التي يعتقدون بها كعقيدة التثليث وألوهية المسيح عليه السلام والتكفير إلا عقائد يهودية توارثها اليهود عن أسلافهم الذين عاصروا العقائد الوثنية في مصر والجزيرة العربية وفلسطين والعراق والشام وفارس والهند، ثم زجوا بالعديد من تلك العقائد الوثنية في ديانتهم اليهودية ثم في ديانة النصارى بعد أن رفع المسيح عليه السلام. توالت رسالات السماء إلى الإنسان لإخراجه من الظلمات إلى النور، منذ آدم عليه السلام وإلى أن جاء خاتم الرسل والأنبياء، محمد صلى الله عليه وسلم وكانت رسالة كل رسول تبيّن للإنسان آيات الله سبحانه وتعالى وتأمره بإخلاص العبادة لله وحده والتي خلق من أجلها.. إلا أن الإنسان كان يرفض السمو في الغالب، ويأبى إلا الانحدار لعبادة الشمس والقمر والنجوم والنار والحجارة والحيوانات وغير ذلك من مخلوقات الله والتي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان الظلوم الجهول. يقول سبحانه وتعالى وقوله الحق: **﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحيٰكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون، هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليمٌ﴾** سورة البقرة: ٢٨ ــ ٢٩، وعليه نجد أن الإنسان بجهله وظلمه لنفسه قد عبد المخلوق المُسَخَّر وأعرض عن الخالق المُسَخِّر.

عن ذلك الإنسان الوثني الجاهل ورث اليهود العديد من العقائد الوثنية التي لم تستطع التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، أن تنتزعها من أفكارهم وعقولهم، فقد أعرضوا عن ذكر الله وكذبوا بآياته واستحقوا غضبه ــ إلا من اهتدى منهم ــ ووصفهم الله تعالى بالحمار الذي يحمل الأسفار حيث حملوا التوراة ولم يعملوا بها، وذلك في قوله تعالى: **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظٰلمين﴾** سورة الجمعة: ٥، حملوا التوراة قرونا دون أن يعملوا بها، بل كانوا يعتقدون بما يتنافى مع هداها، ويقترفون من الآثام والجرائم التي تتعارض مع شرائعها السامية.. ثم أزاحوها جانبا ووضعوا توراة من عند أنفسهم، إبان فترة السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد، وضمنوا توراتهم تلك

ما توارثوه من عقائد وثنية وشرائع بشرية، يقول الله عنهم في محكم التنزيل وقوله الحق سبحانه وتعالى: ﴿**أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلـٰم الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ومنهم أميون لا يعلمون الكتـٰب إلا أماني وإن هم إلا يظنون، فويل للذين يكتبون الكتـٰب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون**﴾ سورة البقرة: ٧٥ ـــ ٧٩.

ومن بعد التوراة وضعوا التلمود التلمود إبان بعثة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ودعوته لهم إلى الحق، وبهذا أصبحت التوراة المحرفة والتلمود الآثم حلقة الوصل بين الوثنية القديمة والنظم الوضعية (الوثنية) المعاصرة، والتي ابتليت بها البشرية وشهدت على يدها أفظع الحروب وحشية وأشدها فتكا وأكثرها دمارا، في القرنين التاسع عشر والعشرين.. فما هي تعاليم التوراة والتلمود..؟ وكيف أصبحت تلك التعاليم أسساً تقوم عليها النظم الوضعية المعاصرة(٢١)..؟

التوراة التي بين أيدي اليهود اليوم، والتي وضعها لهم كاهنهم عزرا «عزيز» إبان فترة السبي البابلي، والتي جيّر اليهود العديد من تعاليمها للنظم الوضعية التي وضعوها للسذج من الأمميين «كل من ليس يهودياً» مليئة بالوثنيات والخزعبلات والكفر والإلحاد والشعوذة والإدعاء الباطل، ولسنا في صدد الحديث عن هذه التعاليم، وإنما نحن بصدد ما يحرض على التفرقة والحروب ويدعو إلى الفتنة من بين تلك التعاليم.

إن أول دعوة للتفرقة والفتنة والاقتتال في توراة اليهود، وفي أول أسفارها ـــ سفر التكوين ـــ هي قصة يعقوب بن اسحـٰق عليهما السلام وأخيه العيس والفتنة التي أثارتها أمهما ربقة ابنة لابان، والتي أود أن أترك التوراة نفسها تتحدث كما جاء في الاصحاح السابع والعشرين من سفرها هذا والذي جاء فيه ما نصه: (وكان لما شاخ إسحـٰق وقلّت عيناه عن النظر استدعى العيس ابنه الكبير وقال له يا بني، فقال له لبيك. فقال إنني قد شخت ولا أعلم يوم وفاتي. والآن احمل آلتك جعبتك وقوسك واخرج إلى الصحراء

(٢١) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى الجزئين الأول والثاني من كتاب «صراعنا مع اليهودية بين الصلح والمستحيل والمواجهة الحتمية» للمؤلف.

واصطد لي صيدا. وأصنع لي ألوانا كما أحببت وأحضر لي الأكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت.

وربقة سامعة خطاب إسحٰق للعيس ابنه فمضى العيس إلى البئر ليصطاد صيدا للإحضار. وربقة قالت ليعقوب ابنها قولا سمعت أباك مخاطبا للعيس أخيك قائلا. احضر لي صيدا وأصنع لي ألوانا لآكل وأباركك في حضرة الله قبل وفاتي. والآن يا بني اسمع من قولي لما أنا موصيك. أمضِ الآن إلى الغنم وخذ لي من هناك جديي ماعز طيبين حتى أصنعهما ألوانا لأبيك كما أحب وتحضر إلى أبيك وتأكل حتى يباركك قبل وفاته. وقال يعقوب لربقة أمه إن العيس أخي رجل شعراني وأنا رجل أملس. فعسى يلمسني أبي فأصير لربقة أمه إن العيس أخي رجل شعراني وأنا رجل أملس. فعسى يلمسني أبي فأصير عنده كالخجلان فتجلبي عليّ لعنة لا بركة. فقالت له أمه عليّ دفع لعنتك يا بني، بل اسمع من قولي وامضِ خذ لي. فمضى وأخذ وأحضر لأمه، فصنعت أمه ألوانا كما أحب أبوه. وأخذت ربقة ثياب العيس ابنها الكبير المعدات التي عندها في البيت وألبست يعقوب ابنها الصغير. وجلود جديي الماعز ألبست على يديه وعلى سلاسة عنقه، وجعلت الألوان والخبز الذي صنعت بيد يعقوب ابنها فجاء إلى أبيه وقال يا أبي، فقال ها أنذا، من أنت يا بني؟ فقال يعقوب لأبيه أنا العيس بكرك، صنعت كما أمرتني، قم الآن اجلس وكل من صيدي حتى تباركني نفسك. فقال إسحٰق لابنه ما هذا أسرعت للوجود يا بني؟ فقال لما وفق الله إلهك بين يدي. وقال إسحاق ليعقوب تقدم الآن لألمسك يا بني، هل أنت ذا إبني العيس أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى إسحٰق أبيه فلمسه وقال الصوت صوت يعقوب واليدان يدا العيس. ولم يعرفه إذ كانت يداه كيدي العيس أخيه شعرانيات وباركه. وقال هل أت ذا ابني العيس ؟ فقال أنا. فقال قدم لي الأكل من صيد ابني حتى تباركك نفسي، فقدم له فأكل فأحضر له خمرا فشرب. فقال له إسحٰق أبوه تقدم الآن وقبلني يا بني. فتقدم وقبله، واشتم رائحة ثيابه وباركه، وقال انظروا، رائحة ابني كرائحة الصحراء كَمُلَ لمّا باركه الله. يعطيك الله من طل السماء، ومن كلأ الأرض، وكثيرا من الداجن والعصير. يخدمونك الشعوب، ويسجدون لك الأمم، كن سيدا لأخوتك ويسجدون لك بنو أمك، لاعنك ملعون، ومباركك مبارك.

وكان لما انتهى إسحٰق من بركة يعقوب وكان لمّا خرج يعقوب من بين يدي إسحٰق أبيه والعيس أخوه أتى من صيده. وصنع أيضا هو ألوانا وأحضر إلى أبيه وقال لأبيه يقوم أبي

ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك. فقال له إسحٰق أبوه من أنت؟ فقال أنا ابنك بكرك العيس. فأنزعج إسحٰق انزعاجة عظيمة إلى الغاية، وقال من الآن اصطاد صيدا واحضر لي وأكلت من الكل قبل أن تأتي وباركته، وأيضا مباركا يكون. وكان لما سمع العيس خطوب أبيه صرخ صرخة عظيمة وصعبة إلى الغاية، وقال لأبيه باركني أيضا أنا يا أبي. فقال أتى أخوك بمكر وأخذ بركتك. فقال أصاب من سماه يعقوب. فتعقبني هذه دفعتين، بكوريتي أخذ وهو ذا الآن أخذ بركتي، وقال أليس استخلصت له بركة؟ فأجاب إسحٰق وقال للعيس إن سيدا جعلته لك وكل إخوته جعلت له عبيدا وبالداجن وبالعصير أسندته، ولك حقا ما أصنع يا بني؟ وقال العيس لأبيه هل بركة واحدة هي لك يا أبي؟ باركني أيضا يا أبي، ورفع العيس صوته وبكى. فأجاب إسحٰق أبوه وقال إن كلا الأرض يكون مسكنك، من طلّ السماء من فوق. وعلى سيفك تبقى، وأخاك تخدم، وتكون عندما تستقيم تفك نيره من عنقك.

وتحيف العيس يعقوب على البركة التي باركه أبوه. وقال العيس في سره تدنو أيام حزن أبي، وأقتل يعقوب أخي. فخبرت ربقة بخطوب العيس ابنها الكبير، فأرسلت واستدعت بيعقوب ابنها الصغير وقالت له إن العيس أخاك متواعد لك بقتلك). إذن أم تثير الفتنة، وأب يحابي هذا الابن دون ذاك، وإخوة يتقاتلون.. في بيت النبوة.. بيت إسحٰق إبن إبراهيم عليهما السلام!، هكذا تصور التوراة الأنبياء عليهم السلام، وهكذا تفرّق بين الأخ وأخيه، وهكذا تدعو للفرقة والاقتتال، وهكذا تدعو للتمييز والعنصرية.. وهي صفات أسبغتها التوارة على كافة النظم الوضعية المعاصرة والتي تستند على التوارة في أساسها كما سنرى.

وفي موضع آخر من التوراة نجد سيلا من تعاليم القتل وإراقة الدماء دون تمييز. فقد جاء في الإصحاح السابع من سفر تثنية توراة عزرا، ما نصه: (إذ يدخلك الله إلـهك إلى الأرض التي أنت داخل إلى هناك لوراثتها ويقلع شعوبا كثيرة من قدامك الحتي والجرشي والأموري والكنعاني، والفرزي والحسي واليبوسي سبع شعوب أكبر وأعظم منك. ويجعلهم الله إلهك بين يديك، تهلكهم، اصطلاما تصطلمهم، لا تقطع معهم عهدا ولا ترأف عليهم. ولا تصاهرهم، بنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لأبنك..) وتستكمل التوارة تحريضها على الفرقة وإراقة الدماء في الإصحاح العشرين من نفسه السفر في نصها التالي: (إذ تدنو إلى مدينة للحرب عليها تستدعيها إلى المسالمة. ويكون إن للسلم تستجيب وتفتح لك يكن كل القوم الموجودين بها يكونون لك ذمة ـــ أي عبيد مسخرين ـــ

ويخدمونك. فإن لم تسالمك وصنعت معك حربا تحاصرها. وإذ يجعلها الله إلهك بيدك فلتقتل كل ذكورها بحد السيف. وأما النسوان والأطفال والبهائم وكل ما يكون في المدينة كل سلبها تغنم لك وتأكل كل سلب أعدائك التي أعطاك الله إلهك. كذلك تصنع بكل المدن البعيدات منك جدا التي ليست من مدن الشعب هؤلاء هنا. وأما من مدن الشعوب هؤلاء التي الله إلهك معطيك نحلة فلا تبق أية نسمة ــ أي أقتلهم جميعا. بل اصطلاما تصطلمهم الحتي والجرشي والأموري والكنعاني والفرزي والجبي واليبوسي كما وصاك الله إلهك ــ أي إن الله وصاهم بقتل كل كائن حي!). ثم تصور التوراة فعل الأقدمين من اليهود عندما دخلوا فلسطين من نواحي أريحا في الإصحاح العاشر من سفر يشوع على النحو التالي: (وأخذ يشوع مقيدة ــ بلدة في أرض كنعان ــ في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ــ قتل ــ ملكها وكل نفس بها، لم يبق شاردا، وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة، فدفعها الرب هي أيضا بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها، لم يبق شاردا، وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلبنة. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وضربوها بحد السيف وحرّم كل نفس بها في ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلخيض. ثم صعد إلى حبرون ــ الخليل ــ وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها، لم يبق شاردا حسب كل ما فعل بعجلون فحرّمها وكل نفس بها. بل حرّم ــ قتل ــ كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل. فضربهم يشوع من قادش برينع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جبعون..). والقتل في التوراة ليس مقتصرا على الخاربين بل يمتد ليشمل كل نفس كما رأينا.. بل يمتد ليشمل البقر والغنم والحمير، كما هو في النص التالي من سفر يشوع في إصحاحه السادس: (وحرّموا ــ أي قتلوا وأهلكوا ــ كل ما في المدينة ــ أي أريحا عندما دخولها بعد وفاة موسى عليه السلام ــ من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف، وأحرقوا المدينة ــ أي أريحا ــ بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد ــ أي الممتلكات ذات القيمة ــ جعلوها في خزانة بيت الرب ــ الذي يأمرهم بالقتل والإحراق وهم ينفذون!).

هكذا وضعت التوراة جذور الحرب الآثمة والوحشية المتأصلة والشهوة الجامحة

لسفك الدماء البشرية.. بل حتى دماء البهائم. ثم التطبيق العملي الأول لهذه التعاليم الآثمة، وذلك في اليوم التعيس في حياة بابل والبابليين العرب حيث قتل اليهود ما يربو على خمسة وسبعين ألفا من البابليين الآمنين العزل في ساعات قلائل، عندما تآمر «مرد خاي» وابنة عمه الزانية «هداسا» التي زوجوها للملك الفارسي «أحشويروش» وضللوه بأن البابليين يريدون قتله وأن لا نجدة له إلا باليهود، فأطلق يدهم دون علم من البابليين الذين ذهبوا ضحية الغدر اليهودي وتعاليم توراة عزرا الذي سموه ابن يهوه وقالوا إن عزيز ابن الله، تعالى الله عنهم وعن ذلك علوا كبيرا، ثم أفردوا سفرا في توراتهم للزانية هداسا عرفانا بجميل صنعها وأسموها «استير» أي النجمة بلغتهم العبرية التي هي خليط من لهجات العرب في العراق والشام والجزيرة العربية ومصر.

ومن بعد التوراة جاءوا بالتلمود الذي فاق التوراة حقدا على البشر ـــ كل البشر، إلى الحد الذي يصوّر الأمميين ـــ كل من ليس بيهودي ـــ أنهم حيوانات لم يخلقوا على هيئة البشر إلا لخدمة اليهود الأشراف الذين هم أبناء الله وأحباؤه ! تعالى الله عنهم علوا كبيرا.

جاء التلمود ليركز فيهم الجريمة والتعالي وإباحة الدماء والأموال والأعراض لبقية الأمم والشعوب، فمن تعاليمه وخزعبلاته أن الله ـــ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ـــ يخاف من حاخامات اليهود ويبكي كل ليلة على ذنبه تجاه اليهود، وأن الملائكة ـــ تنزهوا عن ذلك ـــ يتعلمون التلمود كل ليلة، وأن الشياطين من نسل آدم، وأن أرواح اليهود تتميز عنهم وعن الملائكة فتلك أرواح حيوانات والملائكة مخلوقات أما اليهود فأبناء الله!، وأن على اليهود أن يمنعوا تملك الأممين لأي شيء لأنه خاص باليهود، وأن عليهم أن يستعيدوا كل ما بيد الأمميين بأي وسيلة، وأن عليهم أن يقيموا الحرب على قدم وساق حتى يهلك ثلثا العالم وينتصر اليهود حيث يمضون سبع سنوات يحرقون الأسلحة التي غنموها.. إنها خزعبلات ودعوة للحرب.

إذن التوراة والتلمود دعوة للحرب العدوانية.. الحرب غير العادلة التي اكتوى العالم بنارها مرات ومرات منذ أن هيمنت اليهودية على مقدرات العالم، ومنذ أن أصبحت اليهودية حلقة وصل بين ما عرفه اليهود وفتنوا به من وثنيات الإنسان البدائي القديم في الجزيرة العربية وفارس وبابل والشام ووادي النيل، وبين وثنيات الإنسان المعاصر ونظمه الوضعية التي ارتضاها لنفسه بعيدا عن هدى الله سبحانه وتعالى ورسله الكرام عليهم الصلاة والسلام أجمعين، والتي تستند في أساسها إلى تعاليم التوراة والتلمود بعد أن

هيمنت اليهودية على أوروبا المسيحية التي هي مصدر النظم الوضعية المعاصرة على الإطلاق.

ولقد بادر اليهود إلى احتواء المسيحية والهيمنة عليها منذ أن رفع المسيح عليه السلام حيث تنصّر اليهودي المدعو «شاؤول» وتسمى ببولس، ثم بادر إلى الغلو في المسيحية والمسيح عن قصد ونية خبيثة، ثم تمكن أن يدخل في النصرانية كل الانحرافات الشائعة عند النصارى اليوم والتي في انجيلهم الذي تمكن بولس الرسول ــ كما يطلقون عليه ــ من تحريفه وبث الوثنيات اليهودية فيه مثل تأليه المسيح عليه السلام وقصة التكفير وغير ذلك، وذلك حين تتلمذ على يده كتبة الإنجيل المتداول اليوم بين أيدي النصارى.

ولم يكتف اليهود بتحريف الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام وبث وثنياتهم وخزعبلاتهم الهمجية البدائية فيه، بل أدخلوا في عقول النصارى ما مفاده أن دعوة المسيح ليست إلا امتدادا لدعوة موسى ــ وهذا حق لا نشك فيه نحن المسلمين، ولهذا لابد للنصراني أن يؤمن بالتوراة كما يؤمن بالإنجيل لكي يكمل إيمانه.. وهكذا دفعوا بالمسيحي إلى غياهب الوثنية وظلماتها حين حرفوا الإنجيل الذين أنزل على عيسى عليه السلام، وحيث أقنعوه بالإيمان بتوراة عزرا وما فيها من ظلمات الوثنية.. وعليه أصبح الكتاب المقدس عند النصارى يضم:

ــ الإنجيل الذي حرفه بولس عن الإنجيل الأصل الذي أنزل على عيسى عليه السلام ويطلقون عليه «العهد الجديد».

ــ التوراة التي حرفها عزرا عن التوراة الأصل التي أنزلها الله على موسى عليه السلام ويطلقون عليه «العهد القديم».

وحيث أن التلمود هو تفسير التوراة كما يزعمون، فلابد للنصراني أن يؤمن به، وهذا تحصيل حاصل، حيث يؤمن بالتوراة.. وهكذا أصبحت المسيحية في أوروبا تقوم على: التوراة والتلمود والإنجيل، وتلك الحروب التي اكتوت وتكتوي البشرية بنارها في كل زمان ومكان هي الحروب التي أشعلتها الأدوات اليهودية كالفاشستية والنازية والرأسمالية الاستيطانية والشيوعية كما سنرى في حديثنا التالي:

نشـأة النظـم الوضـعية

بعد أن بينا ماهية النظم الوضعية في حديثنا السابق والأسس التي تستند عليها في قيامها، وقبل أن نتحدث عن أثر هذه النظم في إثارة الحروب وإشعال فتيلها في العديد من أنحاء العالم، وكذلك بعض من هذه الحروب ونتائجها للتدليل على ما نقول. أرى أن لابد من الحديث عن النظم الوضعية السائدة والتي سادت في أوروبا، وهي كما قلنا مركز انطلاق النظم الوضعية ومنشؤها، وذلك للهيمنة اليهودية على أوروبا حيث أن اليهود وراء هذه النظم الوضعية كما سنرى. النظم الوضعية هي تلك التي ارتضاها الإنسان ليسير نظام حياته بعيدا عما ارتضاه الله سبحانه وتعالى لعباده.. أو بمعنى آخر هي الخارجة عن النظام الرباني لحياة الإنسان على الأرض. وتعّد أوروبا مهد النظم الوضعية السائدة وتلك التي سادت في معظم أنحاء العالم منذ مطلع القرن الثامن عشر وحتى يومنا هذا الذي تتقاسم فيه الرأسمالية والشيوعية النفوذ والهيمنة على أنحاء المعمورة، والسبب في ذلك هو خضوع أوروبا للهيمنة اليهودية وسيادة تعاليم التوراة والتلمود منذ تلك الفترة بعد أن كان اليهودي هدفا للمطاردة والاضطهاد في كافة أنحاء القارة الأوروبية.

لقد قلنا إن اليهود هم أكثر الطوائف تعلقا بالوثنية، ولهذا آثروا الوثنية على الوحدانية التي كرّمهم الله سبحانه وتعالى بحمل رسالتها وشريعتها التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام. ومن بعد موسى توالى الأنبياء في بني إسرائيل لجمعهم على عبادة الله وحده والالتزام بشريعة التوراة، ولكن دون جدوى. ثم كانت رسالة المسيح عليه السلام إليهم وما أنزل الله عليه من الإنجيل ليقوم الاعوجاج في بني إسرائيل ولكنهم قوم جبلوا على كل منكر كما يخبرنا القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانو لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كنوا يفعلون**﴾ سورة المائدة : ٧٨ ــ ٧٩، وما كان للإنجيل أي أثر حسن في سيرة بني إسرائيل ثم تم طردهم من أورشليم على يد الرومان عام ١٣٥ ميلادية حيث تشردوا في أنحاء الدولة الرومانية والمناطق العربية المحيطة وجنوب شرقي أوروبا حيث قامت دولة الخزر اليهودية ومنذ ذلك الوقت وهم هدف المطاردة والتشريد والاضطهاد في كل أنحاء أوروبا حتى تمكنوا بواسطة المال والنساء ــ وتلك أدواتهم من عهد راحاب

وهداسا، ومنذ ليلة خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام حيث احتالوا وسرقوا حليّ ومجوهرات نساء مصر التي أخذتها نساؤهم كإعارة بنيّة السرقة ـــ من تحقيق أهدافهم باحتواء المسيحية إلى أن أصبحت دين أوروبا ومن ثم الهيمنة على أوروبا وتسييرها في ظل النظم الوضعية التي وضعوها للأمميين (كل من ليس يهودي) مستندة على الوثنية أولا وهي المعشوق الدائم لليهود، ثم المال الذي هو المعشوق اليهودي أيضاً، وكذلك الانحلال والتهتك الذي عرفه اليهود ومارسوه كما قلنا من عهد الزواني: راحاب وإستير.

لقد كانت البداية عام ١٧٧٠م حيث تآمر المرابون العالميون من يهود أوروبا في بافاريا، حيث قاموا بتنظيم مؤسسة روتشيلد لمراجعة وإعادة تنظيم البروتوكولات اليهودية القديمة على أسس حديثة ـــ المعروف أن اليهود وضعوا التوراة إبان الأسر البابلي حيث لم تتناسب التوراة الحقيقية مع طباعهم القذرة ونفوسهم الشريرة ووثنيتهم المتأصلة. ثم قاموا بوضع التلمود ليدخلوا المستجدات فيه حيث لا مجال لإدخال كل ما يريدون في التوراة وفي أي زمان. ثم قاموا بوضع البروتوكولات القديمة وجددوها كما رأينا عام ١٧٧٠م.

ثم جددوها عام ١٨٩٧م في بال بسويسرا.. وهكذا نجد أن ديانة اليهود وكتبهم «المقدسة»! متجددة دائما لكي تتناسب مع كل مايريدون. والمعروف أن قدسية البروتوكولات لا تقل عن قدسية التوراة عندهم، أما التلمود فهو أكثر قدسية من التوراة.

وعليه قرر المؤتمرون اليهود تكليف البروفيسور «آدم دايزهاوبت» الذي كان أستاذا يسوعيا للقانون في جامعة «أنغولد شتات» في بافاريا. ثم باشر ذلك الشرير المرتد عن المسيحية إلى مذهب الشيطان وعقيدته اليهودية الوثنية عمله عام ١٧٧٠م، وانتهى من إعداد الصياغة المطلوبة عام ١٧٧٦م والتي تقضي بتدمير الحكومات الشرعية في العالم وتدمير الأديان وإشعال الثورات والحروب وتقسيم العالم إلى معسكرات متباينة ومتنابذة لكي تتصارع وإلى الأبد حول العديد من القضايا والأمور العقائدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والعرقية.. وهذا بيت القصيد، وهو منطلق ظهور النظم الوضعية المعاصرة والتي تسببت في قيام الحروب والصراعات التي راح ضحيتها ملايين الأبرياء، وتسببت اليوم في إشتعال العديد من الحروب بالوكالة! والسباق المحموم في مجال التسليح، والذي لو أنفق العالم مخصصاته من الدخول القومية لدول العالم أجمع لما بقي جائع أو مريض أو جاهل، ولما بقيت بقعة جرداء على وجه الأرض. وقد تضمنت خطة وايزهاوبت

الوحشية تلك الأمور التالية [٢٢]:

١ ــ تدمير جميع الحكومات الشرعية وتقويض الأديان السماوية كافة.

٢ ــ تقسيم الجوييم (غير اليهود) إلى معسكرات متنابذة تتصارع فيما بينها بشكل دائم حول عدد من المشاكل التي تتولى المؤامرة توليدها وإثارتها باستمرار ملبسة إياها ثوبا اقتصاديا تارة وأخرى اجتماعيا وثالثة سياسيا ورابعة عنصريا وإلى آخره.

٣ ــ تسليح هذه المعسكرات بعد خلقها ثم تدبير حادث في كل مرة يكون من نتيجته أن ينقضّ كل معسكر على الآخر حتى يفني بعضهما بعضا.

٤ ــ بث سموم الشقاق والنزاع داخل البلد الواحد وتمزيقه إلى فئات متناحرة وإشاعة الحقد والبغضاء بين أبناء البلد الواحد حتى تتقوض جميع مقومات المجتمع الدينية والأخلاقية والمادية.

٥ ــ الوصول بصورة تدريجية إلى النتيجة المرجوة بعد ذلك كله وهي تحطيم الحكومات الشرعية والأنظمة الاجتماعية السليمة وتهديم الدين والأخلاق، والفكر والكيانات القائمة عليها المجتمعات تمهيدا لنشر الفوضى والكفر والفسق والإرهاب والإلحاد.

وهذه الخطة هي أساس الحروب الشاملة والحروب المحدودة وحروب الوكالة والحروب الأهلية التي شهدها ويشهدها العالم اليوم، والتي هي حصيلة النظم الوضعية التي أرستها المؤامرة النورانية اليهودية الشريرة والتي تسعى لتحقيق الهيمنة التامة لعقيدة الشيطان النوارنية اليهودية.. وقد بين ذلك الشرير كافة الوسائل الواجب اتباعها للوصول إلى تلك الأهداف والتي كانت النساء والمال في طليعتها، فهما وسائل اليهود منذ القدم كما بينا للوصول إلى أهدافهم.

أنهى وايز هاوبت مهمته عام ١٧٧٦م، حيث أن الثورة الفرنسية هي أحد الخطوات الشريرة في تلك المؤامرة القذرة، فقد قام الكاتب الألماني «سفاك» بتدوين نسخة من وثيقة المؤامرة لكي ترسل إلى فرنسا لتدبير الثورة فيها كما هو مخطط لها عام ١٧٨٩م. وبالفعل أرسلت النسخة من قبل النورانيين إلى رفاقهم في فرنسا وذلك عام ١٧٨٤م مع

---

(٢٢) وليم غاي كار: اليهود وراء كل جريمة، شرح وتعليق خير الله الطلفاح (بيروت دار الكتاب العربي، ١٩٨٢)، ص ١٢.

رجل لقي مصرعه في «راتسبون» البافارية، حيث عثرت الشرطة على الوثيقة في أمتعة الصريع. وعليه بادرت الحكومة البافارية إلى إغلاق محفل الشرق الأكبر للنورانيين عام ١٧٨٥م واعتبرتهم خارجين على القانون، ثم أشعرت الحكومة الفرنسية بما يخطط ضدها.. ولكن الحكومة الفرنسية لم تأبه بهذا التحذير فقامت الثورة الفرنسية كأولى الخطوات اليهودية على طريق تفكيك العالم وتدميره بالنظم الوضعية، وهي الثورة التي لا يزال المعتوهون في العالم مفتونين بما أنجزته وما حققته كذبا وإدعاء وافتراء.

ثم توالت التحذيرات من خطر المؤامرة النورانية التي يدبرها المرابون اليهود بعد تحذير الحكومة البافارية لباريس التي تفجرت فيها الثورة في العام نفسه الذي وضعه وايز هاوبت في مخططه، وهو عام ١٧٨٩م.

ومن بين تلك التحذيرات المؤلف الذي نشرهُ «روبنسون» بعنوان البرهان على وجود مؤامرة لتدمير كافة الحكومات والأديان والذي نشره عام ١٧٩٨م، وكذلك التحذير الذي أطلقه رئيس جامعة هارفارد «دافيد باين» في التاسع من يوليو عام ١٧٩٨م، وذلك في كلمته أمام الخريجين من الجامعة، وكذلك التحذير الذي أطلقه «الكابتن مورغان» عام ١٨٢٦م من تغلغل النورانيين في الأوساط الدينية والسياسية والاجتماعية في أمريكا وكندا وخططهم السرية وأهدافهم الشريرة، وقد لقي مورغان حتفه على يد «ريتشارد هوارد» الذي نفذ حكم الإعدام الذي أصدره النورانيون.

ولكن هذه التحذيرات وغيرها ذهبت مع الريح دون جدوى حيث أن نفوذ النورانيين قد تغلغل في الأوساط السياسية والدينية والاجتماعية وفي كافة أنحاء أوروبا وأمريكا. وعليه انتشرت المحافل الماسونية اليهودية في أنحاء العالم المسيحي ومنه إلى العالم الإسلامي الذي هو في حرب مستمرة مع اليهودية، حتى أن المحافل الماسونية ومسمياتها العديدة قد وجدت أماكنها وللأسف في عواصم ومدن دول المواجهة العربية مع إسرائيل ــ دولة اليهود والماسونية على أرضَ فلسطين الطاهرة.

توفى آدم وايزهاوبت عام ١٨٣٠م، فبادر النورانيون اليهود إلى اختيار الإيطالي «جوسيبي مازيني» ليكون مديرا لبرنامج المؤامرة عام ١٨٣٤م. واستمر مازيني في هذا المنصب خلفا لوايز هاوبت حتى توفى عام ١٨٧٢م. وفي عام ١٨٤٠م قدّم إليه الجنرال الأمريكي «بايك»، الذي كان شديد النقمة آنئذ على الرئيس «جيفرسون دافيس» الذي سرح القوات التي كان يقودها بايك، لما ارتكبته من جرائم وحشية تحت قناع الأعمال

الحربية. وما هي إلا فترة وجيزة حتى أصبح الجنرال بايك أحد الأدمغة المخططة والمنفذة للمؤامرة الشيطانية حيث أصبح رئيسا للنظام الكهنوتي للمؤامرة الشيطانية وتفوق بذلك على وايزهاوبت ومازيني ولعل أكثر أعماله وأشدها لؤما، هو ما قام به في بيته بمدينة «ليتل روك» بولاية «أركنساس» الأمريكية فيما بين ١٨٥٩، ١٨٧١، حيث وضع المخطط في القرن العشرين وعلى أقل تقدير إلى وصول المؤامرة اليهودية إلى مرحلتها النهائية بإقامة حكومة عالمية يهودية في أورشليم وتحت حكم ملك متوج من نسل داود!

لقد خلف بايك كما قلنا وايزهاوبت ومازيني في قيادة المؤامرة وتفوق عليهما كما قلنا، فهو عبقرية عسكرية استطاع الانتقال بالمؤامرة فيما يتعلق بتمزيق أوصال العالم بالحروب والفتن، إلى موضع التنفيذ واستطاع أن يسخر علمه العسكري في خدمة المؤامرة وأن يرتقي بالمؤامرة إلى مرحلة التنسيق والتخطيط العسكري والتلاؤم مع العلم الحديث ومفرزاته.

ولقد أدرك بايك أن النشاط الماسوني أصبح موضعا للشكوك والشبهات بسبب نشاط مازيني وزبانيته في كل أنحاء أوروبا، فبادر إلى تنظيم الماسونية على أسس مذهبية جديدة ودقيقة وسرية، فأمر بإنشاء ثلاثة مجالس عليا أطلق عليها اسم «اليالادية» الأول منها في مدينة تشارلستون بولاية كارولينا الجنوبية بأمريكا، والثاني في «روما» بإيطاليا والثالث في «برلين» بألمانيا. وهذه المراكز الرئيسية الثلاثة يتبعها ثلاثة وعشرون مجلسا ثانويا، كانت تتولى في أوروبا وأمريكا تدبير القلاقل والفتن وكانت تدير أمورها تعليمات بايك التخريبية التدميرية عن طريق اللاسلكي الذي لم يكتشفه ماركوني بعد كما أفادت بذلك تقارير المخابرات البريطانية والأمريكية، التي لاحظت أن أحداثا غير ذات صلة ظاهرية مع بعضها تقع في أماكن متباعدة من العالم في وقت واحد، فتخلق ظروفا وملابسات خطيرة حول أحد هذه الحوادث بالذات فلا تلبث أن تتطور حتى تنقلب إلى حرب أو إلى ثورة أو غير ذلك من الأعمال التخريبية... وأخيرا اكتشفت أجهزة المخابرات تلك بعد سنين من البحث والتحري أن المحافل الماسونية قد استخدمت اللاسلكي قبل الإعلان عن اكتشافه للاتصال بين محافلها المنتشرة في أنحاء أوروبا وأمريكا للتخريب والتدمير. لقد اعتمد مخطط بايك المتطور والآخذ كما قلنا بسبل التخطيط الحديث والعسكرية المتطورة وبأساليب العلم الحديث، على مخططات وايز هاوبت وبروتوكولات حكماء صهيون التي صاغها وايزهاوبت صياغة حديثة كما أسلفنا وعلى أعمال مازيني وحركاته الثورية

المشبوهة والإجرامية في إيطاليا وكافة أنحاء أوروبا. ولقد ورد لفظ: الصهيونية السياسية في مخطط بايك قبل أن يعلن عنها رسميا في مؤتمر بال عام ١٨٩٧م، وقبل تكوين جماعة محبي صهيون عام ١٨٨١م على أثر مقتل القيصر الروسي على يد اليهود ويشتمل مخطط بايك على الشقين الرئيسيين التاليين(٢٣):

١ ــ اعتمد المخطط في شقه الأول مجموعة التخطيطات والمشروعات السابقة كأساس له منطلقا من المرحلة التي وصلت إليها المؤامرة العالمية. فأقر المخطط المنظم الذي بناه النورانيون بحركات التخريب العالمية الثلاث المبنية على الإلحاد المطلق والتفسخ الأخلاقي والإيقاع بالمجتمعات الإنسانية وهذه هي:

ــ الشيوعية.

ــ النازية والفاشستية.

ــ الصهيونية السياسية.

ونص المخطط على ضرورة تكريس كافة إمكانات اليهودية العالمية، وكافة القوى التي يسيطر عليها النورانيون كالماسونية وشبكات التخريب والمؤسسات المالية والصناعية والسياسية والتيارات الإلحادية التي يغذونها ويسيطرون عليها ويسيرونها لدعم التنظيمات الثلاثة المتقدمة سرا وعلانية وتوسيع نطاقها إلى أبعد حد ممكن.

ويقضي هذا الجانب من المخطط بتنظيم سلسلة متتالية من الثورات والاضطرابات التي تعم كافة المناطق التي بحوزة النوارنيين من العالم.

٢ ــ أما الشق الثاني من المخطط فيتضمن الخطط التفصيلية والتدابير الكفيلة بتحقيق الهدف الآخر الذي رسمه واضعو المخطط العام للمؤامرة، وهو الإعداد لحروب عالمية ثلاث بحيث تشتعل نيرانها على التوالي، وتؤمن للمؤامرة النتائج التالية:

أ ــ تؤمن الحرب العالمية الأولى الإطاحة بدولة الخلافة الإسلامية التي وقفت سدا منيعا في وجه إقامة دولة النوارنيين اليهودية في فلسطين والتي ستكون منطلق الحرب العالمية الثالثة ومرتكز الهيمنة اليهودية العالمية كما سنرى. كما تؤمن الإطاحة بالدولة القيصرية في روسيا والتي تضطهد اليهود وتطاردهم وتقف حائلا دون ظهور الشيوعية وهيمنتها على نصف العالم كما سنرى.

---

(٢٣) المرجع السابق، ص ٢٦ ــ ٢٨.

وقد قامت الحرب العالمية الأولى بالفعل نتيجة الخلافات التي أوجدها وغذاها النوارنيون وعملاؤهم في كل من ألمانيا وبريطانيا اللتين اندلعت الحرب بينهما، وقد سقطت الخلافة الإسلامية قبل نهاية الحرب عام ١٩١٨م، كما سقطت الإمبراطورية القيصرية في روسيا عام ١٩١٧م وقبل نهاية الحرب أيضا، وذلك على أيدي الشيوعيين الذين قرر النورانيون أن ينطلقوا من روسيا في تنفيذ الجزء الذي يخصهم من المخطط النوراني الآثم.

ب ـ تؤمن الحرب العالمية الثانية اجتياح الشيوعية ـ الحركة العالمية الهدامة الأولى ـ لنصف العالم، ووصولها إلى درجة من القوة تعادل مجموع قوى العالم الغربي مما يمهد للمرحلة الثالثة كما سنرى. كما تؤمن وتضخم سلطان الحركة العالمية الهدامة الثالثة ـ الصهيونية السياسية ـ لكي تصل بعد الحرب إلى هدفها المرسوم وهو إقامة دولة النورانيين اليهود في فلسطين والتي ستكون منطلق الحرب العالمية الثالثة كما سنرى.

وقد قامت الحرب العالمية الثانية بالفعل نتيجة الخلافات التي أوجدها وغذاها النوارنيون وعملاؤهم فيما بين النازية والفاشستية من جهة وبين الشيوعية والصهيونية السياسية والمهيمنة آنذاك على فرنسا وبريطانيا وأمريكا، وقد تمكنت الشيوعية بالفعل من الانتشار والهيمنة على النصف الشرقي من أوروبا وأكثر من نصف آسيا وامتدت كذلك إلى أفريقيا وأمريكا اللاتينية، كما قامت دولة النورانيين اليهودية على أرض فلسطين الطاهرة بعد الحرب بثلاث سنوات فقط.. ليبدأ الاستعداد لتنفيذ المرحلة الثالثة والأخيرة من المخطط.

جـ ـ تؤمن الحرب العالمية الثالثة تدمير الإسلام الذي يمثل السد الأخير والعظيم في وجه الحكومة اليهودية العالمية، وتدمير الشيوعية الإلحادية التي سوف تشترك بالحرب وذلك بحرق هذه الورقة بعد استهلاكها وتحقيق المرامي اليهودية منها، وتدمير العالم المسيحي الغربي الذي سوف يشترك في الحرب وذلك بحرق هذه الورقة بعد استهلاك النظم الوضعية التي أوجدها اليهود في ذلك الجزء من العالم.

وعليه يصبح الباب مفتوحا بعد تدمير الأديان والحكومات والنظم الوضعية التي خلقها اليهود لقيام الدولة اليهودية وحكومتها العالمية التي تقود العالم من أورشليم تحت قيادة

ملك من نسل داود، وفي ضوء المذهب النوراني الشيطاني اليهودي الذي سوف يقتنع الناجين من أهوال الحرب العالمية الثالثة أنه الأقوى والأصلح لأن يكون دين العالم الوحيد.

ويقضي المخطط بأن تشتعل الحرب نتيجة للصراع بين الإسلام والصهيونية السياسية في فلسطين، وهي الحرب التي يشترك فيها المعسكران المتصارعان أساسا ـــ المعسكر الرأسمالي والمعسكر الشيوعي، وعليه يستمر القتال حتى يصل الإنسان إلى درجة من الإعياء الجسماني والنفساني والاقتصادي والعقدي. وقد بدأ ذلك المخطط بإقامة دولة إسرائيل وصراعها مع العرب والمسلمين، حيث لا ينكر أحد أن ما يجري في العالم بأسره يسير لخدمة اليهودية وصراعها الدائر اليوم مع العرب والمسلمين. ولعل أبلغ وصف لنتائج هذه الحرب المدمرة والتي يسعى اليهود اليوم لإشعالها كما يقضي مخططهم العالمي، هو في تلك الرسالة التي كتبها الجنرال البرت بايك إلى رئيسه مازيني وبخط يده والمؤرخة في العاشر من أغسطس ١٨٧١مـ أي قبل وفاة مازيني بسنة واحدة، وهي الرسالة المحفوظة إلى اليوم في المتحف البريطاني في لندن، وهذا بعض منها[٢٤] سوف نطلق العنان للحركات الإلحادية والحركات العدمية الهدامة وسوف نعمل لإحداث كارثة إنسانية عامة تبين بشاعتها اللامتناهية لكل الأمم نتائج الإلحاد المطلق وسيرون فيه منبع الوحشية ومصدر الهزة الدموية الكبرى. وعندئذ سيجد مواطنو جميع الأمم أنفسهم مجبرين على الدفاع عن أنفسهم حيال تلك الأقلية من دعاة الثورة العالمية فيهبون للقضاء على أفرادها محطمي الحضارات، وستجد آنئذ الجماهير المسيحية أن فكرتها، اللاهوتية قد أصبحت تائهة غير ذات معنى وستكون هذه الجماهير بحاجة متعطشة إلى مثال وإلى من تتوجه إليه بالعبادة، وعندئذ يأتيها النور الحقيقي من عقيدة الشيطان الصافية التي ستصبح ظاهرة عالمية والتي ستأتي نتيجة لرد الفعل العام لدى الجماهير بعد تدمير المسيحية والإلحاد معا وفي وقت واحد..).

هكذا تقضي الخطة، وهكذا يتضح الهدف اليهودي من وراء المؤامرة التي توالى كل من وايز هاوبت ومازيني وبايك في إعدادها وتنفيذها مرحلة تلو الأخرى.

وهكذا تتضح العلاقة القذرة بين: اليهودية والماسونية والنظم الوضعية من جهة، ودور هذه النظم الوضعية التي أوجدها اليهود في إطار مخططهم سالف الذكر... وهذا ما أردنا الوصول إليه من وراء حديثنا هذا.

---

(٢٤) وليام غاي كار: أحجار على رقعة الشطرنج، ترجمة سعيد الجزائري (بيروت: دار النفائس، ١٩٨١)، ص ١٩.

النظـم الوضعـية في أوروبـا المسيحيـة

بعد أن بينا ماهية النظم الوضعية والمقصود بهـا، وبعـد أن بينـا الطريقـة التـي اعتمدهـا اليهود لإنشاء هذه النظم الوضعية في أوروبا والهدف مـن ورائها ، وكـذلك دور كـل مـن اليهود في ظهورها والعملاء النورانيين الذين خططوا ونفـذوا ولا يزالـون ينفـذون المؤامـرة اليهودية الكبرى ضد الإنسانية[٢٥] نريد أن نتحدث هنا عن هـذه النظـم الوضعيـة وكيفيـة ظهورها في أوروبا، لكي نصل للحديث عن الفكر الوضعي وأثره في الحرب في ظل هـذه النظم الوضعية.. وذلك لكي تكتمل لدينا الفكرة عن هذه النظم التي أشبعت العالم جراحـا وقتلا وتعاسة كما هو مخطط لها من قبل أسياد المال العالمي من المرابين اليهـود، والـدور الخفي تارة والواضح المعلن تارة أخرى للأيدي اليهوديـة القـذرة التـي تدير المؤامـرة فـي الخفاء والتي أطلق عليها «شيريب سبيريدو فيتش» لفظ «حكومة العالـم الخفيـة» فـي كتابـه الذي أسماه بهذا الاسم ليتحدث فيه عن الدور اليهودي القذر.

وصراع المسيحية مع اليهود قديم كما بينا حيث يعود إلى الفترة التاريخية التي ظهـرت فيها رسالة المسيح لتقوّم الاعوجاج اليهودي. وقد كان لأقوال المسيح فيهـم بعـد أن يئـس من صلاحهم أكبر الأثر في حقدهم عليه وعلى أتباعه... فكان قرارهم تدمير المسيحية من الداخل بعد أن فشلوا في قتل المسيح وأنصاره الحواريين.

ومنذ ذلك التاريخ وهم يرون المسيحية عدوا لدودا لكل مـا هـو يهـودي، ولعـل نظـرة نلقيها على تلمودهـم الحاقد تبين لنا تأصل هذا الحقد في نفوسهم. فالتلمـود يضع المسيـح وأمه عليهما السلام في الدرك الأسفل من النار (بين النـار والقـار) كمـا يقولـون، والتلمـود يحث على شرب دم المسيحي في أحد الأعيـاد الدينيـة لأتباعـه، كمـا يـحث علـى عجـن

(٢٥) لمزيد من التفاصيل حول دور اليهودية القذر ومؤامراتها البشعة على العالم: يراجع الجزئين الأول والثاني من كتاب «صراعنا مع اليهودية بين الصلـح والمستحيـل والمواجهـة الحتميـة» للمؤلـف. وكذلك كتابي «اليهود وراء كل جريمة» و «أحجار علـى رقعـة الشطرنـج» للكـاتـب وليـم غـاي كار، شرح وتعليق خير الله الطلفاح.

الفطير المقدس بقليل من هذا الدم المسيحي. وغير ذلك الكثير من حقد وخزعبلات التلمود اليهودي الحاقد على كل ما هو مسيحي. وحيث تغلغل اليهود في أوروبا كان همهم القضاء على المسيحية، وبالفعل فقد تمكنوا في البداية كما بينا من إدخال وثنياتهم التي ورثوها في صلب الديانة المسيحية، ثم أرغموا المسيحيين على الاعتراف باليهودية وكتبها المقدسة وجعلوا للتوراة والتلمود قدسية الإنجيل، ثم جعلوا من المسيحية ديانة كهنوت وصراع مع الحياة والتقدم والرقي.. وتلك بداية النهاية للمسيحية والتي استطاع اليهود من خلالها حصر المسيحية في الذهاب ساعة محددة صباح كل أحد إلى الكنيسة، كما استطاعوا من خلالها أن يفصلوا الدين الذي لا يتماشى مع التقدم والرقي عن الدنيا التي تحتاج فيها حياة الإنسان لكل مظاهر التقدم والرقي.. وبهذا عزلوا المسيحية عن المسيحيين الذين هم الهدف من وراء كل ذلك،.وأفرغوا الدين المسيحي مما بقي فيه من مظاهر السمو. ثم كانت الثورة الفرنسية لتقويض أركان المسيحية الكاثوليكية وكنيستها في أوروبا، ثم تبعتها الثورة البلشفية لتقويض أركان المسيحية الأرثوذكسية وكنيستها في أوروبا، ثم تغلغلوا وأحكموا الطوق حول عنق أوروبا المسيحية اقتصاديا وسياسيا وعقائديا واجتماعيا وإعلاميا، وتمكنوا ومن خلال تلك الهيمنة من نشر كل الموبقات والرذائل في المجتمع المسيحي المؤمن من قبل ذلك بالفضائل. ومع بداية تطور العلوم الطبيعية وتدفق الاختراعات والابتكارات في الفترة التي أطلق عليها : الثورة الصناعية، بادرت اليهودية العالمية الحاقدة إلى إبراز النظم الوضعية كبديل علمي وعملي للدين المسيحي المتعفن والذي يقف حجر عثرة في طريق تقدم الإنسان ورقيه.. وقد ساعدهم في ذلك وقوف رجال الكنيسة بالفعل ضد المخترعين والعلماء، كما ساعدهم العديد من الفلاسفة والمفكرين المسيحيين الذين رأوا في وقوف رجال الكنيسة في وجه العلماء والتطور العلمي مانعا حقيقيا يحول دون رقي مجتمعاتهم وتقدمها، وقد فات هؤلاء المفكرون أن اليهودية هي الدافع للكنيسة لأن تقف موقفها الشائن هذا من العلماء والتطور العلمي.

إذن التناقض والتنافر بين المسيحية والتطور العلمي هو مدخل اليهودية العالمية لإرساء أول المذاهب الشيطانية والنظم الوضعية، ثم توالت من بعده المذاهب والنظم الوضعية التي قادت وتقود العالم بعيدا عن منهاج الله سبحانه وتعالى وما ارتضاه لعباده من نظام رباني يضمن لهم سعادة الدنيا ورفاهها وسعادة الآخرة ونعيمها.

يقول «وليم غاي كار» في كتابه الآنف الذكر «اليهود وراء كل جريمة» في دور اليهود

في هذا الشقاء وتحت عنوان «الصهيونية مؤامرة ضد الإنسانية» ما نصه[٢٦]: سوف أرفع الستار عن الحقائق الرهيبة التي قد تصدم القارىء وتثير لديه شعورا بالحيرة والذهول وذلك لأنها ستزيح النقاب الكثيف الذي تقبع وراءه أو تتستر قوى الشر الخفية التي تحاول أن تتحكم في مصير العالم ومقدراته.

وسأوضح للرأي العام العالمي الطبيعة الصحيحة للصراع الحقيقي القائم في عالمنا هذا والذي وإن تباينت أو اختلفت أسبابه وأساليبه فهي تعود في الواقع جميعا إلى مصدر واحد أو أصل واحد. ذلك هو الصراع القائم بين قوى الخير المتمثلة في الديانات السماوية وبين قوى الشر المتمثلة في العقائد الإلحادية الهدامة. وليعلم القارىء أن بعض المعنيين بحقيقة العالم قد شرعوا منذ مطلع القرن الحالي في العمل على اكتشاف الحقيقة أو الحقائق التي كرسوا حياتهم للوصول إليها، وهي معرفة السر الكامن الذي يمنع بني الإنسان من العيش بسلام وأمان في ظل الشرائع السماوية السمحاء العادلة، حيث يعيشون أخوة حياة وفيرة الخيرات.

وقد استمرت أبحاث بعضهم أكثر من أربعين حولا حتى تمكنوا من الوصول إلى لب الحقيقة وجوهرها، وقد وجدوا تلك الحقيقة في كتب الله المنزلة التي بينت لنا ولهم كيف ولد الشر منذ الأزل في جنة الفردوس حين عصى الشيطان ربه وأضل آدم وحواء عن طريق الحق. ثم شرع الشر ينفث سمومه منذ ذلك الحين بين أبناء المجتمع الإنساني وما زال حتى يومنا هذا. وهكذا أدرك الباحثون أن الحروب والثورات التي أودت بأرواح الآلاف بل الملايين من أبناء الإنسانية، والفوضى التي سيطرت وما زالت تسيطر على العالم محاولة تقويض أركان المجتمعات الإنسانية ليست سوى نتائج طبيعية لمؤامرة الشر الأزلية في نطاق محاولاتها الدائمة لتضليل عقول الناس وإزاغة أفئدتهم عن كلمة الحق وحرفها أو جرفها إلى عالم الإلحاد الموبوء بالشرور والأحقاد).

ولقد اقتضت العقيدة اليهودية الشريرة أن تكون هذه النظم الوضعية متنافرة كما بينا عند حديثنا عن خطة المؤامرة التي وضعها وايز هاوبت، وذلك لكي تستطيع اليهودية عن طريقها الوصول إلى أهدافها وتتمكن من تدمير العالم بواسطتها. ومن بين هذه النظم الوضعية التي ارتضاها اليهود للإنسان المسيحي في أوروبا وأمريكا: الرأسمالية والشيوعية والنازية والفاشستية والتي سنتحدث عن ماهية كل منها وباختصار على النحو التالي:

(٢٦) وليم غاي كار: اليهود وراء كل جريمة، مرجع سابق، ص ٩.

١ ـ الرأسمالية:

المال هو غاية اليهود منذ القدم، وهو وسيلتهم مع النساء لتحقيق أهدافهم ومطامعهم. وقد حفلت التوراة بالنصوص التي تبين مكانة الذهب والفضة في حياة اليهودي، ولعل قصة سرقتهم لحلي ومجوهرات نساء مصر ليلة خروجهم مع موسى عليه السلام خير دليل وأسطع برهان على ذلك، وكذلك ما ترويه التوراه عن حرص جنود يوشع بن نون على قتل كل كائن حي وامتلاك كل ثمين من الذهب والفضة والآنية.

ثم جاء التلمود ليرينا تغلغل المال في نفسية اليهودي وتأصلها، وذلك حين يخبر التلمود أتباعه بأن أموال العالم كلها ستؤول.إليه بعد أن يتحارب العالم ويفنى، وأن مفاتيح الكنوز اليهودية عندئذ سوف تحمل عى ثلاثمائة حمار لكثرتها وثقلها.

ثم جاءت البروتوكولات لتركز على تلك الصفة المتأصلة حيث يقول صاحب الصياغة في بروتوكولهم الثاني والعشرين: في أيدينا تتركز أعظم قوة في الأيام الحاضرة، وأعني بها الذهب.

إذن رأس المال هو هدف اليهود ووسيلتهم منذ أن ابتليت بهم البشرية وهو وسيلتهم لدمار العالم ونشر الفساد والرذيلة في أرجائه. وعليه يستند المذهب الرأسمالي الذي ظهر إبان فترة الثورة الصناعية في أوروبا والذي يقوم في أساسه على المبدأ اليهودي الشهير: الغاية تبرر الوسيلة، وقد برع اليهود منذ القدم في استخدام هذا المبدأ وتطبيقه في حياتهم وتعاملهم مع الأمميين في كل زمان ومكان.

كان مبدأ الغاية تبرر الوسيلة حيث سرقوا حلي المصريات، فالغاية كانت امتلاك تلك الحلي، أما الوسيلة فكانت التظاهر بالحاجة لهذا الذهب لغرض التزين به في مناسبة خاصة وإعادته في اليوم التالي... وخرج الذهب من مصر بهذه الحيلة ــ الوسيلة ــ ولم يعد حتى يومنا هذا.

وكان مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» حيث دخلوا فلسطين من نواحي أريحا، فالغاية دخول فلسطين التي عجزوا وبكافة الوسائل عن اقتحامها، أما الوسيلة فكانت راحاب الزانية التي مكنتهم من تحقيق غايتهم.

وكان مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» حين تقربوا من أحشو يروش ــ الملك الفارسي

الذي احتل بابل، فالغاية كانت التقرب منه واستغلاله للانتقام من البابليين ومن ثم العودة إلى فلسطين، أما الوسيلة فكان جسد هداسا الزانية التي أسموها باستير ــ أي النجمة ــ وأفردوا لها سفرا من أسفار توراتهم.

وهكذا يقترن مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» بالسلوك اليهودي في كل زمان ومكان ــ وقد ضمنوه في بروتوكولهم الأول بصراحة ودون مواربة على النحو التالي: (إن الغاية تبرر الوسيلة وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد..).

ظهر المذهب الرأسمالي في الاقتصاد كثمرة للهيمنة اليهودية الطويلة على الفكر المسيحي بشكل عام من ناحية، وكثمرة للتقدم العلمي الهائل والثورة الصناعية التي رافقته في أرووربا من ناحية أخرى، إذ كان لابد أن تعم التنمية الاقتصادية أرجاء أوروبا لتوظيف التقدم العلمي في خدمة التصنيع الذي كان ركيزة التنمية الاقتصادية الأوروبية. هنا ظهرت المدرسة التقليدية للتنمية الاقتصادية والتي برز من روادها كل من «آدم سميث» و «ريكاردو» وهما مؤسسا المذهب الرأسمالي المعاصر رغم ما قد طرأ من تحديث على آراء أصحاب المدرسة التقليدية ــ سميث وريكاردو وغيرهم ــ حيث ظهرت المدرسة التقليدية الحديثة، ثم تبعتهما آراء «شوبيتر» و «مارشال» و «كينز» وغيرهم من رواد المدرسة الحديثة للتنمية الاقتصادية.

والتنمية الاقتصادية عند الأب الروحي للمذهب الرأسمالي «آدم سميث» ترتكز على أساس من مبدأ تقسيم العمل الذي يؤدي إلى رفع المستوى الفني للعمال وزيادة إنتاجيتهم. وتعتبر المنافسة الحرة عند آدم سميث كاليد الخفية التي تدفع بتقسيم العمل إلى الأمام.. وعليه فهو يعارض ويرفض التدخل الكنيسي أو الحكومي وبأي شكل من الأشكال، لكي لا يعرقل اليد الخفية ــ المنافسة الحرة ــ داخل الاقتصاد. ثم تلقف «ريكاردو» آراء «آدم سميث» تلك وجعل منها منطلقا لدراساته في التنمية الاقتصادية، فوسعها وعمقها وأرساها لتكون منطلقا وركيزة للآراء والفلسفات الرأسمالية التي عمت أوروبا وأمريكا ومنها إلى دول العالم الثالث التي اكتوت وتكتوي بالمذهب الرأسمالي الآثم والذي هو أحد البذور اليهودية للتفرقة واستغلال الإنسان للإنسان.

لقد كانت صيحة آدم سميث وريكاردو الشهيرة «دعه يعمل.. دعه يمر» والمبدأ

اليهودي السالف والذي قام عليه المذهب الرأسمالي «الغاية تبرر الوسيلة»، أدوات هدم في المجتمعات الأوروبية والأمريكية ومن اقتدى بها وحذا حذوها من دول العالم الثالث. فالإنسان ــ الذي جردته اليهودية من دينه إلى الحد الذي لم يبق في ذهنه من ذلك الدين إلا الذهاب ساعة في الأسبوع إلى الكنيسة، ثم زرعت في وجدانه النظرة المادية البحتة للحياة وأذنت له أن يعمل ما يشاء ويكسب ما يشاء كيفما يشاء دون رادع من دين أو ضمير أو رقابة حكومية في ظل مبدأ: الغاية تبرر الوسيلة، ثم منعت الحكومة والكنيسة من القيام بأي دور رقابي على عمل الإنسان في ظل المبدأ الرأسمالي: دعه يعمل، دعه يمر ــ لابد أن يكون عونا لليهود في تحطيم ما تبقى من فضائل وقيم في تلك المجتمعات، ولابد أن يكون وسيلة بيد اليهود لتحقيق أغراضهم ومراميهم الساعية إلى تدمير الأديان والحكومات والمجتمعات.. وهذا ما حدث بالفعل إذ أصبحت أوروبا في ظل النظام الرأسمالي الوضعي أداة بيد اليهودية العالمية تسيرها كيفما تشاء.

لقد انطلق الأوروبيون في ظل النظام الرأسمالي ومبادئه الأنانية القذرة «دعه يعمل، دعه يمر» و«الغاية تبرر الوسيلة» إلى أنحاء العالم المنكوب يسرقون وينهبون ويسلبون ويغتصبون دون أي رادع من دين أو قيم وهي التي دفنوها بإيعاز من اليهود قبل انطلاقتهم تلك، فكانت الهجمات الاستعمارية الاستيطانية إلى أنحاء العالم لامتصاص خيرات الأمم والشعوب واستعبادها وإذلالها، وكانت ثورة هذه الشعوب ورفضها القاطع لهذا المنهج الأوروبي الهمجي القذر، وكانت الحروب التي لا مفر منها بين قوى الخير التي تمثلها الشعوب المراد إذلالها واستعبادها وسرقة خيراتها وعرقها، وقوى الشر التي تمثلها جحافل الغزو الاستعماري الاستيطاني الطامعة بخيرات هذه الشعوب وخيرات أرضها والمسيرة من حكومات استعمارية أعماها المذهب الرأسمالي ومبادؤه الأنانية القذرة. وفي ظل المذهب الرأسمالي وجد اليهود فرصة سانحة لإبراز أطماعهم القديمة بفلسطين وخيرات المنطقة العربية بأسرها، فبلوروا فكرتهم تلك بشكل استيطان يهودي بفلسطين، تدعمه قوى الشر الاستعماري التي تسود أوروبا.. وهكذا وجدت فكرة العودة اليهودية إلى فلسطين طريقها إلى التنفيذ وسط تلك الأجواء الاستعمارية الاستيطانية السائدة، والتي هي حصيلة جهد اليهود وتخطيطهم لقيادة أوروبا نحو الهاوية.

وهكذا انقسمت المجتمعات الأوروبية نفسها إلى فئة مترفة تملك كل شيء، وفئة معدمة، في ظل مبدأ: دعه يعمل دعه يمر، وهكذا أصبحت الفئة المعدمة وسيلة للهدم والإجرام والرذيلة والإتجار بالعرض، في ظل مبدأ: الغاية تبرر الوسيلة. وهكذا اصطلت الشعوب بجحيم المذهب الرأسمالي الاستيطاني الأوروبي الذي أصبح دافعا للشعوب الأوروبية والأمريكية الإمبريالية لأن تريق دماء الشعوب وتستعبدها وتسرق خيراتها، في ظل مبدأ: الغاية تبرر الوسيلة.

وهكذا وجدت الشعوب في فلسطين والجزائر وأفغانستان وشبه القارة الهندية والخليج العربي ومصر والسودان وسوريا وسائر الشعوب الآسيوية والأفريقية والأمريكية الجنوبية، نفسها في حروب فرضت عليها، ولابد من أن تجند لها كل ما تستطيع، ولابد لها أن تقتطع من لقمة العيش ما تستطيع أن تشتري به السلاح من أعدائها للدفاع عن خيرات أراضيها وأعراض نسائها وعرق ودماء رجالها وشبابها.. وذلك في ظل النظام الرأسمالي الوضعي الذي ارتضاه عملاء الشيطان من اليهود للإنسان الذي قبل أن يكون مطيّة للشيطان وجنوده اليهود الحاقدين.

٢ ــ الشيوعية:

المذهب الشيوعي الذي ظهر في أوروبا هو نقيض المذهب الرأسمالي في كل شيء، نقيضة في النظرة إلى الملكية، فالمذهب الرأسمالي يقوم على الملكية الفردية المطلقة، في حين يقوم المذهب الشيوعي على إلغاء الملكية الفردية وحصر الملكية بشكل عام بأيدي الدولة أو الطبقة العاملة التي يجب أن تسود وتحكم في نظر الشيوعيين. والمذهب الرأسمالي يقوم على حصر دور الدولة في نطاق مالايقدر القطاع الخاص على القيام به لانتقاء الربحية منه كالأمن والقضاء والجيش وما إلى ذلك، أما المذهب الشيوعي فيقوم على احتكار الدولة لكل الأعمال العامة التي لاربح يرتجى منها والأعمال الربحية على السواء.. وهكذا نجدهما متناقضين في كل شيء.

وإن كان من نقاط التقاء بينهما فهي المحصورة في:

ــ استنادهما جمعيا إلى المبدأ اليهودي: الغاية تبرر الوسيلة، وطبعا كل فيما يتفق مع تطلعاته وأهدافه التي يسعى لتحقيقها.

ــ استنادهما جميعا إلى الفكر اليهودي التلمودي الآثم، الذي أوجد المذهب

الرأسمالي ثم أتبعه بالمذهب الشيوعي وجعل منهما نقيضين لا يلتقيان، وذلك من منطلق مخطط المؤامرة الذي نص في أول فقرة منه على إيجاد المعسكرات المتنابذة والمتصارعة على الدوام.

ـ استنادهما جميعا إلى المذهب المادي الذي انطلق به اليهود لتدمير الأديان وجعلوا من التفسير المادي للتاريخ مفهوما شاملا في غرب أوروبا وشرقيها، واستطاعوا بموجبه إثارة المعارضة الشاملة للروحية والمعنوية والمثالية.

والشيوعية ليست وليدة تلك الحقبة المظلمة في تاريخ أوروبا، وإنما هي وليدة الفكر اليهودي الذي صاغ التلمود بعد العودة من السبي البابلي وإبان ميلاد المسيح بن مريم عليه السلام. وقد تبنت فرقة الحسديين نظام تحريم الملكية الفردية وحصرها في الملكية العامة المشاعة. وبالفعل فقد طبق أفراد هذه الفرقة اليهودية نظام الملكية العامة هذا، واعتزلوا المجتمع اليهودي بفلسطين حيث عاشوا حول البحر الميت، وفي مجتمعهم الاعتزالي هذا جعلوا جميع ما تحت أيديهم من أرض وغلال وملابس وأطعمة ومتاع ملكا عاما جماعيا مشاعا لكل أفراد الجماعة، وحتى البيوت جعلوها مشرعة الأبواب يأوي إليها من يريد دون أي قيد.. فهل من شيوعية أكثر من تلك!؟

أما الشيوعية المعاصرة فهي بنت الفكر اليهودي التلمودي، وإحدى ثمار المؤامرة التي تتابع وايز هاوبت ومازيني وبايك على إدارتها وتخطيط جرائمها وتنفيذها. وهي تعود وتنسب إلى كارل ماركس الذي يعده البعض الأب الروحي والمبتكر الوحيد للشيوعية.. وكارل ماركس ليس إلا «كاي مردخاي» اليهودي ابن اليهودي، وقد كان والده أحد كبار حاخامات اليهود في ألمانيا. أما قصته مع اليهودية فهي جزء من المؤامرة كما أسلفنا وهذا ملخصها كما جاء في كتاب «اليهود وراء كل جريمة» للكاتب «وليم غاي كار» وهو أحد الكتب النادرة التي تفضح الجريمة اليهودية بحق البشرية عامة والمسيحيين والمسلمين خاصة يقول وليم غاي كار عن ظهور الشيوعية على أيدي النورانيين اليهود ما يلي(٢٧): كان المحفل الماسوني الأعلى للكنيس اليهودي وعملاؤه من المرابين العالميين يعتمدون من أجل تخريب النظام الاجتماعي على مجموعة من الحركات الفوضوية التي استطاعوا أن يمدوا

(٢٧) المرجع السابق، ص ١٩.

شباكها إلى مختلف الأقطار الأوروبية وخصوصاً روسيا وأوروبا الوسطى، وعرفت هذه الحركات باسم «النهاسية» وكانت تعتمد على عدد من النوادي والجمعيات الإلحادية في تنفيذ أهدافها.

وقد كشف النقاب لأول مرة في عام ١٨٢٩م عن نوعية من التخطيط الجديد الذي أعده محفل النورانيين بعد تنظيمه الحديث من قبل وايزهاوبت، إذ أوفد أحد أعضائه وهو رجل إنجليزي عرف باسم «المستر رايت» إلى نيويورك في ذلك العام، حيث عقد مؤتمرا للمحافل الماسونية التي تم تهويدها وإلحاقها بالمؤامرة، أبلغ فيه «رايت» المجتمعين بالتنظيم الجديد الذي وضعه حكماء صهيون والذي يقضي بتوحيد جميع الحركات «النهاسية» والجمعيات الإلحادية في أوروبا ضمن نطاق منظمة عالمية أو أممية واحدة، تمد فروعها وشباكها وخلاياها السرية ومنظماتها العلنية إلى كل بلد في العالم وتدعى بـ «المنظمة الشيوعية»، ويجب العمل من ناحية أخرى على وضع نظرية عقائدية ذات فلسفة خاصة تقوم هذه المنظمة على أساسها.

وقد كلف المؤتمر المذكور بتجميع رصيد من الأموال اللازمة للإنفاق على هذه المؤسسة أو هذا المشروع، فعينت لجنة من ثلاثة أشخاص هم «هوراس غريلي» و «تشارلز دانا» و «كلينتون روزفلت» الجد المباشر «لفرانكلين روزفلت» رئيس الولايات المتحدة الأمريكية إبان الحرب الكونية الثانية، والذي أعقبه على رئاسة الحكم بعد وفاته «ترومان».. وجمعت هذه اللجنة المبالغ المطلوبة.

كما وقع اختيار النورانيين من ناحية أخرى على اليهودي الألماني «كارل ماركس» وعلى زميله «إنجلز» لوضع النظرية اللازمة لبلشفة العالم، واستقدموهما إلى لندن لإنجاز المهمة حيث أقاما في منزل في حي يدعى «سوهو» في لندن وهو حي مشهور بالدعارة والموبقات ويقع في قلب العاصمة البريطانية، واشتغلا بوضع كتاب رأس المال الشيوعي الذي يعتبر عند الشيوعيين وإنجيلهم! ووضع إلى جانب كتاب رأس المال البيان الشيوعي المدعو «المانيفيستو».. وقد صرفت اليهودية العالمية على هذين الكتابين من مالها الخاص بسخاء فظيع ونشر في حركة الهيجان العالمي المرسومة والتي سميت فيما بعد البيان الشيوعي أو المانيفيستو الشهير.

لم يكن التنظيم الجديد للحركات الفوضوية الإلحادية ضمن قالبها العالمي الأممي الذي عرف فيما بعد باسم الشيوعية والذي امتدت أذرعه الأخطبوطية إلى كل ركن

من العالم.. لم يكن هذا التنظيم الوحيد الذي نص عليه المخطط الجديد، بل تتجلى العبقرية الجهنمية لقوى الشر في مجموع ترتيبات الشر وذلك باعتماد ثلاثة تنظيمات ظاهرية التناقض يرتدي كل منهما قناعا مختلفا ومغايرا بصورة أساسية للقناعين الآخرين، بينما هي جميعا تدور في فلك هو فلك الإلحاد، وتنصب غاياتها البعيدة العميقة على هدف نهائي واحد هو تحقيق مؤامرة الشر الأبدية والوصول إلى إخضاع العالم بأسره إلى دكتاتورية شاملة مطلقة لافكاك منها هي دكتاتورية محفل حكماء صهيون. أما التنظيمان الآخران اللذان نظمهما محفل النورانيين العالمي فهما النازية والصهيونية السياسية..).

تلك هي قصة كارل ماركس والشيوعية ودور ماركس وأنجلز ورايت في المؤامرة اليهودية القذرة على البشرية جمعاء.. بقي لنا أن نعرف بعد ذلك أن قيادة المؤامرة انتقلت عام ١٨٧٢م بعد وفاة مازيني إلى بايك وعين الإيطالي «أدرياتو ليمي» مساعدا له وخلفا لمازيني في قيادة حركة التخريب العالمية. ثم انتقلت قيادة المؤامرة بعد وفاة بايك وليمي إلى كل من اليهوديين الشيوعيين: لينين وتروتسكي. كما بقي لنا أن نعرف أن قادة الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧م هم من اليهود عموما عدى أعضاء عينوا للتمويه دون أن يكون لهم أي دور يذكر.

هكذا ظهر المذهب الشيوعي الذي يقوم على إلغاء الملكية الفردية، ثم انبثق منه النظام الشيوعي الوضعي الذي يقوم على الإلحاد وإنكار وجود الخالق واعتبار الدين أفيونا مخدرا للشعوب.. وهذا بيت القصيد الذي سعى إليه اليهود الوثنيون، الذي لا يطيقون أن يروا أناسا يعبدون الله الخالق في حين هجروا هم رسالته إليهم وحادوا عن الواحدانية التي ارتضاها لهم سبحانه إلى الوثنية التي هاموا بحبها منذ أن وجدوا على مسرح التاريخ.

وهكذا تمكنت الشيوعية من الانتشار بعد الحرب العالمية الثانية التي أشعلها اليهود في النصف الشرقي من أوروبا والصين وجنوب شرق آسيا، ثم لتقاسم النفوذ كما أراد لها اليهود مع الرأسمالية في أفريقيا وأمريكا اللاتينية لتغطي نصف العالم كما هو نص المخطط اليهودي الشيطاني.

وهكذا تمكن اليهود من تقسيم العالم إلى نصفين متنابذين ومتنافرين ومتصارعين تمهيدا للحلقة الثالثة من المسلسل اليهودي الإجرامي والقاضي بإشعال الحرب

الكونية الثالثة بين هاتين القوتين وهذين العملاقين ليدمر كل منهما الآخر ويدمران معهما شعوب العالم الأخرى، لكي يخرج اليهود من الجحور ويهيمنوا بنظريتهم الشيطانية ونظامهم الوثني على من بقي من شعوب العالم.

وهكذا ابتليت العديد من شعوب العالم المنكوبة بسموم الشيوعية الملحدة صنيعة اليهودية الوثنية الحاقدة، تلك الشعوب التي فقدت دينها وقيمها وخيراتها ودماء رجالها في شرق آسيا والصين والجمهوريات السوفيتية العديدة ودول شرق أوروبا وأفغانستان واليمن الجنوبي الذي دفع ما يربو على خمسة وعشرين ألفاً من شبابه في أيام معدودة في سبيل من يتولى العرش الشيوعي من الرفاق في عدن.

وهكذا أصبحت خيرات الشعوب تنفق في سبيل الشيطان والمكر اليهودي المتآمر مع الشيطان، في سباق محموم نحو التسلح، والذي يلقن التلمود أتباعه أنه من المتوجب عليهم أن يمضوا سبع سنوات وهم يحرقون الأسلحة المتبقية بعد دمار العالم بأيدي القوتين العظميين، حيث تكون الهيمنة حينئذ خالصة للسادة اليهود الذين يستعبدون من يبقى من الشعوب بحيث يكون لكل يهودي ألفان وخمسمائة عبد من الأمميين الناجين من الحرب العالمية الثالثة.

٣ ـ الفاشستية النازية:

ليست الفاشستية النازية مذهبا أو نظاما وضعيا قابلا للديمومة كما هي الحال في كل من النظامين والمذهبين السالفي الذكر: الرأسمالية والشيوعية، وليست النازية الفاشستية عدوا حقيقيا لليهود كما يتصور الملايين منا معشر الأمميين سواء من المسلمين أم من المسيحيين، وإنما هي عدو مصطنع لمرحلة مصطنعة هي الأخرى ولهدف يهودي محدد سلفا.. وإليك الحقيقة..

بعد أن تمكنت اليهودية العالمية بمذهبها الشيطاني الوثني من تدمير آخر ما في المسيحية من قدرة على البقاء، وسلبت الكنيسة أي دور أو تأثير على أتباعها وفي مجتمعاتها باشرت العمل على الدعوة إلى القومية والتعصب للعرق، فهب الأوروبيون وبكل سذاجة يلهثون وراء هذه المكيدة اليهودية القذرة المتعفنة، فذاقوا الويلات وتجرعوا كؤوس المنون في ساحات وميادين القتال بين هذا الشعب أو ذاك من شعوب أوروبا المنكوبة.. والفاشستية النازية لا تعدو أن تكون واحدة من الدعوات العرقية العنصرية التي اجتاحت أوروبا منذ أن باشر النورانيون اليهود بتنفيذ

مؤامراتهم البشعة ضد المسيحية والشعوب التي تؤمن بها وتعتنقها. وهي تقوم على المقولة الشهيرة: ألمانيا فوق الجميع.

لقد اقتضى مخطط بايك سالف الذكر قيام الحركات الإجرامية الثلاثة: الشيوعية والنازية والصهيونية السياسية، بحيث تتولى تلك الحركات الإجرامية إثارة الحروب العالمية الثلاث. أما كيفية ظهور النازية الفاشستية، فهذه ما يبينها «وليم غاي كار» في كتابه «اليهود وراء كل جريمة» بقوله[٢٨]: (في الوقت الذي كان «كارل ماركس» و«أنجلز» ينجزان فيه كتابة البيان الشيوعي ورأس المال تحت إشراف عدد من النورانيين في لندن وبرأس مال يهودي، كانت عملية مماثلة تماما وإن كانت مناقضة في طبيعتها للأولى تجري في فرانكفورت بألمانيا. فقد وقع اختيار محفل النورانيين على البروفيسور «كارل ريتر» الأستاذ في جامعة فرانكفورت وهو أحد أتباع المحفل للقيام بمهمة وضع نظرية علمية معاكسة للشيوعية التي كان كارل ماركس قد وضعها لحسابه! فقام كارل ريتر بدوره تحت إشراف مجموعة أخرى من النورانيين بوضع نظرية فلسفية اقتصادية كاملة جاءت معاكسة للشيوعية، إلا أنها مستندة إلى نفس الروح الإلحادية التي استندت عليها الشيوعية من قبل ومبنية على الأفكار العرقية والتعصب العنصري.

وقد لف الغموض الأسباب التي حدت بالنورانيين لوضع نظريتين هدامتين متعاكستين قائمتين في آن واحد على الإلحاد، بيد أن هذا الغموض ما لبث أن تبدد وانجلى حين عرفنا الهدف البعيد من ذلك وهو تمكين قوى الشر في المستقبل من تمزيق الشعوب والمجتمعات شيئا فشيئا بواسطة هذه الأسلحة الفتاكة وتحت إشراف رؤوس المؤامرة العالمية حتى ينقسم العالم بالنتيجة إلى معسكرين متناحرين مما يمهد للخطوة التالية وهي تسليح كلا المعسكرين ودفعهما إلى هاوية الحرب التي سيكون من نتيجتها أن ينقض كل منهما على الآخر فيدمره ويقضي على نظمه السياسية وعقائده الدينية ومثله الأخلاقية وكيانه الاقتصادي.

لقد أعلن كارل ريتر في مخططه أنه باستطاعه العرق الآري أن يسيطر على أوروبا ثم على العالم أجمع بعد ذلك ـــ لاحظ دعوة ماركس أممية في حين أن دعوة ريتر

---

(٢٨) المرجع السابق: ص ٢١ ـــ ٢٢.

عرقية ــ وقد تبنى مجموعة من الزعماء الأوروبيين ووضعهم في مخطط فأسسوا الفكرة النازية مؤملين عن طريقها تحقيق هدف السيطرة على العالم وتحويله إلى دولة إلحادية تخضع لدكتاتوريتهم الشاملة.

ونحن نشك في كون أن عددا من المنتمين إلى المنظمات الشيوعية والنازية على علم بأن منظمتهم ليست إلا مطية لليهود والكهان المهيمنين على الكنيس اليهودي للوصول إلى أغراضهم... أقول نشك في كون أن هذا العدد يتجاوز نسبة ضئيلة من الزعماء الرئيسيين لهذه المنظمات.

كانت نظرية كارل ريتر وأفكاره أحد الأسس الرئيسية التي استند عليها فيما بعد الفيلسوف الألماني الشهير «فردريك نيتشة» حين وضع فلسفته ونظرياته التي لعبت دورا مهما في تاريخ الفكر وطرح فكرة الإنسان الأعلى وتفوق العلم الجرماني أو الآلي. وكانت نظريات وأفكار نيتشة بدورها المصدر الذي تولد عنه المبدأ الفاشيستي ثم المبدأ النازي. وقد أدت هذه النظريات بمجموعها إلى تبلور المعسكر الألماني والغرب من ناحية أخرى مرتين متتاليتين خلال القرن الحالي، واشتعال نار حربين عالميتين: الأولى قامت عام ١٩١٤م، والثانية قامت عام ١٩٣٩م. وهكذا تتضح لنا صورة مجهولة للمعالم الخفية لتاريخ العالم الحديث ونلمس بأيدينا النتائج الواقعية للمخططات التي رسمها المحفل الأعلى لقوى الشر من مطلع القرن الماضي).

الجدير بالذكر أن اليهودية العالمية استخدمت الزعيم النازي هتلر كمطية دون أن يدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان وقد حاول أن يتصرف خلافا لمبادىء ريتر ونيتشة، فحاول القادة الألمان اغتياله بالرغم من أنهم هم الذين رفعوه إلى قمة القيادة.

والجدير بالذكر أيضا أن نيتشة لم يكن يدرك هو الآخر أنه من المجندين لخدمة خطة الشيطان وأحفاده اليهود.

والجدير بالذكر أيضا أن ألمانيا نتيجة لكل هذا، وإلى يومنا هذا إنما هي مطية سهلة الانقياد لليهودية العالمية ودولتها إسرائيل.

الفكــر والحــرب في ظـل النظم الوضعية

الرأسمالية.. الشيوعيـة.. النازيـة.. الفاشستيـة.. الصهيونيـة السياسيـة.. القوميـة العرقيـة العنصرية الماسونية بواجهاتها ومسمياتها المتعددة بتعدد الأهداف اليهودية الجانحة.. وغير ذلك من أدوات الهدم ومعاوله اليهودية الصنـع، ليست إلا وسائـل تدميـر وهـدم لديانـات الأمميين ودولهـم وحكوماتهـم الشرعية ومجتمعاتهـم المتمسكة بالفضيلـة والـرافضة للرذيلـة اليهودية المتعددة الألوان والأصناف.

ومن بين هذه المسميات والأدوات اليهودية ما جعلوا منه نظاما وضعيا للأمميين كبديل لما ارتضاه لهم الله سبحانه وتعالى وأرسل الرسل عليهم السلام مـن أجلـه. ومـن بيـن هـذه النظم الوضعية ما قد استنفد أغراضه وانتهـى بانتهـاء مبـررات وجـوده فـي نظـر المفكريـن اليهود من أحفاد الشيطان كما وصفهـم المسيـح عليـه السلام كالنازيـة والفاشستيـة، ومن بينها ما لا يـزال فـي الخدمـة! حيث لـم يكتمـل دوره بعـد فـي تدميـر أديـان وحكومـات ومجتمعات الأمميين كما هو مقرر له عند أحفاد الشيطـان ذاتهـم كالرأسماليـة والشيوعيـة والقومية.

وهذه النظم الوضعية ــ سواء منها ما قد استنفد أغراضه وانتهى إلى حيـث ظهـر أو مـا ينتظر دوره كما هو مقرر له، تستند جميعهـا فـي فكرهـا وجذورهـا إلـى التـوراة والتلمـود اللذين تحدثنا عن بعض جوانبهما ونود أن نبين ما لم نبينه حيث أنهما هما اللـذان يرسمـان الإطار الفكري للحرب التي ابتليت ولا تـزال تبتلـى بهـا البشريـة فـي ظـل النظـم الوضعيـة اليهودية.

المعروف أن التوراة هي الشريعة التي ارتضاها الله لبني إسرائيل وأنزلها في الألواح على رسوله وكليمه موسى عليـه السلام، وقـد ورد ذكـر التـوراة فـي العديـد مـن آيـات القـرآن الكريم ومنها قوله تعالى في محكم التنزيل:**﴿وآتينـا مـوسى الكتـٰب وجعلنـاه هـدى لبنـي إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا، ذرية من حملنا مع نـوح إنـه كـان عبـدا شكـورا﴾** سورة الإسراء: ٢ ــ ٣. ولكنهم اختلفوا فيه، وقد حدث منهم ما حدث في صحراء سيناء بعد خروجهم من مصر، وحدث لهم ما حدث في تلك الصحراء كعقوبة مـن الله سبحانـه

وتعالى على كفرهم وجحودهم ووثنيتهم التي تجلت في العديد من أقوالهم لموسى عليه السلام ومواقفهم العنادية معه مما لسنا في صدد الحديث عنه، يقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل **﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتٰب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العٰلمين، وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾** سورة الجاثية: ١٥ ـ ١٦. ولم يؤمن بالتوراة وأحكامها وتشريعاتها من بني إسرائيل إلا القلة القليلة منهم في عهد موسى عليه السلام ومن بعده، إلا أنهم لم يبادروا إلى حذف التوراة جانبا ويتخلوا عن حملها، بل واظبوا على حملها في تابوت العهد مئات السنين دون أن يحفظوا منها حرفا، ودون أن يعملوا بها، وبذلك استحقوا وصف الله سبحانه وتعالى لهم بالحمير التي تحمل الأسفار، وذلك في قوله تعالى في محكم التنزيل **﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** سورة الجمعة: ٥.

وحملهم للتوراة دون العمل بها نابع من طبيعة النفس اليهودية الشريرة وما جبلت عليه من تعالٍ وكره لله وملائكته وكتبه ورسله ولكل من لا يدين بوثنيتهم فالتوراة التي أنزلها على موسى تقول إن الله سبحانه وتعالى فضلهم على العالمين، وإنه سبحانه وتعالى سيورثهم الأرض المباركة، وهذا ما يريدون.. ولكنها تأمرهم بتوحيد الله سبحانه وتعالى، وهذا ما لا يريدون.

إذن هناك جوانب تحلو لليهود وغريزة الغرور والتعالي متأصلة فيهم، كتفضيل الله لهم وتوريثهم الأرض المباركة (فلسطين)، وهناك جوانب في التوراة لا تحلو لهم كإقامة الحدود والالتزام بالأحكام والأوامر والنواهي الربانية وتوحيد الله بالربوبية والألوهية.. أي أن حالهم مع التوراة الحقة كحالة المرتد من المسلمين الذي لا يريد أن يتخلى عن اسمه كمسلم ويريد في الوقت نفسه أن لا يصلي، فيأخذ بقوله تعالى **﴿ولا تقربوا الصلاة..﴾** دون أن يكملها بقوله تعالى **﴿وأنتم سكارى﴾** أو قوله تعالى **﴿ويل للمصلين﴾** دون أن يكملها بقوله تعالى **﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾**.

ولهذا بادروا إلى وضع توراة من عند أنفسهم ترضي نفوسهم الشريرة وما فيها من تعال، وتحفظ لهم تفضيل الله دون الالتزام بشريعته ودينه الذي ارتضاه لهم والذي لم يكن تفضيلهم إلا بسببه، وتحفظ لهم الوعد الإلهي بالأرض المقدسة دون أن يكونوا عبادا

صالحين من عباده سبحانه وتعالى. وهكذا فعلوا إبان فترة السبي البابلي كما أسفلنا حيث كلفوا كاهنهم بصياغة توراة تحفظ هذا وتتخلى عن ذاك، وفي ذلك يقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**ألم تر إلى الذين أوتو نصيبا من الكتٰب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا، من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وأنظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا**﴾سورة النساء: ٤٤ ــ ٤٧.

وفي توراة عزرا تلك اختاروا آلهة غير الله، فيهود ربهم خاص بهم، يغضب ويرضى، يبطش ويرحم، متعطش لسفك الدماء على الدوام، لا يرضيه إلا بطش أبنائه اليهود وأحبائه بأعدائهم الأمميين.. وحين ننظر لهذا الإله نجد أنه ليس إلا إله بعض القبائل الوثنية التي عاصرها اليهود في شمال الجزيرة العربية والأردن وأرض كنعان، ونجد أن هذا التجسيد للإله لا يعدو أن يكون سرقة من ديانات الفرس والفراعنة.

وفي توراة عزرا تلك اختاروا العديد من الشعائر الدينية عند الفرس والفراعنة وغيرهم من الوثنيين في أرض كنعان والشام وشمال الجزيرة العربية، وزجوا بها في توراتهم كالتكفير والتثليث والتطهير والرق، وكذلك الأعياد التي لا تزال سارية المفعول عند اليهود.. إذن فقد كانت أساطير الجزيرة العربية وبابل وفارس ووادي النيل كما يقرر «ول ديورانت» هي المعين الغزير لعزرا ومن معه حين وضعوا توراتهم الوثنية كما هو معينها الوثني.. ولعل الباحث لا يجد كبير عناء في الاهتداء إلى مصادر التوراة والمعين الذي نهل منه عزرا قبل كتابته لتوراته تلك، وذلك حين يقارن ما فيها من تشريعات بتلك التي وضعها حمورابي قبل ذلك بألف وأربعمائة سنة (تشريعات حمورابي تعود إلى عام ١٩٠٠ قبل الميلاد)، وحيث يقارن ما فيها من قصص وخزعبلات عن بداية الخليقة والطوفان والجنة والنار وغير ذلك بما جاء في قصص الفراعنة والفرس والهنود والصينيين.

من كل هذا ندرك أن التوراة وضعية، وعليه فالفكر البشري قاصر بطبيعة الحال.. إذن لابد أن يطرأ على ذلك الفكر التغيير والتبديل، وحيث يستحيل أن يدخل اليهود كل ما يطرأ من تغير في توراتهم تلك كي لا تفقد قدسيتها.. فقد ظهر التلمود ليحمل كل المستجدات، ثم ظهرت من بعده البروتوكولات المعروفة اليوم والتي أدخل عليها الفكر

اليهودي التعديل تلو التعديل، يقول الدكتور/ أحمد شلبي، أحد أساتذة التاريخ والحضارة في كتابه «اليهودية» عن ذلك[٢٩]: (ومن المصادر المهمة للأسفار قرارات المحافل اليهودية، فعلى مر التاريخ كان زعماء اليهود يدفعون بقراراتهم لتعيد جزءا من الأسفار المقدسة، وعندما اتخذت الأسفار المقدسة وضعها النهائي قبيل الميلاد، لم يتوقف زعماء اليهود عن محاولاتهم تجاه تقديس قراراتهم، فدفعوا بها إلى التلمود، ثم بعد ذلك إلى قرارات حكماء صهيون، وليس هذا وذاك بأقل عندهم من العهد القديم قداسة وجلالا).

وجاء التلمود بعد التوراة والذي يقول عنه اليهود إنه عبارة عن الروايات والتعاليم الشفوية المتنافلة عن موسى عليه السلام، وقد دون الحاخام «يوضاس» هذه التعاليم بعد مائة وخمسين سنة من المسيح عليه السلام، ثم أتم هذه التعاليم حاخامات اليهود حتى عام ٢١٦م حيث اكتمل الجزء المسمى «المثنا» من التلمود على يد الحاخام الربي «يهوذا». وعندما استعصت تلك التعاليم التلمودية في المثنا على الشياطين من الأجيال التابعة ليوضاس ويهوذا، بادر الحاخامات إلى تفسير تلك التعاليم الشفوية لموسى! (تنزه عنهم)، وقد وضعوا المثنا في كتاب والجمارا في كتاب آخر وبدلوا وغيروا وأضافوا كل ما يريدون على هذه التعاليم والتفاسير.. ومن المثنا والجمارا يتكون التلمود الذي بين أيديهم والذين صبوا فيه جام غضبهم على مريم عليها السلام وابنها المسيح بن مريم عليه السلام وعلى كل من دان بالمسيحية وفي تلمودهم هذا أباحوا شرب دماء المسيحيين، بل قرروا أن عيدهم غير مقدس إذا لم يعجن فطيرة بدم مسيحي.. وحين ظهر الإسلام قالوا لا مانع من استبدال الدم المسيحي بدم إسلامي! وفي تلمودهم هذا يحقرون الله! (جل شأنه وتعالى عنهم) إلى الدرجة التي يبكي عندها وينحب كل ليلة لما أنزله بأبنائه اليهود وتدميره لهيكلهم وتشريده لهم، وإلى الدرجة التي يتعلم فيها التلمود ويتدارسه مع الملائكة كل ليلة، وغير ذلك من رذائل النفس اليهودية القذرة وتحقيرها لله تعالى. وفي تلمودهم هذا يقررون أن أرواحهم جزء من روح الله وعليه فهم عند الله أطهر من الملائكة الذين هم من خلق الله (طبعا هم من غير خلق الله كما يرون!)، أما بقية البشر فأرواحهم من أرواح الحيوانات القذرة، وهم لم يخلقوا على هيئة البشر (اليهود طبعا!) الذين ما جاءوا إلا لخدمتهم وفي تلمودهم هذا يقررون الحرب الدائمة وخلق الصراعات ضد البشرية والتي أفرزت النظم الوضعية (الرأسمالية والفاشستية والنازية والشيوعية)، وتلك بدورها تسببت

---

(٢٩) د. أحمد شلبي: اليهودية، الطبعة الخامسة (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨)، ص ٢٦.

في الحروب التي اشتعلت عالميا ودوليا وإقليميا وأهليا والتي رزئت الأمم والشعوب بأهوالها مرارا.

ولئن كانت التوراة والتلمود هما مصدرا الفكر اليهودي، ولئن كانت هي نفسها مصادر الفكر الوضعي المعاصر الذي أوجده اليهود وصمموه للأمميين.. لئن أدركنا كل ذلك من أحاديثنا السابقة، فما موقف التوراة والتلمود من الحرب ؟ الله في التوراة هو رب الجنود والذي يسير أمامهم في حروبهم العدوانية ليحثهم على قتل الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والغنم والبقر والحمير!!. والله ذو صفات حربية، وصفاته الحربية من الصفات المفضلة عنده (لم لا وآلهة الوثنيين الفراعنة والفرس والهنود وكذلك آلهة اليونانيين القدماء مثل فلكان وينون ومركير وسيريز، تسير أمام الجنود.. وقد أغرم اليهود بوثنيات هؤلاء الأقوام كما أسلفنا). إن إله الجيوش يأمر بالحرب ويحدد بدايتها ونتائجها كما جاء في الإصحاح السابع من سفر التثنية (إذ يدخلك الله إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إلى هناك لوراثتها ويقلع شعوبا كثيرة من قدامك الحتي والجرشي والأموري والكنعاني والفرزي والحيي واليبوسي سبع شعوب أكبر وأعظم منك، ويجعلهم الله إلهك بين يديك تهلكهم اصطلاما تصطلمهم لا تقطع معهم عهدا ولا ترأف عليهم، ولا تصاهرهم بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك، لئلا يزيغ ابنك عن أتباعي ويعبد آلهة اخر فيشتد وجد الله عليكم ويستأصلكم سرعة، بل هكذا تصنع فيهم مذابحبهم تنقضون ومناصبهم تكسرون وسرواتهم تقطعون ونحوتهم تحرقون بالنار، إذ شعب مقدس لله إلهك للكون له شعب خاص من كل الشعوب الذين على وجه الأرض، ليس من كثرتهم من كل الشعوب أحبكم الله واختاركم فأنتم الأقل من كل الشعوب، لكن لمحبة الله إياكم ولحفظ القسامة التي أقسم لآبائكم أخرجكم الله بيد شديدة وفككم من بيت العبودية من يد فرعون ملك مصر، فلتعلم إن الله إلهك هو الإله القادر الأمين حافظ العهد والإحسان لمحبيه ولحافظي وصاياه لألف جيل. والمكافىء باغضيه في عالمه حتى إهلاكهم لا يؤخر باغضه بل في عالمه يكافئه). وجاء في الإصحاح التاسع من السفر نفسه النتن (أسمع يا إسرائيل أنت عابر اليوم الأردن للدخول لوراثة شعوب أكبر وأعظم منك ومدن كبار وحصون في السماء، شعب عظيم وعال أولاد العلوج الذين أنت علمت وأنت تسمع من ثبت بين يدي أولاد العلوج؟ ولتعلم اليوم أن الله إلهك هو العابر قدامك كالنار المحرقة هو يستأصلهم ويفنيهم بين يديك فتقرضهم وتفنيهم سرعة كما قال الله لك، لا تقل في سرك

إذ يدفع الله إلهك إياهم من بين يديك قولا لزكاتي أدخلني الله لوراثة الأرض هذه ولفجور الشعوب هؤلاء الله قارضهم من بين يديك، ليس بزكاتك ولا بسلامة قلبك أنت داخل لوراثة الشعوب هؤلاء الله قارضهم من بين يديك، وحتى يثبت الأمر الذي أقسم لآبائك لإبراهيم ولإسحٰق وليعقوب، فاعلم أن ليس لزكاتك الله إلهك معطيك الأرض الحسنة هذه وراثة إذ شعب قاسي العرف أنت).

وجاء في الإصحاح السادس من سفر يشوع (وحرقوا «أي أهلكوا» كل ما في المدينة «أي أريحا» من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب).. تلك هي نصوص التوراة وغيرهن العديد مما وضعوه ودونوه بأنفسهم، وذلك هو المصدر الأول للفكر اليهودي قديما وحديثاً، وذلك هو المصدر للفكر الوضعي برمته.

وإذا نظرنا إلى التلمود فإننا نجد ما هو أعجب من ذلك وأنكى[٣٠] ففيه ما نصه (إن مثل بني إسرائيل، كمثل سيدة في منزلها، يستحضر لها زوجها النقود وتأخذها بدون أن تشترك معه في الشغل والتعب) ومعنى ذلك أن الأممين هم المطلوب منهم العمل والكدح وإطعام اليهود الذين هم الأسياد. وفيه ما ينص على : لا تقتل اليهودي.. لا تسرق اليهودي.. الخ من الوصايا التي تعني اقتل الأممي.. اسرق الأممي. ازن بالأممية.. أشهد بالزور على الأممي.. غش الأممي. الخ. وفيه ما نصه (إن الله لا يغفر ذنبا ليهودي، يرد للأممي ماله المفقود. وفيه ما نصه (غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا). وفيه ما نصه (اقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحدا من باقي الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها). وفيه ما نصه (إذا وقع أحد الوثنيين في حفرة، يلزمك أن تسدها بحجر). وفيه ما يطلقون عليه لفظ: الوصية الجامعة ونصها : اهدم كل قائم.. لوث كل طاهر.. احرق كل أخضر، كي تنفع يهوديا بفلس.

اقتلوا جميع من في المدن، من رجل وامرأة وطفل وشيخ،، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف، اقتل أفضل من قدرت عليه، من غير اليهود.

---

(٣٠) لمزيد من الايضاح انظر كتاب «الكنز المرصود في قواعد التلمود «لمؤلفه الدكتور ووهلنج» ترجمة د. يوسف نصر الله، مطبعة المعارف القاهرة، ١٨٩٩.

ألعن رؤساء الأديان، سوى اليهود، ثلاث مرات كل يوم.

وفيه أن المسيح لا يأتي إلا بعد انقضاء حكم الأشرار الخارجين على دين اليهود، وحينما يأتي تطرح الأرض فطيرا وملابس من الصوف وقمحا حبه بحجم كلاوي الثيران الكبيرة. وفي ذلك الزمان ترجع السلطة العالمية لليهود، وكل الأمم تخدم ذلك المسيح اليهودي وتخضع له، ويكون لكل يهودي ألفان وثمانمائة عبد يخدمونه من الأمميين.. وقبل أن يحكم اليهود نهائيا على باقي الأمم يلزم أن تقوم الحرب على قدم وساق ويهلك ثلثا العالم ويبقى اليهود مدة سبع سنوات يحرقون الأسلحة التي غنموها بعد النصر.. ويتربع على عرش أورشليم ملك من نسل داود، عندئذ تكون الأمة اليهودية في غاية الثراء لأنها تكون حصلت على أموال الأمميين الفانين، ويحفظ اليهود أموالهم وكنوزهم في سرايات واسعة لا يمكن حمل مفاتيحها على أقل من ثلثمائة حمار !.. ولكل هذا نجدهم يسعون جاهدين لإشعال فتيل الحرب في كل مكان... ولهذا خططوا للمؤامرة التي نوهنا عنها.. ولهذا بادروا إلى إيجاد النظم الوضعية.

ذلك هو موقف التوراة والتلمود من الحرب الذي نستطيع أن نقول عنه وبكل وضوح: إنه فكر تهيمن عليه قاعدة عامة مفادها أن الحرب قاعدة والسلام استثناء. وحيث أن الرأسمالية والفاشستية والنازية والشيوعية نظم وضعية أوجدها الفكر اليهودي الشاذ والمنحرف ليهيمن بواسطتها على العالم، وليقوده بها إلى تلك الحقبة التي يتدارسها اليهود في تلمودهم حيث يخبرهم كما أسلفنا أن السلطة لابد أن تؤول إليهم تحت ظل ملك من نسل داود بعد أن يقتتل الأمميون حتى الفناء.. وعليه فإن هذه النظم الوضعية لابد أن تنهل من مصادر الفكر اليهودي الموجد لها من العدم وحيث أن مصادر الفكر اليهودي هي التوراة والتلمود والبروتوكولات فإن هذه النظم الوضعية تستند أساسا إلى الفكر التوراتي التلمودي. ونود أن نلقي الضوءعلى مفرزات الفكر الوضعي ودوره في إشعال الحروب التي اكتوت البشرية بجحيمها الآف المرات في كل بقعة من العالم المنكوب بالوجود اليهودي ووسائله من النظم الوضعية الآنفة الذكر.

إن الفكر العسكري المعاصر، والنظم العسكرية السائدة اليوم، هي وليدة الفكر الوضعي الذي هو وليد الفكر التوراتي التلمودي الآثم. وفي إطار هذا الفكر الوضعي السائد نجد «الفلسفة الماسونية» أو «الزندقة السيكولوجية» والتي تقوم على أساس أن العالم بكل ما يحتويه من بشر وأفكار وأنظمة منقسم إلى قسمين متناقضين ومتباعدين، كالخير والشر،

والنور والظلام، وإنه لا مجال لمنزلة بين المنزلتين. وقد حلل «جابريل تارد» وهو أحد مفكري النظم الوضعية في شؤون الحرب ــ هذا الموقف في نظريته عن (المبادرة المنطقية) عندما أشار إلى أنه عندما يكون هنالك عدة قضايا أو عدة اتجاهات متباينة يستمر هذا التنوع طالما كانت العلاقات سليمة.. ولكن عندما يتفجر القتال فلن يكون هناك إلا معسكرين، وعلى هذا الوجه يؤدي النزاع إلى أبعد تبسيط منطقي للتناقضات. وبجانب المانوية نجد «البراغماتية» أو الفكر البراغماتي الذي يسود اليوم المجتمع الأمريكي والأوروبي في ظل الرأسمالية الجانحة.

والبراغماتية كعقيدة تعني: إنكار التاريخ وإيثار الفكر على الأخلاق والمنطق في التعامل مع الآخرين. ولعلك أخي القارىء تدرك ذلك من خلال التشابه في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تسود دولة إسرائيل والدول الغربية الرأسمالية عموما والولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص.. أليس التلمود ومن قبله التوراة هما اللذان يطلبان من اليهود أن يتعامل مع الأمميين بصورة مغايرة لتعامله مع أخيه اليهودي (لا تسرق اليهودي، واسرق الأممي.. لا تزن باليهودية، وازن بالأممية.. لا تقتل اليهودي، واقتل الأممي.. الخ)؟! وأليس هذا هو منطق الفكر البراغماتي السائد اليوم والذي يعيش المشرق العربي اليوم في ظل المخطط «الكيسنجري» الذي وضعه «كيسنجر» اليهودي الأمريكي الذي يعد من أكبر المفكرين البراغماتيين في عالمنا المعاصر المنكوب.

وبجانب البراغماتية، نجد «الميكيافيلية» نسبة إلى «ميكافيلي» الذي يعد أقبح من استخدم المبدأ اليهودي الشهير: الغاية تبرر الوسيلة، وذلك في كتابه الشهير «الأمير» الذي فصل فيه بين السياسة والأخلاق أو بالأحرى بين العمل أيا كانت طبيعة هذا العمل سياسيا أو اقتصاديا أو إداريا أو عسكريا وبين الأخلاق، وقد سوغ في كتابه هذا كل مبادىء الحكم والسياسة والإدارة المنافية للآداب الإنسانية جملة وتفصيلا. أما رأي مكيافيلي في الحرب فقد أوضحه في كتابه سيء الذكر بقوله (إن كل حرب تعتبر عادلة عندما تكون ضرورية) وطبيعي أن الرأسمالي المستعمر يرى أن حربه للشعوب وقتله إياهم أمر ضروري، والشيوعي يرى أن قتله للشعوب واضطهادها في سبيل نشر مبادئه الشيوعية أمر ضروري، واليهودي يرى أن قتله الكائنات الحية في فلسطين وتشريدها وسحق قدرتها على الحركة وسلب ممتلكاتها أمر ضروري في سبيل استيطانه بفلسطين.. وهكذا. ثم يشرح ميكافيلي «ضرورته» تلك بقوله (ينبغي الدفاع عن الوطن سواء بالمذلة أو الشرف،

فكل الوسائل صالحة على شرط أن يمنع الوطن، ولأجل أن يمنع الوطن ينبغي غالبا البدء بالهجوم). ثم يحدد موقفه وأميره من القواعد الإنسانية والفضائل بوضوح بقوله (لايستطيع الأمير أن يمارس بشكل مطلق كل الفضائل إذ أن مصلحته في البقاء تضطره غالبا إلى مخالفة شرائع الإنسانية والإحساس والدين).. وبقي أمر مهم نود التنويه إليه قبل أن ننتقل بالحديث عن ميكافيلي وهو ظن البعض أن واضع البروتوكولات اليهودية قد قرأ كتاب الأمير وتأثر به وبصاحبه، والواقع أن مكيافيلي لم يأت إلا بعد البروتوكولات بقرون، أما الصياغة الحديثة لهذه البروتوكولات فهي مستندة إلى الصياغة القديمة التي هي امتداد كما أسلفنا للتوراة والتلمود.. وما مكيافيلي إلا أحد الرعاع الذين انساقوا وفتنوا بهذه التعاليم التوراتية التلمودية، وذلك في فترة هيمنتها على أوروبا المسيحية كما بيّنا.

وبجانب ميكافيلي نجد الفيلسوف الألماني الشهير «فردريك نيتشة» الذي سبق لنا الإشارة إلى أعماله التي هي ركيزة الفكر الفاشستي النازي في ألمانيا، والتي جاءت متممة لأفكار «كارل ريتر» الذي قلنا إن المرابين اليهود استأجروه في الوقت نفسه الذي استأجروا فيه «كارل ماركس» حين أخذ كل منهما يضع نظرية معاكسة لتلك التي يضعها الآخر في كل من لندن وفرانكفورت. وقد اعتاد المشاهير من أصحاب مذهب الحرب القول بأنهم من أتباع نيتشة، فليس هناك من يضاهي نيتشة في تمجيد الحرب والدعوة لها، يقول نيتشة في تمجيده للحرب (يجب أن تحبوا السلام كوسيلة لحروب جديدة، وتحبوا السلام الأقصر أشد من حبكم للسلام الأطول لعلكم تقولون إن القضية العادلة تبرر الحرب.. فأقول لكم: إنها الحرب العادلة التي تقدس أية قضية يا إخوتي في الحرب).. ألم أقل من قبل إن الحرب قاعدة والسلام استثناء في الفكر التوراتي التلمودي وما انبثق عنهما من نظم وضعية!؟ وألم أقل لكم الغاية تبرر الوسيلة مبدأ يهودي منحوه لأصحاب النظم الوضعية مقابل مساهمة أصحاب هذه النظم في تدمير العالم؟! ثم يتحدث نيتشة عن صفة تلك الحرب التي يدعو لها ويبين أن الآلام التي تنجم عن مكابدتها ليست إلا مدرسة عظيمة، فيقول (لكي يكون الاختبار مقنعا ينبغي أن تكون الحرب بدون رحمة وخالية من كل شفقة، إن الفضائل الوحيدة هي الشجاعة والقسوة والجرأة والمكر والذكاء، وباختصار هي: القوة. إن التطلع إلى السعادة يمنع الإنسان من أن يكون عظيما، يجب أن يعرف الألم والموت.. إن الحروب والشجاعة أنتجتها الأشياء العظيمة أكثر من حب الجار.. إن الحرب هي الاختبار الصحيح.. إنها وحدها المنافسة النزيهة العادلة، وفي

الحقيقة إنها الشيء الوحيد الذي يمكن تصوره.. ينبغي لنا باسم الغريزة أن نلجأ إلى الحرب التي يقاومها العقل لأن الغريزة تدفع الإنسان حتى يكشف حياته..).

وفي إطار الفكر الوضعي عن الحرب والسائد في ظل النظم الوضعية التي هي صنيعة من صنائع اليهودية الحاقدة ووليدة الفكر التوراتي التلمودي اليهودي الآثم، تطالعنا آراء «هيجل» عن الحرب في إطار فكره الداعي بلا خجل أو مواربة إلى العنف والحرب دون الالتفات إلى القيم والمبادىء الإنسانية، ولهذا يعد هيجل بوجه عام المدافع وبلا خجل عن الحرب والعنف. وهو بدفاعه عن الحرب والعنف إنما يقرر أن للحرب والعنف سمة حضارية! وهو يدافع عن هذه السمة، وذلك من منطلق أن العنف هو اللحظة التي تحقق فيها الدولة أعلى درجة من الشعور بالذات.. ولهذا نجده يرى أن نابليون يمثل: «الروح العالية على صهوة جواد» ولهذا أيضا يرى أن الحرب شر لابد منه وسوف ينتهي هذا الشر مع تحقيق الروح المطلقة.. ألا ترى معي أخي القارىء أن في هذا ما يتفق مع نصوص التلمود التي تدعو اليهود إلى إثارة الحروب بين الأمميين ودفع هؤلاء الأمميين حتى يهلك كل منهم الآخر، ليسود اليهود بعد ذلك ويتوجوا ملكهم العالمي من نسل داود في بيت ملكه بأورشليم!؟

ثم يأتي في إطار هذا الفكر الوضعي الوضيع «جوزيف دي متر» الذي يضع الحرب بين الأمور الإلهية، متجاوزا آراء هيجل ونيتشة ومكيافيلي في الحرب، يقول في تحديد فكره ومذهبه عن الحرب (عندما تفقد النفس البشرية حماستها بسبب الليونة وعدم الإيمان والرذائل الفاخرة التي تنجم عن الإفراط في الحضارة، فلا يمكن أن تشحذ إلا في الدماء، وإن الثمار الحقيقية للطبيعية البشرية من الفنون والعلوم والمشاريع العظيمة وفضائل الرجولة تتصل بصفة خاصة بحالة الحرب.. ويقال إن الدم هو السماد للنبات الذي نسميه العبقرية..) أي جنون أصاب دي متر في ظل الفكر التلمودي الحاقد والذي جعله يربط العبقرية بالدم ويجعله سماداً لها!؟ وأي جنون ذاك الذي عنده حتى يصف الحرب بأنها قانون العالم!؟.. وأن الإنسان لا يحس باليد الإلهية إحساسا قويا في مجال آخر، سوى مجال الحرب!؟.. إنه الجنون الذي ورثه وغيره من مفكري النظم الوضعية عن المفكرين اليهود الذين وضعوا التوراة والتلمود.

وإلى جانب كل هؤلاء يأتي «كانت» كأحد المفكرين الذين يبرزون وبوضوح ما ذهبنا إليه بقولنا إن الحرب قاعدة والسلام استثناء في ظل النظم الوضعية المستندة إلى فكر

التوراة والتلمود في نشأتها، فكانت الذي وضع «مشروعا للسلام الدائم» أوضح فيه أن فكرة السلام الدائم تتضمن كل التناقضات الخاصة بفكرة الخلود، وحدد وبوضوح أيضا أن السلام الدائم ليس عمليا على حد قوله. وإلى مشروع كانت للسلام الدائم أستطيع أن أنسب ميثاق ودور ويلسون الشهير الذي وضعه للسلام بعد الحرب العالمية الأولى والذي أقرته عصبة الأمم التي أوجدتها اليهودية العالمية لتحكم العالم من خلالها في مرحلة ما بين الحربين العالميتين (الأولى والثانية)، إذ لا فرق عندي بين ميثاق ولسون ومشروع كانت للسلام الدائم كما قال.

أما الأب اليهودي للشيوعية كاي مردخاي المدعو «كارل ماركس» والذي يشاركه الماركسيون عموما نظرته للحرب، وعلى نظرته تقوم الفلسفة الشيوعية اليوم وإلى أن يشاء الله فناءها، فيرى ما يراه ميكافلي عن حرب المشاغلة والتي تمتزج بفكرة فولتير عن التعمية، حيث أن الطبقات الحاكمة في نظر الماركسيين تصرف الشعب عن الصراع الطبقي بأن توحي إليه بالعواطف القومية أو الدينية الفاسدة.. وعليه فهم يرون أن الأصل في الحروب المسلحة يكمن في الخلافات والاختلافات الاقتصادية يقول كارل ماركس عن الحرب (لم يكن هناك سوى حرب واحدة أزلية، هي حرب الفقراء ضد الأغنياء.. وسوف تكون هي الصراع الدائم بين الطبقات الاجتماعية حتى تذوب الطبقات في طبقة البروليتاريا ــ أي طبقة العمال) ثم يطالعنا في هذا الإطار «شتانيمتز» بدفاعه عن الحرب والذي يرى وجوب استمرارها وإلى الأبد، فالحرب عنده هي النهج الأساسي للانتخاب وهي المحك للأمم حيث يقول (إن الحرب هي المحك للأمم وقد تكون هناك شفقة نحو الضعفاء إذا أردنا، ولكن لا مكان إلا للأقوياء).. وهذا هو منطق هتلر الذي أباد ضعاف اليهود وعجزتهم وكسلاهم ومعتوهيهم ومشلوليهم، بإيعاز من اليهود الذين صاغوا فكر شتانيمتز وأملوه على الأمميين فيما ابتكروه لهم من نظم وضعية ضالة جانحة. ثم يأتي دور «أيزوليه» ليبرهن أن القوة (الحرب) هي المرادف والظل الملازم للفضيلة وأن الضعفاء لابد أن تبيدهم الحرب، وعليه فالحرب أخلاق، وهي ضرورية لبقاء الفضيلة وبقاء الأقوياء وإبادة الضعفاء.. ولهذا نجد أن اليهود لم يتورعوا أن يبيدوا بواسطة النازيين مئات أو آلاف الضعفاء في ألمانيا وبولندا وغيرهما من الدول الأوروبية المنكوبة بوجود اليهود على أراضيها.

ثم تأتي الطامة الكبرى في أفكار «جمبلوقتس» الذي عبر عن نظريته الحربية والتي هي

دعوة ملحة للحرب بقوله (إن أكبر خطأ وقع فيه علم النفس الفردي هو الافتراض بأن الإنسان يفكر، إذ أن مصدر تفكيره يتمثل في البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها). إذن هو يفترض وجود كراهية دائمة ومتأصلة في علاقات الجماعات الإنسانية، تدفع بجماعة للصراع المرير والمميت مع الجماعة أو الجماعات الأخرى.

وليس جابريل تارد أو مكيافلي أو نيتشة أو هيجل أو جوزيف دي متر أو كانت أو كارل ماركس أو شتانيمتز أو أيزوليه أوجمبلوقتس أو غيرهم من العديدين الذين صاغوا الأسس التي تقوم عليها أسس الفكر والحرب في النظم الوضعية المعاصرة.. إلا أبناء وتلاميذ لأحفاد كتبة التوراة والتلمود.

ومن قبل هؤلاء جميعا، وإلى هؤلاء الكتبة الحاقدين، انتسب «ريمون داجيل» الذي كان كاهناً لكتدرائية بوي إبان الاحتلال الصليبي للقدس الشريفة والذي كتب عن ذلك يقول (كانت ترى أشياء تدعو إلى الإعجاب.. كنا نرى أشلاء من رؤوس ومن أيدي ومن أقدام في الطرقات والميادين العامة في المدينة وفي جميع الجهات كان الجنود والفرسان يسيرون فوق الجثث.. وفي المعبد والرواق كانت الخيول تخوض في الدماء التي تصل إلى ركب الفرسان وإلى أعنة الخيول، إنه حكم عادل وعظيم من الله الذي يشاء أن يلطخ هذا المكان نفسه بدماء أولئك الذين قد دنسوه بمسبتهم للدين فترة طويلة ــ يقصد بذلك المسلمين، إنها مشاهد سماوية.. وفي الكنيسة وفي جميع أرجاء المدينة راح الشعب يبتهل شكرا لله). انظر إلى أي حد تأثرت المسيحية بالفكر اليهودي التلمودي الحاقد، وهي وريثة المسيح بن مريم عليهما السلام وفكره المتمثل في قوله الشهير كما ورد في الإصحاح السادس من إنجيل لوقا (لكني أقول لكم أيها السامعون ــ من اليهود ــ أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعينكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، من ضربك على خدك فأعرض له الآخر أيضا، ومن أخذ ردائك فلا تمنعه ثوبك أيضا وكل من سألك فأعطه، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه).

إن هذا الفكر الوضعي الحاقد والمستند إلى الفكر التوراتي التلمودي في أصوله ومصادره، هو الذي أنجب قادة الحرب ومفكريها الذين صاغوا النظم العسكرية المعاصرة ورسموا حدود الفكر العسكري المعاصر من أمثال: كارل فون كلاوزميتز وليد هارت وآندريه بوفر وماو تسي تونغ وجان غيتون وفوش وسوكولوفسكي وجارديان وفورست وجوميني وفوللر، وغيره من مشاهير الفكر العسكري.

وإلى هؤلاء القادة والمفكرين العسكريين يعود «الفضل» في ظهور مدرستي الحرب الألمانية النازية والتي انتهت وتلاشت بعد هزيمتها في الحربين العالميتين ـــ الأولى والثانية، ومدرسة الحرب الأنجلو لاتينية والتي انتهت وتلاشت بعد هيمنة النظم العسكرية الأمريكية على المعسكر الغربي بعد الحرب العالمية الثانية. وكذلك مدرستي الحرب السوفيتية والأنجلوسكسونية اللتين تهيمنان اليوم ليس في المعسكرين المتضادين المتنافرين (الأطلسي ووارسو) فحسب، بل في دول العالم أجمع ونظمها العسكرية وفكرها العسكري الذي هو نسخ من هذا وذاك(٣١).

إذن ما يسود العالم اليوم من أفكار ونظم عسكرية هو وليد للفكر التوراتي التلمودي الذي فرض هيمنته على أوروبا المسيحية في اللحظة التي انطلقت فيها الثورة العلمية والفكرية في كافة أنحاء أوروبا، فاصطبغت كل مفرزات الفكر الأوروبي المعاصر بصبغة يهودية.. وليس الفكر العسكري إلا جانبا من جوانب هذا الفكر ورافدا من روافده.. وعليه ندرك أن العالم اليوم يسير نحو الهاوية التي رسمتها له اليهودية الحاقدة الدنيئة، متخذة من تلك النظم الوضعية (الرأسمالية، الفاشستية، النازية، الشيوعية) وسائل للتنفيذ بأيد أممية عميلة متواطئة أو جاهلة موتورة ولعل المؤسف حقا أن تسود تلك النظم العسكرية ومفرزات الفكر العسكري الوضعي المستند إلى فكر التوراة والتلمود معظم جيوش الدول الإسلامية التي تأخذ بأساليب مدرسة الحرب الروسية أو بأساليب مدرسة الحرب الأنجلوسكسونية، في الوقت الذي تزيح فيه جانبا ما حباها به الله من نظم ربانية سامية سواء في المجالات العسكرية أو الاقتصادية أو السياسية أو الإدارية أو الاجتماعية.. ولعل الأسوأ من كل هذا أنها تدرك أن هذه نظم ربانية ارتضاها الله لعباده وهو العليم الخبير بشؤونهم، وتلك نظم وضعية ارتضاها البشر الحاقدون الجانحون لبني جنسهم من البشر. ومع هذا تزيح ما ارتضاه الله جانبا وتتبنى ما ارتضاه البشر وهم القاصرون.. فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(٣١) لمزيد من الإيضاح عن آراء قادة الفكر في أوروبا عن الحرب انظر دائرة المعارف البريطانية.

الحصـاد اليهودي من حـروب الأمميين

لاشك أن اليهودية العالمية الحاقدة عندما سعت إلى دفع الأمميين إلى اعتناق العقائد والنظم الوضعية، كانت تسعى من خلالها إلى تدمير العالم الأممي والهيمنة على حطامه المتبقي بعد دماره، والوصاية والعبودية على الناجين من براثن ذلك الدمار القادم في تخطيط اليهودية العالمية الجانحة. وما نراه ونعده دمارا في الحروب التي تنشب على المستويات العالمية والدولية والإقليمية والأهلية، تعده اليهودية العالمية ثمارا تحصدها كنتيجة لتخطيطها وسهرها وعملها الدؤوب دون كلل منذ أن خرجوا مطاردين من أورشليم عام ١٣٥م بواسطة جند القائد الروماني «هارديان»، حيث تعاهدوا على الإفساد في المجتمعات التي سوف يتشردون إليها والسعي للهيمنة على مقدراتها، وصولا للمرحلة التي يتمكن اليهود فيها من حكم العالم وتسخيره لخدمتهم.. ثم صاغوا ما كان قد تبقى من تلمودهم وفق متطلبات تلك المرحلة.

هنا يجب التنويه إلى أمرين هامين هما:

١ ــ التوراة تمت كتابتها وانتقاء نصوصها في فترة السبي البابلي لليهود حيث كانوا عبيدا أذلاء تحت هيمنة البابليين وتنكيلهم العادل بهم.

٢ ــ التلمود تمت كتابته وانتقاء العديد من نصوصه في فترة التشريد الروماني لليهود حيث دمرت بيوتهم ومعبدهم في أورشليم وحرم عليهم البقاء فيها وإلى الأبد.

ولهذا أتت تعاليم التوراة والتلمود وهي تحرض اليهود على الإفساد في الأرض والسعي الدؤوب للسيطرة على العالم. وعندما أتيحت لهم الفرصة من خلال الهيمنة العقائدية والاقتصادية والاجتماعية على أوروبا المسيحية.. كانت المؤامرة التي اشترك وتناوب على إدارتها والتخطيط لها كل من «آدم وايز هاوبت» الألماني و «مازيني» الإيطالي و «البرت بايك» الأمريكي، والتي تضمنت كما قلنا التخطيط لإشعال حروب عالمية ثلاث وثورات عالمية ثلاث أيضا.. ثم كانت عملية ميلاد النظم الوضعية الرأسمالية والنازية والشيوعية، لتتولى تنفيذ الثورات والحروب، وكان ميلادها على أيدي سميث وركاردو وكاري ريتر ونيتشة وكارل ماركس.

وفي ظل هذه النظم الوضعية شهد العالم العديد من الحروب التي كان اليهود وراءها مشغلين وممولين إما في السر وإما في العلن، حسب الظروف والأوضاع الدولية السائدة، وكان حصاد الأمميين من حروبهم تلك مزيدا من الدماء والدمار والخراب والبؤس، وكان حصاد اليهود مزيدا من الثروات التي تدرها عليهم تلك الحروب، ومزيدا من دماء الأمميين التي يأمرهم التلمود بسفكها، ومزيدا من الدمار العالمي الذي يحثهم التلمود على السعي إليه حيث أنه هو الوسيلة التي سوف تمكنهم من الهيمنة الكلية الشاملة على العالم وتتويج ملك من نسل داود في المملكة اليهودية العالمية التي يكون فيها الأمميون عبيدا مسخرين «لأبناء» الله اليهودا».. ولعل الغريب في الأمر أن العديدين من قادة العالم الأممي لا يدركون أنهم دمى تحركهم اليهودية القذرة إلا بعد فوات الأوان ونزول الدمار بهم وبشعوبهم، ولعل بعضهم مات ولم يدرك أنه آلة بيد اليهودية العالمية تسخره لخدمة أغراضها ومطامعها ولتدمير نفسه وأمته وشعبه ودولته والعالم الأممي ممن حوله.. وتلك أعظم المصائب التي رزىء العالم بها، وخصوصا في القرنين الأخيرين (التاسع عشر والعشرين) للميلاد.

خمسة الآف وخمسمائة وستة وثمانون عاما عاشها الإنسان على سطح الأرض كما يرجح المؤرخون، وقد نشبت خلالها وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية (١٤٥١٣) حربا.. ولك أن تتصور أخي القارىء أثابك الله: كم حربا قامت واشتعل فتيلها بعد العام ١٩٤٥م وهو نهاية الحرب العالمية الثانية في العديد من مناطق العالم!؟ والتي يقال إنها بلغت فيما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٨٥م مئة وتسعين حربا (على ذمة مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية) والتي تقول إن الولايات المتحدة الأمريكية الأداة اليهودية المعاصرة ــ قد شاركت بما يربو على (٤٨٪) من هذه الحروب. إن فلسطين مسرح للحرب والتقتيل من نهاية الحرب العالمية الثانية. والجزائر عاشت سنين في ظل الحرب حتى تحررت في أوائل الستينات. واليمن عاش سنين في ظل حرب لا معنى لها حتى تمكن اليمنيون من الخروج من دائرتها. وفيتنام عاشت سنين في ظل حرب عدوانية لا معنى لها. وإريتريا وجنوب أفريقيا وكوريا والصين وشبه القارة الهندية وأمريكا الجنوبية.

واليوم تعيش أفغانستان عدوانا شيوعيا إمبرياليا لا معنى له سوى الحقد والإلحاد والكراهية. ويعيش لبنان حربا أهلية تقف اليهودية العالمية وعملاؤها من دول وحكومات وأحزاب وطوائف وراءها يشعلون نارها كلما رأوها تخفت. وتعيش كل من العراق وإيران

حربا جانحة تقف اليهودية العالمية أيضا إما مباشرة وإما بواسطة العملاء الظاهرين والباطنين وراءها. كما يعيش جنوب السودان اليوم حربا أهلية قذرة تقف اليهودية وراءها. كما تعيش إريتريا حربا تقف اليهودية وراءها بواسطة عملائها الشيوعيين.. هذا مع استمرارية العدوان الشيوعي الآثم على أفغانستان المسلمة.. ومع استمرارية العدوان اليهودي المباشر على الشعب الفلسطيني في لبنان وسوريا وتونس وكل أرض تستقر عليها القدم الفلسطينية.

وحيث أنه لا يخفى عليك أخي القارىء تلك الثمار التي تحصدها اليهودية العالمية من جراء العدوان اليهودي الدائم على الأمتين الإسلامية والعربية ممثلتين بالشعب الفلسطيني وشعوب الدول المحيطة بفلسطين الطاهرة، والحروب التي شنتها في الأعوام ١٩٤٨م و ١٩٥٦م و ١٩٦٧م و ١٩٨٢م وتلك التي لا تزال تشنها على الفلسطينيين واللبنانيين في كل صباح ومساء.

وحيث إنه لا يخفى عليك أيضا، تلك الثمار التي جنتها اليهودية العالمية من العدوان الهندوسي الهندي على باكستان المسلمة والحروب التي شنتها الهند على باكستان لتمزيق أوصالها وإضعافها. وحيث أنه لا يخفى عليك أيضا، تلك الثمار التي تجنيها اليهودية العالمية من العدوان الشيوعي الروسي الآثم على الشعب الأفغاني المسلم والحرب التي يشنها لانتزاع العقيدة الإسلامية من صدور أبناء الشعب الأفغاني المسلم.

وحيث إنه لا يخفى عليك أيضا، تلك الثمار التي تجنيها اليهودية العالمية من الحرب الضروس التي دارت رحاها لما يناهز ثمانية أعوام بين الشعبين المسلمين: العراقي والإيراني، لإبقائهما ضعيفين منهكين دائمي الحاجة والسؤال لصنائع اليهودية العالمية في الشرق والغرب.

وحيث إنه لا يخفى عليك أيضاً، تلك الثمار التي تجنيها اليهودية العالمية من الحرب الأهلية الدائرة رحاها بين الأخوة الأشقاء وأبناء القرية الواحدة في لبنان، لتمزيق جسد لبنان الواحد، وتمزيق جسد الائتلاف الإسلامي المسيحي والتآخي في لبنان، وتشتيت الجهد العربي لكي لا يجد متسعا للتفكير بمصير فلسطين والفلسطينيين في ظل الحرب الأهلية في لبنان والحرب البشعة بين العراق وإيران.

أقول حيث لا يخفى عليك مصلحة اليهودية العالمية ودولتها إسرائيل من وراء كل هذه الحروب والثمار التي جنتها وتجنيها اليهودية العالمية، فإنني سأتحدث عن حروب بعيدة

في مواقع حدوثها وزمان حدوثها عن منطقتنا الإسلامية العربية المنكوبة. وذلك لكي تكتمل لديك الصورة أخي القارىء أثابك الله حين تضيف بعضا من المعلومات عن تلك الحروب والتي تأتي في مقدمتها الحربان العالميتان الأولى والثانية وذلك من حيث البشاعة وشدة الألم وكثرة الضحايا والتضحيات التي قدمها الأمميون لإشباع نهم اليهود وتعطشهم الذي يرتوي بإراقة دماء الأمميين. وهذا يفسر لنا حرصهم على استمرار الحروب العربية الإسرائيلية وحرب العراق وإيران والحرب الأهلية اللبنانية والحرب الإمبريالية الروسية في أفغانستان والحرب الإريترية وغيرها من الحروب التي يوقدونها من أجل تفتيت الكيانات الأخرى ولجني الثمار وتكديس الأموال التي تأتي عن طريق هذه الحروب.

إن التخطيط اليهودي وراء معظم الحروب التي شهدها العالم منذ أن هيمنت عليه اليهودية وحتى يومنا هذا، في ظل النظم الوضعية التي أوجدوها عبر العصور. ولعله من المفيد أن نأتي على طرف من أخبار بعض من هذه الحروب.

أولاً: الحروب الصليبية:

حروب ظاهرها ديني مقدس كما يقول المسيحيون في أوروبا، وباطنها السعي إلى تقسيم أوروبا إلى معسكرين متنافرين كما هي سياسة اليهود في كل زمان ومكان ليتمكنوا من الهيمنة عليها. وقد تمكن المحركون لهذه الحرب من اليهود وسادة المال الآريين (الجرمانيين)، من دفع أوروبا المسيحية إلى تسيير ثماني حملات صليبية حاقدة ضد العالم الإسلامي بين عام ١٠٩٥ وعام ١٢٧١م، بحجة حماية الحجاج المسيحيين الذين يؤمون فلسطين وإقامة الحكم المسيحي في فلسطين بدلا من الحكم الإسلامي. يتحدث «وليم غاي كار» عن دور اليهود في إشعال تلك الحروب ومكاسبهم من ورائها[٣٢] (أثار الاحتكار اليهودي للتجارة والذهب في أوروبا في القرون الوسطى حنق البارونات الجرمانيين الذين استولوا على أراضي المقاطعات الأوروبية، وقسموها بينهم بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، ونهبوا خيراتها بالتعسف والقوة القاهرة وكانت مزاحمة الاحتكاريين اليهود لهم على انتهاب الخيرات بواسطة الربا أحد الأسباب الرئيسية التي دفعتهم إلى التطلع نحو الشرق الإسلامي المزدهر، وبالتالي كانت أحد أسباب الحروب الصليبية لاسيما وإن هذا التزاحم على سلب الشعوب الأوروبية البائسة عن طريق البطش

---

(٣٢) وليم غاي كار: اليهود وراء كل جريمة، مرجع سابق، ص ٦٠.

والربا الفاحش أدى إلى سقوط أوروبا في هوة من الفقر والفاقة والتأخر وانهيار كل أثر للحضارة عندها بعد قرون قليلة من سقوط روما بيد البربر الجرمانيين.

كانت هذه أوضاع أوروبا التي مهدت لاتفاق بعض ملوك وأمراء المسيحية مع البارونات الإقطاعيين الباحثين عن المغنم الطامحين إلى الاستيلاء على العالم عنوة وذلك بشن حملة صليبية كبرى. وقد التقت مصالحهم جميعا مع مصالح المرابين والاحتكاريين اليهود الذين دعوا إلى فكرة هذه الحملة بكل قواهم وإمكاناتهم المالية. وانتشروا في أوروبا كلها لتحريض حكام المقاطعات وسادة الحرب المسيطرين عليها وإقناعهم عن طريق فتح خزائنهم على مصاريعها لهم لتجنيد المحاربين ورشوة المتخاذلين.

وكانوا بذلك القوة الخفية التي عملت من وراء الستار على قيام الحروب الصليبية. ذلك أنهم وجدوا في هذه الحروب الفرصة الذهبية التي تتيح لهم تقديم القروض إلى زعماء الحملات وأمراء المقاطعات والبارونات وسلطات الكنيسة ذاتها بالربا الفاحش والمتاجرة بالعتاد والأسلاب إلى جانب الأهداف السياسية وهي إضعاف قوة الإسلام والمسيحية معا.

وهكذا دفعت أوروبا المسيحية ملايين الأرواح في لهيب الحروب، كما بذلت الملايين من النقود والذهب لإشباع نهم اليهود للحرب. كما دفع العالم الإسلامي ملايين الأرواح البريئة لدفع العدوان المسيحي، كما بذل الملايين من الذهب والنقود.. وكانت النتيجة التي أرادها اليهود في المقام الأول: هي دق إسفين بين العالمين الإسلامي والمسيحي، وشق تآلفهما والذي لا يزال راسخا في أعماق كل مسلم ومسيحي.. وخرج اليهود من هذه الحروب بمغانم مالية هائلة وخبرة أكبر، أو كما يقول وليم كار (أقوى وأوسع ثراء ونفوذا).

ثانيا: حروب نابليون:

يجهل الكثيرون دور اليهود في الثورة الفرنسية التي يتغنى بها وبأمجادها الببغاوات من الثوريين في العالم الثالث إلى يومنا هذا، ويعدونها الثورة التي أطلقت عقال الحرية الإنسانية من قيود الإقطاع والكبت والحرمان. كما يجهل الكثيرون دور اليهود في حروب نابليون والتي ذاقت الأمم والشعوب الأوروبية الأمرين وهي تكابدها سنين عديدة. كما يجهل الكثيرون دور اليهود في النهاية المحزنة لنابليون ونفيه إلى جزيرة سانتا هيلانة «ألبا» حتى وفاته، بعد هزيمته الشنيعة في معركة واترلو في يونيو من عام ١٨١٥م، والتي لم يدرك

حتى المؤرخون الأوروبيون سرها. فالكاتب «شيريب سبير يدوفيتش» يبدأ حديثه عن معركة واترلو وسرها في كتابه «حكومة العالم الخفية» بحيرة المؤرخين في هذا السر حيث يورد مقالة «فكتورهيجو» (يحار المؤرخون في تفسير وتحليل معركة واترلو، فهي لغز غامض بالنسبة للرابحين والخاسرين على السواء)، في أول مقالته التي يبدي فيها تلك الحيرة بقوله[٣٣]: (إن المؤرخين يغفلون عن «نمور حديقة الحيوانات السياسية» أعني الروتشيلديين وعملاءهم، الذين عملوا كالأرانب على حفر الأساسات التي كانت تقوم عليها قوة نابليون، ولم ينته كثير منهم إلى ما ذكره واشتكى منه نابليون في منفاه. ففي كتاب الجنرال «غورغو» أحاديث نابليون في هيلينا نقرأ تعجبات نابليون المتحررة من الوهم، يقول: «لم يساعدني سولت، القائد الثاني، في واترلو كما ينبغي.. فمعاونوه، بالرغم من كل أوامري لم ينضموا.. وكان سهل تثبيط همته.. فهو لا يساوي شيئا.. لِمَ لَمْ يحفظ النظام أثناء المعركة في جيماب؟ جهل العبقري الكورسيكي نظريتي عن القوى الشيطانية التي تحكم العالم، فهو كنقولا الثاني كان متسامحا جدا، فلم يعتقل أولئك الروتشيلديين اليهود الأشرار كما اقترح عليه الأمير أيكموهل رئيس شرطته. ومثله مثل نقولا الثاني وشارل الأول إمبراطور النمسا ووليم الثاني، فقد مهد نابليون الطريق أمام اليهود فاحتلوا المناصب العليا في إمبراطوريته، وقد خدع اليهود الأباطرة الأربعة وخانوهم ودمروهم على الرغم من تكريمهم لهم.. وسيكون هذا مصير كل قطر أو حاكم يحاول الاعتماد على اليهود.

ويوضح كل تصرفات سولت التي أشكلت على نابليون أن سولت كان يهوديا، وبناء على ذلك فهو يسمع ويطيع أوامر الروتشيلديين. وعلى الرغم من أن نابليون قد رقى سولت مارشالا وعينه دوقا لدالماتيا وأغدق عليه الملايين، فقد خان سولت إمبراطوره الكريم. وربما يقول أحد القراء إن اليهود قد أسدوا خدمة جليلة لأوروبا بإسقاطهم لنابليون وحقيقة الأمر خلاف ذلك، إذ أن نابليون أصبح حاكما متميزا صالحا أكثر ممن سبقوه حالما قبض على السلطة قبضة قوية. «فاليد الخفية» صنعته لشن الحروب وتحطيم الكنيسة تماما كما صنعت بسمارك فيما بعد، ولما بدل نابليون أهدافه اكتشف الروتشيلديون أنه أصبح مسيحيا أكثر مما ينبغي فدمروه. والفرق بين نابليون وقيصر ألمانيا

(٣٣) شيرين سبيريدوفيتش: حكومة العالم الخفية، ترجمة مأمون سعيد، الطبعة الخامسة (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٣)، ص ٥٤.

أن قيصر ألمانيا فهم فيما بعد واعترف بأن اليهود كذبوا عليه وخدعوه وخانوه، بينما ظل نابليون جاهلا بتلك الخيانة فهلك وهلكت معه فرنسا. وهكذا قادوا نابليون إلى الهزيمة ثم المنفى وقادوا فرنسا إلى الهلاك، بعد أن حققوا أهدافهم من وراء الحروب النابليونية في أوروبا التي أشعلوها ومولوها ثم قرروا إنهاءها في معركة واترلو كما أسلفنا.. بعد أن جنوا ثمار تلك الحروب كما هي عادتهم ومطلبهم من كل حرب أشعلوها أو يشعلونها.

ثالثا: الحرب الأهلية الأمريكية:

تأتي الحرب الأهلية الأمريكية بعد حرب القرم مباشرة، وهي الحرب التي رمى بها جميز روتشيلد بأربع قوى في وجه روسيا فيما أطلق عليه المؤرخون لفظ: حرب الجريمة كمرادف لحرب القرم عام ١٨٥٧م.. وحيث فشل هجوم الدول الأربع أو الخمس في تلك الحرب على روسيا، قرر الروتشيلديون إشعال الحرب الأهلية الأمريكية لتدمير القوة العالمية الثانية في الجزء الغربي من العالم، ثم قرروا قيام ثورة ١٩١٧م البلشفية لتدمير روسيا التي لم تدمرها قوة بريطانيا وفرنسا وحلفائهما في حرب القرم.

اندلعت الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٦١م بعد فشل حرب القرم مباشرة، وهي الحرب التي دامت حتى عام ١٨٦٦م بين ولايات الشمال والجنوب الأمريكي بهدف فصل الولايات الأمريكية عن بعضها البعض وإنشاء دولتين ضعيفتين بدلا من الولايات المتحدة الأمريكية القوية، وذلك لتخوف اليهودية العالمية من سيطرة تلك الدولة وهيمنتها على مقدرات العالم بما تملكه من مقومات القوة. ولقد استغل اليهود النزاعات الموجودة في الجنوب والشمال لإشعال تلك الحرب.. والغريب أن قرار اليهود بإشعال الحرب الأهلية الأمريكية كان في العام نفسه الذي اندلعت فيه حرب القرم ــ عام ١٨٥٧ ــ حيث رأوا فشل الهجوم على روسيا، وكان قرارهم في حفل الزواج الروتشيلدي الذي ضمهم جميعا في لندن عام ١٨٥٧م أورد «شيريب سبير يدوفيتش» في كتابه السالف الذكر، تصريح بسمارك عام ١٨٧٦م لكونراد سيم عن حقيقة الحرب الأهلية الأمريكية، حيث قال(٣٤): (إن تقسيم الولايات المتحدة إلى دولتين فيدراليتين متساويتين في القوة قررته القوى المالية الكبرى في أوروبا قبل الحرب الأهلية. فقد تخوف أصحاب المصارف الأوروبيون من اليهود، إن بقيت الولايات المتحدة أمة واحدة وحصلت على

---

(٣٤) المرجع السابق، ص ١٨٠.

استقلالها الاقتصادي والمالي، من أن تقلب سيطرتهم المالية على العالم رأسا على عقب. وسيطر صوت الروتشيلديين الذين تنبأوا بغنائم كثيرة إذا ما استطاعوا إحلال ديمقراطيتين ضعيفتين معتمدين على المال اليهودي مكان الجمهورية الواحدة القوية الواثقة من نفسها المكتفية بذاتها. بدأوا بإرسال مبعوثين لاستغلال موضوع العبيد وحفر هوّة سحيقة بين جزئي الجمهورية. ولم يشك لينكولن مطلقا في هذا التنظيم السري، فهو ضد الرق وانتخب لأجل ذلك، بيد أن شخصيته منعته من أن يكون رجل حزب واحد. وعندما آلت شؤون الدولة إليه اكتشف بسهولة أن هؤلاء الماليين، الشياطين الأوروبيين «الروتشيلديين»، يريدونه أن ينفذ خططهم. فقد جعلوا الانفصال بين الجنوب والشمال وشيكا، بغية استغلاله لأقصى درجة ممكنة. لقد أدهشتهم شخصية لينكولن ولم يزعجهم وتبين أن الجنوب ليس بأسوأ عدو، وإنما الخطر الأعظم هو خطر الممولين اليهود.. ولم يتستر على أفكاره وإنما راقب «اليد الخفية» مراقبة دقيقة، ولكن لم يرغب في إثارة موضوع يزعج الجماهير التي تجهل الأمر، فعمد إلى تقليم أظافر أرباب المصارف العالميين بإنشاء نظام القروض بطريقة تسمح للدولة بالاقتراض من الناس مباشرة دون وسطاء. لم يكن لينكولن متخصصا بالقضايا المالية، غير أن حدسه الصافي كشف له أن مصادر أي ثروة تكمن في عمل الأمة ونظامها الاقتصادي. فعارض الإصدار عن طريق الممولين العالميين، وحصل من الكونغرس على حق الاستدانة من الشعب ببيع أسهم الدولة له مباشرة. وساعدت المصارف المحلية بفرح عظيم مثل هذا المشروع، ومن ثم تجنبت الحكومة والأمة مؤامرات الممولين الأجانب، الذين فهموا من الوهلة الأولى أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف لن تقع في شراكهم فقرروا اغتيال لينكولن، وليس أسهل من أن يجدوا أحد المتعصبين لينفذ المهمة.

لقد كان اغتيال لينكولن كارثة للعالم المسيحي.. ولم يكن في الولايات المتحدة من يحل محله. وطفق الإسرائيليون مجددا ينصبون الشراك لثروات العالم. وإنني أخشى أن يسيطر أرباب المصارف اليهود بإتقانهم الصنعة وحيلهم البارعة، سيطرة تامة على ثروات أمريكا الهائلة ويستخدمونها لإفساد الحضارة الحديثة. فاليهود لن يترددوا في إغراق كل العالم المسيحي في حروب وفوضى، حتى تصبح الأرض إرثا لإسرائيل .

هكذا يروي لنا بسمارك حقيقة دور اليهود في إشعال الحرب الأهلية الأمريكية التي دامت خمس سنوات بين ولايات الشمال وولايات الجنوب لفصل الجمهورية إلى

جمهوريتين، وكذلك دور اليهود في اغتيال الرئيس الأمريكي الشجاع «إبراهام لينكولن» الذي عرف النوايا اليهودية الشريرة وحاول تجنيب الولايات المتحدة الأمريكية شرورها.

رابعا: حرب البوير:

الذهب هو غاية اليهود وهدفهم الحقيقي منذ أن خرجوا من مصر وأوعزوا إلى السامري أن يصنع لهم من حلي الذهب التي سرقتها نساؤهم من نساء مصر ليلة الخروج، إلها يعبدونه. ومن هذا المنطلق كان النظام الرأسمالي الذي رافقته شهوة جانحة وجامحة لامتلاك الثروة، كذلك الاستيطان في البلاد الأكثر امتلاكا للخيرات وتكديس الذهب والثروات.. وعليه كان الاستيطان في فلسطين والجزائر وشرق آسيا وأمريكا الجنوبية وكذلك جنوب أفريقيا التي كانت ساحة لحرب البوير التي نحن بصدد الحديث عنها.

وفي إطار الهجمة الرأسمالية الاستيطانية، استوطنت جماعات أوروبية من الهولنديين والفرنسيين والتي عرفت بـ «البوير» في جنوب أفريقيا، وعرفت تلك المنطقة بمنطقة البوير والتي تنسب إليها معركة البوير التي اندلعت فيما بين عام ١٨٩٩م وعام ١٩٠٢م بين أولئك المستوطنين وبين القوات البريطانية المدفوعة والممولة من قبل المرابين اليهود في بريطانيا وأوروبا.

لقد تمكن البوير (أحفاد المهاجرين الهولنديين والفرنسيين الأوائل) عند نهاية القرن التاسع عشر من إقامة جمهوريتين صغيرتين عرفتا بجمهوريتي: الترانسفال وأورانجي في منطقة جنوب أفريقيا حيث يحيط بهم جنود الاستعمار البريطاني من كل جانب في المستعمرات البريطانية الاستيطانية بالمنطقة.

وعندما علم المرابون اليهود بتوفر الذهب والماس في مناجم أراضي الجمهوريتين الصغيرتين، بادروا إلى إغراء بريطانيا بمهاجمة الجمهوريتين وبينوا لها أن أمر احتلال بريطانيا لأراضي الجمهوريتين لا يحتاج من بريطانيا إلى أي مجهود كبير حيث لم يكن لدى أي من الجمهوريتين جيش نظامي. وبالفعل أخذت بريطانيا برأي المرابين اليهود وحاصرت بقواتها أراضي الجمهوريتين وهاجمتهما في عام ١٨٩٩م. واستمرت الحرب حتى العام ١٩٠٢م حيث انتهت بسحق بريطانيا لأولئك المستوطنين القدامى، وضم أراضي جمهوريتي: الترانسفال وأورانجي إلى المستعمرات البريطانية.

وهكذا انساقت بريطانيا لأهواء اليهود الذين كسبوا عندما مولوا آلة الحرب البريطانية

بقروضهم الربوية، وكسبوا حين آلت إليهم مناجم الذهب والماس بجنوب أفريقيا، وهي التي لا تزال بحوزتهم تحت ظل النظام العنصري الأبيض بجنوب أفريقيا. وطويت سجلات تاريخ حرب البوير دون أن تدركها غالبية الشعب البريطاني الذي كسب عداوة الشعوب والأمم بسبب انقياده للأهواء والأطماع اليهودية، إلى الحد الذي لا نجد فيه مشكلة في أي بقعة من العالم، إلا والأصابع البريطانية وراءها بتحريك اليد اليهودية الخفية. ودور بريطانيا في المشكلة القائمة بفلسطين لا يخفى على أحد، ودور بريطانيا في المشكلة القائمة بجنوب أفريقيا لا يخفى على أحد، ودور بريطانيا في المشكلة القائمة بجنوب أمريكا الجنوبية حول جزر الفوكلاند لا يخفى على أحد.. العداء والكراهية لبريطانيا والمكاسب وجني الثمار لليهودية العالمية التي جعلت من بريطانيا أداة لتنفيذ أطماعها وإشباع رغباتها التي لا تقف عند حد.. ومن ذلك حرب البوير كما أوضحنا.

خامساً: الحرب الروسية اليابانية:

اندلعت الحرب الروسية اليابانية في الثامن من فبراير عام ١٩٠٤م عندما وجه الأسطول الياباني ضربة قوية ومباغتة للأسطول الروسي في منطقة «بورت آرثر» ثم أعلنت الحرب رسميا في التاسع عشر من الشهر نفسه. وكانت الأسباب المعلنة لتلك الحرب هي التنافس الروسي ــ الياباني على منطقة الشرق الأقصى، أما الأسباب الخفية فهي إغراء اليهودية العالمية لكل طرف من أطراف النزاع بالطرف الآخر، فالحرب الروسية اليابانية من الحروب القلائل في التاريخ التي كان الدعم اليهودي يتدفق على طرفي النزاع. يقول «وليم غاي كار» في كتابة «اليهود وراء كل جريمة» عن هذا الأمر ما يلي[٣٥]: (كانت الثورة الشيوعية ماضية في طريقها فيما كانت الحكومة الروسية منهمكة في صراعها الداخلي مع الحركات الفوضوية اليهودية والأزمات الاجتماعية والاقتصادية والاضطرابات المتوالية التي يحيك خيوطها سادة المال العالميون.. وعندما قرر هؤلاء إثارة الحرب بين اليابان وروسيا لتوجيه ضربة قوية إلى هذه الأخيرة، رسموا خطة العمل بحيث تقوم مؤسسة «كوهين ــ لوب» الأمريكية بتمويل الحكومة اليابانية سرا.

وتقضي هذه الخطة بسحب مؤسسة روتشيلد فجأة لمعونتها المالية عندما تصل الحرب ذروتها في نفس الوقت الذي يعمد فيه المخربون الذين يعملون لحساب جماعة

(٣٥) وليم غاي كار: اليهود وراء كل جريمة، مرجع سابق، ص ١٥٣.

روتشيلد خاصة والمهندسون في كافة صفوف الجيش والادارات الحكومية والمنتشرون في جميع المناطق الاستراتيجية، إلى بث الفوضى في أجهزة التموين والاتصال وخطوط المواصلات والنقليات وبصورة خاصة إلى تخريب الخط الحديدي الذي ينقل الإمدادات الروسية إلى الشرق الأقصى بحيث ينهار الجيش الروسي بصورة لا يقوم بعدها أبدا.. وقد تم بالفعل تنفيذ هذه الخطة بأكملها.. ودهش العالم أجمع آنئذ لانهيار الجيش الإمبراطوري الخضم أمام دولة اليابان الناشئة دون أن يجد تعليلا لذلك..! ولا تزال كتب التاريخ تتساءل بحيرة حتى الآن عن سبب هذه الهزيمة اللامنطقية..!

وحين جرت مفاوضات الصلح في مدينة «بوتسموث» بالولايات المتحدة عام ١٩٠٥م اتصل الكونت «ويت» مندوب القيصر بالمرابي العالمي «يعقوب شين» اليهودي ممثل مجموعة «كوهين ــ لوب» التي مولت اليابان للاستفسار منه عن سبب وقوف هذه المؤسسة المالية العملاقة ضد روسيا.. فأجابه هذا برسالة ننقل منها الفقرات التالية:

(وأنت تدرك ــ وأنت الرجل الاقتصادي والسياسي ــ أنه لا يمكن أن تتوقع من المصالح اليهودية ونفوذ الأمريكيين اليهود أن تعمل إلا ضد الحكومة الروسية التي تحارب المصالح المالية اليهودية لنؤمّن لليهود الروس متطلباتهم وحقوقهم).

لقد كان الهدف من وراء هذه الحرب، خلق مناخ مناسب لحركة ثورية تطيح بالقياصرة في روسيا.. ولقد تولى يعقوب شيف نفسه تمويل الثورة التي حدثت عام نهاية الحرب (١٩٠٥) كما تولى أعمال الاغتيالات وأعمال التخريب في روسيا حتى قامت الثورة البلشفية اليهودية عام ١٩١٧م حيث أطاحت تلك الثورة بالسلطان القيصري في روسيا كما أراد اليهود. وقد كانت أعمال يعقوب شيف ودعمه من الأعمال المفضوحة وقد تحدثت عنها جريدة الفيغارو الفرنسية في عددها الصادر في ٢٠ فبراير عام ١٩٣٢ بمقالة نشرها فيها الكاتب «فرانسو كوثي».

هكذا قادوا روسيا إلى حرب آلت حصيلتها لجيوبهم بعد العديد من أعمال الاغتيالات التي كان القيصر الكسندر الثاني ضحية أحدها عام ١٨٨١م في بيت الفتاة اليهودية الغانية «هسيا هلفمان» بعد محاولتين جرت الأولى في الوقت نفسه الذي جرى فيه اغتيال إبراهيم لنكولن وجرت الثانية في عام ١٨٧٩م.. وهكذا قادوا روسيا إلى الشيوعية التي صممها اليهودي مردخاي كاي المدعو «كارل ماركس» كما بينا.

سادسا: الحرب الأهلية الأسبانية:

تغلغل النفود النوراني ــ الماسوني ــ في طول أسانيا وعرضها كما تغلغل في كل أرجاء أوروبا من قبل ذلك، وعلى إثر هذا التغلغل جاءت الانتخابات البرلمانية لصالح قوى الشر النوراني المتمثلة بالقوى اليسارية والاشتراكية المتحالفة. ففي تلك الانتخابات التي تمت في يوم ١٢/٤/١٩٣١م، وفي ظل النمو المضطرد لقوى الشر الماسونية، وترك الملك «الفونس الثالث عشر» لأسبانيا دون التنازل عن العرش، كانت النتائج على النحو التالي: ٢٩٠ مقعدا لقوى الشر اليسارية الماسونية و ٤٥ مقعدا للقوى اليمينية.

ثم سارت الأوضاع من سيء إلى أسوأ حتى أعلنت القوى اليمينية المهزومة في تلك الانتخابات الحرب على الحكومة اليسارية التي أتت بها مهزلة الانتخابات آنفة الذكر. كتب «وليم غاي كار» في مؤلفه «أحجار على رقعة الشطرنج» عن تلك الانتخابات ودور الشيوعين في إشعال الحرب الأهلية في أسبانيا عام ١٩٣٦م يقول(٣٦): (كان «لارغوكا باليرو» الشيوعي يقبع في السجن إثر فشله في تنفيذ محاولة انقلابية وقد أجرى معه المستر «إدوارد كنوبلر» مقابلة نشرها» مراسل في أسبانيا «يقول فيها»: وسنحصل على ٢٦٥ مقعدا فنغير النظام تغييرا شاملا. وسيلعب «إزانا» دور كيرنسكي» بالنسبة «للينين» الذي سأقوم أنا بدوره. ولن تمضي سنوات، خمس إلا ونكون قد قمنا بالاستعدادات الكافية لجعل الحكم جمهوريا وهي الخطوة الارتكازية لتحقيق هدفنا النهائي وهو اتحاد الجمهوريات الايبرية. وهكذا ستعود شبه الجزيرة الايبرية لتكون بلدنا الأوحد. ونحن نأمل أن تنضم البرتغال بالطرق السلمية، على أننا قد نستعمل القوة إذا احتاج الأمر. وأضاف: ويمكنك أن ترى من خلال هذه القضبان حاكم أسبانيا القادم. لقد أعلن لينين أن أسبانيا ستكون الدولة السوفياتية «الشيوعية» الثانية في أوروبا، وستتحقق نبوءته هذه، وسأكون أنا لينين الثاني الذي سيقوم بتحقيق هذه النبوءة.

وبعد انتخابات متحيزة تماما لم تشهد أسبانيا لها مثيلا في تاريخها، كتب الرئيس زامورا يقول: (وصلت الجبهة الشعبية إلى السلطة في ١٦ فبراير، بفضل نظام انتخابي سيء جدا وغير عادل أبدا. وبفضل هذا النظام توصلت الجبهة الشعبية لنيل أكثرية تقريبية بينما هي في الحقيقة لا تشكل إلا أقلية بعيدة عن الفوز. وعلى سبيل المثال، في إحدى

---

(٣٦) وليم غاي كار: احجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

المحافظات ـــ حيث يزيد عدد المعارضين على المؤيدين للجبهة الشعبية بأكثر من «٣٠» ألف صوت، ـــ نالت الجبهة في تلك المحافظة عشرة أصوات من ثلاثة عشر صوتا، مع أن عدد أصوات الناجحين في المحافظة لم يزد على أصوات خصومهم بأكثر من ٢٪ من كل الدوائر..).

ثم استطرد الكاتب حديثه عن تلك الحقبة السوداء في تاريخ أسبانيا المعاصر بقوله[٣٧]: (يقول الجنرال «مولا» بعد انتخاب الحكومة الاشتراكية في أسبانيا، ورحيل الملك عن البلاد، حدث انجراف واسع النطاق نحو الانضمام إلى محافل الشرق الأكبر الماسونية، وقد فكر المسؤولون والرسميون أنهم بطلبهم الدخول إلى هذه المحافل سيكونون بمأمن من الظلم الذي كانت تمارسه الأكثرية الماسونية في الحكومة. وإنهم بهذا الطلب يبرهنون على إيمانهم بالحكم الجمهوري وبذلك ينجون من خراب محتم.

وبعد رحيل الملك مباشرة صرح «فرانكو» في الأكاديمية العسكرية التي كان يشرف عليها في ذلك الوقت، «إن إعلان الجمهورية قد تم في فرنسا، وإن من واجب الجميع في الوقت الحاضر، التعاون مع السلطات في المراكز التي ينتمون إليها، حتى يعم السلام، وحتى تعود البلاد نفسها بالطريقة التشريعية الطبيعية. ولهذا الغرض حققنا النظام والخدمة المخلصة في أكاديميتنا. وهما صفتان أحوج ما نكون إليهما في الوقت الحاضر لأن على الجيش أن يضحي بكل تفكير عقائدي في سبيل مصلحة الأمة وتحقيق الأمن في أرض الأجداد ويتضح لنا من هذا الإعلان أن فرانكو يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون نازيا أسود كما حاولت الشيوعية تصويره إلى الرأي العام.

ولكن «القوى الخفية» التي تلعب من وراء الستار لم تكن راغبة في إعطاء الحكومة الجمهورية فرصة للعمل بشكل ديمقراطي فعال وهكذا كانت الخطوة المنطقية التالية بعد الإطاحة بالملكية، هي مهاجمة الدين الذي يؤمن به الشعب، فأدخلوا العلمانية إلى المدارس وقاموا بحملة واسعة عند السلطة الأبوية والسلطة الكنسية.. وبعد إيجاد الآلاف من اللادينين ومن البلاشفة الشبان المعادين للقيم الاجتماعية، لم يبق عليهم إلا الإنتظار وحتى تسنح الفرصة المناسبة لدفع هذه الجماهير، كي تستعمل القوة ضد القانون والنظام..).

---

(٣٧) المرجع السابق، ص ٢٥٥.

هكذا يتضح لنا دور القوى اليهودية في الحرب الأهلية الأسبانية التي انتهت بانتصار القوى اليمينية ضد القوى اليسارية وإعلان الجنرال فرانكو حاكما عسكريا للبلاد في ٢٩ مارس من عام ١٩٣٩م، وهي الحرب التي أرادت منها قوى الغدر اليهودية تحويل أسبانيا إلى دولة بلشفية ثانية في أوروبا.

سابعا: الحرب العالمية الأولى:

كثيرون الذين كتبوا عن الحرب العالمية الأولى، وعديدة الكتب التي تحدثت عن الأسباب التي أدت إلى نشوب هذه الحرب، وعن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي كانت سائدة قبيل اندلاع الحرب في الثامن والعشرين من يوليو عام ١٩١٤م.

لقد أجمعت معظم هذه المراجع على أن السبب مقتل ولي العهد النمساوي «فرانز فرديناند» وزوجته، على يد طالب صربي في مدينة «سيرايفو» في الثامن والعشرين من يونيو عام ١٩١٤م.. ولكن القليل من هذه المراجع من سبر الأغوار، وبحث في الخفايا، وحاول البحث عن الأسباب الكامنة واليد الخفية الدافعة للطالب الصربي «غافريلو برنسيب» والتي جعلته يقدم على قتل رجل كهذا وزوجته!

إن الأغوار التي أريد سبرها والخفايا التي أريد إيضاحها هي تلك التي تكتنف المؤامرة النورانية التي تقدم بنا الحديث عنها والتي كلف الأستاذ الألماني المرتد «آدم وايز هاوبت» والمجرم الإيطالي المحترف «مازيني» والجنرال الأمريكي الحاقد «ألبرت بايك» بصياغة تفاصيلها والتعاقب على تخطيطها وتنفيذ مراحلها خطوة إثر خطوة.

لقد قامت الخطة النورانية (المؤامرة اليهودية على الإنسانية) كما أسلفنا من قبل على ضرورة تهيئة الأسباب الكفيلة بإشعال حروب عالمية ثلاث. تهدف اليهودية العالمية من وراء الحرب العالمية الأولى من بين هذه الحروب الثلاث والتي نحن بصدد الحديث عنها الآن إلى:

١ ــ إسقاط الخلافة الإسلامية وتمزيق جسد دولة الخلافة.
٢ ــ إسقاط روسيا القيصرية وإقامة الدولة الشيوعية اليهودية الأولى في روسيا.
٣ ــ الحصول من المتحاربين على وعد بإقامة الدولة اليهودية في فلسطين الإسلامية العربية الطاهرة.

وبالفعل فقد سقطت دولة الخلافة بعد نهاية الحرب مباشرة على يد الرجل الذي حملته أمه سفاحا كما هو ثابت عند ثقات رجالات التاريخ، ثم نسبته إلى رجل من يهود الدونمة.. وهذا أدهى وأمر، ذلك هو كمال أتاتورك، الذي مكنته قوى الشر اليهودية من تركيا المسلمة ودولة الخلافة فيها بعد أن استطاعت أن تجعل منه بطلا منقذا في أعين الشعب التركي المخدوع.

وبالفعل فقد سقطت روسيا القيصرية قبيل نهاية الحرب على أيدي ثوار البلشفيك الشيوعيين بعد ثورتهم الشيوعية عام ١٩١٧، وقامت على إثرها أول دولة شيوعية يهودية وعلى أكبر مساحة من العالم وبحكومة وقيادة يهودية بحتة.

وبالفعل فقد حاولوا الحصول من ألمانيا على وعد بإقامة الدولة اليهودية في فلسطين، وقدموا دعمهم وقروضهم لألمانيا. وعندما لم تلب ألمانيا مطالبهم تلك تحولوا عنها وقرروا هزيمتها وهي في عز الانتصار العسكري، وحصلوا على مطلبهم ذلك من بريطانيا العظمى! وقبيل نهاية الحرب أيضا وذلك بموجب وعد وزير الخارجية البريطانية «جيمس بلفور» عام ١٩١٧، وذلك مقابل دفع الولايات المتحدة إلى الدخول إلى جانب بريطانيا في الحرب ودعمها عسكريا واقتصاديا من الخزائن الأمريكية التي لا تنضب والتي لا تزال أداة طيعة بيد اليهودية العالمة تمنحها لمن تريد وتمنعها عمن لا تريد.

فهل ترى أخي القارىء المسلم أثابك الله أن ذلك الطالب الصربي هو السبب كما يقال؟ أم أنه كان أداة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، وواحد من ملايين ضحايا تلك الحرب التي أشعلها الكيد والحقد والجنون والجنوح اليهودي لتدمير الأمم والشعوب الأممية وإخضاعها للسيطرة اليهودية التامة؟

وهل ترى أخي القارىء المسلم أيضا أن المستفيد من تلك الحرب والجاني لثمارها هو أي من ألمانيا وروسيا وإيطاليا وبريطانيا وفرنسا والنمسا وأمريكا وتركيا وكل من دخل أتون هذه الحرب؟ أم أنها اليهودية العالمية التي أسقطت بموجب هذه الحرب دولة الخلافة الإسلامية، التي كانت سدا منيعا بوجه الأطماع اليهودية بفلسطين. والتي أسقطت روسيا القيصرية التي طاردت اليهود ونكلت بهم بموجب ما اقترفته أيديهم القذرة والتي كان آخرها مقتل القيصر في بيت واحد من بناتهم حفيدات هداسا «إستير» ويهوديت وبوبيا. والتي حققت حلمها الذي رعته وعملت من أجله ما يربو على السبعة عشر قرنا منذ أن خرجوا مطرودين من أورشليم عام ١٣٥م.. إنهم هم الذين خططوا لهذه الحرب

والحرب العالمية التي تلتها، كما سنرى عند حديثنا عنها، كما يخططون اليوم بدفع القوتين العظميين نحو حرب عالمية ثالثة. وهم الذين هيأوا الأسباب وأوجدوها لهذه الحرب، والتي لم يكن ذلك الطالب الصربي إلا واحدا من الأدوات الضعيفة في مخطط متماسك الحلقات، وهم الذين جنوا ثمار هذه الحرب حيث سقطت دولة الخلافة الإسلامية، وسقطت القيصرية في روسيا، وقامت دولة الشيوعية اليهودية الأولى في أكبر الدول المعاصرة قوة ومساحة، وحصلوا على فلسطين الطاهرة لتكون نواة دولتهم النورانية والتي سوف ينطلقون منها نحو إسرائيل الكبرى.. أما الأمميون الجهلاء فليس لهم إلا الغناء والتسخير طالما استكانوا للجبروت اليهودي الذي ورث مكر الجد اليهودي الأول «إبليس» كما قال المسيح بن مريم عليه السلام حيث وصفهم بأحفاد الشيطان. يقول «وليم غاي كار» في كتابه «اليهود وراء كل جريمة» وهو يصف دور اليهودية العالمية في إشعال فتيل الحرب العالمية الأولى[٣٨]: (تفجرت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م، وعاش العالم بأسره السنين الأربع الرهيبة التي طغى فيها طوف الدماء الشامل كما لم تشهد الإنسانية مثيلا له من قبل في تاريخها الطويل وإن كانت ستشهد طوفاناً دموياً آخر أبشع منه بعد فترة وجيزة من عمر الزمن: عام ١٩٤٥م، وتعيش واجفة بعد ذلك من احتمال طوف ثالث قد يكون القاضي هذه المرة.

لا نرى من داع لتكرار سرد الأحداث المعروفة التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى مما لا يجهله أحد: فقد دارت معامل الأسلحة كما لم تدر من قبل.. وتدفقت الآت الفتك والتدمير على دول العالم أجمع محققة أرباحا خيالية لتجار الموت: تجار الحروب.. وانقسمت هذه الدول إلى تكتلات ومحاور مجابهة لبعضها البعض بحيث نستطيع القول إن محفل المؤامرة العالمية: محفل حكماء صهيون.. الذي كان يشد جميع الخيوط من وراء الستار أصبح بالفعل المهيمن على الموقف العالمي.. وعندما طلع فجر القرن العشرين كانت القوى الخفية قد أعدت بصورة عامة حكومات الدول الأوروبية وهيئاتها السياسية وجيوشها للحرب المقبلة، أو لتقبل فكرتها على الأقل، وبقي عليها إعداد الرأي العام الأوروبي والعالمي من ناحية، وتطويق قادة قوى الخير في العالم من ناحية أخرى)..

ووضعت الحرب أوزارها بعد أن حققت الأهداف اليهودية المرسومة، ثم كانت معاهدة فرساي التي صاغتها وأملتها القوى اليهودية المهيمنة، ثم كانت عصبة الأمم

(٣٨) وليم غاي كار اليهود وراء كل جريمة، مرجع سابق، ص ١٧١.

اليهودية الفكرة والمنشأ والولادة لتنفذ المخطط اليهودي باسم العالم أجمع.. فهل هناك من جان لثمار الحرب العالمية الأولى غير اليهودية العالمية!؟ لا أظن أن هناك عاقلا يظن بعكس ما أظن.

ثامنا: الحرب العالمية الثانية:

الحديث عن الحرب العالمية الثانية التي اشتعل فتيلها في اليوم الأول من سبتمبر من عام ١٩٣٩م، لا يعدو أن يكون استمرارا للحديث عن الحرب العالمية الأولى التي انتهت في عام ١٩١٨م بعد أن حققت اليهودية الأهداف التي أرادها النورانيون اليهود.. وكون الحديث عن هذه هو استمرار للحديث عن تلك ينطلق من معطيات هي في نظري عوامل الاستمرارية، من ذلك:

١ ـ الحربان الأولى والثانية وليدتا المؤامرة اليهودية الكبرى ضد الإنسانية، وهي المؤامرة التي تعاقب على التخطيط لها وتنفيذها «آدم وايز هاوبت» و«مازيني» و«ألبرت بايك» كما أسلفنا. والتي مهدت كما بينا لحروب عالمية ثلاث.

٢ ـ الفاصل الزمني بين الحربين وهو الذي لا يتجاوز العشرين سنة، والذي لا يعدو كونه هدنة بين حربين أو مرحلة هدوء حذر بين معركتين في حرب واحدة. لم يتغير خلال هذا الفاصل الزمني القصير سوى التحالفات في الساحة الأوروبية وهذا ما تقتضيه مراحل تنفيذ المؤامرة وتحقيق الأهداف اليهودية الشريرة التي استطاعت أن تصوغ تلك التحالفات في أوروبا والعالم أجمع بما يخدم أهدافها ومطامعها، سواء في الحرب العالمية الأولى أو الثانية.

٣ ـ نهاية الحرب العالمية الأولى ـ أو بالأحرى الجولة الأولى من الحرب ـ بمعاهدة فرساي التي أملتها اليهودية العالمية على المنتصرين، وجعلت منها منطلقا لإثارة وإشعال الحرب العالمية الثانية ـ أو بالأحرى الجولة الثانية من الحرب ـ وذلك بما تضمنته بنودها من إجحاف بحق ألمانيا التي لم تهزم في الحرب العالمية الأولى كما أسلفنا وكما تتصور الملايين من البشر في أوروبا وغيرها من قارات العالم.

يقول «وليم غاي كار» في كتابه «أحجار على رقة الشطرنج» عن حقيقة معاهدة فرساي ما نصه[٣٩]: (كانت معاهدة فرساي أحد أكثر الوثائق التي وقعها ممثلو ما يسمى بالدول

---

(٣٩) وليم غاي كار: أحجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ٢١١.

المتمدنة إجحافا وظلما، فقد أدى هذا الظلم الذي وقع على الشعب الألماني بسبب ما جاء في بنود هذه المعاهدة إلى قيام حرب عالمية أخرى، وجعل قيام هذه الحرب أمرا لا مفر منه.

يجب علينا أولا أن نعي حقيقة الظروف التي أحاطت بتوقيع الهدنة في ١١ نوفمبر ١٩١٨م، فالقيادة الألمانية العليا لم تطلب هذه الهدنة، لأن قواتها كانت في خطر من انهزامها، بل إن الهدنة وقعت ولم تكن القوات الألمانية قد لاقت أي هزيمة على أراضي المعارك، ولكن القيادة العليا الألمانية طلبت الهدنة حتى تستطيع التفرغ للوقوف في وجه قيام ثورة شيوعية في البلاد. ذلك أن «روزا لوكسمبرج» وتنظيمها الذي يسيطر عليه اليهود كانوا يخططون لإقامة نسخة ثانية لما قام به وحققه «لينين» في روسيا قبل عام تماما.

لقد وقعت الهدنة على أساس أنها مقدمة للبحث والتفاوض من أجل السلام ويجب أن نذكر هذه الحقيقة المهمة جدا لأن الدخول في هدنة تحت مثل هذه الظروف يختلف تماما عن استسلام غير مشروط..).

إذن معاهدة فرساي التي وقعت لتكبيل ألمانيا والشعب الألماني، كانت البذرة التي نمت وتولد عنها الفاجعة العالمية الثانية كما أرادت اليهودية العالمية الشريرة، والتي كانت تهدف من وراء إشعال فتيل الحرب العالمية الثانية إلى تحقيق الأمور التالية:

١ ــ إتاحة الفرصة لامتداد الشيوعية من روسيا إلى أكبر قدر من دول العالم، وتهيئة الأوضاع الدولية لتقبل الأنظمة الشيوعية التي تقوم في تلك الدول والتي تقرر تقسيم أوروبا مناصفة بين الشيوعية والرأسمالية في ظل هذا المخطط، وذلك تمهيدا لخلق القوتين الأعظم بعد الحرب العالمية الثانية لكي تكونان وسيلة إشعال الحرب العالمية الثالثة كما هو مقرر لها.

٢ ــ إقامة الدولة اليهودية ــ أو بالأحرى نواة الدولة اليهودية ــ في فلسطين، التي حصلت اليهودية العالمية على وعد بريطانيا بإقامتها في فلسطين كما جاء في وعد بلفور. وذلك لتكون منطلقا لتدمير العالم الإسلامي في الحرب العالمية الثالثة ومن ثم التربع على عرش ما يتبقى من العالم بعد الدمار الشامل الذي سوف تحدثه الحرب العالمية الثالثة.. وهي التي قلنا إن التلمود قد حدد لهم بعدها سبع سنوات لإحراق وتدمير ما سوف يغنمونه مما يتركه المتقاتلون من سلاح وعتاد. وبالفعل لم تنته الحرب العالمية الثانية إلا

والنفوذ الشيوعي يلقى بظلاله الداكنة على نصف قارتي آسيا وأوروبا. وفي عام ١٩٤٩ـ أي بعد نهاية الحرب بثلاث سنوات ــ اكتسحت الشيوعية الصين، حيث أصبح تحت هيمنتها من جراء تلك الخطوة فقط ما يربو على الستمائة مليون صيني آنذاك ــ تعداد سكان الصين الشيوعية اليوم يناهز الألف مليون نسمة. ثم انتشرت الشيوعية في دول جنوب شرق آسيا انتشار النار في الهشيم. ثم تسللت إلى دول أفريقيا وأمريكا الجنوبية، هذا إلى جانب وجود أحزاب شيوعية في دول غرب أوروبا وأمريكا الشمالية.. وهاهي اليوم تتسلل عبر أفغانستان المسلمة إلى الدول الإسلامية في جنوب وجنوب غرب آسيا كالباكستان وإيران والخليج العربي.. كيف حدث هذا!؟ وكيف تقبلت الشعوب المؤمنة فكرة الإلحاد والزندقة!؟ لا أحد يدري إلا القلة القليلة من المتابعين للأحداث العالمية في ظل المخطط النوراني اليهودي الآثم، والذي يستند إلى الفكر التوراتي التلمودي الوثني المنحرف.

ثم مكنوا لانتشار الشيوعية بهذا الحجم، من خلال تهيئة الظروف والأسباب والأوضاع الدولية وهم يعملون بنفس القوة التآمرية إلى قيام حرب عالمية ثالثة كما هو مقرر في المخطط النوراني الآثم.

وبالفعل قامت هيئة الأمم المتحدة التي أوجدتها اليهودية العالمية بديلا لعصبة الأمم بعد أن استنفدت تلك أغراضها، وباشرت هذه الهيئة السلمية الموقرة! ومن نيويورك ــ العاصمة الحالية لليهودية العالمية حيث يقطنها أربعة ملايين يهودي ــ نصف يهود أمريكا، وربع يهود العالم، وأكثر من سكان دولة إسرائيل نفسها، ــ تنفيذ المخطط المرسوم لها بالتعاون مع بريطانيا وأمريكا وفرنسا وروسيا وغيرها من قوى الشر، فكان قرار تقسيم فلسطين في عام ١٩٤٧م أي بعد نهاية الحرب بسنتين، ثم كان قيام دولة إسرائيل المعاصرة عام ١٩٤٨م، ثم توسعت.. وستوالي توسعها حتى تقوم دولة إسرائيل التوراتية ــ إسرائيل الكبرى ــ كما يخططون.

فهل من شك أن اليهودية العالمية هي جانية ثمار الحرب العالمية الثانية؟ وهل ترى أي فائدة أو ثمار جنتها أي من ألمانيا أو إيطاليا أو اليابان أو روسيا أو بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا أو أي من الذين ساقتهم القوى اليهودية نحو الهاوية التي رسمتها لهم؟ لقد دفعت روسيا وحدها

(٤٠) الموسوعة العسكرية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٦٤٩.

(٢٠,٠٠٠,٠٠٠) قتيل من شبابها في تلك الحرب، ودفعت بولونيا وحدها (٥,٤٦٦,٠٠٠) قتيل من شبابها في تلك الحرب، ودفعت ألمانيا وحدها (٥,٠٠٠,٠٠٠) قتيل من شبابها في تلك الحرب.. أما الممتلكات فهي في خانة ما يصعب حصرها[٤٠].. هكذا جنت اليهودية العالمية ثمار الدمار العالمي وحدها، في حين جنى العالم دمارا استنفذ الجهد والمال في إعماره من جديد.

قامت دولة إسرائيل، وانتشرت الشيوعية في نصف الكرة الأرضية، وأعيدت صياغة التكتلات والتحالفات، بعد الحرب العالمية الثانية، أو كما يقول أدميرال البحرية الكندية «وليم غاي كار»: أعيد ترتيب رقعة الشطرنج.. وذلك استعدادا لإشعال الحرب العالمية الثالثة والأخيرة كما هو مقرر في المؤامرة النورانية اليهودية الشريرة. وهي الحرب التي لن يمنعها إلا قوة الإسلام، فهو القادر بإذن الله تعالى على أن يمحو إسرائيل ويبطل بالتالي تلك المؤامرة الشريرة على العالم.. وهم يدركون هذا تمام الإدراك، ولهذا يعملون كل ما في وسعهم لمنع ظهور الإسلام القوي على الساحة الدولية. عن الحرب العالمية الثالثة وخططهم لها، نذكر قبل أن نختم الحديث في هذا الفصل، نص الخطاب الذي ألقاه «الحاخام إيما نويل رابينو فيتش» في المؤتمر الاستثنائي للجنة الطوارىء لحاخامات أوروبا، والذي عقد في «بودابست» في ١٢ يناير ١٩٥٢م. وقد حصلت على نصه المخابرات الكندية، وأورده «وليم غاي كار» الذي كان أحد قادة الأسطول الكندي، وذلك في كتابه آنف الذكر. ونصه الحرفي[٤١]: (تحية لكم يا أبنائي، لقد استدعيتم إلى هذا الاجتماع الخاص لاطلاعكم على الخطوط الرئيسية لمنهاجنا الجديد وهو المنهاج المتعلق بالحرب المقبلة كما تعلمون والتي كان مخططنا الأصلي يقضي بإرجائها عشرين عاما حتى نتمكن خلال ذلك من تدعيم مكاسبنا التي حصلنا عليها نتيجة الحرب العالمية الثانية. ولكن ازدياد أعدادنا في بعض المناطق الحيوية يسبب معارضة شديدة، لذلك صار لزاما علينا أن نستعمل جميع الوسائل التي في حوزتنا لإشعال حرب عالمية ثالثة في مدة لا تتجاوز خمس سنوات.

يجب أن أبلغكم أن الهدف الذي لا زلنا نعمل من أجله منذ ثلاثة آلاف عام قد أصبح في متناول يدنا الآن، ويحتم علينا دنو الثمرة أخيرا، أن نضاعف الجهد ونحتاط بالحذر عشرات المرات أكثر من حيطتنا السابقة.

---

(٤١) وليم غاي كار: أحجار على رقعة الشطرنج، مرجع سابق، ص ٢٢٤.

وأستطيع أن أعدكم أنه لن تمر عشر سنوات حتى يأخذ شعبنا مكانه الحقيقي في العالم ويصبح كل يهودي ملكا، وكل جوييم ــ أي أممي وهي لفظة يطلقها اليهود على غيرهم من الأمم ــ عبدا (تصفيق من الحضور) إنكم لا تزالون تذكرون نجاح حملاتنا الدعائية التي طبقناها خلال الثلاثينات والتي أوجدت شعورا معاديا للأمريكيين في ألمانيا، وشعورا بالكره الشديد للألمان عند الأمريكيين، وتعلمون أن هذه الحملة أعطت ثمارها بقيام الحرب العالمية الثانية. أما الآن فهناك حملة مماثلة نشنها بقوة عبر العالم فنحن نثير الآن حمى الحرب عند الشعب الروسي بخلق ميل معاد لأمريكا، التي يجتاحها في الوقت نفسه شعور معاد للشيوعية. هذه الحملة ستجبر الدول الصغيرة على الاختيار بين أن تصبح شريكة لروسيا أو متحالفة مع الولايات المتحدة.

أما أكثر المشاكل التي نواجهها في الوقت الحالي فهي إثارة الروح العسكرية عند الأميركيين الذين أخذوا يبدون كرها شديدا للحرب. ومع أننا فشلنا في تحقيق خطتنا في تعميم التدريب العسكري على كل الشعب الأمريكي، إلا أننا سنأخذ كل الاحتياطات للحصول على موافقة الكونغرس على مشروع بهذا الصدد بعد انتخابات ١٩٥٢ مباشرة. إن الشعب الروسي والشعوب الآسيوية هي تحت سيطرتنا ولا يقفون حائلا ضد قيام الحرب، ولكننا يجب أن ننتظر حتى يصبح الشعب الأمريكي هو أيضا مستعدا لمثل هذه الحرب ــ لهذا قتل الرئيس كنيدي وهو الذي أنهى سياسة جون فوستر دالس المسماة بحافة الهاوية، واستبدلها بسياسة التعايش السلمي. ولهذا أيضا دفعوا بأمريكا إلى مستنقعات فيتنام لخلق الروح العسكرية في الشعب الأمريكي، ولكنها أتت بعكس ما أراد اليهود ــ ونحن نأمل بتحقيق هدفنا هذا باستعمال قضية العداء للسامية بنفس الطريقة التي جعلت الأميركيين يتحدون ضد الألمان أعداء السامية في الحرب العالمية الثانية. ونحن ننتظر قيام موجات عداء للسامية في روسيا بشكل يسبب تلاحم الشعب الأميركي ضد القوة السوفياتية. كما أننا سنقوم في الوقت نفسه وعن طريق الإغراء المالي باستخدام عناصر مؤيدة للروس في عدائهم للسامية ونبث هذه العناصر في المدن الأميريكية الكبرى. وستخدم هذه العناصر غرضين نسعى لهما وهما فضح القوى المعادية لنا حتى نتمكن من إسكاتها، وتوحيد الشعب الأميركي في بوتقة واحدة ضد الشعب الروسي.

وفي خلال خمس سنوات سيحقق منهاجنا هذا أغراضه وتقوم الحرب العالمية الثالثة التي ستفوق في دمارها جميع الحروب السابقة. وستكون إسرائيل بالطبع بلدا محايدا،

حتى إذا تم تدمير وإهلاك الطرفين المتحاربين سنقوم نحن بعملية التحكيم والرقابة على بقايا أشلاء جميع الدول، وستكون هذه الحرب معركتنا الأخيرة في صراعنا التاريخي ضد الجوييم.

بعد ذلك سنكشف عن هويتنا لشعوب آسيا وأفريقيا وأستطيع أن أعلن لكم جازما بأن الجيل الأبيض الذي ولد في الأيام التي نعيشها الآن سيكون آخر الأجيال البيضاء. ذلك لأن لجنة التحكيم والرقابة ستمنع التزاوج بين البيض بحجة نشر السلام والقضاء على الخلافات بين الأجناس البشرية. فيعاشر الأبيض سوداء ويعاشر الأسود بيضاء، وبهذا يتم القضاء على العنصر الأبيض، عدونا اللدود ويصبح مجرد خيال وذكرى. وسنعيش بعد ذلك في عهد السلام والرخاء الذي لن يقل عن عشرة الآف من السنين. وسنحكم في عهد السلام اليهودي العالم بأسره لأنه سيكون من السهل على عقولنا المحركة السيطرة الدائمة على عالم من الملونين ذوي البشرة السوداء.

سؤال من أحد الحاخاميين الحاضرين: «أرجو من الحاخام رابينو فتش أن يحدثنا عن مصير الأديان المختلفة بعد الحرب العالمية الثالثة؟ «رابينو فتش: لن تكون هناك أديان بعد الحرب العالمية الثالثة كما لن يكون هناك رجال دين. فإن وجود الأديان ورجال الدين خطر دائم علينا وهي كفيلة بالقضاء على سيادتنا المقبلة للعالم، لأن القوة الروحية التي تبعثها الأديان في نفوس المؤمنين بها وخاصة الإيمان بحياة أخرى بعد الموت، يجعلهم يقفون في وجهنا، بيد أننا سنحتفظ من الأديان بالشعائر الخارجية فقط للدين اليهودي وذلك لغاية واحدة وهي الحفاظ على الرباط الذي يجمع أفراد شعبنا دون أن يتزوجوا من غير سلالتهم أو أن يزوجوا بناتنا الأجنبي.

وقد نحتاج في سبيل هدفنا النهائي إلى تكرار العملية المؤلمة نفسها التي قمنا بها أيام هتلر، أي أننا قد ندبر وقوع بعض حوادث الاضطهاد ضد مجموعات أو أفراد من شعبنا. أو بتعبير آخر سوف نضحي ببعض أبناء شعبنا حتى نحصل بذلك على الحجج الكافية التي تبرر محاكمة وقتل القادة في أمريكا وروسيا كمجرمي حرب وذلك بعد أن نكون قد فرضنا شروط السلام. ونحن اليوم بحاجة إلى الإعداد لهذه المهمة وهذه التضحيات. لقد تعود شعبنا التضحية دائما. ولن تكون خسارة بضعة الآف من اليهود خسارة جسيمة إذا قارناها بما سيحصل عليه شعبنا من السيطرة على العالم وقيادته.

وحتى تستيقنوا من قدرتنا على السيطرة على العالم انظروا إلى اختراعات الرجل الأبيض

كيف حولناها إلى سلاح خطير ضده. فالراديو والمطبعة أصبحا اليوم المعبر والمتحدث عن رغباتنا، كما أن معامل الصناعات الثقيلة ترسل الأسلحة إلى آسيا وأفريقيا لتحارب شعوبها الرجل الأبيض نفسه صانع هذه الأسلحة واعلموا أننا طورنا برنامج النقطة الرابعة في واشنطن ليشمل التطوير الصناعي للمناطق المتخلفة من العالم بحيث يصبح الرجل الأبيض تحت رحمة المجموعات الضخمة من الشعوب السوداء التي ستفوقه تكنولوجيا بعد أن تدمر الحروب النووية مدنه وزراعته وصناعته.

وبهذه الرؤية للنصر النهائي يتوهج أمام أعينكم، عودوا إلى مناطقكم وباشروا العمل بجد ودون هوادة حتى يحل أخيرا اليوم الذي ستكشف فيه إسرائيل عن مهمتها الحقيقية وهي أن تكون النور الذي يضيء العالم).

هكذا يخططون. وهكذا يأملون. وهكذا تنساق الشعوب والأمم لتنفيذ المخطط وتحقيق الآمال اليهودية الشريرة **﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾** سورة آل عمران: ٥٤. ولكن، المسلمون رغم كل هذا، يدركون أن اليهود إنما يحفرون قبورهم بأيديهم، وذلك لما يجده المسلم في محكم التنزيل من نصوص تحدد إرادة الله سبحانه وتعالى فيهم ومصيرهم الذي حدده في قوله وقوله الحق **﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتٰب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلٰل الديار وكان وعدا مفعولا، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددنٰكم بأموال وبنين وجعلنٰكم أكثر نفيرا، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبرّوا ما علوا تتبيرا، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكٰفرين حصيرا﴾** سورة الإسراء: ٤ ــ ٨.

إن فناءهم مرهون بعودة المسلمين إلى ما كان عليه أسلافهم، إلى دين الحق، إلى رفع راية التوحيد، إلى الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى.. مرهون بمسير المسلمين نحو الأقصى الأسير وفلسطين السليبة، مجاهدين لا يطلبون إلا إحدى الحسنيين. عندئذ يتم الله وعده بنصرة المؤمنين، وتبطل حرب الإسلام العادلة دسائس اليهودية الشريرة وحروبها الحاقدة وغير العادلة.. عندئذ تنتهي الحرب ويعم السلام.. سلام الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده وهو السلام الحق الذي تتطلع إليه البشرية كمنقذ لها من جور الأديان وحروب الضلال التي سئمتها في ظل النظم الوضعية المعاصرة.

البـــاب الثـانـــي

تمهيـــد

بعد ما بينا بعضاً من «أبجديات الحرب وعمومياتها» في الفصل الأول من الباب الأول لغير العسكريين من الأخوة القراء. وبعد ما بينا هوية حروب الضلال التي رتبتها اليهودية العالمية لتدمير العالم وشعوبه الأممية (الجوييم)، جاعلة من تعاليم التوراة والتلمود مصدرا للفكر الذي استندت إليه النظم الوضعية التي جعلت منها اليهودية العالمية وسيلة وأداة لتنفيذ مخططها الشرير لمدار العالم وتسخيره لخدمة اليهود واليهودية، وذلك في أحاديثنا في الفصل الثاني من الباب الأول، والذي ختمناه بالحديث عن الثمار التي جنتها اليهودية العالمية من جراء تلك الحروب التلمودية الجائرة، وما جناه العالم بأسره من دمار وهلاك.

بعد كل هذا «التمهيد نأتي للحديث عن ماهية السلام في ظل دين الحق، منطلقين في حديثنا هذا من الحقيقتين التاليتين:

الحقيقة الأولى: حقوق الإنسان في الإسلام، وما أوجبه الله سبحانه وتعالى للإنسان من حقوق وحرمات، وبصرف النظر عن دينه الذي لا إكراه فيه كما أمر سبحانه وتعالى. والمكانة الرفيعة التي حددها سبحانه وتعالى لأتباع دينه.

الحقيقة الثانية: السلام قاعدة والحرب استثناء عن تلك القاعدة، وذلك عكس ما رأيناه حين تحدثنا عن الحرب في ظل النظم الوضعية.والتي تمثل الحرب عندها القاعدة والسلام هو الاستثناء والشذوذ، والذي لا يكون إلا للإعداد والتجهيز لحرب أخرى. وما هذا الاختلاف إلا لكون الحرب في الإسلام لا تكون إلا لإعلاء كلمته، وحين يمنع الإنسان جند الله من إعلائها. أما الحرب في ظل النظم الوضعية فهي وسيلة لاستعباد الإنسان للإنسان، وتحقيق الأهداف المادية الدنيوية الدنيئة، والتي لا تنتهي، ولن تنتهي طالما بقيت قوى الشر والشيطان وإغراءاته المتعددة للإنسان.

ثم نفرد الباب الثالث من هذا المؤلف للحديث عن الحرب في الإسلام والتي يمثل الجهاد فيها جوهرا للعقيدة العسكرية الإسلامية. والحديث في الباب الثالث سيكون استكمالا للحديث عن الجوانب التي سنبحثها في فصول هذا الباب، إذ أن الحديث عن السلام في الإسلام لا ينفصل عن الحديث عن الحرب حيث أن السلام قاعدة والحرب

استثناء وشذوذ عن السلام والحرب لا يخوضها المسلمون إلا مكرهين وللقضاء على ما هو أعظم منها شرا وأشد فتنة.

الفصـــــل الأول

* حقوق الإنسان في الإسلام:
* طبيعة الإسلام
* الحقوق بين الإنسان وخالقه.
* الحقوق في ظل التكافل الاجتماعي.
* الحرية في الإسلام

طبيعة الإســلام

حين جعلت من «حقوق الإنسان في الإسلام» منطلقا للحديث عن السلام والحرب في الإسلام، فإن ذلك لقناعتي بأن الإسلام هو الذي أقر للإنسان بالحقوق التي لم يتمتع بها في ظل أي نظام آخر، ولم تعرفها الإنسانية بعيدا عن الإسلام.. وهذا بطبيعة الحال نابع من كون الإسلام دينا ارتضاه الله للإنسان، في حين أن ما عداه لا يمثل إلا تُرَّهات الباطل وضلالات الإنسان.

وحين أجعل من «طبيعة الإسلام» منطلقا ومقدمة للحديث عن حقوق الإنسان في الإسلام، فإن ذلك من منطلق أن حقوق الإنسان هذه إنما تستند إلى طبيعة الإسلام السامية وعظمته التي يستمدها من كونه دين الله الخالد الذي ارتضاه طريقا لعباده. والحديث عن طبيعة الإسلام لابد أن يقودنا للحديث عن عظمته، والتي هي أكبر من أن يحيط بتشعباتها بشر، مهما آتاه الله من المعرفة والدراية.

الإسلام في الأصل معناه الاستسلام لله الخالق الموجد من العدم في أمره ونهيه. والاستسلام يعني الانصياع التام للأمر والنهي، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾ سورة النساء: ٦٤ ـــ ٦٥.

والاستسلام لله سبحانه وتعالى باتباع وإتيان أوامره واجتناب نواهيه يعد تحصيل حاصل إذ أدرك الإنسان أن الله هو خالقه وموجده من العدم ورازقه ومسخر ما في الأرض لخدمته، وأنه إليه مآله ومنتهاه، وأنه العليم المحيط بعلمه بما كان وما لم يكن وما سيكون.

والإدراك بأن الله هو الخالق موجود لدى عامة البشر إلا من أعمت الجهالة والضلال بصيرته من الملحدين، الذين ينكرون وجود الله ويدعون أن الطبيعة هي التي أوجدت

الإنسان أو الكائنات الأخرى.. وحتى هؤلاء يقفون حائرين عندما تصدمهم بالقول: ومن الذي خلق الطبيعة وأوجدها من العدم!؟.. إذ الاستسلام لله سبحانه وتعالى والالتزام باتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، أمر حتمي ومنطقي إذ لابد أن يستسلم الإنسان لخالقه كما تستسلم الآلة لصانعها.

وحيث أنه لابد لهذا الاستسلام من سبل وطرائق، وحيث أن فيه صلاح الإسلام، فإن الله سبحانه وتعالى لم يترك أمة إلا وبعث فيها رسولا يهديها إلى تلك السبل والطرائق، ويبين لها طبيعة أوامر الله ونواهيه وحدوده، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطٰغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلٰلة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عٰقبة المكذبين**﴾ سورة النحل: ٣٦.

وحيث أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل إلى الأمم والأقوام يدعونهم إلى سبل السلام ويوضحون لهم معنى الإسلام وكيفية الاستسلام وبلسان قومهم كما قال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم**﴾ سورة إبراهيم: ٤. فإن الإسلام هو دين المرسلين والنبيين من لدن آدم عليه السلام حتى خاتم المرسلين والنبيين، محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا ما بينه لنا الله سبحانه وتعالى في العديد من آيات الذكر الحكيم حيث قال سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿**فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين**﴾ سورة يونس: ٧٢، ثم قال سبحانه وتعالى عن إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبيين عليهم السلام أجمعين ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسمٰعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتٰب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصٰلحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العٰلمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يٰبني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق إلها واحدا**

ونحن له مسلمون، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون، وقالوا كونوا هودا أو نصٰرى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، قالوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عٰبدون﴾ سورة البقرة: ١٢٧ ــ ١٣٨.

من هذا ندرك أن دعوات الرسل والنبيين، ورسالات الله سبحانه وتعالى إلى رسله الكرام من قبل محمد صلى الله عليه وسلم، لبنات في بناء الإسلام الشامخ. فدعوات الرسل تختلف في السعة والشمول من رسالة لأخرى، ويجمعها خاصية واحدة هي أن الرسل السابقين لمحمد بعثوا لأقوامهم خاصة.. ثم كانت الرسالة العامة الشاملة التي كلف الله بها عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، فكانت الأعم والأشمل، وكانت الطريق لخير الدنيا ونعيم الآخرة. يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل وقوله الحق **﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم﴾** سورة النساء ٢٦.

ويقول سبحانه وتعالى **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق، اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلٰم دينا فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾** سورة المائدة: ٣ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله. إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة! قال فأنا اللبنة. وأنا خاتم النبيين). وفي صحيح البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا، فعملوا له إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل، فقال: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم

كاملا، فأبوا وتركوا. واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر، قالوا: كل ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا، فقال: أكملوا بقية عملكم فإنما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا. فاستأجر قوما أن يعملوا بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور).

وحيث أنها الرسالة العامة والشاملة والناسخة لكل شرع سابق والمهيمنة عليه، فإنها تضمنت كل سبيل للهداية والصلاح في الدنيا، كما تضمنت سبيل النجاة من النار والفوز بالجنة في دار القرار التي هي مآل الإنسان ونهايته. يقول الله سبحانه وتعالى وقوله الحق **﴿يوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتٰب تبيٰنا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾** سورة النحل: ٨٩.

وحيث أنها الرسالة «الرحمة» التي بعث الله بها خاتم الرسل والنبيين محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، يقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل **﴿وما أرسلنٰك إلا رحمة للعٰلمين﴾** سورة الأنبياء: ١٠٧، ويقول سبحانه وتعالى وقوله الحق **﴿وما أرسلنٰك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** سورة سبأ: ٢٨.

إذن هي الرسالة المهيمنة، وهي الرسالة الخالدة، وهي الضامن لرضا الخالق سبحانه وتعالى، وهي الكفيلة لخيري الدينا والآخرة، وهي المقبولة عند الله من اهتدى وآمن بها وصدق ما جاء به رسولها صلى الله عليه وسلم، فقد ضمن خير الدنيا ونعيم الآخرة. ومن ضل وحاد عن صوابها فهو الهالك الضال والعياذ بالله. يقول المولى سبحانه وتعالى وقوله الحق **﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتٰب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتٰب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلٰغ والله بصير بالعباد، إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم، أولئك الذين حبطت أعمٰلهم في الدنيا والآخرة ومالهم من نٰصرين﴾** سورة آل عمران: ١٩ ــ ٢٢. ويقول سبحانه وتعالى **﴿ومن يبتغ غير الإسلٰم دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخٰسرين﴾** سورة آل عمران: ٨٥.

تلك هي الأسس التي تبنى عليها طبيعة الإسلام كنظام شمولي للحياة. يقول الأستاذ

«سعيد حوي» في كتابه «من أجل خطوة إلى الأمام»[1]: (إن الإسلام معيار لا يسع غيره، أي لا يقبل أن ينافسه غيره على النفس البشرية وعلى السيطرة على الحياة البشرية.

فالإسلام يعني استسلام الفرد والجماعة والإنسانية لله رب العالمين في كل شيء ومن ثم فلا إسلام بدون هذا الاستسلام.

والإسلام هو الصيغة الوحيدة لانسجام العقل مع ذاته ومبادئه.

والإسلام هو الصيغة الوحيدة للعقلية العلمية الشاملة.

والإسلام هو الصيغة الوحيدة لتفجير طاقات الإنسان كلها في إطارها الصحيح.

والإسلام هو وحده الذي يعطي الإنسان وضوح الرؤية في كل شيء.

والإسلام هو الصيغة الوحيدة للإنسانية العليا.

والإسلام هو الصيغة الوحيدة للحق الخالص في هذا العالم سواء في ذلك موضوع الربوبية أو موضوع الغيب أو موضوع العالم المحسوس أو في مكانة الإنسان، فالإسلام هو الصيغة الوحيدة للحق المطابق للواقع في هذه الأمور.

والإسلام هو الصيغة الوحيدة للعدل في الحكم أو المعاملة أو التوزيع.

والإسلام هو الصيغة الوحيدة للسلام الإنساني، لأن السلام الحقيقي هو الإسلام.

والإسلام هو التعبير الصحيح والكامل للشورى على أي مستوى من المستويات.

والإسلام هو الصيغة العليا الوحيدة للحرية الإنسانية..).

ولهذا يقول الأستاذ «محمد فريد وجدي» في كتابه «الإسلام في عصر العلم»[2]: (لو أدرك الناس كافة معنى الإسلام، وفقهوا كنه ما يرمي إليه، لما بقي على وجه الأرض من يدين بدين آخر، لأنه مطلوب كل روح، ومرمى كل قابلية، وأنشودة كل استعداد، ومطمأن كل إحساس، ومنتهى كل عقل من معنى الدين والإيمان. ولولا أن الإسلام دين ينطبق على كل قابلية واستعداد، ويلائم كل عاطفة وإحساس، لما كلف الخالق به عموم خلقه من إنس وجن، وهو سبحانه وتعالى القائل بلسان الرحمة: ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾..

---

(١) سعيد حوي: من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك، الطبعة الثانية (بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٧٩م)، ص ٥٧.

(٢) محمد فريد وجدي: الإسلام في عصر العلم، الطبعة الثانية (بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م)، ص ٤٩٩.

والأوساط من الأمم تريد دينا ينطبق على مقررات العقل ولا ينافي بداءة الحس. دينا يحبب إليها الحياة ولا يزهدها فيها.. دينا ينشطها للعمل ويحرضها على استصلاح المعيشة.. دينا يحثها لطلب العلم ويدعوها لاحترامه واستثماره.. دينا يبيح لها مجال الفكر ويفسح لها ميدان النظر.. دينا يسمح لها بالتمتع باللذائذ البدنية المعتدلة ولا يحرم عليها إلا الإفراط فيها.. دينا يفيض على نفوسها روح الحرية ويبث في أفئدتها حرارة الشمم والحمية.. دينا يفضي بالروح إلى خالقها ولا يقيم الوسطاء بينهما.. دينا يرحمها في ضعفها ولا يطلب منها فوق طاقتها، ويتنزل معها إلى حيث هي ويعلو بها ولا يعلو عنها.. دينا يراعي بها أدوار الطبيعة، ويلاحظ لها أطوار الحياة فيعطي لكل دور ما يناسبه، ويقابل كل حال بما يلائمه.

هذا هو الدين الذي يتطلبه الأوساط من الأمم، ولا نجد فيما نراه من صور الأديان الموجودة للآن دينا فيه هذه الخاصية وزيادة غير الدين الإسلامي..).

والإسلام الذي ارتضاه الله ديناً لعباده وهو العليم سبحانه وتعالى بطبيعة النفس البشرية، عبارة عن نظام شامل للحياة يتضمن العديد من النظم الفرعية كالنظام السياسي والنظام الاقتصادي والنظام الاجتماعي والنظام الإداري والنظام العسكري والنظام التعليمي، والتي تكون النظام الشمولي الذي يحقق تطلعات الإنسان وسعادته دون إفراط أو تفريط. وإذا نظرت للنظام السياسي أو الإداري في الإسلام، فإنك ستجد أن للإسلام نظرته المتميزة والفريدة للأمة وللدولة وللسلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية ولأسلوب اختيار ولي أمر الأمة وولاة الأمصار والأقاليم، كما أن له شروطه فيمن يلي أمر المسلمين وفيمن يتولى القضاء والوظيفة العامة وغير ذلك من أمور السياسة والإدارة. وإذا نظرت للنظام الاقتصادي في الإسلام، فإنك ستجد أن للإسلام قوانينه المتميزة والفريدة في كل ما يتعلق بالملكية العامة والخاصة والعلاقات الاقتصادية بين دولة الإسلام وغيرها من الدول والأمم وكذلك العلاقات الاقتصادية بين الأفراد والجماعات وبين الدولة وواجبات الدولة تجاه الجماعات والأفراد وواجبات الأفراد تجاه الدولة وواجبات الأفراد تجاه بعضهم البعض كواجبات الأب تجاه أبنائه والزوج تجاه زوجته والابن تجاه والديه والفرد تجاه أقربائه والمسلمين من حوله وهكذا، كما أنك ستجد أن للإسلام قوانينه المتميزة فيما يتعلق بخزينة الدولة والنفقات العامة من بيت مال المسلمين وطرق التحصيل والصرف وغير ذلك من الجوانب المتعددة داخل إطار النظام الاقتصادي الإسلامي الذي لا تجد له مثيلا في أي من النظم

الاقتصادية القديم منها والمعاصر. وإذا نظرت للنظام الاجتماعي في الإسلام، فإنك ستجد أن للإسلام نظرته الخاصة والمتميزة للإنسان وللرجل وللمرأة وللجماعة وللعلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع وجماعاته، كما أن للإسلام منهاجه الاجتماعي الذي يحقق أرقى أنواع العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي الذي تتغنى كل من الرأسمالية والشيوعية بالسعي لتحقيقه وإذا نظرت للنظام التعليمي في الإسلام فإنك ستجد نظاما فريدا متميزا في نهجه الذي لا يؤثر الدنيا ويلهث وراءها منكرا ومهملا ما بعدها، كما أنه لا يدعو للانقطاع عن الدنيا والرهبنة فيها سعيا لنعيم الآخرة، وإنما يدعو ويعمل بما يضمن إعمار الدنيا ونعيم الآخرة.

إنها نظم فرعية داخل إطار للنظام الكلي الشمولي للإسلام الذي هو وسط في كل أمر من أموره وفي أي جانب من جوانبه، وسط لا إفراط فيه ولا تفريط، وسط لأنه النظام والدين والعقيدة والنهج والطريق الذي ارتضاه الله لعباده، يقول سبحانه وقوله الحق في محكم التنزيل ﴿**وكذلك جعلنٰكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمٰنكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم**﴾ سورة البقرة: ١٤٣.

ووسطية الإسلام لا تقتصر على تلك الجوانب فحسب، وإنما نجدها في الحقوق التي أقرها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، وحددت معالمها العديد من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة للإنسان سواء منهم المسلمون أو غير المسلمين. فالله سبحانه وتعالى حرم دم الإنسان، ولكنه سبحانه وتعالى لم يجعله تحريما مطلقا يتيح للإنسان أن يضل بإغراء من الشيطان ويرتكب ما يأمره به من آثام وجرائم في ظل من الحماية المطلقة لدمه، وإنما حرم دمه شرط أن لا يقتل ولا يفسد في الأرض وغير ذلك من الأمور التي إن اجتنبها الإنسان فقد حرم دمه على غيره من بني الإنسان وهكذا جميع حقوق الإنسان في ظل الإسلام لا تخرج عن وسطية الإسلام التي تحمي الإنسان من شرور غيره، وتحمي غيره من شروره.

وإذا نظرنا إلى موضوع الحرية في الإسلام وجدناه خاضعا لهذه الوسطية الإسلامية. حيث قال سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ﴿**لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي فمن يكفر بالطٰغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع**

عليم﴾ سورة البقرة: ٢٥٦.. ولكن هذه الحرية مقيدة بعد الإسلام إذ لا حرية لمن أسلم بعد أن عرف الهدى أن يزيغ عنه ويرتد إلى غيره. كما أوجب للإنسان حرية التملك حيث قال سبحانه وتعالى في محكم التنزيل **﴿المال والبنون زينة الحيٰوة الدنيا والبٰقيٰت الصٰلحٰت خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾** سورة الكهف: ٤٦، وقال أيضا **﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنٰت ويجعل لكم أنهٰرا﴾** سورة نوح: ١٠ ــ ١٢.

ولكن هذه الحرية مقيدة إذ لا تملك عن طريق الربا، ولا تملك عن طريق الاتجار بمحرم، ولا تملك عن طريق السرقة، ولا تملك عن طريق الغش والاحتكار وهكذا. وما يقال عن حرية الاعتقاد وحرية التملك، يقال عن حرية الرأي والحرية الشخصية، وهي جميعا حريات مقيدة كما سنرى في موضوع لاحق، تخضع لوسطية الإسلام ومثاليته وتميزه.

وحيث أن للإسلام طبيعة لا يضاهيه فيها دين أو نظام، فقد جعله الله سبحانه وتعالى وارتضاه دينا لعباده ونظاما لحياتهم. وأوجب على أتباعه أن يحملوا الإنسانية على الخضوع لسلطانه.. إما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كوسيلة سلمية.. وإما بالجهاد كوسيلة عسكرية ترغم من يرفض الخضوع بوسيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ــ الوسيلة السلمية.

وهذا هو منطلقنا للحديث عن حقوق الإنسان في الإسلام في هذا الفصل، والذي يكون بدوره منطلقا كما قلنا للحديث عن الحرب والسلام في الإسلام في الفصول التي تلي هذا الفصل بإذن الله.

إن طبيعة الإسلام تتحدد كما أسلفنا من شموليته ومن وسطيته ومن خلوده ومن كونه الدين والعقيدة والطريقة التي ارتضاها الله لعباده.. إنها تنطلق من كون الإسلام دين الفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى عليها الإنسان وما هذه القيود التي فرضها الله إلا لحماية الإنسان من الانغماس في الهوى وشرور النفس، ولتحفظ كيانه من شرور الغير. ولكن شرور النفس ووساوس الشيطان تأبى هذه القيود وتريد الحقوق مطلقة والشهوات مباحة والنزوات جانحة.. فتنحرف بهذا عن طريق الحق، وتخرج عن طبيعة الإسلام المثلى.. وعندما تنحرف عن طريق الحق، وتخرج عن طبيعة الإسلام، تخرج قوى الشر والشيطان من جحورها وتملأ الدنيا شرورا وآثاما وحروبا وجرائم كما رأينا حين تحدثنا عن الحروب

في ظل النظم الوضعية التي هي رفض لطبيعة الإسلام وتنكب عن طريق الحق. يقول الأستاذ «سعيد حوي» في كتابه «الإسلام»[٣]: (عندما يغيب الإسلام عن مسرح الحياة لا يبقى شيء في الأرض في محله، ولا يبقى شيء ثابتا. تختل المقاييس، وتزول المعايير، ويصبح حرام الأمس حلالا، وحلال الأمس حراما، وما يقر اليوم يلغى غدا، وما يثبت غدا يلغى بعد غد، وتنطلق أهواء البشر لتعبر عن نفسها بنظريات متضاربة متناقضة، ولا يعرف الإنسان بها ومعها لنفسه مدخلا أو مخرجا، فيحار ويدور ولا يكف عن الدوران، ومهما تصوّر أنه عارف ماذا يعمل فإنه في الحقيقة لا يدري ماذا يعمل، ولماذا يريد كل جيل أن يعبر عن ذاته بشكل مختلف عن الجيل الذي قبله وكل فرد في جيل يريد أن يعبر عن ذاته بشكل مختلف عن الآخر، وليس هناك أصل يرجع الناس إليه أو يعترفون به، فلا تقوم على أحد حجة، ولا يخضع إنسان لرأي، ومهما أراد أحد أو سلطان أن يرد الناس إلى نظام، فإنهم يستعصون عليه. أليس الإنسان حرا؟ ويومئذ يصبح البشر نوعا من الحيوانات السائمة تماما، بل لعله في هذه الحالة يكون أردأ أنواع الحيوانات. إذ أنه سيسخر إمكاناته العلمية في طريقها المنحرفة فيأتي بما لا يستطيع أي حيوان مهما كان شريرا أن يفعل أقل منه بالآف المرات.

وهذا الكلام هو واقع الإنسان اليوم، وسيزداد هذا الواقع سوءاً وإلا فماذا تعني كثرة الإجرام، مع ازدياد وكثرة أجهزة الأمن؟ وماذا تعني أجيال الفوضويين والخنافس؟ وماذا تعني العلاقات الجنسية المطلقة؟ وماذا يعني ارتفاع نسبة المصابين بالشذوذ الجنسي حتى لتبلغ في بعض البلاد سبعين بالمئة من الرجال وهي عادة يأباها الحيوان؟ وماذا تعني النظريات المطروحة يوميا بحيث تجعل كل شيء متناقضا؟.

إن غياب الإسلام عن العالم لا يبقى معه شيء في محله، لأن الإسلام هو الأصل الرباني الوحيد الصحيح السليم عن الانحراف والتحريف، وهو وحده الذي تستطيع البشرية أن تفيء إلى ظله وبدون هذا فإن كل شيء في الإنسان وللإنسان يضيع.. إن الإسلام حفظ للدين. وحفظ للعقل. وحفظ للنفس. وحفظ للمال. وحفظ للنسل).

إن طبيعة الإسلام التي بينا بعضا من جوانبها، وإدراك المسلمين الأوائل لهذه الطبيعة المتميزة، يعزى إليهما انتشار الإسلام في بضع سنين ليعم معظم أجزاء العالم المعروف

---

(٣) سعيد حوي: الإسلام، الطبعة الثانية (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٩م)، ص، ٢١١.

آنذاك. وهذا الانتشار والمد الإسلامي هو الذي جعل الإنسانية المعذبة من قبله ومن بعده، تنعم بالأمن والطمأنينة اللتين لم تعرفهما في ظل نظم الجهالة والضلال من قبل الإسلام ومن بعد أن نحي الإسلام جانبا من قبل أصحاب هذه المبادىء والنظم الضالة وثلة من أبناء المسلمين المغرر بهم والمأجورين.

وطبيعة الإسلام ـــ التي أدركها المسلمون الأوائل كأفضل ما يكون الإدراك، وتفاعلوا معها كأفضل ما يكون التفاعل، وعرفوا تمام المعرفة أن الله سبحانه وتعالى قد أوجب عليهم أن يحملوا الإنسانية على الخضوع لسلطان الإسلام، إما بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوة الناس سلما إلى هذا الدين، وإما بالقوة المسلحة المتمثلة بالجهاد لإعلاء كلمة الله وإخضاع الإنسان ـــ كل إنسان ـــ لسلطان الله، سلطان الحق، سلطان الإسلام. ـــ هي التي ساعدت على انتشار الإسلام بهذا القدر، وبالطرق السلمية في معظم الأمصار والديار التي وصلها نور الإسلام.

يدعي بعض المستشرقين من يهود وصليبيين أن السيف كان وسيلة الإسلام للانتشار وأن الإسلام لم يكن لينتشر لولا ذاك السيف، في تلك الفترة الوجيزة من عمر الأمم والدول.. والحق أنهم جانبوا الصواب وعاكسوه في اتجاه السير فأندونيسيا وماليزيا على سبيل المثال وشرقي الصين وجنوبها ودول جنوب شرق آسيا كلها لم يصلها جند خالد بن الوليد ولم تطأها أقدام طارق بن زياد ولم تطهرها سيوف جند محمد بن القاسم.. وإنما دخلها الإسلام وغزاها بطبيعته المتميزة وبوسيلته السلمية ـــ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. بالقدوة الحسنة.. بالحكمة والموعظة **﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجٰدلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** سورة النحل: ١٢٥.

تلك هي طبيعة الإسلام التي أدركها المسلمون الأوائل واعتزوا بها، وأخرجوا بموجبها الإنسان من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ونعيم الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ظلام الباطل إلى نور الحق. يقول الأستاذ «محمد الغزالي» في كتابه من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث»[٤]: (إن السيادة التي واتت المسلمين الأولين لم تجيء عفو الخاطر أو محض الصدفة، ولم تجيء ربح قمار أو جائزة (يانصيب).. كلا إن الدولة التي

(٤) محمد الغزالي: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث، الطبعة الرابعة (القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م)، ص ١٩٣.

أقامها المسلمون الأوائل، بنتها نفوس بلغت شأواً بعيداً من مجادة الخلق وسعة الكفاية وعمق اليقين وروعة التجرد وصدق الأخلاق.

ومن وراء هذه النفوس الكبيرة تلمح صاحب الرسالة العظمى يتعهد القلوب بالصقل، ويأخذ النفوس بالأدب الشامل، وينسق الصفوف بالوعي لا بالغباء، وبالحق لا بالهوى).

تلك هي طبيعة الإسلام الفريدة والمتميزة، والتي هي أساس ومنطلق الحديث عن أي جانب من جوانب الإسلام وأي نظام من نظمه.

الحقوق بين الإنسان وخالقه

إن أول ما يطالعنا ونحن نبحث عن حقوق الإنسان في الإسلام، هي تلك الحقوق التي بين الإنسان وخالقه الذي أوجده من العدم وفضله على سائر المخلوقات وجعل له حقوقا عليه سبحانه وتعالى.

وهذه الحقوق التي تنبعث من عدل الإله وكرمه ونعمته ورحمته للإنسان، إنما هي مظهر من مظاهر تكريم الله سبحانه وتعالى للإنسان بصورة عامة كمخلوق متميز عن بقية مخلوقات الله سبحانه وتعالى وللإنسان المسلم بصورة خاصة يتميز بها عن الكافر الجاهل، ثم للإنسان التقي المصلح بصورة أخص يتميز بها عن المفسد وهكذا.

إذن هذه الحقوق التي جعلها الله سبحانه وتعالى للإنسان هي منطلق الحديث عن أي حقوق أخرى للإنسان في الإسلام، وهي التي تستند إلى تكريم الله للإنسان وتفضيله على سائر مخلوقاته.. ومن هنا نبدأ الحديث.

لقد كانت مظاهر التكريم الإلهي للإنسان كما أسلفنا عديدة، منذ أن كانت الإرادة الإلهية بخلق هذا الإنسان واستخلافه في الأرض. ومن مظاهر هذا التكريم:

١ ــ خلقه في أحسن تقويم، لقوله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**لقد خلقنا الإنسٰن في أحسن تقويم**﴾ سورة التين: ٤.

٢ ــ سجود الملائكة له، لقوله سبحانه وتعالى وقوله الحق في محكم التنزيل ﴿**ولقد خلقنٰكم ثم صورنٰكم ثم قلنا للملٰئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من السٰجدين، قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصٰغرين**﴾ سورة الأعراف: ١١ ــ ١٣.

٣ ــ إسكانه الجنة، لقوله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل وقوله الحق ﴿**وقلنا يٰآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظٰلمين، فأزلهما الشيطٰن عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا**

بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتٰع إلى حين، فتلقى آدم من ربه كلمٰت فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ سورة البقرة: ٣٥ ــ ٣٧.

٤ ــ استخلافه في الأرض، لقوله سبحانه وتعالى وقوله الحق **﴿إذ قال ربك للملٰئكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملٰئكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صٰدقين، قالوا سبحٰنك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يآآدم أنبئهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السمٰوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾** سورة البقرة: ٣٠ ــ ٣٣.

٥ ــ تسخير ما في السماوات والأرض وخلق ما في الأرض لهذا الإنسان، لقوله تعالى وقوله الحق **﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظٰهرة وباطنة ومن الناس من يجٰدل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتٰب منير﴾** سورة لقمان: ٢٠ وقوله أيضا في محكم التنزيل **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم﴾** سورة البقرة: ٢٩.

٦ ــ تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات، لقوله تعالى وقوله الحق **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملنٰهم في البر والبحر ورزقنٰهم من الطيبٰت وفضلنٰهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾** سورة الإسراء: ٧٠.

٧ ــ تمييزه بالعقل وتحميله الأمانة، لقوله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل **﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون، وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾** سورة المؤمنون: ٧٨ ــ ٧٩. وقوله أيضا في محكم التنزيل **﴿إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسٰن إنه كان ظلوما جهولا﴾** سورة الأحزاب: ٧٢.

٨ ــ تكريمه بعبادة الله الواحد القهار الذي خلقه وأوجده من العدم والذي جعل إليه مآل كل شيء، لقوله سبحانه وتعالى وقوله الحق **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** سورة الذاريات: ٥٦.

٩ ــ إرسال الرسل من بين البشر مبشرين ومنذرين حيث قطع سبحانه وتعالى عهدا على نفسه بأن لا يعذب نفسا حتى يبعث إليها رسولا يبشرها وينذرها، لقوله تعالى ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم**﴾ سورة إبراهيم: ٤٠ وقوله أيضا ﴿**من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾ سورة الإسراء: ١٥. وقوله أيضا ﴿**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما**﴾ سورة النساء: ١٦٥.

١٠- رأفة الله سبحانه وتعالى بالنفس البشرية حيث لم يكلفها بما هو فوق طاقتها، لقوله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل وقوله الحق ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولٰنا فانصرنا على القوم الكٰفرين**﴾ سورة البقرة: ٢٨٦.

إضافة إلى مظاهر التكريم هذه، فقد تفضل الله سبحانه وتعالى وتكرم وجعل للإنسان حقوقا عليه وهذه الحقوق التي عندما ندركها ونتدبرها، نجد أن ما عداها من حقوق للإنسان على أخيه الإنسان كحقوق الابن على الأب أو الوالدين على الولد أو الزوج أو الجار على جاره أو الكبير على الصغير، ليست إلا تحصيل حاصل ومن باب أولى طالما أن الله سبحانه وتعالى قد جعل للإنسان حقوقا عليه جل وعلا، وهو الغني عن عباده، وهو الكبير والجبار والقهار والمتكبر والقوي والعزيز والمتعال، الذي لا يضره ولا ينفعه شيء، ولا يزيده ولا ينقصه شيء.. سواء اهتدى الإنسان إلى إفراده بالعبادة والخضوع أو إن جنح عن ذلك الطريق الحق إلى ما عداه من طريق الضلال.

إن هذه الحقوق التي جعلها الله لعباده، تمثل مظاهر أخرى لتكريمه سبحانه وتعالى للإنسان ــ كل الإنسان ــ ومن بين هذه الحقوق:

١ ــ حق الإنسان في عدل الله سبحانه وتعالى: إن عدل الله سبحانه وتعالى ليس مقتصرا على المؤمنين دون الجاحدين والكافرين، بل هو عدل للناس كافة. وهو ليس مقتصرا على الإنسان دون سائر المخلوقات، بل هو عدل لكل كائن وكل نفس خلقها وأوجب لها العدل وقرر لها الحقوق. وعدل الله سبحانه وتعالى للإنسان

أعظم من أن نحيط به، فمظاهره عديدة، وصوره أشمل من أن نحدد إطارها ونحصي شمولها، فهو القائل في كتابه الكريم **﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾** سورة يونس: ٤٤، وهو القائل أيضا في محكم التنزيل **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضٰعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾** سورة النساء: ٤٠.

ومن مظاهر عدله سبحانه وتعالى أن جعل للنفس البشرية الحق في حرية الاعتقاد، يقول سبحانه وتعالى في هذا **﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطٰغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾** سورة البقرة: ٢٥٦، ويقول أيضا مخاطبا رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم **﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾** سورة يونس: ٩٩، ويقول أيضا **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظٰلمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾** سورة الكهف: ٢٩.. فهل هناك عدل أعظم من عدله سبحانه وتعالى وجعله النفس البشرية في خيار بين الإيمان والكفر؟ وهل هناك عدل أعظم من أن يبين لرسوله الكريم أن لا مجال أمامه عليه الصلاة والسلام لأن يكره أحدا على الإيمان.

كما أن من مظاهر عدله سبحانه وتعالى أن جعل للنفس البشرية حرية الاختيار بين سبل الخير والشر، وأن جعل للنفس البشرية الخيار في أن تهتدي أو تضل. بل إنه سبحانه وتعالى قد جعل لدى النفس البشرية منابع للخير وللشر، ثم ترك لها الخيار في أعمال منابع الخير وتعطيل منابع الشر، أو أن تعمل منابع الشر وتعطل منابع الخير، في هذا يقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل **﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكٰها، وقد خاب من دسٰها﴾** سورة الشمس ٧ ـــ ١٠ ويقول وقوله الحق سبحانه وتعالى **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾** سورة الإنسان: ١ـــ٣.

ومن مظاهر عدله أيضا أن أنصف النفس البشرية وبعث إليها الرسل مبشرين بدينه ومنذرين من عذابه، وأن لا يعذب تلك النفس البشرية دون أن يرسل إليها الرسل،

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آيٰتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظٰلمون**﴾ سورة القصص: ٥٩. ثم عم بعدله سبحانه وتعالى كل المذنبين المستغفرين، حيث يقول وقوله الحق ﴿**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**﴾ سورة الأنفال: ٣٣.

ومن مظاهر عدله أيضا سبحانه وتعالى أن بين في كتابه الكريم للإنسان أن الهلاك لا يحيق بالأمة أو الفئة وهي صالحة، سائرة في طريق الحق والعدل، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى وقوله الحق﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾ سورة هود: ١١٧، إلا أنه سبحانه وتعالى حذر الناس كافة بأن الفتنة لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة، وإنما ستعم الفتنة الظالمين وغيرهم، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى وقوله الحق ﴿**ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون، واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب**﴾ سورة الأنفال: ٢٤ ــ ٢٥.

ومن مظاهر عدله أيضا سبحانه وتعالى أن أوجب العدل للنفس البشرية وأمر به في كتابه الكريم حيث قال وقوله الحق تبارك وتعالى ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسٰن وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**﴾ سورة النحل: ٩٠.

ومن مظاهر عدله سبحانه وتعالى التي لا تعد ولا تحصى، أن أنزل الكتاب هدى ورحمة بالإنسان وتبيانا لكل شيء وفي هذا يقول وقوله الحق في محكم التنزيل ﴿**ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتٰب تبيٰناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾ سورة النحل: ٨٩، ويقول أيضا ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينٰت وأنزلنا معهم الكتٰب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنٰفع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز**﴾ سورة الحديد: ٢٥.

ومن مظاهر عدله أيضا سبحانه وتعالى ورأفته بالنفس البشرية أنه لم يكلفها فوق طاقتها وقدرتها التي يعلمها سبحانه وتعالى، وفي هذا جاء قوله تعالى في كتابه

الكريم ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولٰنا فانصرنا على القوم الكٰفرين**﴾ سورة البقرة: ٢٨٦.

ثم يتجلى لنا عدل الله سبحانه وتعالى في إنصاف كل نفس وإعطاء كل ذي حق حقه وموافاة كل عامل بما عمل دون ظلم لأحد، وذلك في العديد من آيات الذكر الحكيم ومنها قوله تعالى وقوله الحق ﴿**ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾ سورة آل عمران: ١٨٢، وقوله أيضا ﴿**كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيٰمة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحيٰوة الدنيا إلا متاع الغرور**﴾ سورة آل عمران: ١٨٥، وقوله سبحانه وتعالى ﴿**واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون**﴾ سورة البقرة: ٢٨١.

تلك بعض من مظاهر العدل الذي أمر به الإنسان وأوجبه عليه، وهي مظاهر لا تعد ولا تحصى، وما ذكرناه منها ليس إلا تدليلا فنحن أضعف من أن نحيط بعدله وتعالى.

٢ ـ حق الإنسان في رحمة الله سبحانه وتعالى: رحمة الله سبحانه وتعالى ليست مقتصرة على المؤمنين دون الكافرين، ولا على الإنسان دون الحيوان، بل هي رحمة للناس كافة ولكل نفس وكائن حي. فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عذبت امرأة في هرة أوثقتها، فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض) رواه مسلم.

وعظمة حق الإنسان في رحمة الله سبحانه وتعالى تتجلى في أن أعمال الإنسان مهما بلغت من درجات التقى والتجرد، لا تكفي لدخوله الجنة. فعدل الله سبحانه وتعالى أن يثاب المحسن ويجازى الظالم على ظلمه، وعليه فلابد من مظهر آخر من مظاهر الرأفة الإلهية ومصدر آخر من مصادر الحقوق الربانية التي منحها الله لعباده.. وعليه فإن الرحمة هي المؤهل لدخول الجنة وليس العمل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من أحد يدخله عمله الجنة. فقيل ولا أنت يا رسول الله؟ فقال : ولا أنا، إلا أن يتغمدني ربي برحمته) رواه مسلم.

والرحمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى لهذا المخلوق الظلوم، الجهول، الضعيف، قد جعلها الله سبحانه وتعالى مائة جزء أمسك عنده تسعة وتسعين جزءا منها وأنزل جزءاً واحداً منها، والذي يرحم بموجبه الأب ابنه، والقوي الضعيف، والأم ابنها، والمسلم أخيه المسلم، والإنسان الحيوان: الخ. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (جعل الله الرحمة مائة جزء، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه) رواه مسلم. وعن أبي هريرة أيضاً، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد. ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ، ما قنط من جنته أحد) رواه مسلم.

ومن عظم رحمة الله لعباده أن جعل رحمته تغلب غضبه وتسبقه نحو العبد، فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي) رواه مسلم. وعن أبي هريرة أيضا، عن النبي صلى الله عليه وسلم : (قال الله عزوجل: سبقت رحمتي غضبي) رواه مسلم.

ومن عظم رحمة الله لعباده أن جعل الرحمة صفة من صفاته واسما من أسمائه الحسنى تبارك وتعالى، وأن وعد عباده بالرحمة والمغفرة إلا أن يشرك به سبحانه وتعالى، وأن كتب على نفسه الرحمة.

ومن عظم رحمة الله بعباده أيضا أن ترك باب التوبة مفتوحا للعبد.. بل وأمره بأن لا يقنط من رحمته سبحانه وتعالى. يقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**هو الذي يصلي عليكم وملٰئكته ليخرجكم من الظلمٰت إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما**﴾ سورة الأحزاب: ٤٣، ويقول أيضا ﴿**الذين إذا أصٰبتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**﴾ سورة البقرة: ١٥٦ ــ ١٥٧. ويقول أيضا ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾ سورة آل عمران: ٣١، ويقول أيضا ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما**﴾ سورة النساء: ٦٤، ويقول أيضا ﴿**فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور**

رحيم﴾ سورة المائدة: ٣٩، ويقول أيضا **﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيٰتنا فقل سلٰم عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة إنه من عمل منكم سوءا بجهٰلة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم﴾** سورة الأنعام: ٥٤، وقال أيضاً **﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾** سورة الأعراف: ١٥٣.. وهكذا تتكرر الآيات الكريمة التي تذكرنا برحمة الله سبحانه وتعالى في كل سورة، بل إن العديد من السور تتكرر فيها الآيات التي تذكر برحمته وعفوه سبحانه وتعالى لأكثر من مرة وربما مرات.

ومن مظاهر رحمته سبحانه وتعالى لعباده وعظمها أنها تدعو العباد وتهيب بهم للتوبة دون قنوط كما أسلفنا من رحمة الله وعفوه وكرمه سبحانه وتعالى، حيث يقول في محكم التنزيل وقوله الحق **﴿قل يٰعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾** سورة الزمر: ٥٣.

ومن مظاهر رحمته أيضا وعظمتها أنها تمتد لتشمل تبديل السيئات إلى حسنات لمن يتوب ويؤمن ويعمل صالحا، وذلك حفزا للإنسان كي يدخل من أبواب التوبة التي جعلها الله سبحانه وتعالى مشرعة لعباده، يقول سبحانه وتعالى وقوله الحق **﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنٰات وكان الله غفورا رحيما﴾** سورة الفرقان: ٧٠.

ومن مظاهر رحمته أيضا وعظمتها فرحته سبحانه وتعالى بتوبة التائب، فرحته التي لا يعدلها فرحة في الدنيا.. فأي من مظاهر الرحمة هو أعظم من ذلك!؟ وأعظم من تقربه إلى عبده أكثر من تقرب عبده إليه!؟ وأعظم من إقباله إلى عبده أكثر من إقبال عبده إليه!؟ فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (قال الله عزوجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني. والله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة. ومن تقرب إلي شبرا، تقربت إليه ذراعا. ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا. وإذا أقبل إلي يمشي، أقبلت إليه أهرول) رواه مسلم.

وتتجلى عظمة الرحمة الإلهية في أبرز مظاهرها حين يخبرنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى يسقط الذنوب بالاستغفار والتوبة. وأن العباد لولا خطؤهم واستغفارهم لذهب الله بهم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم.

فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (لو أنكم لم تكن لكم ذنوب، يغفرها الله لكم، لجاء الله بقوم لهم ذنوب، يغفرها لهم) رواه مسلم.

تلك هي بعض من مظاهر الرحمة التي جعلها الله سبحانه وتعالى حق عليه للإنسان، وجعل أبواب التوبة والرحمة مشرعة أمام العباد، وحثهم ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم على ولوجها. كما وأمر بها الإنسان وأوجبها عليه. وما أوردناه من آيات كريمة وأحاديث نبوية شريفة ليست إلا للتدليل فهي مظاهر لا حصر لها حفلت بها الآيات الكريمة في محكم التنزيل، كما حفلت بها السنة النبوية الشريفة.

٣ ــ حق الإنسان في نعم الله سبحانه وتعالى: ونعم الله سبحانه وتعالى ليست مقتصرة على المسلمين دون الكافرين، ولا على الإنسان دون الحيوانات وبقية الكائنات الحية. وإنما هي نعمة تعم وتشمل كل نفس حية ــ مؤمنة أم جاحدة كافرة، إنسان أم حيوان. وهي غير مقتصرة على القوي دون الضعيف، وإنما هي للضعيف وللقوي في آن واحد.

وحين تنظر إلى نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان تجد أنها أكبر وأعظم وأوسع من أن يحيط بها إنسان، وقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك في محكم التنزيل وقوله الحق ﴿**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم**﴾ سورة النحل: ١٨
وحين نتأمل في الآيات السابقة لتلك الآية من سورة النحل ذاتها، نجد العديد من مظاهر النعم والتي فيها قوله تعالى ﴿**خلق الإنسٰن من نطفة فإذا هو خصيم مبين، والأنعٰم خلقها لكم فيها دفء ومنٰفع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بٰلغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين، هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومن شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعنٰب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيٰت لقوم يعقلون، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا**

منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهٰرا وسبلا لعلكم تهتدون، وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ سورة النحل: ٤ ــ ١٦.

نعم عديدة لا تحصى في هذه الآيات وغيرها من آيات الذكر الحكيم، فالأنعام وفيها نعم الدفء والطعام والجمال ونقل الأثقال والمنافع الأخرى، والمطر وفيه نعم الشراب وإنبات الشجر الذي فيه العديد من النعم أيضا، والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وكلهن مسخرات للإنسان وتلك من مظاهر نعمه عزوجل. والبحر أيضا وما فيه من طعام وحلية مسخرة للإنسان وتلك من مظاهر نعمه أيضا سبحانه وتعالى والجبال والأنهار وكل ما في الأرض إنما سخره سبحانه وتعالى للإنسان. لعله يهتدي ويؤمن بخالقه ومسخر خلقه في السموات والأرض للإنسان وخدمة الإنسان وحياة الإنسان.

ومن مظاهر نعمه سبحانه وتعالى على الإنسان، خلقه الإنسان في أحسن تقويم. فالبصر نعمة، والسمع نعمة، والنوم نعمة، والصحة نعمة، والعقل نعمة، والمرض بحد ذاته نعمة إذا صبر المسلم واحتسب.. فهل بعد هذا يجحد الإنسان!؟ والله سبحانه وتعالى يقول **﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾** سورة البقرة: ٢٩.

وهل بعد هذا يجحد الإنسان!؟ والله سبحانه وتعالى يقول **﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتٰب مبين﴾** سورة هود: ٦. وهل بعد هذا يجحد الإنسان!؟ والله سبحانه وتعالى يقول **﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور، ءأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير، ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير، أو لم يروا إلى الطير فوقهم صٰفات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمٰن إنه بكل شيء بصير، أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمٰن إن الكٰفرون إلا في غرور، أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتوّ ونفور، أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم، قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصٰر والأفئدة قليلا ما تشكرون، قل**

هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾ سورة الملك: ١٥ ــ ٢٤.

إن مظاهر نعم الله على الإنسان، أعظم وأعم، وأشمل، من أن تحصر أو يحيط بها علم. ولعل أعظم مظاهر هذه النعم أن الإنسان يكفر بالله ويجعل له أنداداً، ومع هذا فالله يرزقه ويعافيه. فعن عبد الله بن قيس رضي الله تعالى عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله تعالى. إنهم يجعلون له نداً ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم) رواه مسلم.

٤ ــ حق الإنسان في كرم الله سبحانه وتعالى: وكرم الله سبحانه وتعالى على بني آدم يمتد ليشمل عدله ورحمته ونعمه عليه. فالعدل الذي أوجبه الله سبحانه وتعالى للإنسان، بل وجعله من الحقوق عليه سبحانه وتعالى، ليس إلا من كرمه جل شأنه على الإنسان. ومظاهر العدل العديدة لا تعدو أن تكون مظهرا من مظاهر كرمه على الإنسان. والرحمة التي أوجبها الله سبحانه وتغالى للإنسان، بل وجعلها كما علمنا من الحقوق عليه سبحانه وتعالى، ليست إلا من كرمه تبارك وتعالى على عبده الإنسان والنعم التي أوجبها سبحانه وتعالى للإنسان وجعلها من الحقوق عليه سبحانه وتعالى، ليست إلا من كرمه تبارك وتعالى على عبده الإنسان، والمظاهر التي لا تعد ولا تحصى لنعمه سبحانه وتعالى على الإنسان، ليست إلا من مظاهر كرمه التي لا يحيط بها علم إلا علمه سبحانه وتعالى فهو علام الغيوب.

إذن كرم الله سبحانه وتعالى عام وشامل، تتعدد مظاهره بتعدد نعمه وعدله لرحمته ولطفه بعباده، يقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل وقوله الحق **﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملنٰهم في البر والبحر ورزقنٰهم من الطيبٰت وفضلنٰهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾** سورة الإسراء: ٧٠، ويقول جل شأنه وتعالت قدرته **﴿ولقد مكنٰكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معٰيش قليلاً ما تشكرون، ولقد خلقنٰكم ثم صورنٰكم ثم قلنا للملٰئكة اسجدوا لآم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من السٰجدين﴾** سورة الأعراف: ١٠ ــ ١١.، ويقول تبارك وتعالى **﴿ولكل درجٰت مما عملوا وما ربك بغٰفل عما يعملون﴾** سورة الأنعام: ١٣٢، ويقول أيضاً وقوله الحق **﴿ولكل درجٰت مما عملوا وليوفيهم أعمٰلهم وهم لا يظلمون﴾** سورة الأحقاف: ١٩.

تلك بعض من مظاهر كرمه سبحانه وتعالى على عباده. وتلك هي بعض الحقوق

التي جعلها الله تبارك وتعالى عليه للإنسان، وهو الغني عن عباده، وهو الذي لم يهب أياً من نعمه وفضله وعدله وكرمه ورحمته، خوفاً من قوي، أو طمعاً في نفوذ كبير، أو طلباً لتأييد سلطة أو تدعيما لمركز.. وإنما وهب لأنه الوهاب، ورحم لأنه الرحيم، وأعطى لأنه المعطي، وتكرم لأنه الكريم، وأنعم لأنه المنعم. ويقول في محكم التنزيل وقوله الحق ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم، ومن جهد فإنما يجهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين**﴾ سورة العنكبوت: ٥ ـــ ٦ ويقول تبارك وتعالى ﴿**يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز**﴾ سورة فاطر: ١٥ ـــ ١٧، ويقول أيضا سبحانه وتعالى ﴿**وقال الله لا تتخذوا إلٰهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون، وله ما في السموات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون، وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون**﴾ سورة النحل: ٥١ ـــ ٥٣.

ومع كل هذا نجد هناك أقواما تنحرف عن سبيل الرشد وتتخذ من هواها مرشدا ومن الشيطان قائدا، وما هؤلاء إلا الذين تقودهم أهواؤهم ويسوقهم الشيطان إلى جهنم والعياذ بالله وفي هؤلاء يقول سبحانه وتعالى ﴿**سأصرف عن آيٰتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآيٰتنا وكانوا عنها غٰفلين، والذين كذبوا بآيٰتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمٰلهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون**﴾ سورة الأعراف: ١٤٦ ـــ ١٤٧، ويقول أيضا ﴿**ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلٰل مبين، أو لم يروا أن الله الذي خلق السمٰوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقٰدر على أن يحيي الموتى بلىٰ إنه على كل شيء قدير، ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلىٰ وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفسٰقون**﴾ سورة الأحقاف : ٣٢ ـــ ٣٥.

الحقوق في ظل التكافل الاجتماعي

تعرفنا من حديثنا السابق على بعض من الحقوق التي جعلها الله تبارك وتعالى عليه للإنسان، وهي الحقوق التي قلنا إن منطلقها عدله سبحانه وتعالى ولطفه ورحمته ورأفته وكرمه على مخلوقه الذي جعلهٗ في الأرض خليفة وفضله على كثير ممن خلق. وإذا كان سبحانه وتعالى قد جعل عليه حقوقا للإنسان وهو الغني عن عباده، فمن باب أولى أن يجعل للإنسان حقوقا على الإنسان.. حقوقا للوالدين على أولادهم، وحقوقا للأولاد على الوالدين، وحقوقا للزوج على زوجه، وحقوقا للزوجة على الزوج، وحقوقا للقريب على قريبه، وحقوقا للجار على جاره، وحقوقا لليتيم، وحقوقا للمسكين، وحقوقا للفقير، وحقوقا لابن السبيل.. وغير ذلك من الحقوق التي أوجبها الله تبارك وتعالى للإنسان على أخيه الإنسان، وللمسلم على أخيه المسلم، وللمجتمع المسلم على الفرد المسلم والجماعة المسلمة والدولة الإسلامية. وهي حقوق تمثل أرقى أنماط التكافل الاجتماعي، في ظل دين الوحدة الإنسانية، الذي هو دين الوحدانية ـــ دين الإسلام. وذلك التكافل الاجتماعي الذي لم يكن ليوجد لولا العدالة التي أوجدها الإسلام وسعى لإقرارها وهيمنتها.

إن الإسلام الذي يدعو لعبادة الواحد الأحد، قد أقر من هذا المنطلق العظيم الوحدة الإنسانية الجامعة، فأقر المساواة في الأحكام بين الناس كافة، وبيّن لهم وحدة أصل التكوين بالنسبة للإنسان عامة وبصرف النظر عن دينه ولونه ولغته.

وإن اختلافهم ليس إلا بسبب غرائزهم واتجاهاتهم المتعددة التي أصبحت سببا في الاختلاف، وإن دين الوحدانية الذي يقر الوحدة الإنسانية ويذكر بها هو وحده القادر على كبح الغرائز وتوحيد الاتجاهات لتعود الوحدة الإنسانية إلى الظهور من بين ركام الغرائز والاتجاهات المتعددة للإنسان. يقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا**﴾ سورة النساء: ١. ويقول أيضا سبحانه وتعالى ﴿**يأيها الناس إنا خلقنٰكم من ذكر وأنثى وجعلنٰكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقٰكم إن الله عليم خبير**﴾ سورة الحجرات: ١٣. ويقول عز من قائل ﴿**وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك**

لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾ سورة يونس: ١٩. ويقول سبحانه وتعالى **﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتٰب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينٰت بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** سورة البقرة: ٢١٣. ويقول أيضاً **﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون، ومن آيٰته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، ومن آيٰته خلق السموات والأرض واختلٰف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيٰت للعٰلمين﴾** سورة الروم: ٢٠ ــ ٢٢.

آيات عديدة من آيات الذكر الحكيم تبين لنا وحدة الأصل والتكوين واختلٰف الألوان والألسن والأهواء والاتجاهات بإذن الله تعالى، ولحكمة لا يعلمها إلا هو علام الغيوب.

وحيث توجد وحدة الأصل والتكوين، فقد ارتضى الخالق والموجد من العدم تبارك وتعالى دين الإسلام ليكون وسيلة لتكوين المجتمع الفاضل والحفاظ على هذه الوحدة في إطارها الصحيح الذي أراده للإنسانية، يقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق، اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا، فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾** سورة المائدة: ٣.

ثم أوجب العدل والعدالة في إطار هذه الوحدة الإنسانية الجامعة وفي ظل الإسلام ذلك الدين الذي ارتضاه سبحانه وتعالى لعباده، يقول سبحانه وتعالى وقوله الحق **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسٰن وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾** سورة النحل: ٩٠ ويقول سبحانه وتعالى **﴿يٰأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾** سورة المائدة: ٨.

إذن العدالة هي سمة من سمات الإسلام، وهي الميزان الاجتماعي فيه، والتي يقوم عليها بناء الجماعة والأمة، في إطار الوحدة الإنسانية التي أوجدها الله سبحانه وتعالى، وفي

نطاق الدين الذي ارتضاه سبحانه وتعالى ليكون دين الوحدة الإنسانية. والعدالة هي منطلق التكافل الاجتماعي الذي نحن بصدده في هذا الموضوع، والذي يقوم عليه النظام الاجتماعي في الإسلام.

والتكافل الاجتماعي في الإسلام نظام متميز بما يوجده في المجتمع المسلم من مودة متبادلة بين أفراد المجتمع، بما فيه من عناصر غير إسلامية، فقد رأى الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه شيخا يهوديا يتسول في شوارع المدينة فناداه وقال له: (ما أنصفناك إذ أخذنا منك الجزية وأنت شاب وتركناك تتسول وأنت شيخ)، ثم أمر له بنفقة من بيت مال المسلمين.

وقد قال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، لأهله وقد ذبح شاة: هل أهديتم منها لجارنا اليهودي؟ قالوا: لا، قال: ابعثوا له منها فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وقد كتب خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه في معاهدة الصلح مع نصارى الحيرة يقول: (.. وجعلت لهم أي شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقاموا بدار الإسلام..).

والتكافل الاجتماعي في الإسلام لا يقوم على المال وحده كوسيلة لتحقيقه، وإنما يأتي المال كاحدى الوسائل التي يتحقق بها تواد المجتمع وتعاضده وتآزره، فتكافؤ الفرص وسية والمواساة وسيلة والتناصح وسيلة والمال أيضا وسيلة، وهو الوسيلة المادية الملموسة والأهم من بين الوسائل المعنوية الأخرى.

يقول «الدكتور محمد حمد خضر» في كتابه «الإسلام وحقوق الإنسان»(٥): (إن الفرد الذي أصيب بعاهة تمنعه من أداء العمل وليس لديه من المال ما يكفل له المعيشة الطيبة، وإن الضعيف الذي لا تمكنه طاقاته من اكتساب أجر يضمن له تلك الحياة المناسبة، وإن اليتيم الذي فقد أباه وليس لديه ما يساعده على التربية السليمة حتى ينتفع المجتمع من مواهبه وطاقاته، وإن الأرملة التي فقدت زوجها ولم يترك لها ما يكفيها وعيالها، وإن الشيخ الهرم الذي استنفد قواه لصالح هذا المجتمع ولم يستطع توفير شيء ينفقه في الكبر.. إن

(٥) د. محمد حمد خضر: الإسلام وحقوق الإنسان (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٨٠م)، ص ٥٧.

هؤلاء وأمثالهم كثيرون في كل مجتمع.. ولا يتفق مع كرامة الإنسان أن يتركوا هملا وبلا رعاية.. بل إنه لا يتحقق الأمن عند العامل إذا رأى زميله أصابته مصيبة في بعض أعضائه أو أصابه الكبر والشيخوخة وهو مهمل ضائع بلا كفالة ولا ضمان من المجتمع ـــ من أجل هذين الهدفين: مراعاة الكرامة الإنسانية، وتحقيق وسائل الثقة والأمن عند الأفراد العاملين.. شرع الإسلام من وسائل التضامن الاجتماعي ما يهيء للجميع حياة طيبة كريمة بحيث لا يوجد في هذا المجتمع الذي يطبق هذه الوسائل عاجز ولا فقير ولا محتاج).

وفي إطار التكافل الاجتماعي الذي يسعى الإسلام لتحقيقه، فإن الله سبحانه وتعالى الذي ارتضى الإسلام دينا لعباده، قد أوجب العديد من الحقوق على الإنسان لأخيه الإنسان. ومن بين هذه الحقوق:

١ ـــ حقوق الوالدين: لقد جعل الإسلام من البديهي لدى الفرد والمسلم أن يطعم والديه كبيرين كما أطعماه صغيرا، وأن يحرص على صحة والديه كبيرين كما حرصا على صحته صغيرا، وأن ينفق على والديه كبيرين كما أنفقا عليه صغيرا، وأن يحب والديه كبيرين كما أحباه والداه صغيرا، وأن يسهر على راحة والديه كبيرين كما سهرا على راحته صغيرا، وأن يطيع والديه كبيرا كما أطاعاه صغيرا، وأن يحسن صحبة والديه كبيرين كما أحسنا صحبته صغيرا، وأن يخدمهما كبيرا كما خدماه صغيرا. يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا، وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسٰنا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**﴾ سورة الإسراء: ٢٢ ـــ ٢٤. ويقول وقوله الحق سبحانه وتعالى ﴿**ووصينا الإنسٰن بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصٰله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير، وإن جٰهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون**﴾ سورة لقمان: ١٤ ـــ ١٥.

وفي سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم الكثير والكثير من حقوق الوالدين والبر بهما، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: أقبل رجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله. قال:

(فهل من والديك أحد حيّ؟) قال: نعم، بل كلاهما. قال : (فتبتغي الأجر من الله؟) قال : نعم، قال: (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما). وعنه أيضا، قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد. فقال: (أحيّ والداك؟) قال: نعم، قال: (ففيهما جاهد) رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال : (رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف) قيل: من؟ يا رسول الله، قال: (من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما وأ كليهما فلم يدخل الجنة) رواه مسلم. وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (البر أن يصل الرجل ود أبيه) رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه) رواه أبو داود. وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل من بني سلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ قال: (نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما) رواه أبو داود.

والأم أكبر حقا من الأب، لأنها التي حملت وأرضعت وسهرت وتعبت أكثر مما سهر وتعب الأب، فلا بر يسبق برها ولا حق يتعدى على حقها لأي قريب، حتى الأب. فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من قال : (أمك) قال ثم من، قال: (أبوك) رواه مسلم.

ومن عظمة الإسلام أن جعل للوالدين من الرضاعة حقوقا أيضا على ابنهما من الرضاعة، فعن عمرو بن السائب، أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (كان جالسا يوما فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه، فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر، فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه بين يديه) رواه أبو داود.

ومن عظمة الإسلام أيضا أن جعل للوالدين حقوقا حتى وإن كانا مشركين، وذلك على ولدهما المسلم. فعن أسماء رضي الله تعالى عنها قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة فأستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: قدمت علي أمي

وهي راغبة أفأصل أمي، قال: (نعم صلي أمك) رواه مسلم.

٢ ــ حقوق الزوجين: والمقصود هنا ما للزوج من حقوق على الزوج، كالمهر والإعالة وحسن المعاشرة. وما للزوج من حقوق على الزوج، كحفظ المال والنسل وحسن المعاشرة.. الخ. يقول المولى عزوجل في محكم التنزيل **﴿وآتوا النساء صدقٰتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً﴾** سورة النساء: ٤. ويقول أيضا **﴿يٰأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفٰحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً، وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتٰناً وإثماً مبيناً، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثٰقاً غليظاً﴾** سورة النساء: ١٩ ــ ٢١.

ويقول أيضا **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم فالصٰلحات قٰنتات حفٰظت للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليا كبيراً، وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلٰحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً﴾** سورة النساء: ٣٤ ــ ٣٥. ويقول أيضا **﴿وإن إمرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً، ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً، وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً﴾** سورة النساء: ١٢٨ ــ ١٣٠. ويقول أيضا **﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلٰق فإن الله سميع عليم، والمطلقٰت يتربصن بأنفسهن ثلٰثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلٰحا ولهن مثل الذي عليهم بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾** سورة البقرة: ٢٢٦ ــ ٢٢٨. ويقول جل من قائل **﴿ويسألونك**

عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فآتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم وأتقوا الله واعلموا أنكم ملٰقوه وبشر المؤمنين﴾ سورة البقرة: ٢٢٢ ـــ ٢٢٣.

آيات عديدة من آيات الذكر الحكيم تبين واجبات الزوجين وحقوق أي منهما على الآخر، وعديد من أحاديث سنة المصطفى توضح كيفية العلاقة الواجب وجودها بين الزوجين، كأهم وأدق العلاقات الاجتماعية لأنها العلاقة التي تبنى عليها معظم العلاقات الاجتماعية الأخرى. ففي خطبة الوداع جانب يبين هذه الحقوق، وهو قوله عليه أفضل الصلاة والتسليم (..أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشٰكم أحدا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إنْ اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه..﴾[٦].

وإلى جانب الحقوق التي أوجبها الله ورسوله للمرأة كزوج، فإن هناك من الحقوق ما أمر بها الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم للمرأة قبل الزواج حيث أقر الإسلام لها الحق في الموافقة على زواجها من هذا الرجل أو ذاك.

٣ ـــ حقوق الأولاد: وهي الحقوق التي أوجبها الله سبحانه وتعالى وجعلها على الوالدين نحو أولادهم، في مقابل الحقوق التي أوجبها وجعلها تبارك وتعالى على الأولاد نحو والديهم. وهي حقوق تبدأ من قبل أن يخلق الأولاد، وذلك بأن حرم سبحانه وتعالى على الزوج إنكار نسب ولد ولدته زوجه التي في عصمته وعلى فراشه. يقول في ذلك وقوله الحق تبارك وتعالى **﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهٰدة أحدهم أربع شهٰدات بالله إنه لمن الصٰدقين، والخامسة أن**

(٦) ابن هشام: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، المجلد الرابع (بيروت: دار الفكر)، ص ٢٧٦.

لعنة الله عليه إن كان من الكٰذبين، ويدرأوا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصٰدقين﴾ سورة النور: ٦ ــ ٩.

ثم حرم سبحانه وتعالى قتل الأولاد خشية الفقر والجوع والعار كما كان يفعل الجاهليون قديما وحديثا، فقال سبحانه وتعالى **﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسٰنا ولا تقتلوا أولٰدكم من إملٰق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلك وصٰكم به لعلكم تعقلون﴾** سورة الأنعام: ١٥١، وفي موضع آخر جاء النص القرآني **﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾**.

ثم أقر سبحانه وتعالى للوليد حق الحضانة والرضاعة والرعاية على الزوجة والنفقة على الزوج، حيث قال وقوله الحق تبارك وتعالى **﴿والوالدات يرضعن أولٰدهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث مثل ذلك فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وإن أردتم أن تسترضعوا أولٰدكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾** سورة البقرة: ٢٣٣.

ثم أمر سبحانه وتعالى الوالدين بعدم الظلم حتى لا ينعكس أثره على ذريتهم دون ذنب اقترفوه، حيث يقول وقوله الحق **﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعٰفا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾** سورة النساء: ٩.

كما أمر المصطفى صلى الله عليه وسلم بالعدل بين الأولاد وعدم محاباة أحدهم دون الآخر وذلك منعا لظهور بوادر البغضاء فيما بين الأخوة أو الأخوات. كما أمر عليه الصلاة والسلام كل والد بتربية أولاده تربية حسنة والتصدق عليهم وتأديبهم، وذلك في العديد من الأحاديث النبوية الشريفة التي حفلت بها كتب السنة المطهرة، فعن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله) رواه مسلم، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، أنه قال : إن أباه أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اني نحلت إبني

هذا غلاما كان لي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكل ولدك نحلته مثل هذا؟)، فقال : لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فارجعه) رواه مسلم، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو) وضم أصابعه، رواه مسلم.

وإلى جانب الحقوق التي جعلها الله للوالدين على أولادهم وللأولاد على والديهم وعلى الزوج لزوجه وعلى الزوج لزوجها. نجد هناك الحق لأي من هؤلاء في الميراث عند الوفاة حيث يرث الوالد والوالدة ولدهما وترث الزوج زوجها ويرث الزوج زوجه ويرث الابن أو البنت والدهما أو والدتهما بعد الوفاة وفي ذلك نزلت العديد من آيات الذكر الحكيم لتبين ذلك، منها قوله تعالى في محكم التنزيل

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا، وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتٰمى والمسٰكين فأرزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا﴾ سورة النساء: ٧ ــ ٨. ومنها قوله تعالى **﴿يوصيكم الله في أولٰدكم للذكر مثل حظ الانثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهنَّ ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما، ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم﴾** سورة النساء : ١١ ــ ١٢. ومنها قوله تعالى **﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن إمرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم﴾** سورة النساء: ١٧٦.

من ذلك يتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى نظم الميراث تنظيما دقيقا يعطي لكل فرد من الورثة حقه بقدر قرابته ثم بقدر ما يتحمله من مسئوليات في الحياة، كما أن تلك الحقوق لا تقتصر على الميراث حيث نجد أن آيات الميراث جميعا تنص على تقسيم الإرث وتوزيعه من بعد الدين والوصية وهي حق إباحة الإسلام للموصي شرط أن لا يوصي لوارث.. فسبحان الله الذي لا يعلم حكمته إلا هو والذي جعلنا لا ندرك من العلم والحكمة إلا قليلا.

وقد حفلت السنة النبوية الشريفة بالعديد من الأحاديث النبوية التي تبين جوانب الوصية ومن ذلك ما رواه عامر بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، من وجع أشفيت منه على الموت. فقلت: يا رسول الله، بلغني ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال (لا) قال قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال: (لا. الثلث. والثلث كثير. إنك إن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس. ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت بها. حتى اللقمة تجعلها في في امرأتك) قال: قلت: يا رسول الله، أخلف بعد أصحابي؟ قال: (إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله، إلا أزددت به درجة ورفعة. ولعلك تخلف حتى ينفع بك أقوام ويضربك آخرون. اللهم، امض لأصحابي هجرتهم. ولا تردهم على أعقابهم. ولكن البائس سعد بن خولة). قال الراوي تفسيرا لذلك: رثى له رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن توفى بمكة رواه مسلم.

٤ ــ حقوق اليتامى: وهي الحقوق التي أوجبها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وسنة رسوله عليه أفضل الصلاة والتسليم للطفل الذي فقد عائله، على المسلمين سواء كانوا ذوي قربى لهذا اليتيم أم من عامة المسلمين. يقول سبحانه وتعالى وقوله الحق عن هذه الحقوق ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملٰئكة والكتٰب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتٰمى والمسٰكين وابن السبيل والسٰئلين وفي الرقاب وأقام الصلٰوة وآتى الزكٰوة والموفون بعهدهم إذا عهدوا والصٰبرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ سورة البقرة: ١٧٧. ويقول أيضا سبحانه وتعالى ﴿**يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين**

والأقربين واليتٰمى والمسٰكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ سورة البقرة : ٢١٥. ويقول أيضا **﴿في الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتٰمى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم﴾** سورة البقرة: ٢٢٠. ويقول سبحانه وتعالى **﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتٰب في يتٰمى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتٰمى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما﴾** سورة النساء: ١٢٧.

وإلى جانب أمره سبحانه وتعالى بالإنفاق على اليتامى، نجد نهيه سبحانه وتعالى عن أكل مال اليتيم والعمل على حفظه له حتى يبلغ. ويقول سبحانه وتعالى **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلك وصٰكم به لعلكم تذكرون﴾** سورة الأنعام: ١٥٢.

ويقول أيضا سبحانه وتعالى **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً﴾** سورة الإسراء: ٣٤. ويقول أيضا **﴿وآتوا اليتٰمى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا، وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتٰمى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلٰث وربٰع وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمٰنكم ذلك أدنى ألا تعدلوا﴾** سورة النساء: ٢ ــ ٣.

وإلى جانب كل هذا نجد أن الله سبحانه وتعالى قرن الإحسان إلى اليتامى بالإحسان إلى الوالدين وذي القربى والمساكين وبالقول الحسن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهما من أركان الإسلام كما نعلم. ثم قرن كل هذا بإخلاص العبادة له وحده سبحانه وتعالى. يقول في ذلك وقوله الحق **﴿وإذ أخذنا ميثٰق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتٰمى والمسٰكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾** سورة البقرة : ٨٣.

إلى جانب ذلك نجد أن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم قد حفلت بالعديد

من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحفز وتدعو لمراعاة حقوق اليتيم وحفظها والإحسان إليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كافل اليتيم له أو لغيره، أنا وهو كهاتين في الجنة) وأشار بالسبابة والوسطى، رواه مسلم.

٥ ـ حقوق الجار: وحقوق الجار من الحقوق المتميزة في الإسلام والتي أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بها كل مسلم نحو جاره. وتميزها نابع من أنها ليست مقتصرة على الجار ذي القربى أو الجار اليتيم أو الجار المسكين أو الجار الفقير أو حتى الجار المسلم، وإنما هي حقوق أوجبها الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم على كل مسلم. يقول المولى عزوجل في محكم التنزيل ﴿**اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسٰنا وبذي القربى واليتٰمى والمسٰكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمٰنكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا**﴾ سورة النساء: ٣٦.

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) رواه مسلم. وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أباذر، إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك) رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) رواه مسلم. وعنه أيضا رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) رواه مسلم. وعنه أيضا رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت) رواه مسلم.

وحق الجار ليس مقتصرا على الجار المسلم كما أوضحنا، وقد أوردنا من قبل ما رواه الترمذي وأبو داود وأخرجاه عن ابن عمر رضي الله عنهما حين ذبحت له شاة، فقال لأهله: هل أهديتم منها لجارنا اليهودي ؟ قالوا: لا، قال ابعثوا له منها إني

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

٦ ـــ حقوق الأقارب: والأقارب هم الأرحام، وقد أوجب الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم حقوقهم على المسلم ذي القربى، لأن الذي لا يصل رحمه حري به أن لا يعطف على الإنسان، والذي يفقد عطفه على الإنسان حري به أن ينسى حقوق الخالق الذي جعل الرحمة صفة من صفاته واسما من اسمائه الحسنى. يقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿وإذ أخذنا ميثٰق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتٰمى والمسٰكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلوة وآتوا الزكٰوة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون﴾** سورة البقرة: ٨٣. ويقول سبحانه وتعالى **﴿يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتٰمى والمسٰكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾** سورة البقرة: ٢١٥. ويقول تبارك وتعالى **﴿وآت ذا القربى حقه والمسٰكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا﴾** سورة الإسراء: ٢٢ ـــ ٢٣.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله خلق الخلق. حتى إذا فرغ منهم قامت الرحمة فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة. قال : نعم. أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت : بلى . قال: فذاك لك) رواه مسلم. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله. ومن قطعني قطعه الله) رواه مسلم. وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ في أثره، فليصل رحمه) رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني. وأحسن إليهم ويسيئون إلي. وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال: (لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل. ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك) رواه مسلم.

٧ ـــ حقوق عامة المسلمين: فالحقوق التي أوجبها الله سبحانه وتعالى على المسلم وأمر بها الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، لم تقتصر على حقوق الوالدين على أولادهم أو الأولاد على والديهم أو على الزوج لزوجه أو الزوج لزوجها أو تلك التي

أوجبها سبحانه وتعالى لليتيم أو الجار أو الأقارب. وإنما قرنها تبارك وتعالى في العديد من آيات الذكر الحكيم بتلك الحقوق التي أوجبها لعامة المسلمين كالفقراء والمساكين وابن السبيل والسائلين والغارمين وفي الرقاب والمؤلفة قلوبهم. من ذلك قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملٰئكة والكتٰب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتٰمى والمسٰكين وابن السبيل والسٰئلين وفي الرقاب وأقام الصلٰوة وآتى الزكٰوة والموفون بعهدهم إذا عٰهدوا والصٰبرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ سورة البقرة: ١٧٧. ومنه قوله سبحانه وتعالى ﴿**إنما الصدقٰت للفقراء والمسٰكين والعٰملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغٰرمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**﴾ سورة التوبة: ٦٠. ومنه قوله أيضا ﴿**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم**﴾ سورة التوبة: ١٠٣.

وكتب السيرة النبوية الطاهرة مليئة بالأحاديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، والتي تدعو إلى الإحسان إلى هذه الطوائف من الفرد المسلم والجماعة المسلمة، وإلى مكارم الأخلاق على اختلاف صنوفها وأساليبها، والتي هي لبنات في بناء المجتمع المسلم المتعاضد والمتآخي والمتكافل.

فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الساعي على الأرملة والمساكين، كالمجاهد في سبيل الله — وأحسبه قال — وكالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر) رواه مسلم. وعنه أيضا، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان. فتنحى ذلك السحاب. فأفرغ ماءه في حرة. فإذا شرجه من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله. فتتبع الماء. فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته. فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان. الاسم الذي سمع في السحابة. فقال له: يا عبد الله، لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان. لاسمك. فما تصنع فيها؟ قال: أما

إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلث، (وأرد فيها ثلثه) رواه مسلم.

والقرآن الكريم وسنة المصطفى عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، دعوة لتحريم التحاسد والتباغض والتدابر والهجر فوق ثلاث والظن والتجسس والتناجش والتنافس وظلم المسلم لأخيه المسلم وخذله واحتقاره والنهي عن الشحناء والظلم والسباب. وكذلك الترغيب بكل الخصال الحميدة التي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا للتآخي والتآزر والتكافل.

والحقوق التي أوجبها الله ورسوله الكريم للإنسان على أخيه الإنسان لا تقف عند هذا الحد، ولا تقتصر على هذه الطوائف التي أشرنا إليها هنا وإنما تمتد لتشمل تفاصيل أعم وأشمل من ذلك بكثير كالحقوق بين الخادم والسيد، وكذلك الضيف وصاحب الدار، والعامل وصاحب العمل والحاكم والمحكوم. وذلك بأن جعل الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم حقوقا على الخادم وحقوقا على السيد وخادمه وحقوقا للضيف على صاحب الدار وحقوقا لصاحب الدار على الضيف، وحقوقا للعامل على صاحب العمل وحقوقا لصاحب العمل، وحقوقا للحاكم على المحكوم وحقوقا للمحكوم على الحاكم.

إنها جميعا تمثل الحقوق التي أوجبها الله سبحانه وتعالى للإنسان، وجعلها من الأسس والدعائم التي يقوم عليها بناء المجتمع المسلم في ظل الإسلام الذي ارتضاه دينا للإنسانية رحمة منه تعالى لها ولطفا بها. ثم أرسل تبارك وتعالى الرسل مبشرين ومنذرين ليدعوا الناس إلى هذا الدين وتلك القيم، وأمر سبحانه وتعالى رسله الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام بالدفاع والذود عن هذه القيم وبالحرب لنشرها لتنعم البشرية جمعاء في ظل الإسلام الخالد بهذه القيم الإسلامية الخالدة.. وهذا هو منطلق الحرب في الإسلام كما سنرى، ولهذا وجب الحديث عنها وعن الحريات في الإسلام التي هي موضوعنا التالي، وذلك قبل أن نبدأ الحديث عن الحرب في الإسلام والتي لا تقوم إلا لإرساء تلك القيم والذود عن تلك الحريات التي أوجبها الله ويعمل الإنسان لانتهاكها بإغراء من الشيطان.

الحريــة في الإســـلام

الحرية هي منطلق العطاء والإبداع، لأنها تعني الخلوص واستغلال الارادة، والإبداع والعطاء لا يمكن أن ينطلقا من التبعية والعبودية وعليه نجد العديد من آيات الذكر الحكيم تدعو إلى العلم واعمال العقل والفكر، وتهيب بالإنسان أن يتدبر ما حوله ويعقله، وأن يستخدم ما حباه الله به من عقل وسمع وبصر لما فيه خير دينه ودنياه. يقول المولى سبحانه وتعالى في محكم التنزيل **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم علم الإنسٰن ما لم يعلم﴾** سورة العلق: ١ ــ ٥، ويقول في موضع آخر من محكم التنزيل **﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصٰر ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾** سورة الحج: ٤٦، ويقول أيضا **﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾** سورة محمد: ٢٤، ويقول أيضا **﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾** سورة النساء: ٨٢.

وحيث لا علم ولا تدبر دون العقل والفكر. وحيث لا عطاء ولا إبداع دون العقل والفكر. وحيث لا عطاء ولا ابداع دون الحرية.. تدرك الارتباط الوثيق بين دعوة الإسلام، ونهج الإسلام، وعقيدة الإسلام وبين الحرية التي هي سمة من سمات المجتمع الإسلامي الفاضل.

ولئن كانت الحرية عند المشرعين من البشر قديماً وحديثاً تعني حق الدولة في أن تفعل ما تشاء كما هو في النظم الاستبدادية القديمة والمعاصرة، أو تعني حق الشعب والدولة معا في أن يفعل كل منهما ما يشاء كما في النظم الديمقراطية كما يسمونها.. ولئن كانت الحرية عند هؤلاء المشرعين تعني مزيدا من الحرية الاقتصادية عند الفرد أو الدولة، أو تعني مزيدا من الحرية السياسية عند الفرد أو الدولة أيضا، أو تعني مزيدا من الحرية الاجتماعية عند الفرد أو الدولة. حتى أصبح بمقدور الدولة أن تتاجر بما تشاء، وتتبنى ما تريده من النظم الاقتصادية، وأصبح بمقدور الفرد أن يتاجر بما يشاء باسم الحرية ــ حتى بالأعراض والعياذ بالله وحتى أصبح بمقدور الدولة أن تفعل ما تشاء باسم الحرية السياسية. وحتى أصبح بمقدور الدولة والفرد والجماعة أن يتحللوا من كل القيود والقيم الاجتماعية باسم

الحرية الاجتماعية ـــ حتى أصبحت تلك المجتمعات لا تختلف عن الغابات وحظائر الحيوان الذي لا عقل للتمييز عنده أقول لئن كانت الحرية عند هؤلاء المشرعين قديما وحديثا تعني كل هذا وأكثر من هذا، فإن الحرية عند المشرع الأعظم سبحانه وتعالى تعني الحفاظ على إنسانية الإنسان، ودم الإنسان، وعرض الإنسان، ومال الإنسان، وكرامة الإنسان، وحقوق الإنسان التي أقرها له سبحانه وتعالى سواء كان هذا الإنسان حاكما أو محكوما، وسواء كان تاجرا أم فقيرا، وسواء كان كبيرا أم صغيرا، وسواء كان رجلا أم امرأة.. ذلك شرط أن لا تخرج حريته عن الإطار الذي حددته شريعة السماء التي ارتضاها الله لعباده، وشريطة أن لا تتعارض أو تتعدى على حدود الآخرين وحرياتهم وحقوقهم التي أقرها لهم سبحانه وتعالى.. إذن هي حرية مقيدة، ولكنها ليست مقيدة بقيود الحاكم المستبد! ولا قيود الحزب الواحد الذي لا يعلى عليه! ولا بقيود حكم للشعب ومن الشعب!.. وإنما هي قيود الخالق الذي يعلم من خلق ومستلزمات من خلق، قيود اللطيف الخبير سبحانه وتعالى حيث يقول ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾ سورة آل عمران: ١٥٩. وحريته أيضا مقيدة ابتداء بالحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى، يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿**وأنزلنا إليك الكتٰب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتٰب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتٰكم فاستبقوا الخيرات إلى الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون، أفحكم الجٰهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون**﴾ سورة المائدة: ٤٨ ـــ ٥٠.

وللحاكم في المقابل السمع والطاعة طالما التزم بكتاب الله وسنة نبيه، وهذا قيد على حرية الفرد تجاه الحاكم أو الراعي أو المدير حيث عليه السمع والطاعة فيما لا معصية فيه وطالما الراعي أو الحاكم أو المدير ملتزم بكتاب الله وسنة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم يطاع، وإلا فلا طاعة له. يقول الله سبحانه وتعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنٰزعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾ سورة النساء: ٥٩.

والمحكوم حر، ولكن حريته مقيدة بالعديد من القيود السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أوجبها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وبينها رسوله المصطفى من بين خلقه عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم وهي القيود التي تكفل رفاه المجتمع وسعادته وهي القيود التي تبني ولا تهدم. فالفرد حر في الاعتقاد بما يشاء، ولكن حرية الاعتقاد تقيد بقيود الإسلام حينما يدخل الإسلام ويؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، والفرد حر في الكسب ولكن حريته مقيدة بقيود الإسلام التي تحرم الكسب غير المشروع أيا كان نوعه ولونه كالاتجار بمحرم أو التعامل بالربا أو احتكار قوت الناس ومعيشتهم أو غش المسلمين. والفرد حر في الرأي وإبداء رأيه السياسي ولكن حريته مقيدة بما لا يتعارض ويتنافى مع ما جاء به القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة أو ما أجمعت عليه الأمة. والفرد حر في عمل ما يريد ولكن ضمن إطار تعاليم الإسلام وقيم الإسلام ومجتمع الإسلام فلا يغتب ولا يتجسس ولا يحسد ولا يؤذي جاره ولا يعبث ولا يعتدي.

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساءٍ من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقٰب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولٰئك هم الظٰلمون، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم، يا أيها الناس إنا خلقنٰكم من ذكر وأنثى وجعلنٰكم شعوبا وقبائل لتعٰرفوا إن أكرمكم عند الله أتقٰكم إن الله عليم خبير**﴾ سورة الحجرات: ١١ ــ ١٣.

من كل ما تقدم بنا من حديث وما سقناه من أمثلة، نصل إلى تحديد ماهية الحرية في الإسلام والتي تعني: حرية الإنسان في أن يحيا الحياة التي جعلها الله له وهيأها سبحانه وتعالى لمخلوقه الذي استخلفه في الأرض حين خلق آدم، دون قيود إلا القيود اللازمة لعبودية الإنسان التامة لخالقه والقيود التي تحفظ للمسلم دينه وماله وعرضه وكرامته داخل ربقة الإسلام.. ومن هنا تظهر الفروق جلية بين الحرية التي جعلها الله للإنسان وكرمه بها في ظل دينه الخالد، وبين الحرية التي أرادها البشر لأنفسهم فيما وضعوه لأنفسهم من أديان ونظم انحدروا بموجبها إلى البهيمية الهابطة. يقول «الأستاذ سعيد حوي» في كتابه «الإسلام»[٧]: (إن المجتمع المسلم تقوم أواصره على أساس الإيمان بالله. وهو لذلك

(٧) سعيد حوي: الإسلام، مرجع سابق، ص ٢٨٩.

يذعن لقانون العبودية له، ويراها واجبا عليه، وحقا لله الذي خلقه. ويعتبر هذه العبودية هي المظهر العملي الذي يشكر به الإنسان الله عزوجل، على أن سخر الكون كله لصالحه، وهنا يفترق طريق المسلم عن الكافر. الكافر يستفيد من الكون ناسيا من خلقه وسخره له، والمسلم يحفظ هذه الحقيقة دائما فيذكرها إذا أكل، وإذا شرب، وإذا لبس، وإذا عوفي، وإذا مرض.. إن الحرية في المجتمع الإسلامي هي حرية المسلم في تطبيقه الإسلام، وحريته في قمع المنحرفين عن الإسلام، وحريته في أن يخضع البشر لسلطان الله، وحريته في ألا يجعل غير عبد لله يتمتع بحريته بالمقدار الذي يأذن به الله عزوجل بقيود العبودية التامة لله سبحانه وتعالى، والتي يمنع المسلم بالتالي الحرية الكاملة. وقد جعل الله سبحانه وتعالى وفي هذا الإطار للإنسان في هذه الحياة الدنيا أنواعا شتى من الحرية وجعلها من الأسس والدعائم التي يقوم عليها بناء المجتمع الإسلامي الفاضل الذي يرتفع بالإنسان إلى مراتب السمو والكرامة والإنسانية التي ارتضاها الله للإنسان وميزه بها عن سائر مخلوقاته تبارك وتعالى. ومن أنواع هذه الحرية: حرية العقيدة والتي تأتي في مقدمة الحريات التي منحها الله للإنسان، ثم حرية الرأي وحرية التملك وحرية العمل وحرية التنقل، والحرية المدنية والحرية السياسية والحرية الشخصية.. الخ. هذا وسوف نفصل الحديث عن أربعة أنواع من هذه الحريات، أما البقية فهي بلاشك تدخل في إطار الأنواع التي سنتحدث عنها:

١ ــ حرية العقيدة:

والمقصود بهذا النوع من أنواع الحرية أن يعتقد الإنسان بما يشاء ويؤمن بما يشاء قبل أن يدخل في كنف الإسلام وقبل أن ينطق بالشهادة ويعمل بأركان الإسلام وشرائعه وحجتنا في ذلك قوله تعالى في محكم التنزيل **﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطٰغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾** سورة البقرة: ٢٥٦. وقد جعل الله سبحانه وتعالى حرية العقيدة لكل نفس بشرية بعد أن خلقها وأوجدها من العدم وبيّن لها الطريقين ــ طريق التقى وطريق الفجور، يقول سبحانه وتعالى **﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكٰها وقد خاب من دسٰها﴾** سورة الشمس: ٧ ــ ١٠، ويقول في موضع آخر من محكم التنزيل **﴿إنا خلقنا الإنسٰن من نطفة أمشاج**

نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً، إنا هدينٰه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ سورة الإنسان: ٢ ــ ٣.

وتتجلى حرية العقيدة في الإسلام في إنكار الله سبحانه وتعالى على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يكون مكرها للنفس البشرية على الإيمان، وذلك في قوله تعالى ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ سورة يونس: ٩٩ ــ ١٠٠.

وتتجلى حرية العقيدة في الإسلام أيضا بأمر الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله في محكم التنزيل ﴿قل يٰأيها الكٰفرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عٰبدون ما أعبد، ولا أنا عٰبد ما عبدتم، ولا أنتم عٰبدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين﴾ سورة الكافرون: ١ ــ ٦.

إذن هي الحرية المطلقة التي جعلها الله سبحانه وتعالى للنفس البشرية والإرادة الكاملة لها، لتختار الخير أو الشر بكل أشكاله وأبعاده. وهي حرية ليس بمقدور البشر أن ينتزعوها من حيث وضعها الله تجلت قدرته، وإرادة ليس بمقدورهم أن يسلبوها من حيث أرادها الله سبحانه وتعالى. على ضوء هذا كانت معاهدة المصطفى صلى الله عليه وسلم لليهود في المدينة المنورة عندما قدم إليها، والتي تعهد فيها عليه أفضل الصلاة والتسليم لليهود بحسن الجوار ومنحهم الحرية في أداء شعائرهم الدينية كيفما يشاؤون، وقد جاء في كتابه صلى الله عليه وسلم الذي كتبه بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وإشترط عليهم وشرط لهم، ما نصه[8]: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود

(٨) ابن هشام، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، المجلد الثاني، ص ١١٩.

بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وإثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم..).

ومثل ذلك فعل الخليفة عمر بن الخطاب مع نصارى بيت المقدس عندما دخلها المسلمون وكتب الخليفة عمر رضي الله تعالى عنه ما عرف بالوثيقة العمرية ـــ نسبة إلى عمر، حيث أقر فيها لنصارى بيت المقدس دينهم وكنائسهم وصلبانهم وأن لا يكرهوا ولا يضاروا في دينهم، ومما جاء فيها(٩): بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله: عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء ـــ القدس ـــ من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم..).

وعلى هذا النهج سار الخلفاء وقادة الفتح الإسلامي وتعاملوا مع غيرهم من غير المسلمين في الأقطار والبلاد التي دخلها المسلمون، ملتزمين بأمره سبحانه وتعالى بأن لا إكراه في الدين، فلم يكرهوا أحدا على الدخول في الإسلام، بل تركوا للآخرين الحرية المطلقة في الدخول في الإسلام أو البقاء على دينهم وحرية العقيدة في الإسلام لا تقتصر على قبول المسلمين في أن يجاورهم في البلد أو المدينة أو الحي غيرهم من غير المسلمين، بل تعددت حدود هذه الحرية إلى ما هو أبعد من ذلك حيث أباح الله سبحانه وتعالى للمسلم الزواج من كتابية، يقول سبحانه وتعالى وقوله الحق في محكم التنزيل **﴿اليوم أحل لكم الطيبٰت وطعام الذين أوتوا الكتٰب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنٰت من المؤمنٰت والمحصنٰت من الذين أوتوا الكتٰب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمٰن فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخٰسرين﴾** سورة المائدة: ٥. أي أن حدود هذه الحرية تعدت إلى إطار البيت

(٩) تاريخ الطبري، المجلد الثالث، ص ٦٠٩.

الواحد والعائلة الواحدة حيث يتزوج المسلم من يهودية أو نصرانية وتعيش معه في بيت واحد وتحت سقف واحد وفي فراش واحد، تؤدي شعائرها الدينية في هذا البيت بكامل الحرية والإرادة.. وهذا نابع من ثقة الإسلام وعظمة الإسلام، إذا لا يقبل بمثل هذا من وجد في نفسه شيء من القصور فسبحان الله الذي ارتضى لعباده دين العظمة والكمال.

ولم يقتصر الأمر عند الإسلام بترك حرية الاعتقاد طليقة عند الإنسان، بل تعدى ذلك بأن أوجب العدل والإحسان والحماية وحسن الجوار لكل من سكن دار المسلمين من غير الدائنين بدين الإسلام، يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**سمٰعون للكذب أكّالون للسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين**﴾ سورة المائدة: ٤٢. ويقول سبحانه وتعالى ﴿**وأنزلنا إليك الكتٰب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتٰب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعه ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتٰكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفٰسقون**﴾ سورة المائدة: ٤٨ ـــ ٤٩.

أما حين يهتدي الإنسان إلى الحق ويعتنق الإسلام ويتشرف بشرف الشهادة أو يصبح فردا من عامة المسلمين، فإن الأمر مختلف إذ لا حرية في الاعتقاد بعد هذا الاهتداء إلى الله ودين الله.. إذ كيف يكون له الخيار في أن يخرج من النور إلى الظلمات!؟ وكيف يكون له الخيار في أن يعود إلى الوراء بما فيه من رذائل وجهل وظلمات!؟.. وعليه فإن المرتد لن يكون ممن اعتنق الإسلام عن تفهم ووعي وإدراك، وإلا لما حاد عنه إلى ما سواه. ومنه أيضا ندرك أن المرتد إما أن يكون: منافقا دخل الإسلام كذبا وخرج لإثارة البلبلة بين صفوف المسلمين وخصوصا من لم يتمكن الإيمان في قلوبهم، وذلك ما كان يفعله اليهود بعد وصول الإسلام إلى المدينة المنورة وقد أخبر عنهم القرآن بقوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**وقالت طائفة**

من أهل الكتٰب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ سورة آل عمران: ٧٢.

وإما أن يكون: متجسسا على أحوال المسلمين وأمورهم السياسية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية والعسكرية دخل كذبا ليحصل من ورائه على مبتغاه ثم ارتد عنه بعدما أنهى مهمته وفي كلا الحالتين لابد من قتله امتثالا لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم (من بدل دينه فاقتلوه).. وأود أن أرد على أعداء الإسلام الذين يرون هذا وصمة عار على الإسلام، فأقول: ماذا يفعل الاتحاد السوفيتي بمن يتجسس عليه من الروس أنفسهم لحساب الأميركان!؟ وماذا تفعل أمريكا بمن يتجسس عليها من الأميركان أنفسهم لحساب الروس!؟ وماذا تفعل أي دولة من الدول العصرية المتقدمة بمن تجده يتجسس على أمورها من رعاياها؟ وذلك دون أن يرتد عن دينه، فكيف يكون الأمر إذا تجسس ثم ارتد عن دينه وملته. وماذا تفعل أميركا أو روسيا أو أي دولة متقدمة أو متخلفة أو نامية، أو أي من أنواع الدول وتسمياتها التي ينعتونها بها في يومنا هذا، في رجل يثير الفتنة والبلبلة ويدعو للانقضاض على دين المجتمع وقيم المجتمع ومنجزات المجتمع؟.. أظن الإجابة على هذه التساؤلات ستكون واحدة وهي: أخذه إلى المقصلة أو غرف الغاز أو غرف الكهرباء ليموت بواحده من هذه الوسائل.. فلماذا يعيبون على الإسلام أن يفعل ذلك ويشمئزون من السيف؟ أليس السيف مثل المقصلة وغرف الغاز والكهرباء أو أي وسيلة أو أداة من أدوات الموت؟. إن الخبير اليهودي النووي يواجه اليوم عقوبة الإعدام لأنه سرب أخبارا لم تكن سرا من قبل.. مجرد تسريب أخبار دون أن يرتد عن اليهودية. فماذا كانوا سيفعلون به لو هرب فعلا أسرارا حقيقية؟ وماذا يفعلون به لو خرج عن اليهودية وفضح الأخبار والأسرار في آن واحد؟؟.

٢ ـــ حرية التملك:

الأصل في التملك الإباحة حيث أنه من الحقوق التي أقرها الإسلام للمسلم والذمي في دار الإسلام، وذلك لأن حب التملك من الغرائز التي جبلت عليها النفس البشرية، والإسلام لم يأت بما ينافي الغرائز وإنما أتى بما يهذب تلك الغرائز في الإنسان ويحفظها في الإطار المشروع الذي لا ضرر فيه على الدين والدنيا وعلى الفرد أو المجتمع.

فالتملك غريزة لقوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنٰطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعٰم والحرث ذلك متٰع الحيٰوة الدنيا والله عنده حسن المآب**﴾ سورة آل عمران: ١٤.

ولقول المصطفى صلى الله عليه وسلم، فعن أنس رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب. ويتوب الله على من تاب) رواه مسلم. والتملك مباح لقوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**يٰأيها الذين آمنوا إذا نودي للصلٰوة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، فإذا قضيت الصلٰوة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون**﴾ سورة الجمعة: ٩ ـــ ١٠. ولقوله أيضا ﴿**إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطٰئفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقٰتلون في سبيل الله فأقرأوا ما تيسر منه وأقيموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم**﴾ سورة المزمل: ٢٠. ولقوله تعالى ﴿**يٰأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبٰت ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، وكلوا مما رزقكم الله حلٰلا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون**﴾ سورة المائدة: ٨٧ ـــ ٨٨.

والتملك يعني المال، والمال مال الله ونحن مستخلفون فيه لقوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير، وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثٰقكم إن كنتم مؤمنين، هو الذي ينزل على عبده آيٰت بينٰت ليخرجكم من الظلمٰت إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم، ومالكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السمٰوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقٰتل أولٰئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقٰتلوا وكلا وعد الله**

الحسنى والله بما تعملون خبير ، من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضٰعفه له وله أجر كريم﴾ سورة الحديد: ٧ ـــ ١١.

والتملك لا يأتي ولا يجب أن يأتي إلا بالكدح والعمل الصالح النافع لقوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عٰلم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾** سورة التوبة: ١٠٥.

إذن التملك في الإسلام غريزة عند الإنسان، وقد أباحه الله لإشباع تلك الغريزة وبين أن المال المستهدف في عمليات السعي المتواصل من الإنسان بقصد التملك، هو مال الله والإنسان مستخلف فيه، وهو لا يمكن أن يتسنى للإنسان إلا بالكدح العمل الصالح النافع للدين والفرد والمجتمع والحياة.. وحين يكون كذلك فإن له حرمة كالنفس والعرض.

ومنطلق الإسلام في إطلاق حرية التملك ضمن الحدود التي بينتها آيات الذكر الحكيم وأحاديث السنة النبوية الشريفة، هو كون المال عصب الحياة وقيام الناس، فلا يعقل والحال هكذا أن يمنع أو يحجب ما به قيام الناس وأداة بناء وإعمار حياتهم الدنيوية. يقول المولى تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قيٰما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾** سورة النساء: ٥.

من كل ذلك ندرك أن حرية التملك مقيدة بقيود وضوابط مردها: أن المال مال الله والإنسان مستخلف فيه، والمال وسيلة إعمار الحياة والله سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستخلفه في الأرض ليعمل ويكدح. وعليه فلا بد أن يكون هناك من القيود والضوابط ما يعصم حرية التملك من الشطط والخروج عن الإطار والحدود التي أرادها الله سبحانه وتعالى، وما يمنع الإنسان من الانجراف وراء غرائزه وشهواته ونزواته إلى ما يخرجه عن سنة الحياة وطريق الحق الذي ارتضاه له خالقه تبارك وتعالى. وعليه فقد أباح الله التملك حين يكون بطرق مشروعة لا مضرة من ورائها على الدين والدنيا والمجتمع والحياة ـــ حياة الفرد أو الجماعة. وحرم التملك حين يكون بطرق غير مشروعة ومضرتها واضحة جلية على الدين والدنيا والمجتمع والحياة، ومن هذه الطرق التي حرم الله جمع المال والتملك بواسطتها ما يلي:

أ ـ الربا: وهو من طرق الكسب التي حرمها الإسلام لقوله تبارك وتعالى ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطٰن من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون، يمحق الله الربا ويربي الصدقٰت والله لا يحب كل كفار أثيم**﴾ سورة البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٧٦. وقوله تعالى ﴿**فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبٰت أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالبٰطل واعتدنا للكٰفرين منهم عذابا أليما**﴾ سورة النساء: ١٦٠ ـ ١٦١. وقوله تعالى ﴿**وما أتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما أتيتم من زكٰوة تريدون وجه الله فأولٰئك هم المضعفون**﴾ سورة الروم: ٣٩.

وحرمته تشمل كثيره وقليله لما له من آثار على اقتصاد المجتمع حيث يؤدي إلى تركيز الثروات بيد قلة من المرابين العاطلين عن العمل على حساب السواد الأعظم من الكادحين من أبناء الأمة حيث يقتطع المرابي أجزاء من عرقهم وجهدهم وربما جهدهم بالكامل حيث يبقى العامل يكد ويعرق ليسد فوائد الديون التي عليه للمرابي. ولعل خير الأمثلة التي نراها اليوم بعض الدول النامية مثل مصر والسودان والتي تدفع سنويا مئات الملايين وربما البلايين كفوائد للمرابين دون أن تسدد دولارا واحدا من قيمة الدين نفسه.. لهذا أمر الله سبحانه وتعالى بحرب الربا والمرابين والتشديد على ذلك، وذلك بقوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**يٰأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون**﴾ سورة البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.

وحرمة الربا في الإسلام تفوق حرمة الزنا مع ما به من فظاعة وإجرام، حيث روى الطبراني وأحمد عن عبد الله بن حنظلة قوله عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله (درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشد من ست وثلاثين زنية).

ب ـ **الاتجار بمحرم:** وهو من وسائل الكسب عن طريق الاتجار بمحرم، حرمه القرآن أو السنة أو إجماع المسلمين لثبوت خبثه ومضاره على الفرد أو المجتمع. وعلة التحريم هنا ترتبط بالمتجر به، فإذا كان المتجر به حراما، فمن باب أولى أن يكون الكسب من ورائه حراما، إذ لا يمكن أن يكون الخمر حراما بنصوص القرآن والسنة ويباح الكسب من وراء صنعه أو بيعه وهكذا.

وتتعدد صنوف هذا النوع من الكسب المحرم بتعدد أصناف المحرمات في شريعة الإسلام. فالخمر حرام في الإسلام، وعليه فإن صنعه حرام والتملك بصنعه حرام، وبيعه حرام والتملك ببيعه حرام. والزنا حرام في الإسلام، وعليه فإن كسب الزانية من جراء متاجرتها بعرضها حرام، وكسب تاجر الرقيق الأبيض الذي يتاجر ويدلل على أجساد البغاء حرام، والصور العارية التي تدعو للجنس والزنا حرام والاتجار بها حرام وطبعها حرام والعائد منه حرام، وصناعة السينما التي تدعو للجنس والزنا حرام والاتجار بها حرام. ووسائل اللهو والترف التي لا طائل منها حرام كصناعة النرد وورق اللعب للقمار وأدوات الغناء، وصناعة التماثيل وكل ما شابه ذلك حرام الكسب من وراء صنعه ومن وراء بيعه والاتجار به وعلى ذلك تقاس بقية المحرمات في الإسلام وما تدره من مكاسب على مرتكبيها ومروجيها والمتعاملين في أسواقها القذرة.

إن في وجود هذه المحرمات وتصنيعها وترويجها كل المفاسد للمجتمع، فهي إلى جانب أنها محرمات لا يجيز الإسلام وجودها في مجتمعه. فإنها تعمل على انشغال فئات من المجتمعات في إنتاج ما لا فائدة من ورائه للفرد والمجتمع، وهذا ما يتعارض مع النظام الاقتصادي في الإسلام والذي يقوم أساسا على الكدح والعمل ويحرم أي مكسب يأتي للإنسان دون أن يعمل ويكدح ويشقى في سبيله.

ولعل نظرة إلى أي من المجتمعات التي تنتشر فيها تلك الرذائل ويباح فيها الاتجار بهذه المحرمات، تكفينا دليلا على عظمة الإسلام وأنه لا يدعو إلا إلى فضيلة ولا يحرم إلا كل رذيلة وساقطة.

ج ـ **الغصب والسرقة:** التملك باغتصاب أموال وممتلكات الآخرين أو سرقتها أو اختلاسها محرم بنصوص القرآن والسنة، يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿**ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالبٰطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون**﴾ سورة البقرة: ١٨٨. ويدخل في إطار هذا النوع من المكسب الحرام السرقة والاختلاس والاغتصاب بالقوة والجبروت والغلول وتطفيف الكيل والميزان، ومرد حرمتها أن التملك فيها إنما تم عن نهب ما يملكه الآخرون إذ يغتصب فيه الإنسان أو يسرق أو يختلس ما يملكه إنسان آخر أو ما تملكه أمة المسلمين وعامتهم. وعليه فإن المجتمع الذي تنتشر فيه مثل هذه الأعمال سينقسم إلى فئتين: الأولى خاملة لا عمل لها إلا سرقة ونهب الآخرين، وفئة مسلوبة الكدح والعرق، وهذا ما سيقودها إلى الامتناع عن العمل حيث تجد أن لا ثمرة لكدحها وعملها.. وبهذا تتعطل كل طوائف المجتمع عن العمل، وهذا ما لا يريده الإسلام. ولهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى قد جعل حد قطع اليد لكل سارق أو سارقة وذلك في قوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكٰلا من الله والله عزيز حكيم**﴾ سورة المائدة: ٣٨.

د ـ **التلاعب في التجارة:** التملك باحتراف مهنة التجارة أمر يبيحه الإسلام ويحث عليه، ولكن التاجر عندما ينحرف عن طريق الحق في تجارته لمزيد من الكسب والثراء فإنه بذلك يخرجها كمهنة شريفة أباحها له الله تبارك وتعالى إلى وسيلة من وسائل الكسب التي حرمها الإسلام وغلظ في العقوبة على مزاوليها.

ومن صنوف التلاعب في التجارة الغش بكل أشكاله وصوره، وكذلك الاحتكار حيث يحتكر التاجر سلعة من السلع مستغلا ندرتها بالسوق وحاجة المسلمين لها، وكذلك التلاعب في الأسعار حيث يرفعها التاجر لمزيد من الكسب مستغلاً أيضاً حاجة الناس لهذه السلعة، وكذلك استغلال اضطرار الإنسان لسلعة يرى التاجر أنها دون هذه القيمة أو أنها لا قيمة لها كأن تكون فاسدة وغير ذلك من صنوف التلاعب في التجارة التي أصلها الإباحة، وما تلك القيود إلا لحفظها في الإطار الذي شرعه الله للمسلمين.

هـ ـ **أنواع أخرى من التملك:** ومن الأنواع العديدة الأخرى للتملك الذي حرمه الإسلام وشدد في العقوبة على مقترفيه، القمار والميسر واليانصيب الذي ظهر في عصرنا هذا وتزاوله العديد من الهيئات والشركات في العديد من الدول الإسلامية. وحكمة التحريم في هذا هو أنه كسب بلا عمل ونهب وسلب لأموال الآخرين الذين لا ذنب لهم، إنه من قبيل أكل أموال الناس بالباطل.

ومن أنواع التملك غير المشروع في الإسلام أيضا، التملك باستغلال الوظيفة أيا كان حجمها ومركز شاغلها سواء كان خليفة أو واليا أو عاملا، وكذلك أخذ الهدايا المقدمة إلى شاغل الوظيفة أو ما يقدم له كرشوة سواء كانت نقدا أو عينا، وكذلك سن القوانين التي تدر عليه الأموال من خلال هذه الوظيفة، وكذلك الأموال التي يتحصل عليها الموظف من وظيفة لا نفع منها للأمة أو الدولة.

ومن أنواع التملك غير المشروع أيضا، التملك عن طريق الغبن الفاحش أو العقود الفاسدة أو بيع المعدوم أو الانتفاع بمال اليتيم أو الانتفاع بالوقت للمصلحة الخاصة.. وغير ذلك من أنواع التملك التي حرمها الإسلام لضررها على الفرد والمجتمع، هذا مع تغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد.

خلاصة القول إن الأصل في التملك الإباحة، ولكنها ليست مطلقة بلا قيود أو ضوابط، وما هذه القيود والضوابط إلا لمصلحة الفرد والمجتمع والحياة.. الدنيا والآخرة على السواء إذ كل محاسب على ما قدم في دنياه من عمل.

٣ ـ حرية الرأي:

الإسلام دين يحفظ الدين والعقل والحياة، وهو لايمكن أن يمنع أو يحرم أو يقيد ما يمليه العقل السليم وما يقره الدين الحنيف وما يعمر الدنيا، ومن ذلك حرية الرأي. والرأي هو خلاصة أعمال العقل والفكر، والإسلام دعوة لإعمال العقل والفكر. والإسلام يدعو للبناء والإصلاح، والرأي السديد يمثل إحدى أدوات البناء والإصلاح.. وعليه فحرية الرأي طليقة في الإسلام شريطة أن يكون الرأي أداة بناء لا أداة هدم، وأن يكون الرأي وسيلة إصلاح لا وسيلة إفساد. ومنه نستطيع القول إنها حرية الأصل فيها الانطلاق والقيود عليها استثناء.

وإذا كانت حرية الرأي في عالمنا المعاصر وسيلة إصلاح ذات حدين في المجتمعات المعاصرة التي يدعونها : بالمتقدمة، وسيلة من وسائل الترف المباحة لمن يشاء دون الاكتراث بما قد تبعثه تلك الآراء من مفاسد عقائدية واجتماعية واقتصادية وإدارية وسياسية كما نرى في المجتمعات المعاصرة التي انحدرت إلى بؤر الرذيلة والانحلال من جراء إطلاق حرية الرأي وغيرها من الحريات. فإن حرية الرأي في الإسلام مقيدة بما يبني ولا يهدم ويصلح ولا يفسد كما بينا، وهي فريضة على الأمة تأثم إن لم يكن هناك من يقوم بها، وذلك لقوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولٰئك هم المفلحون**﴾ سورة آل عمران: ١٠٤. والأمة الإسلامية ملزمة أن تستمع إلى أصحاب الرأي ـــ الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، لقوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**والمؤمنين والمؤمنٰت بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلٰوة ويؤتون الزكٰوة ويطيعون الله ورسوله أولٰئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم**﴾ سورة التوبة: ٧١. وحين يكتمل عقد الإصلاح في مجتمع الأمة الإسلامية، وتصبح الأمة بأسرها آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، فإنها تصبح خير أمم الأرض جمعيها، لقوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتٰب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفٰسقون**﴾ سورة آل عمران: ١١٠. فأي حرية رأي هي أعظم وأسمى منزلة من حرية الرأي في المجتمع المسلم الذي لابد أن يكون رأي الفرد فيه أداة بناء وإصلاح، وهذا هو الهدف من وراء إطلاق حرية الرأي في أي مجتمع ولكن الاختلاف في ماهية الرأي ومنبعه والعقل والفكر اللذين بلوراه والذهن الذي اختمر فيه.. وشتان بين عقل وفكر وذهن المسلم وعقل وفكر وذهن من عداه من الناس.

والرأي في الغالب موجه لأولي الأمر ـــ الأجهزة السياسية والإدارية في الدولة، والإسلام يأمر أولي الأمر بأخذ الرأي والمشورة من أهلها من خاصة المسلمين وعامتهم، وذلك لقوله تبارك وتعالى ﴿**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلٰوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقنٰهم ينفقون**﴾ سورة الشورى: ٣٨، وقوله سبحانه

وتعالى ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾ سورة آل عمران: ١٥٩. وكتب السيرة النبوية المطهرة تزخر بمواقف المصطفى صلى الله عليه وسلم ومشاورته لأصحابه رضوان الله عليهم وإبدائهم الرأي له في العديد من أمور الدنيا وهو الذي يتنزل عليه الوحي من ربه تبارك وتعالى. وسيرة الخلفاء الراشدين من بعده مليئة أيضا بمواقفهم التي توضح لنا حرية الرأي عند المسلم، حاكما أو محكوما والتزام كل منهما بما تمليه تعاليم القرآن والسنة.

إذن حرية الرأي في الإسلام حرية مطلقة شريطة أن تكون أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر. أما إذا انحرفت ـــ لا سمح الله ـــ عن ذلك الطريق وأصبحت وسيلة للتجريح وتسجيل المواقف وكيد كل فئة أو حزب للفئة أو الحزب الآخر فهي مرفوضة، إذ تكون أمراً بمنكر والعياذ بالله وهذا ما يحرمه الإسلام، بل ويشدد في عقوبته عندما يكون إفسادا في الأرض لقوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلٰف أو ينفوا من الأرض فأولٰئك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم**﴾ سورة المائدة: ٣٣.

٤ ـــ الحرية الشخصية:

الحرية الشخصية التي جعلها الإسلام لكل مؤمن به واسعة وتمتد لتشمل العديد من التصرفات والحقوق الشخصية التي أباحها الله سبحانه لأتباع دينه. ولعل الفارق بين الحرية الشخصية لدى المسلم وغيره من أتباع الملل الأخرى، هو أنه مأمور في العديد من آيات الذكر الحكيم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم بالسعي لاكتساب هذه الحرية والدفاع عنها. أما عند أتباع الملل الأخرى فهم غير مأمورين، ناهيك عن كون هذه الحريات الشخصية مكبلة عند بعض أتباع هذه الملل والنحل.

ومن صنوف الحرية الشخصية في الإسلام (حرية العمل) وهي حرية مطلقة لا قيود عليها إلا قيد صلاح العمل ونفعه للفرد والمجتمع، ومردوده الجيد للدين والدنيا. وهو حين يكون صالحا فحريته غير مقيدة، والمسلم مأمور بفعله لقوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله**

والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ سورة التوبة: ١٠٥.

ومن صنوفها أيضا (حرية التنقل) وهي حرية مطلقة لا قيود عليها، والتنقل غالبا ما يتم إما لطلب الرزق أو لطلب العلم وكلاهما من الأمور التي أمر بها الإسلام ورغب بها يقول المولى سبحانه وتعالى لعباده ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير﴾** سورة العنكبوت: ٢٠. ويقول أيضا سبحانه وتعالى ﴿**ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾** سورة النساء: ١٠٠.

ومن صنوفها أيضا الحرية السياسية والحرية المدنية للفرد المسلم وكذلك حرية المأكل شريطة أن لا يكون محرما كالميتة والخنزير وغير ذلك من المحرمات وحرية الملبس: شريطة أن لا يكون مخلا بخلق المسلم ودينه.

خلاصة القول والحديث عن «الحرية في الإسلام» أنها حرية محكومة بضوابط ربانية، الأصل فيها الانطلاق والاستثناء هو القيد، والقيد لا يأتي إلا عندما تتعارض هذه الحرية مع أمر من أوامر الله سبحانه وتعالى أو سنة من سنن رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام أو مع ما اجتمع عليه أمر الأمة وما فيه صلاحها وصلاح الفرد والمجتمع.. وهي حرية ضد أي نوع من أنواع العبودية لغير الله سبحانه وتعالى. وحيث أوجب الله هذه الحريات للإنسان فقد أمر المسلمين بالقتال دونها وإعلان الحرب على من يمنعون تمتع الإنسان بها وتنعمه بها وذلك في قوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك ولياً وأجعل لنا من لدنك نصيراً﴾** سورة النساء: ٧٥.

الفصـــل الثــاني: الإسلام والسلام

* السلام رسالة الإسلام
* أسباب الحرب في الإسلام وأهدافها.
* العقيدة العسكرية الإسلامية.
* العلاقات الدولية في الإسلام.
* تقسيم العالم عند فقهاء المسلمين.
* إنسانية المسلمين تجاه المدنيين والأسرى وأهل الذمة.

السلام رسالة الإسلام

الإسلام دين الأنبياء ورسالة الرسل الكرام عليهم السلام أجمعين، وذلك منذ أن خلق الله آدم عليه السلام واستخلف ذريته في الأرض، وإلى أن ختم الله بالرسالة المحمدية رسالات السماء بإرساله المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة كخاتم للأنبياء والمرسلين، ولقد دلت العديد من آيات الذكر الحكيم على أن الإسلام هو دين الرسل ومدار رسالتهم، يقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفينٰه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصٰلحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العٰلمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يٰبني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبٰئك إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق إلها واحدا ونحن له مسلمون**﴾ سورة البقرة: ١٣٠ ــ ١٣٣. ويقول تبارك وتعالى في موضع آخر من محكم التنزيل ﴿**أفغير الله يبغون وله أسلم من في السمٰوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون، قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخٰسرين**﴾ سورة آل عمران: ٨٣ ــ ٨٥.

والإسلام يعني الاستسلام التام لله الموجد من العدم والذي بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير. وهذا يعني الإخلاص في العبودية لله وحده لا شريك لـلّه.. أي العبودية التامة لله سبحانه وتعالى.

والإسلام والاستسلام لله سبحانه وتعالى يعنيان السلام، سلام الإنسان مع نفسه وجوارحه وغرائزه، سلام الإنسان مع خاصته ومع مجتمعه، سلام المجتمع في كيانه الداخلي وفي تعامله مع الكيانات الأخرى (الخارجية)، سلام العالم والإنسانية جمعاء.

ولعل من الواضح لكل ذي بصيرة، الحكمة الإلهية البالغة، والتدبير الإلهي الحكيم، في أن جعل الله سبحانه وتعالى من الإسلام دينا ورسالة للرسل عليهم السلام أجمعين، وأن

جعل من الإسلام أيضا اسما وعلما على الرسالة المحمدية الخاتمة لرسالات السماء والتي بعث بها الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة.. ومن كلمة «الإسلام» التي هي اسم العلم على هذه الرسالة يشتق كلمات «السلامة» و«السلم» و«السلام». ومن قيم الإسلام ومبادىء الإسلام ونهج الإسلام، تنبعث السلامة والسكينة والطمأنينة والتي لا يحس بها إلا من اهتدى إلى الإسلام **﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمٰن ولكن جعلنٰه نورا تهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾** سورة الشورى: ٥٢ ــ ٥٣. ومن قيم الإسلام ومبادىء الإسلام ونهج الإسلام، ينبعث السلم وينتشر السلام الذي لم ولن تعرفه البشرية بعيدا عن دين الإسلام الذي جعل سبحانه وتعالى الاهتداء إلى سبل السلام أحد أهدافه ومقاصده النبيلة، وذلك في قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿يـٰأهل الكتٰب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتٰب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتٰب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلٰم ويخرجهم من الظلمٰت إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾** سورة المائدة: ١٥ ــ ١٦.

وحيث أن السلام هو أحد أهداف الإسلام ومقاصده النبيلة، وأحد مبادئه الأصيلة السامية. فقد عظم الله تبارك وتعالى من شأنه حيث جعله اسما من أسماء الله عزوجل **﴿هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلٰم المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحٰن الله عما يشركون﴾** سورة الحشر: ٢٣. ثم عظم من شأنه حين جعله وصفا واسما للجنة التي أعدها للمتقين من عباده **﴿والله يدعو إلى دار السلٰم ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولـٰئك أصحٰب الجنة هم فيها خٰلدون﴾** سورة يونس: ٢٥ ــ ٢٦. وجعل سبحانه وتعالى من السلام تحية أهل الجنة حين يلقونه تبارك وتعالى **﴿تحيتهم يوم يلقونه سلٰم وأعد لهم أجرا كريما﴾** سورة الأحزاب: ٤٤ ثم جعله الله تبارك وتعالى تحية أهل الجنة **﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلٰوة وأنفقوا مما رزقنٰهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولٰئك لهم عقبى الدار، جنٰت عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملٰئكة يدخلون عليهم من كل باب، سلٰم عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾** سورة الرعد: ٢٢ ــ ٢٤. وجعل من السلام صفة ليلة القدر التي أنزل

بها القرآن على خاتم الرسل عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم **﴿إنا أنزلنٰه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر، تنزل الملٰئكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، سلٰم هي حتى مطلع الفجر﴾** سورة القدر: ١ ــ ٥. والسلام إلى جانب كل ما تقدم هو تحية المسلم لأخيه المسلم حين يلقاه، وهو خاتمة صلاة كل مسلم إذ يسلم يمينا ويسارا معلنا ختام صلاته.. فأي عظمة تضاهي عظمة السلام ؟ وأي منزلة أنزلها الإسلام للسلام؟؟. الإسلام دين الله الذي ارتضاه تبارك وتعالى لعباده وجعل رسالته للناس كافة، وحيث أنه دين السلم والسلام فقد وجه الله الدعوة للناس كافة أن يدخلوا الإسلام لينعموا في ظله بالسلم والسلام والأمن والطمأنينة **﴿يـٰأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطٰن إنه لكم عدو مبين﴾** سورة البقرة: ٢٠٨. وبعد أن كلف الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالرسالة، أوضح تبارك وتعالى لرسوله الكريم واتباعه من بعده أن مهمتهم توصيل الدعوة للناس وإقامة البرهان على صدقها وصحتها وصلاحها لتنظيم الحياة الدنيا. وللناس من بعد كل هذا أن يختاروا بين هذا وذاك دون إرغام أو إكراه في الدين **﴿قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطٰغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾** سورة البقرة: ٢٥٦. ويقول تبارك وتعالى **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجٰدلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** سورة النحل: ١٢٥. ويقول سبحانه **﴿فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر، إلا من تولى وكفر﴾** سورة الغاشية: ٢١ ــ ٢٣.

إذن السلام هو الإسلام في نهجه وشريعته ومبادئه وما يحققه للفرد والمجتمع والإنسانية من خير الدنيا والآخرة. وحيث أن الإسلام رسالة عامة شاملة، فالأمن والسلم والسلام يكون بالتالي عاما وشاملا. وكما أن الخروج عن الإسلام يعد شذوذا وجنوحا، فإن ما يخرج عن السلام من حروب ودمار واتباع لهوى النفس والشيطان، يعد أيضا شذوذا وجنوحا. وكما أن الإسلام هو القاعدة والأساس والكفر استثناء وخروج على القاعدة.. فإن السلام هو القاعدة والأساس والحروب وما يتبعها من ويلات ودمار استثناء وخروج على القاعدة أي أن السلام في الإسلام قاعدة والخروج عليه استثناء، وذلك عكس ما رأيناه في ظل النظم الوضعية الجانحة حين تحدثنا عنها في الفصل الثاني من الباب الأول.

يقول شهيد الإسلام «سيد قطب» رحمه الله في كتابه «السلام العالمي والإسلام»(١٠):
(فكرة السلام في الإسلام فكرة أصيلة عميقة، تتصل إتصالا وثيقا بطبيعته وفكرته الكلية عن الكون والحياة الإنسانية.

هذه الفكرة التي ترجع إليها نظمه جميعا، وتلتقي عندها تشريعاته وتوجيهاته وتجتمع إليها شرائعه وشعائره، بشكل لا يخطر على بال الباحثين الدارسين أنفسهم لهذا الدين.. إلا أن يبلغوا بالبحث والدرس إلى الجذور العميقة البعيدة، ويتتبعوا امتدادها وتفرعها، في يقظة وصبر وإحاطة..

وطبيعة السلام في الإسلام على وجه خاص لا غنى لها عن الإلمام بنظرة الإسلام الكلية تلك، فمنها تنبع مباشرة، وإليها ترجع رجوعا مباشرا.. ومن التناسق في طبيعة الكون، وفي ناموس الحياة، وفي أصل الإنسان تستمد طبيعة السلام في الإسلام، فتستند إلى أصل عميق، ويصبح السلام هو القاعدة الدائمة والحرب هي الاستثناء الذي يقتضيه الخروج عن هذا التناسق الممثل في دين الله الواحد، بالبغي والظلم، أو بالفساد والاختلال. وأظلم الظلم الشرك بالله. وأفسد الفساد تعبيد العباد لغير الله، فترده الحرب الموقوتة إلى التناسق الدائم والصلاح الواجب ﴿**حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾ سورة الأنفال: ٣٩. ذلك أن الإسلام ينفي منذ الخطوة الأولى معظم الأسباب التي تثير في الأرض الحروب، ويستبعد ألوانا من الحرب لا يقر بواعثها وأهدافها.

والإسلام الذي يقر السلام كقاعدة ويعد الخروج عنه ضرورة واستثناء، ينظر إلى الحرب نظرته إلى الشر والبلاء ولكنه الشر الذي لابد منه لقطع دابر شر أشد منه خطرا على الفرد والمجتمع على حد سواء وذلك من قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير**﴾ سورة الأنفال: ٣٩. أما حين لا تكون هنالك فتنة فإنه تبارك وتعالى يأمر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وأتباعه الأبرار من بعده بالجنوح للسلم ومسالمة المساكين وغير المقاتلين، وذلك في قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾ سورة الأنفال: ٦١. وقوله تبارك وتعالى ﴿**ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونوا سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى**

(١٠) سيد قطب: السلام العالمي والإسلام، الطبعة الثامنة (بيروت: دار الشروق، ١٩٧٩م) ص ١٣.

يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً، إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثٰق أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقٰتلوكم أو يقٰتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقٰتلوكم فإن إعتزلوكم فلم يقٰتلوكم وألقوا إليكم السلام فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾ سورة النساء: ٨٩ ــ ٩٠، وقوله تبارك وتعالى **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديٰركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهٰكم الله عن الذين قٰتلوكم في الدين وأخرجوكم من ديٰركم وظٰهروا على إخراكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولٰئك هم الظٰلمون﴾** سورة الممتحنة: ٨ ــ ٩.

ومن الطبيعي أن شر الفتنة في الأرض أشد خطرا وبلاء من شر الحرب. ومن الفتنة الخروج عن طاعة الله والخضوع لسلطانه، ومن الفتنة استعباد الإنسان لغير الله، ومن الفتنة الظلم والقهر، ومن الفتنة نشر الفساد والرذيلة، ومن الفتنة الإخلال بناموس الحياة، ومن الفتنة الاعتداء على الدين والعرض والدم.. والإسلام لا يقر الحرب إلا لدفع الفتنة، أي لدفع الشر الأعظم بشر أهون منه.

يقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتٰه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولٰكن الله ذو فضل على العٰلمين﴾** سورة البقرة: ٢٥١. ويقول في موضع آخر من محكم التنزيل **﴿الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسٰجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾** سورة الحج: ٤٠.

من هنا تكون الحرب التي هي شر في طبيعتها عند المسلم خيرا حين يدفع بها الشر والعدوان والفتنة، التي هي أعظم وأفدح من شرور الحرب مهما عظمت نتائجها. إذ لو تركت الفتنة والشر دون أن يردعهما رادع، ودون أن يؤخذ على أيدي فاعليهما لعمت الفتنة، ولاستشرى الفساد ولانتهى كل خير في هذه الحياة، ولفسد ناموس الحياة.. وهنا تظهر لنا إحدى السمات العظيمة للإسلام وتبرز لنا رفعته.. ومن هذا المنطلق كما سنرى فيما بعد، تعامل المصطفى صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين مع كل أعداء الإسلام، ومنه أيضا تعامل خلفاؤه الراشدون من بعده وقادة الفتح الإسلامي مع كل قوى الشر وأدوات الفتنة التي أمر الإسلام بقتال مروجها في كل زمان

ومكان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يقول «الشهيد سيد قطب» رحمه الله[11]: (ذلك إجمال فكرة السلام في الإسلام: السلم قاعدة والحرب ضرورة. ضرورة لتقرير سلطان الله في الأرض ليتحرر الناس من العبودية لغير الله. وضرورة لدفع البغي والبغاة وتحقيق كلمة الله وعدل الله ضرورة لتحقق خير البشرية، لا خير أمة ولا خير جنس ولا خير فرد. ضرورة لتحقيق المثل الإنسانية العليا التي جعلها الله غاية للحياة الدنيا. ضرورة لتأمين الناس من الضغط، وتأمينهم من الخوف، وتأمينهم من الظلم، وتأمينهم من الضر. ضرورة لتحقيق العدل المطلق في الأرض. فتصبح إذن كلمة الله هي العليا.

وواقع الإسلام التاريخي يثبت هذه المبادىء النظرية: فلقد جاء محمد مأمورا أن يبلغ الرسالة للناس كافة ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**﴾ سورة سبأ: ٩٨. وأن يعلن دعوة الله خالصة، بلا منّ وبلا أجر ﴿**يا أيها المدثر، قم فانذر وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر**﴾ سورة المدثر: ١ ـــ ٧.. وأن يسلك بالدعوة طريق الجدل بالحسنى، والإقناع بالحجة، في غير قسوة ولا غلظة ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ سورة النحل: ٢٥ ﴿**وما أنتم عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد**﴾ سورة ق: ٤٥.

وهكذا سارت الدعوة على هذا الأساس، لا يبغي محمد من الناس إلا أن يستمعوا إليه. فإن صغت قلوبهم إلى الإيمان فليؤمنوا، وإن قست قلوبهم وران عليهم الضلال فأمرهم إلى الله. حتى تحقق لهم أن يتحرروا من سلطان الطواغيت ويواجهوا عقيدة الإسلام أحرارا في الاختيار، بغير ضغط من سلطة قاهرة تصدهم عن هدى الله وتقف لهم بالقوة دون الاستجابة للهداية. ولكن الجاهلين لم يسالموا محمدا، ولم يدعوا للدعوة السلمية طريقها، ولا لمعتنقيها المقتنعين بها حريتهم، فآذوهم وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، وقاتلوهم حيثما وجدوهم وحالوا بين الدعوة وبين الإسماع بالقوة المادية المجردة من كل إقناع. وعندئذ حمل الإسلام السيف ليذود عن مبدأ أساسي من مبادئه: مبدأ حرية الدعوة وحرية العقيدة..)

تلك هي طبيعة السلام في الإسلام التي هي جزء لا يتجزأ من طبيعة الإسلام ذاته،

(١١) المرجع السابق، ص ٢٩.

ومكنون من مكنوناته الأساسية العظيمة، والتي تثبت لكل ذي بصر وبصيرة أن: السلام رسالة الإسلام. وللسلام أصناف ودرجات متفاوتة، تنبع في مجملها من منابع الإسلام الصافية. القرآن والسنة، وتصب في النهاية في نهر السلام الذي أهداه الإسلام للفرد والمجتمع والإنسانية بصورة عامة.

وأصناف السلام تتدرج من سلام الفرد في ذاته وضميره، ثم إلى سلام العائلة الواحدة ضمن إطار البيت الواحد، ثم إلى سلام المجتمع الذي تكونه مجموع تلك العوائل والبيوت، ثم ترتقي بعد ذلك إلى سلام العالم والإنسانية كافة. ولهذا يصنف السلام إلى : سلام داخلي وسلام خارجي.

والسلام الداخلي يبدأ بسلام الفرد الذي هو اللبنة الأولى في بناء الجماعة الإسلامية، حيث لن يكون هناك بناء سليم للمجتمع إذا لم يكن هناك البناء القوي للفرد الذي هو لبنة المجتمع والعضو المؤثر فيه، وحيث لن ينعم المجتمع بالسلام إذا لم يكن الفرد قد تمتع به من قبل لتأثير الفرد بالمجتمع، والإسلام لهذا يولي بناء الفرد أهمية خاصة منذ الطفولة ويزرع فيه قيم السلام، يقول المولى تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿وإذ قال لقمٰن لابنه وهو يعظه يٰبني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الإنسٰن بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصٰله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير، وإن جٰهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنت تعملون، يٰبني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السمٰوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير، يٰبني أقم الصلٰوة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾** سورة لقمان: ١٣ ــ ١٩، وقد أمضى المصطفى صلى الله عليه وسلم الثلاث عشرة سنة التي أعقبت بعثته وسبقت هجرته إلى يثرب وهو يعد الفرد والجماعة، قبل أن يفكر في قيام الدولة التي تأوي المسلمين، وذلك لأن الدولة إنما تقوم على أكتاف الفرد ومجموع الأفراد، وكذلك ركزت معظم الآيات المكية من القرآن الكريم على إرساء الدعائم وبناء الفرد الذي بصلاحه تصلح الجماعة وبالتالي تصلح أمور الدولة الإسلامية المرتقبة.

والفرد المسلم الذي تم إعداده على هذه الصورة الفريدة هو الذي قال عنه المولى

عزوجل في محكم التنزيل ﴿**وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجٰهلون قالوا سلٰماً، والذين يبيتون لربهم سجداً وقيٰماً والذي يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقراً ومقاماً، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما، والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما**﴾ سورة الفرقان: ٦٣ ــ ٦٨.

وببناء الفرد المسلم على هذه الصورة الإسلامية القويمة، يتم غرس السلام في وجدانه وضميره، السلام الإيجابي كما يصفه الشهيد سيد قطب رحمه الله، لا السلام السلبي الذي يرضى لكل شيء وبأي شيء، يدع القيم والمبادىء العليا تداس في سبل عافيته وسلامته هو دون اكتراث بسلامة الدين والعقيدة والمجتمع. فالسلام الإيجابي الذي سعى الإسلام لزرعه في وجدان الفرد المسلم وضميره، هو السلام الذي لن ينهزم أمام قوى الشر، ولن تثنيه الفتنة مهما طغى سلطانها. وبهذا يكون هذا السلام جزءا من السلام الإسلامي الذي جعله الله مخرجا للبشرية من شرور الشيطان، ومبطلا للفتنة التي تخلقها الغرائز الجانحة عند الإنسان.. وبهذا لا تكون عنده الحرب إلا وسيلة للقضاء على الفتنة وكبح قوى الشر بشر هو في ذلك الوقت بمثابة الخير، إذ أن الشر الذي يكبح الفتنة ويقضي على شر أعظم منه هو بطبيعة الحال: خير وإن كان في غير هذا الموضع يتحاشاه المسلم الذي زرع الإسلام بذرة السلام في ضميره ووجدانه. ومن بعد سلام الفرد الذي تعقد فيه تعاليم الإسلام، السلام بين روح الإنسان وجسده وغرائزه، وبين ضرورات الفرد الملحة وأشواق روحه وارتباطها بخالقها.. سلام فريد لا تبغي من خلاله هذه على تلك. والذي تعقد فيه أيضا تعاليم السلام، السلام بين العقيدة الإسلامية السمحة والمنطق الإنساني، إذ أنّ كل ما أتى به الإسلام لا يجد فيه الفرد ما يناقض أو يتعارض مع أي من نواميس الحياة ومنطق الحياة وسنة الحياة.. سلام فريد لا يجعل الفرد في حيرة من أمره حين يرى التناقض والتضارب بين هذا وذاك.

بعد سلام الفرد هذا يرتقي الإسلام بالسلام درجة إلى : البيت الذي يجمع الفرد المسلم بزوجه وأبنائه وأهل بيته. البيت هو ما جعله الله تبارك وتعالى للفرد مثابة وسكنا، والذي يتلقى فيه الفرد المسلم أول تعاليم الدين والحياة. هذه التعاليم التي توجه السلوك المستقبلي للفرد عندما ينضج ويخرج للحياة والمجتمع. ومن هنا كان تركيز الإسلام على

سلام البيت إذ أن فاقد الشيء لا يعطيه، والفرد الذي ينشأ في بيت لا سلام فيه، سوف لن يعرف السلام في حياته ومجتمعه، ولن يعرف للسلام قيمة ولن يتذوق له طعما. وتركيز الإسلام على سلام البيت ينبع أيضا من كون البيت هو حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع أو بين سلام الفرد وسلام المجتمع. وحيث أن أعمدة البيت هي الأب والأم، فقد كان اهتمام الإسلام بالعلاقة بين الزوجين وطرق التعامل وسبل التواد والتراحم فيما بينهما، إذ أن الطفل الذي يعيش في كنف والدين لا يعرفان التفاهم وحسن التعامل وسبل التواد والتراحم طريقا إلى بيتهما، سوف يعيش في قلق واضطراب، وسوف يعيش بأعصاب متوترة ونفس قلقة وروح مضطربة.. وبهذا يفقد السلام، ويتيه في أجواء الاضطراب والقلق والتوتر وهي وسائل هدم في بناء سلام الفرد والمجتمع على السواء.

ومن مظاهر اهتمام الإسلام بالعلاقة بين الزوجين أن جعل منها رباطا مقدسا تسوده المودة والرحمة والألفة والتفاهم **﴿ومن آيٰته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيٰت لقوم يتفكرون﴾** سورة الروم: ٢١ . ثم بين الحق سبحانه وتعالى الحقوق الواجبة على كل واحد منهما تجاه الآخر، وذلك ليسود السلام الذي أراده الله جو هذا البيت، إذ لا سلام وسط علاقة مضطربة أو وسط حقوق غير متزنة أو متناسقة تجعل أي من الزوجين لا يطمئن إلى هذه العلاقة أو تلك الحقوق. وبعد هذا كله يبيح الإسلام الطلاق مع كرهه له وتكريهه به، كآخر وسيلة لإنهاء مثل هذه العلاقات المضطربة. وذلك لكي يحافظ الإسلام على أجواء السلام العائلي الذي أراده الله.

ومن بعد سلام البيت، ينتقل الإسلام درجة، إلى سلام المجتمع الذي ينتمي إليه الأفراد والبيوت. وقد اهتم الإسلام بإعداد المجتمع وتربيته تربية إسلامية أصيلة، منذ الأيام الأولى للبعثة المحمدية، حيث قضى المصطفى صلى الله عليه وسلم السنين الأولى من البعثة قبل هجرته إلى المدينة وهو يعد الفرد والجماعة الإسلامية لحمل الأمانة وإرساء دعائم دولة الإسلام المرتقبة. والمجتمع هو ما تتفق النظم والمذاهب الاجتماعية التي عرفتها البشرية على أنه بؤرة الصراع أو الصراعات بين الأفراد والجماعات نظرا لما يسوده من تشابك في المصالح وتزاحم في الدوافع والآراء والاجتهادات، ونظراً للقوى المتعددة المتفاعلة سلباً أو إيجاباً بداخل الكيان الاجتماعي نفسه.. إلا أن المجتمع في نظر الإسلام وفي ظل شريعة الإسلام شيء مغاير لهذا تماما، فلا تفاعل إلا بما هو إيجابي وإلا أصبح جنوحا عن

تعاليم الإسلام، ولا تضارب في الدوافع والآراء والاجتهادات وإلا أصبحت مغايرة لطبيعة الإسلام وسماحته، ولا تصارع من أجل المصالح، وإلا أصبح خروجا عن تعاليم الإسلام الذي يأمر المسلم أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه.. من هنا يبرز اهتمام الإسلام بسلام المجتمع الذي ينصهر بموجبه الأفراد، وتنصهر بموجبه الأسر، في كيان متراص، متواد ومتآلف ومن أجل إرساء دعائم السلام في المجتمع عمد الإسلام إلى تبيان الأصل الذي ينتمي إليه الفرد والجماعات، وذلك في قول الحق تبارك وتعالى ﴿**يٰأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء وإتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً**﴾ سورة النساء: ١. ثم عمد الإسلام إلى تبيان السبل التي بجب أن يسلكها الأفراد والجماعات في تعاملهم مع بعضهم البعض داخل كيان المجتمع الإسلامي الواحد وذلك في قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون، يٰأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهنّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقٰب بئس الإسم الفسوق بعد الإيمٰن ومن لم يتب فأولٰئك هم الظٰلمون، يٰأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم**﴾ سورة الحجرات: ١٠ ــ ١٢. ثم عمد الإسلام إلى تبيان الأسباب الوحيدة لتفاوت الأفراد والجماعات، وذلك في قول الحق تبارك وتعالى ﴿**يٰأيها الناس إنا خلقنٰكم من ذكر وأنثى وجعلنٰكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقٰكم إن الله عليم خبير**﴾ سورة الحجرات: ١٣. ثم عمد الإسلام إلى تبيان نهاية كل إنسان بعد حياته الدنيا، وذلك في قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**منها خلقنٰكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾ سورة طه: ٥٥.

وفي هذا التسلسل العجيب الذي لا يدرك سره إلا علام الغيوب، يزرع الإسلام بذور السلام في المجتمع الذي تشعره آيات الذكر الحكيم ببدايته الواحدة، ومصيره الواحد، وخلقه الواحد، ثم نهايته الواحدة وهي العودة من حيث أتى به الله ــ إلى الأرض. وعلى هذه الأرض يبين الإسلام لأتباعه طرق السلام وسبله التي جعلها الله طريقا لهم، وذلك في قوله تعالى ﴿**لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته**

ويزكيهم ويعلمهم الكتٰب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ سورة آل عمران: ١٦٤. وقوله تعالى **﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتٰب ولا الإيمٰن ولكن جعلنٰه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾** سورة الشورى : ٥٢. وقوله تعالى **﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمٰت إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾** سورة المائدة: ١٦. ثم عمد الإسلام إلى تبيان خلق المسلم وطرق تعامله مع الجاهلين، وكذلك خلق جماعة المسلمين وطرق تعاملهم مع الجاهلين وكذلك سلوكهم في الحياة الدنيا ومآلهم عند ربهم، وذلك في قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجٰهلون قالوا سلٰما، والذين يبيتون لربهم سجدا وقيٰما، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما، والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما﴾** سورة الفرقان: ٦٣ ـــ ٦٤.

بعد ذلك يرتقي الإسلام بالسلام درجة من درجاته التصاعدية، حيث يخرج به من إطار السلام الداخلي إلى إطار السلام الخارجي، إلى السلام: العالمي، سلام البشرية جمعاء. ذلك لكي تكتمل حلقات السلام الذي منحه الإسلام للبشرية، فبعد سلام الفرد يأتي سلام البيت، ثم سلام المجتمع، وأخيرا سلام العالم، سلام الإنسانية كافة، والذي لن تعرف البشرية طعما للسلام دون أن تنعم بنعمة الإسلام الذي هو الضامن الوحيد للسلام المنشود.

إن أول ما يطالعنا في سلام العالم الذي هيأ الإسلام للبشرية سبله، هو دعوة الإسلام لأتباعه بأن تكون الحكمة والموعظة والرفق بالمجادلة طريقا للدعوة إلى الله، وذلك بقوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجٰدلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** سورة النحل: ١٢٥. ثم بين الإسلام لأتباعه أن حرية العقيدة مضمونة عنده لا إكراه فيها ولا تعنت، وذلك بقوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطٰغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾** سورة البقرة: ٢٥٦. ثم بين الإسلام لأتباعه أن الهداية مقترنة بإرادة

الله سبحانه وتعالى بعيدا عن إرادة أي كان من البشر، وذلك بقوله تبارك وتعالى ﴿**وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فيكفر إنا اعتدنا للظٰلمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا**﴾ سورة الكهف: ٢٩. ثم بين الإسلام لأتباعه من الذين يجب قتالهم ومن الذين تجب مسالمتهم؟، وذلك في قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديٰركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين، إنما ينهٰكم الله عن الذين قٰتلوكم في الدين وأخرجوكم من ديٰركم وظٰهروا على إخراكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولٰئك هم الظٰلمون**﴾ سورة الممتحنة: ٨ ـ ٩.

هكذا تكتمل حلقات السلام في الإسلام، وتترابط مع بعضها البعض، ابتداء من سلام الفرد، وانتهاء بسلام العالم. وهكذا ندرك حقيقة أن السلام قاعدة عند الإسلام والمسلمين والحرب استثناء وضرورة لا يلجأون إليها إلا مكرهين. وهكذا ندرك أن السلام رسالة الإسلام الذي ارتضاه الله دينا للإنسان، لينعم في ظله بالسلام الذي ينشده.

أسباب الحرب في الإسلام وأهدافها

من خلال حديثنا السابق تعرفنا على المكانة الرفيعة التي أنزلها الإسلام للسلام في ضمير ووجدان أتباع هذا الدين، وذلك من خلال التعاليم التي أملتها عليهم آيات الذكر الحكيم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم. كما رأينا أن السلام رسالة الإسلام إذ لا سلام للفرد أو البيت أو المجتمع أو البشرية دون الاهتداء إلى طريق الحق.. طريق الإسلام الذي بظله سوف تنعم البشرية بالسلام المنشود.

ومن حديثنا هذا أدركنا أن السلام قاعدة في الإسلام وعند المسلمين، والحرب ضرورة واستثناء لتلك القاعدة. كما عرفنا أنها شر لا يقدم عليها المسلم إلا مكرها وليجعل منها وسيلة خير للقضاء على فتنة وشر أكبر من شرور الحرب ذاتها.

وقبل أن نستكمل حديثنا عن جوانب السلام في دين الإسلام ومظاهره العديدة، نود أن نحدد الأسباب والدوافع التي تكمن وراء لجوء المسلمين للحرب وهم الذين يرونها شرا.. أو بعبارة أوضح ما هي الأسباب والدوافع التي تجعل المسلمين يقدمون على هذا الشر، وهم الذين يدركون حقيقة كونه شرا؟ وذلك لكي تكتمل أمامنا الصورة بما يتيح لنا الاستمرار في الحديث عن جوانب السلام في دين الإسلام.

المسلم ينظر إلى الحرب كشر كما قلنا، ولكنها شر لابد منه حيث أن الحرب عنده ضرورة اجتماعية طالما بقي صراع الخير والشر، وطالما بقيت الغرائز والأهواء، وطالما بقي في حياة الإنسان بقية على هذه الأرض. فالمسلم يعلم تمام العلم حقيقة استخلافه في الأرض وحقيقة الصراع الأبدي بينه وبين إبليس، وحقيقة بقاء الشيطان وإغوائه لابن آدم إلى يوم يبعث الله العباد، وحقيقة الصراع الأبدي بين قوى الخير التي يمثلها من عرف الحق وسار تحت لوائه وقوى الشر التي يمثلها من تنكب جادة الحق وسار تحت لواء الشيطان إلى يوم يبعث الله عباده.. تلك حقائق يدركها كلُ مسلم ويدرك بالتالي الحقيقة الجامعة لها وهي أن: الحرب ضرورة اجتماعية لا مفر منها لكي تكبح قوى الخير كل قوى الشر ووسائله، ولكي تبقى الغرائز في الإطار الذي لا ضرر منه على الدين والدنيا.. وذلك لما يرجى من وراء الحرب من خير لن يتسنى له أن يتحقق إلا بها.. ومن هنا تأتي مشروعية الحرب وإباحتها في شريعة الإسلام الخالدة.

حين تحدثنا عن «الإنسان والحرب» في الفصل الأول من الباب الأول، قلنا إنّ للحرب أصنافا أربعة، وقلنا إن أحد هذه الأصناف هي تلك الحرب التي يشنها الإنسان لإعلاء كلمة الله، والتمكين لأحكامه سبحانه وتعالى وتثبيت ميزان العدالة، ونصرة المستضعفين في الأرض وإنقاذهم، وردع الباغين الخارجين على الجماعة وقلنا إن تلك هي الحرب المشروعة الوحيدة التي يشنها الإنسان ضد الإنسان إلى جانب حرب الإنسان ضد شرور النفس والشيطان والتي يعدها الإسلام حربا مشروعة ويعدها نوعا من أنواع الجهاد كما سنرى ــ جهاد النفس .. ومع هذا فالمسلم لا يقدم على هذه الحرب إلا مكرها لما يرى فيها من ويلات وشرور، يقول المولى تبارك وتعالى في محكم التنزيل حينما أمر المسلمين بالقتال ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ سورة البقرة: ٢١٦. وهنا يبين الله تبارك وتعالى لعباده المؤمنين ما قد يكون من خير للإسلام والمسلمين والبشرية جمعاء من وراء ذلك الذي يرونه شرا وهو الحرب، ذلك الخير الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، والذي يدفع الله سبحانه وتعالى به عن الإسلام والمسلمين شرورا كثيرة لا يرونها ولا يعلمونها ولكنه سبحانه وتعالى يراها ويعلمها. لتحقيق ذلك الخير، ولدفع ذلك الشر، كتب الله القتال على المسلمين. وبهذا شرع الإسلام الحرب وأقرها، كضرورة اجتماعية، وبما يتفق مع ناموس الحياة الذي لم يخالفه الإسلام في أي جانب من جوانبه المتعددة. وسبحان الله الخبير والمحيط علمه بكل شيء.

إننا حين نتتبع آيات الذكر الحكيم وسنة المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فإننا لا نجد آية واحدة أو حديثا واحدا يدل أو يشير ــ ولو مجرد الإشارة إلى أن القتال في الإسلام قد شرع لحمل الناس واجبارهم على اعتناقه. فالإسلام مثله مثل جميع الرسالات السماوية، دين سماحة ومساواة .ومحبة وإخاء، دين سلام وأمن وطمأنينة، لا دين جبروت وعنف وإكراه. كما أننا حين نتتبع آيات الذكر الحكيم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإننا لا نجد آية أو حديثا يدل أو يشير إلى أن الجهاد في سبيل الله بالقوة المسلحة يمثل أحد المبادىء التي أسس عليها الإسلام وقام عليها في بناء كيانه الشامخ، وإلا لما رأينا للإسلام وجودا في دول شرق آسيا ودول شرق أفريقيا ووسطها. كما أنه ليس أصلا من الأصول الضرورية للعقيدة الإسلامية السمحة. وإنما شرعه الله تبارك وتعالى وأباحة وأمر به كمبدأ من مبادىء الضرورة من أجل حماية الدين والدعوة إليه، ولحماية

الجماعة الإسلامية المنتمية لهذا الدين والقائمة بهذه الدعوة. وعليه يصبح الجهاد في الإسلام ضرورة كما هو القصاص ضرورة لحماية الدم والنفس وكما هو قطع يد السارق ضرورة لحماية المال والممتلكات وكما هو الجلد ضرورة لحماية المجتمع من رذائل الزنى والسكر والانحلال.. كلها ضرورات إن وجدت أسبابها وجبت وعلى المسلمين تنفيذها، وإن لم توجد الأسباب فلا مكان لها في عرف المسلمين وتقاليدهم وعقيدتهم.

انطلقت الدعوة الإسلامية في صدر الإسلام وهي هادئة ومسالمة في ظل أمر المولى تبارك وتعالى لرسوله الكريم في قوله تعالى: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجٰدلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين، وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصٰبرين، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتكُ في ضيق مما يمكرون، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾ سورة النحل: ١٢٥ ـــ ١٢٨.

ولكن قوى الشر وجبروت الطغاة لم يتركا مجالا للدعوة المحمدية في أن تكمل رسالتها بالهدوء والمسالمة التي أرداتها، وأن تتخذ من الحكمة والموعظة الحسنة سبيلا للاقناع العقلي واستمالة القلوب الظامئة إلى الحق وإلى الصراط المستقيم وإنما تصدت تلك القوى الشريرة للدعوة ورسولها الكريم صلى الله عليه وسلم وأتباعه رضوان الله عليهم أجمعين، وضيقت عليهم الخناق لاختلاف ما تدعو إليه من معتقدات وقيم مع ما تعودت عليه من معتقدات وقيم وثنية واجتماعية بالية.

استمرت ضغوط قوى الشر والوثنية رغم مسالمة المسلمين ومهادنتهم، ورغم دعوتهم لقومهم بالحكمة والموعظة الحسنة. ثم تحولت الضغوط إلى تفنن في الإيذاء والمضايقة. ثم تحولت إلى التفنن في الحصار الاقتصادي وسياسة التجويع. ثم تحولت إلى محاولات قتل الرسول صلى الله عليه وسلم وتشريد وتعذيب من آمن به. وكانت الهجرة النبوية إلى يثرب بعد أن رفضت مكة وما حولها الانصياع أو الاستماع لصاحب الدعوة، وبعد أن قرر المشركون في مكة قتل النبي صلى الله عليه وسلم تمهيدا للقضاء النهائي على الدعوة كما خاطب الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بقوله ﴿**إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾ سورة الأنفال: ٣٠. وفي المدينة المنورة تضرب الدعوة المحمدية مثالا ناصعا ودليلا راسخا على سلمية الدعوة وكرهها للحرب والعنف، وذلك حين هادن المصطفى صلى الله عليه وسلم يهود المدينة،

وأقر لهم حرية أداء شعائرهم الدينية وأن لهم ما لقبائل المدينة المنورة من المسلمين. وفي الحديبية تضرب الدعوة المحمدية مثالا آخر على سلميتها وكرهها للحرب والعنف رغم ما فعله المشركون بالرسول صلى الله عليه وسلم وبأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، إذ خرج المسملون من المدينة المنورة بقصد الحج وزيارة البيت الحرام الذي حرمتهم قريش من زيارته تعسفا وكرها للدعوة ورسول الدعوة وأصحاب الدعوة، ودون أن تملك حق حرمان أي أحد من زيارة البيت الذي وضع مثابة للناس وأمنا، إلا أن قريش اعترضت الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ومنعتهم من دخول مكة مستمرة في تعنتها وتعسفها.. فماذا كان من محمد وهو الذي لقي من قريش كل أنواع الإيذاء وأصناف الكره؟ ماذا صنع وهو القادر على دخول البيت الحرام عنوة عن قريش ؟ لقد قبل الصلح والعودة إلى المدينة دون إتمام الزيارة، لقد جاءه الوحي من السماء ليبين حكمة مسالمته صلى الله عليه وسلم يقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنٰت لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما، إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجٰهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما**﴾ سورة الفتح: ٢٥ — ٢٦.

وقد أثار هذا الصلح غيرة بعض المسلمين وحفيظتهم على مصالحة قريش والعودة دون دخول مكة.. وفي طريق العودة إلى المدينة نزل قول الحق تبارك وتعالى ﴿**إنا فتحنا لك فتحا مبينا، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا.. لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا**﴾ سورة الفتح: ١ — ٢٧.. وكان الفتح بعد ذلك. مثالان نسوقهما للتدليل على سلمية الدعوة الإسلامية ومهادنتها ودعوتها إلى الله بقول المعروف أولا والحكمة والموعظة الحسنة.

وعندما وجد المسلمون أنفسهم أمام ضغوط شديدة من قوى الشر المتعددة، وبين اعتداءات وإرهاصات قريش في مكة والقبائل العربية الوثنية الأخرى في الجزيرة العربية

واليهود الحاقدين الجاحدين في المدينة وما حولها، وتحرشات قوى الروم والفرس من حول الجزيرة العربية ونقمتها على الدعوة الوليدة في يثرب.. اضطر المسلمون للدفاع عن رسولهم ودينهم وأنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وأقرت لهم شريعة الإسلام مبدأ الحرب واجازته لتلك الضرورة، وخرجت بالحرب من دائرة الحرمة إلى دائرة الإباحة والمشروعية بشروط هي أسباب الحرب في الإسلام التي نحن بصدد الحديث عنها.. إذن هي محرمة عند المسلمين إلا بشروط تجعلها واجبة كما سنرى على كل مسلم قادر تأثم الأمة إذا لم تنتدب لها من أمة الإسلام من يقوم بها من أبنائها لحماية الثغور الإسلامية والدفاع عنها ضد المعتدين والجبابرة والحاقدين، ولإيجاد الظروف والأجواء الأمنية والبيئة الصالحة لنشر تعاليم الإسلام وقيمه السماوية السامية لتنعم البشرية بمعاني الفضيلة والعدل والمساواة والإخاء.

وقبل أن نتحدث عن أسباب الحرب ودوافعها في الإسلام، أرى أن لابد من تحديد المراحل التي مر بها تطور أمر المسلمين بالقتال كما يراها العديد من المفسرين على ضوء آيات الذكر الحكيم، والتي هي على النحو التالي:(١٢)

١ ــ **مرحلة المنع من القتال:** وهي المرحلة المتمثلة في الفترة التي قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة بعد البعثة، يدعو قومه في مكة والعشائر المحيطة بمكة ووفود الحجاج بالحكمة والموعظة الحسنة، يقارع الحجة بالحجة ويدفع الباطل الوثني بالبراهين القرآنية السامية، ويشيع الأجواء الفكرية الهادئة التي تتقبل أن تزرع بها بذور الفكر الإسلامي المغاير لما هو سائد من فكر وثني مترسخ في العقول ومتمكن من النفوس ويهيىء في الوقت نفسه من آمن بالدعوة لما هم مقبلون عليه، ويعلمهم آيات القرآن وما كتب عليهم من صلاة وزكاة.

وهذه الفترة هي بحاجة إلى الهدوء والاستقرار، لا إلى الحروب والقتال. ولهذا جاء قول الحق تبارك وتعالى في العديد من آيات الذكر الحكيم وهو يحث رسوله الكريم على الدعوة بالحكمة والموعظة وعلى الصبر، ويذكره بما لاقاه أولو العزم من الرسل من أذى أقوامهم لهم وصبرهم على ذلك. ولهذا أيضا كان رده صلى الله عليه وسلم على أصحابه ــ حين يشكون إليه ويقولون: كنا في عز ونحن مشركون،

---

(١٢) حسن أيوب: الجهاد والفدائية في الإسلام، الطبعة الثانية (بيروت: دار الندوة الجديدة، ١٩٨٣)، ص ٥١.

فلما آمنا صرنا أذلة ــ وهم بذلك يريدون الإذن بقتال أعدائهم أو على الأقل رد العدوان ــ لا يتجاوز قوله عليه الصلاة والسلام: (إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم).

يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متٰع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا**﴾ سورة النساء: ٧٧.

٢ ــ **مرحلة الإذن بالقتال دون الأمر به**: وذلك حين نزلت آيات الذكر الحكيم تعلن الإذن من الله تبارك وتعالى للمسلمين بالقتال بعد خروجهم من مكة إلى المدينة مهاجرين بدينهم، كما هو عليه أغلب المفسرين لقول الله تعالى في سورة الحج ﴿**أذن للذين يقٰتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسٰجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكنٰهم في الأرض أقاموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عٰقبة الأمور**﴾ سورة الحج: ٣٩ ــ ٤١.

هذه الآيات هي أول ما نزل من آيات الجهاد كما هو عليه جمهور المفسرين والعلماء. وقد عللت الإذن بالقتال بما كان المسلمون يلاقونه من ظلم وإذلال وإكراه على هجرة الأهل والديار بغير حق، ثم بينت أن هذا الإذن متوافق مع ما يقتضيه التوازن بين الناس ومنع الطغيان وما يقتضيه تمكين أرباب العقائد والعبادات من أداء شعائر دينهم دون عنت أو إكراه.. ثم بينت تلك الآيات سنة الله في نصرة كل من ينصره دون أن يتخذ من الحرب وسيلة للجبروت والإكراه والظلم.

٣ ــ **مرحلة الأمر بقتال المشركين**: وقد جاء الأمر بالقتال بعد الهجرة إلى المدينة، وبعد الإذن بالقتال بفترة تهيأت النفوس للتطور الذي سيحدث لهم بعد سنين من الكبت والأذى وبعد سنين من الصبر على كل ذلك الضيم والعدوان يقول ابن عباس رضي الله عنهما بعد أن نزلت آيات سورة الحج بالإذن بالقتال قال أبوبكر رضي الله عنه : عرفت أنه سيكون قتال.

وقد جاء الأمر بقتال المشركين في قول الحق تبارك وتعالى في سورة البقرة **﴿وقٰتلوا في سبيل الله الذين يقٰتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقٰتلوكم فيه فإن قٰتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكٰفرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين﴾** سورة البقرة: ١٩٠ ــ ١٩٣. وهذه الآيات يرى بعض العلماء أنها أول ما نزل من القرآن الكريم في الجهاد، أي أنها قبل آيات سورة الحج التي أذنت للمسلمين بالقتال. وهذا رأي مرجوح عند غالبية العلماء وجمهور المفسرين، إذ أن الله لا يمكن أن يأمر بشيء ثم يأذن به، ولو نزلت آية الأمر قبل آية الإذن لكانت كافية لأن الإذن يصبح في هذه الحالة ضمن الأمر.

٤ ــ **مرحلة الأمر بقتال كل كافر**: وهذه هي المرحلة الأخيرة من مراحل تطور أمر القتال في الإسلام، والتي أمر الله تبارك وتعالى ورسوله الكريم في العديد من آيات الذكر الحكيم بقتال المشركين من عرب الجزيرة العربية وغيرهم، وكذلك أهل الكتاب بعدما ظهر لؤم اليهود وغدرهم وعدم التزامهم بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم عندما قدم الرسول المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة.

هذه الآيات تأتي بعد آيات الإذن للمسلمين بالقتال ورد العدوان، وبعد آية الأمر بقتال المشركين، وذلك لاشتراك المشركين وأهل الكتاب في عدم الإيمان بالله تعالى. يقول الحق تبارك وتعالى في سورة التوبة **﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عٰهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر وأعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكٰفرين، وإذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر إن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم، إلا الذين عٰهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظٰهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم، وإن أحد**

من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلٰـم الله ثـم أبلغـه مأمنـه ذلك بأنهـم قوم لا يعلمون﴾ سورة التوبـة: ١ ــ ٦. ويقـول تبـارك وتعالـى فـي السورة نفسهـا **﴿قٰتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمـون مـا حـرم الله ورسولـه ولا يدينون دين الحق من الذين أوتو الكتٰـب حتـى يعطـوا الجزيـة عـن يـد وهـم صٰغرون﴾** سورة التوبة: ٢٩.

من كل هذا يتضح لنا أن الحرب في الإسلام ليست غاية بحـد ذاتهـا وإنمـا هـي وسيلة لدرء الشر الذي هو أكبر وأعظم من شرور الحرب. كما يتضح لنـا أنهـا مبـدأ من مبادىء الضرورة التي لا تجب عند المسلميـن إلا عندمـا توجـد أسبابهـا لحمايـة الدين والأمة والدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي مـن غائلـة الأعـداء وشرورهـم، وهي بهذا كالقصاص والحدود والتعزير. كما يتضح لنا من كل ذلك أن الحرب فـي الإسلام لا تقوم من أجل حياة زعيم من الزعماء، ولا لبقائه في الحكم لمـدة أطـول، ولا لبقائه زعيما أوحدا!، ولا لاستعبـاد أحـد مـن البشر وسلب قوتـه ومالـه وعـرضه ومسكنه وأرضه وكرامته، ولا لفرض آراء سياسيـة واقتصاديـة وعقائديـة معينـة علـى الشعوب والأمم الأخرى، ولا لتجربة أسلحة معينة ولا لابتكار فنون قتالية جديـدة أو لاستذلال شعوب العالم الثالث كما تفعل كل من روسيا وأمريكا.

ومن كل ذلك يتضح لنا أن الأسباب التـي أمـر المسلمـون بالحـرب والقتـال مـن أجلها لا تعدو أن تكون واحدة من الأسباب والدوافع التالية:

١ ــ إعلاء كلمة الله: الله هو الخالق والمدبر وله العزة والعلو، والإسلام دينـه الـذي ارتضاه لعباده وهو الخبير بما فيـه خيرهـم دينـا ودنيـا، وهـو خاتـم الـرسالات السماوية الذي نسخ الله به الأديان السماوية السابقة.. ولهذا لابد مـن أن يعلـو الإسلام وتعلو كلمة الله سبحانه وتعالـى رغـم إرادة الأشرار الشواذ مـن خلقـه الذين تمكن الشيطان من إحكام هيمنته على أفكارهم ونفوسهم حتى أعمتهـم عن إدراك أبسط القواعد التي يخضعون هم أنفسهم بموجبها أي صنعـة لإرادة الله الغالية.

لقد جاء أمر الله في كتابه الكريم لعباده المسلمين بالقتال لإعلاء كلمـة الله ونشر دينه وتحقيق القيم والمبادىء التي ضمنها الله سبحانه وتعالى دينه الـذي ارتضاه لعباده، وذلك في قوله تبارك وتعالـى فـي محكـم التنزيـل **﴿وقٰتلوهـم**

حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين﴾ سورة البقرة: ١٩٣، وفي قوله تبارك وتعالى **﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾** سورة التوبة: ٥، وفي قوله تبارك وتعالى في السورة نفسها **﴿قٰتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتو الكتٰب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صٰغرون﴾** سورة التوبة: ٢٩، وفي قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين، وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير﴾** سورة الأنفال: ٣٨ ــ ٣٩.

والقتال لإعلاء كلمة الله يأتي كما بينا من قبل بعد استنفاد كافة السبل السلمية كما أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة. كما أن القتال لإعلاء كلمة الله لا يعني فرض الإسلام بقوة السلاح حيث قرر الله سبحانه وتعالى أن لا إكراه في الدين ولا فرض للإسلام بالقوة المسلحة. وإنما يعني أن يحكم الإسلام وأن تسود شريعة الله في أرضه، أما من أراد أن يبقى على عقيدته داخل إطار وهيمنة شريعة الله سبحانه وتعالى فلا إكراه له ولا حرج عند المسلمين من وجوده في ظل الدولة الإسلامية.

٢ ــ دفع الاعتداء عن المسلمين: وهذا حق تقره كافة الديانات السماوية، كما تقره النظم الوضعية التي ارتضاها الأشرار من البشر لأنفسهم، كما تقره كافة القوانين المستندة إلى هذه الأديان وتلك النظم. والإسلام إذ يقره للمسلمين لكي يدافعوا عن أنفسهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم وممتلكاتهم، فإنما يجعله محددا لا لبس فيه ولا عوج كما هو في قول الحق تبارك وتعالى **﴿وقٰتلوا في سبيل الله الذين يقٰتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث اخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقٰتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقٰتلوكم فيه فإن قاتلوكم**

فاقتلوهم كذلك جزاء الكٰفرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين، الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمٰت قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ سورة البقرة: ١٩٠ ــ ١٩٤، وكما هو في قوله تبارك وتعالى **﴿إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهرا في كتٰب الله يوم خلق السمٰوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقٰتلوا المشركين كافة كما يقٰتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾** سورة التوبة: ٣٦، وكما هو في قوله تبارك وتعالى **﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عٰهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخٰئنين﴾** سورة الأنفال: ٥٥ ــ ٥٨.

٣ ــ إنقاذ المستضعفين ونصرة المظلوم: الإسلام كعقيدة والإسلام كنظام هو دين إنقاذ. إنقاذ للإنسان من شرور نفسه ومن وساوس الشيطان. إنقاذ الضعفاء من جبروت الأقوياء. إنقاذ العاجزين من ظلم القادرين والمتسلطين. وحيث أنه الدين الذي ارتضاه الله لعباده فقد أمرهم بالقتال من أجل إنقاذ المستضعفين في الأرض ونصرة المظلومين على الظالمين، لكي يتحقق معنى الإسلام وتتطابق النظرية مع التطبيق. يقول الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿ومالكم لا تقٰتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا، الذين آمنوا يقٰتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطٰغوت فقٰتلوا أولياء الشيطٰن إن كيد الشيطٰن كان ضعيفا﴾** سورة النساء: ٧٥ ــ ٧٦. ويقول تبارك وتعالى **﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجٰهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولٰئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا**

على قوم بينكم وبينهم ميثٰق والله بما تعملون بصير، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ سورة الانفال: ٧٢ ـــ ٧٣.

٤ ـــ ردع الباغي: وهذا ما نجده في عرف القوانين الوضعية والتي لم تعرفه إلا في القرن الحالي بما يدعونه : قوة حفظ السلام أو قوة الطوارىء وغير ذلك من المسميات في حين أن الله سبحانه وتعالى قد أمر عباده بإقرار الحق وردع الباغي بالقوة المسلحة قبل أربعة عشر قرنا من يومنا هذا حيث جاء في محكم التنزيل قوله تبارك وتعالى **﴿وإن طٰئفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقٰتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾** سورة الحجرات: ٩ ـــ ١٠.

إذن فإن أسباب الحرب في الإسلام وأهدافها ليست مرتبطة بأهداف دنيوية محدودة ضيقة، وهي لا تقوم إلا للضرورة وعندما توجد الأسباب كالسعي لإعلاء كلمة الله والتمكين لأحكامه تبارك وتعالى وإقامة حدوده وتثبيت ميزان العدالة الذي جعله بين مخلوقاته سبحانه وتعالى، وكذلك نصرة المستضعفين والمظلومين وردع الباغين وأخيرا دفع الاعتداء عن أمة المسلمين ودمائهم وأموالهم وأعراضهم، أما فيما عدا ذلك من أسباب فهي لا تعد حربا إسلامية إذ أنها تخرج من إطار المشروعية الذي أباح الإسلام بموجبه مبدأ الحرب كأحد مبادىء الضرورة.

العقيدة الإسلامية وعنايتها بالأمور العسكرية

الحديث عن أسباب الحرب في الإسلام ودوافعها التي بيناها في الموضوع السابق، يقودنا إلى الحديث عن العقيدة العسكرية الإسلامية والأسس التي تقوم عليها هذه العقيدة ونوع هذه العقيدة ـ تصنيفها ـ وكذلك ماهية السلام الذي تقوم عليه وهل هو سلام مستكين خانع كما يريد له الأعداء؟ أم هو سلام قوي بعقيدته وبما يملكه من أسلحة روحية ومادية تجعله مهاب الجانب؟. وقبل أن نتحدث عن كل هذا، لابد من التقديم للعقيدة العسكرية لأولئك الأخوة القراء من غير العسكريين.

العقيدة العسكرية لأي دولة أو تكتل دولي ليست إلا نتاجا لتفاعل العوامل العقائدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تسود هذه الدول أو تكتل الدولة وكذلك تاريخ وجغرافيا هذه الدولة. ولهذا نجد أن لكل دولة أو تكتل دول عقيدة عسكرية واحدة ومختلفة نوعا ما عن العقيدة العسكرية لدى الدولة الأخرى أو التكتل الآخر.

والعقيدة العسكرية تتأثر بالأهداف والغايات العليا للدولة وتنبثق منها، وعليه فإنها هي التي تحدد الأسس والمبادىء الأساسية التي تقوم عليها الاستراتيجية العسكرية للدولة والتي تكون بدورها أحد المكونات أو العناصر للاستراتيجية العليا (الكبرى) لهذه الدولة أو تكتل الدول.

إذن هناك أهداف وغايات عليا للدولة ينبثق منها عقيدة عسكرية، وعلى ضوء هذه تتحدد الاستراتيجية العسكرية، وهذه تمثل أحد مكونات وعناصر الاستراتيجية العليا والشاملة للدولة.

من هذا يتضح لنا أن العقيدة العسكرية هي: السياسة العسكرية التي تنتهجها الدولة أو تكتل الدول فيما يتعلق بإعداد قواتها المسلحة وطرق إدارتها وتسليحها وتنظيمها، بالأسس التي يتم إعداد البلاد بموجبها، وبالقواعد والمسائل الأساسية للصراع المسلح وطبيعة الحرب.

على ضوء ذلك ولكي نحدد مفهوم العقيدة العسكرية الإسلامية فإنه لابد من تحديد الأسس التي تقوم عليها هذه العقيدة والتي منها:

١ ـ عقيدة مصدرها القرآن والسنة: الإسلام دين ودنيا. دين يقوم على عقيدة التوحيد التي تعني العبودية لله وحده لا شريك له بأي شكل من الأشكال أو صيغة من الصيغ. ودنيا لاحتوائه على النظام الاقتصادي والنظام الاجتماعي والنظام العسكري والنظام السياسي والنظام الإداري وغير ذلك من النظم التي تنظم حياة البشر بما يكفل سعادتهم الدنيوية وبما يضمن لهم نعيم الآخرة. وهذه النظم إنما تنبثق من العقيدة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية والإدارية للمسلمين والتي تجمع شمل عقيدة الإسلام الكلية الشمولية التي تحقق للإنسان سعادة الدارين. وهذه العقائد مجتمعة تمثل الفكر الإسلامي الواحد الذي يستند إلى مصدرين رئيسيين هما: القرآن والسنة، فالفكر السياسي مصادره القرآن والسنة، والفكر الاقتصادي مصادره القرآن والسنة والفكر الإداري مصادره القرآن والسنة، والفكر الاجتماعي مصادره القرآن والسنة، والفكر العسكري مصادره القرآن والسنة.. وهكذا.

وحين نقول إن القرآن والسنة هما مصد الفكر الإسلامي، فإن ذلك يعني أن هذا الفكر يأخذ بما جاء في القرآن ولا خيار له في ذلك وإلا خرج ــ لا سمح الله ــ عن كونه فكرا إسلاميا. ويأخذ من سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم إن لم يجد في القرآن وحين يخرج عما جاء في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ــ لا سمح الله ــ فهو ينفي بنفسه صفة الإسلام عنه. أما إذا لم يجد في القرآن ثم السنة، فإنه يلجأ إلى ما أجمع عليه سلف الأمة وما اجتهد فيه فقهاؤها وعلماؤها.

والعقيدة العسكرية التي تستند إلى القرآن، لابد أن تكون عقيدة تعلو ولا يعلى عليها، ولابد أن تكون غاية في الكمال فالسند كلام الله، والموجه هو الخالق الذي ارتضى الإسلام دينا لعباده وهو العليم بما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم في الدار الآخرة والأولى. والعقيدة العسكرية التي تستند إلى السنة، لابد أن تكون عقيدة مثلى، فهي تستند في أصولها وتستمد تعاليمها وتوجيهاتها من سنة خير العباد الذي أرسله الله خاتما لرسله عليهم السلام وجعله إمامهم وشفيعهم يوم القيامة وختم برسالته رسالات السماء وأنزل عليه دستور البشرية ومنقذها فأي عقيدة ستكون أسمى من تلك العقيدة؟.

٢ ــ عقيدة جوهرها الجهاد: الجهاد لغة يعني: المشقة وبذل أقصى ما في الوسع، وهو يعني فيما اصطلح وتعارف عليه الناس: قتال الأعداء. إلا أنه أعم وأشمل من ذلك كما تبين آيات الذكر الحكيم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم حيث تشير الآيات والأحاديث النبوية إلى أنه جهاد بالنفس وبالمال وباللسان، كما تشير إلى أنه يشمل جهاد العبد لنفسه لكبح شروره وهذا ما يطلق عليه جهاد النفس. وحيث سنفرد فصلا قادما بإذن الله للحديث عن الجهاد، فإننا سنتحدث هنا فقط عن موضع الجهاد بالنسبة للعقيدة العسكرية الإسلامية التي نحن بصدد الحديث عنها الآن.

تصنف العقائد العسكرية لمختلف الدول إلى: عقائد هجومية وعقائد دفاعية، فيقال إن هذه الدول ذات عقيدة عسكرية دفاعية، وتلك الدولة ذات عقيدة عسكرية هجومية لاتنسَ ما قلناه عن العقيدة العسكرية وكونها نتائج لتفاعل العديد من العوامل العقائدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية للدولة.. وأن هذه العوامل مجتمعة تحدد ما إذا كانت تلك الدولة ستجعل من الهجوم طابعا لعقيدتها العسكرية أم من الدفاع.

فهل العقيدة العسكرية الإسلامية التي جوهرها الجهاد، هجومية أم دفاعية؟ الواقع أن مفهوم الدفاع السائد في أذهان الناس في عصرنا هذا لا يصح أن يوصف به الجهاد. كما أن تقسيم الحرب في القانون الدولي المعاصر إلى: دفاعية وهجومية، لا ينطبق بأي حال من الأحوال على نظام الجهاد الذي شرعه الله للمسلمين وأمرهم به في العديد من آيات الذكر الحكيم كقوله تبارك وتعالى ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقٰتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ سورة التوبة: ١١، وقوله تبارك وتعالى ﴿**جٰهدوا في الله حق جهاده هو اجتبٰكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمٰكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة واعتصموا بالله هو مولٰكم فنعم المولى ونعم النصير**﴾ سورة الحج: ٧٨، وقوله تبارك وتعالى ﴿**والذين جٰهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين**﴾ سورة

العنكبوت: ٦٩، وقوله تبارك وتعالى ﴿**لا يستوي القٰعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجٰهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجٰهدين بأموالهم وأنفسهم على القٰعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل المجٰهدين على القٰعدين أجرا عظيما، درجٰت منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما**﴾ سورة النساء: ٩٥ ــ ٩٦، وقوله تبارك وتعالى ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك لو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قٰتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمٰلهم، سيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة عرفها لهم**﴾ سورة محمد ٤ ــ ٦.

ذلك أن تقسيم الحرب إلى: دفاعية وهجومية إنما هو نابع من الأوضاع الدولية السائدة ومتأثر بالحدود الإقليمية التي صنعتها الأوضاع الدولية، وأملتها المطامع البشرية والمصالح الدولية المادية.. والإسلام لا مطامع له ولا مصالح مادية، وإنما هو دين الله الذي ارتضاه لعباده والذي يجب أن يعلو على ما عداه. والهجوم في عرف القانون الدولي يعني الظلم، والجهاد أبعد ما يكون عن الظلم وهو العدل بعينه إذ أن الله سبحانه وتعالى ما شرعه إلا لحماية القيم الإنسانية وتحقيق الخير والعدل للناس كافة. والدفاع في عرف القانون يعني منع العدو من اجتياز الحدود الدولية، والجهاد أبعد ما يكون عن الدفاع، إذ أن الإسلام لا يقر الحدود حيث الأرض لله والإنسان مستخلف فيها ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وليس للإسلام وطن معين بحيث نقول هنا تقام حدود الله وهنا لا تقام، أو أن هنا دولة لدين الإسلام وهنا دولة لما عداه من أديان البشر، وهنا يلتزم المسلمون بالدفاع عن الأرض ومن عليها من العباد وهنا لا يلتزمون، وإنما نطاق الجهاد أعم وأشمل من حصره في الدفاع كما يقول البعض.

وعليه فإن الجهاد ليس هجوميا كما تعني كلمة الهجوم في قاموس علم الحرب المعاصر، كما أنه ليس دفاعيا كما تعني كلمة الدفاع في هذا القاموس. إن الجهاد حرب مقدسة قد تأخذ طابع الهجوم كما قد تأخذ طابع الدفاع وذلك على النحو التالي:

أ ــ يكون الجهاد هجوما وتكون حربه هجومية، حين يشرع المسلمون به لتكون

كلمة الله هي العليا، وحين يحارب المسلمون لإظهار دين الله على الدين كله والتمكين لأحكامه تبارك وتعالى وإقامة حدوده وتثبيت ميزان عدالته سبحانه وتعالى، وحين يحارب المسلمون لتأمين طريق الدعوة إلى دين الله وحماية الدعاة لدينه.

وفي هذه الأحوال يرى الفقهاء أنه لابد من إذن الحاكم الإسلامي، إلا بعض الفقهاء ومنهم ابن حزم حيث يرون أن لا ضرورة لإذن الحاكم حيث أن الأمر بهذه الحرب ثابت من قبل الله تعالى في كتابه الكريم من غير اشتراط إذن ولي أمر المسلمين.

وفي هذه الأحوال التي يكون الجهاد فيها هجوميا فإن واجب الجهاد يسقط عن الأمة إذا انتدبت له من يقوم به نيابة عن الأمة ـــ إذا قام به البعض سقط عن الباقين. كما أنه لا يجوز الاستعانة فيه بكافر أو كتابي إلا أن تدعو الضرورة أو يكون وجود الكافر لا ضرر منه ولا خطر. كما أنه لا يجوز الخروج للحرب الهجومية لأي من الأسباب الموضحة آنفا، دون الاستعداد الكافي بقدر المستطاع في المعدات والتدريب والجنود. كما أنه لا يجوز للمسلمين خوض الحرب الهجومية قبل أن يبلغوا الدعوة للأعداء، فإن قبلوها فلا حرب وإن رفضوها فالجزية والخضوع لأحكام الله أو الحرب.

كما أن الجهاد يأخذ صيغة الهجوم حين يكون لإنقاذ المستضعفين ونصرة المظلومين، وتلك هي كما بينا أحد الأسباب المشروعة التي أباح الله تبارك وتعالى فيها الحرب لعباده. وذلك أنه من غير المعقول أن تترك قوى الشر تضطهد الضعفاء وتظلم العباد دون أن يكون هناك قوة إسلامية رادعة لكل هذه القوى الشريرة.

ب ـــ يكون الجهاد دفاعا وتكون حربه دفاعية، حين يبدأه المسلمون دفاعا عن النفس وعن العرض وعن الأهل وعن المال وعن المقدسات الإسلامية وعمن وجب على المسلمين حمايتهم من أهل الذمة والأمان ما أقاموا بأرض الإسلام وما داموا أوفياء بالعهد، وحين يشرع به المسلمون دفاعا عن دينهم الذي جعله الله مكتسبا من مكتسباتهم والذي يجب الدفاع عنه كالنفس والعرض والمال، وحين يشرع به المسلمون لدفع شرور الأعداء وعدم تمكينهم من تدنيس أرض المسلمين.. وهذه حقوق يقضي بها كل دين وتقضي بها سنن الحياة. وفي هذه الأحوال يرى الفقهاء

أن الجهاد واجب ولو لم يأمر به الحاكم الإسلامي، لأن الأمر يتعلق بالدفاع عن دين المسلم ودمه وعرضه وماله وأرضه وأمته، إلا أن بعضهم استثنى من ذلك منع الإمام عندما يكون يعد العدة لحرب أقوى وأنجح في ظروف أكثر ملاءمة من تلك السائدة وقت الدفاع.

وفي هذه الأحوال التي يكون الجهاد فيها دفاعيا فإن واجب الجهاد يقع على القادرين من الأمة بأسرها القوي والضعيف، والرجل والمرأة، والكبير والصغير الحر والعبد. كما إنه لا حاجة لأن تستأذن المرأة زوجها ولا الولد والديه ولا العبد سيده. كما إنه لا ضرر فيه من الاستعانة بكافر سواء كان كتابيا أو مشركا أو مجوسيا أو غير ذلك من الملل التي قد تكون في ديار الإسلام، والعلة في ذلك أنها حرب دفاعية، والدفاع في هذه الأحوال يصبح فرض عين على كل مسلم قادر، والفروض العينية لا تحتاج إلى إذن من له حق الإذن كالوالد لولده والزوج لزوجه والسيد لعبده والحاكم لشعبه، فهي واجب، والواجب ليس بحاجة للإذن في أن يأتيه المسلم كالصلاة والصوم والزكاة. كما أن العلة في الاستعانة بالكفار في هذه الحرب تنبع من كونهم مستهدفين من الأعداء المهاجمين في دمائهم وأعراضهم وأموالهم، ومن حقهم ومن واجبهم أن يشاركوا في الدفاع عن دمائهم وأعراضهم وأموالهم إلا أن تظهر منهم بوادر الخيانة والتعاون مع الأعداء حيث يقع على المسلمين في مثل هذه الحالة تأديبهم وردعهم بعد إبعادهم عن ميادين القتال.

وفي هذه الأحوال التي يكون فيها الجهاد دفاعيا فإنه لا يشترط فيه إتمام الاستعدادات للحرب بما يلزمها من معدات وتدريب وأفراد، إذ أن كل مسلم مطالب أن يقاتل قدر استطاعته وبما تحت يده من سلاح مهما بلغت ضآلته وإن الله على نصره لقدير. ولعل خير مثال أمامنا اليوم هو الحرب الدفاعية التي يجاهد بها المسلمون الأفغان العدو الشيوعي الغازي بكل ما يملكونه من إمكانات ضئيلة وأسلحة يسيرة وبدائية. كما أنه ليس في الحرب الدفاعية أي من المحذورات كالحرب الهجومية التي يحذر فيها قتل النساء والأطفال وغير المقاتلين، إذ أن المهاجم سواء كان رجلا أم امرأة، وسواء كان شيخا أم طفلا فهو عدو معتد طالما شارك في قوة الاعتداء على حرمات المسلمين كدينهم وأموالهم ودمائهم وأعراضهم.

جـ ــ لا يكون الجهاد دفاعا كما أنه لا يكون هجوما وفق تصنيف وتعريف القوانين الدولية المعاصرة للحرب حين يكون الجهاد وتكون الحرب لردع الباغين كما أمر الله بقوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾ سورة الحجرات: ٩. فالجهاد في هذه الحالة ليس دفاعا بمفهوم الدفاع وليس هجوما بمفهوم الهجوم، وإنما هو دفاع عن المبغي عليه من المسلمين وهجوما على الباغي من المسلمين على إخوانه المسلمين من طائفة أخرى. ذلك أن المطلوب من المسلمين كما هو نص الآية، الإصلاح أولا، وإن لم يتم الإصلاح وبغت إحدى الطوائف على الأخرى فيجب ردع الفئة الباغية بحربها حتى ترتدع وتعود إلى رشدها.

تلك أسباب الحرب في الإسلام وموضع الجهاد فيها بين الدفاع والهجوم، أما ما عدا ذلك من حروب فهي كما بينا غير مشروعة والإسلام منها بريء وحربها ليست جهادا إلا في سبيل الشيطان وهوى النفس البشرية الأمارة بالسوء إلا من عصم الله تبارك وتعالى.

٣ ــ عقيدة حربها بلا أحقاد: وذلك أنها عقيدة حرب الإسلام، والإسلام دين ارتضاه الله لعباده، دين لاحقد فيه ولا كراهية، دين شرعه الله للقضاء على الحقد والكراهية وإرساء العدل بكافة صوره وأشكاله. وحرب الإسلام حرب سلام وعدل لاحقد فيها، حيث أنها لا شرعية لها إلا كما بينا من قبل حين تحدثنا عن أسباب الحرب في الإسلام. يقول الأستاذ «عبد الكريم الخطيب» في كتابه «الحرب والسلام في الإسلام»[١٣]: (لايدخل المسلمون الحرب إلا دفاعا عن حق، وإلا ردا لعدوان، وإلا نشرا لألوية العدل والسلام بين الناس، وإلا لإطفاء نار الفتن التي يوقدها البغاة المعتدون، فتزعج الأمن وتروع الآمنين، وتسلب الحقوق، وتهتك الحرمات ومن هنا كان موقف المسلمين من عدوهم الذي يسوق إليهم البلاء، ويبغي بهم الغوائل، ويرميهم بالمهلكات، هو موقف الأطباء، من وباء انتشر، وداء استشرى. فإذا هم

(١٣) عبد الكريم الخطيب: الحرب والسلام في الإسلام (الرياض: دار نجد للنشر والتوزيع، ١٩٨١) ص ٣٢.

أعملوا مباضعهم في بتر الأعضاء الفاسدة من الجسد الاجتماعي، أو حاصروا الوباء في أهله وعزلوا العدوى عن المجتمع لم يكن ما فعلوه إلا بابا من أبواب الرحمة ووجها مشرقا من وجوه الإحسان إلى الجنس البشري كله..

هكذا حرب الإسلام، حسم لداء وقضاء على وباء. فإذا انحسم الداء، وانقشع الوباء، لم يكن للحرب مكانة، ولا للسيف موضع. ونستمع إلى قوله تعالى مخاطبا المسلمين ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها وذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قٰتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمٰلهم، سيهديهم الله ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة عرفها لهم، يٰأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمٰلهم، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمٰلهم**﴾ سورة محمد : ٤ ــ ٩.

إن هذه الآيات المباركات، ترسم دستورا إلهيا حكيما يجب أن يلتزمه المسلمون قولا وعملا، نصا وسلوكا، في حربهم مع أي عدو يلتقون به، حيث ينظرون إليه نظر الطبيب إلى المريض، يحمل إليه الشفاء في الدواء الذي يقدمه، وإن كان مرا، وفي العملية الجراحية التي يجريها له، وإن ذهبت بمعظم أعضاء الجسد، فلا يقتل المسلمون في حربهم عدوا محاربا لهم إذا أثخنته الجراح، ولم يعد قادرا على القتال.. إن غاية الحرب عند المسلمين هنا، هي الوقاية من شر هذا العدو، فإذا انتزعت أنيابه، وعطلت مخالبه، لم يكن قتله بعد هذا، إلا ظلما وتعديا، وإلا شفاء لحقد، واستجابة لانتقام، وليس بالطبيب من يحقد على مريضه..) والإسلام دواء لكل أمراض الإنسانية، والمسلمون أطباء يحملون علاج الإسلام الذي لاحقد فيه ولا كراهية، وهم حين يحاربون فإنهم مكرهون كما أسلفنا، وذلك لكبح قوى الشر بالحرب التي هي عندهم هنا كالخير أما الحرب عند المسلمين فهي مبدأ من مبادىء الضرورة كالقصاص والحد والتعزير كما بينا من قبل. أما الحروب التي تشن في عالمنا المعاصر من أجل الأطماع والأهداف الدنيوية فهي لا تعمل ميكانيكيتها دون الحقد الذي هو بمثابة الوقود لها، إذ بدونه لا تكون أصلا.

٤ ــ عقيدة جندها مسالمون وسلامها مسلح: الإسلام دين الحق والرحمة والعدل

دستوره القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وفكره يستند إليها، ولهذا فإن النظام الذي وضعه الإسلام للحرب يتسم بالرحمة والعدل، ويطبع العقيدة العسكرية النابعة منه بطابع السلم، ويصبغها بصبغة الدفاع، إذ أنها وهي تهاجم فإنها تدافع عن الحق والرحمة والعدل الذي تحاول قوى الشر أن تمنع البشرية من التمتع به والتنعم بظلاله الوارفة. والعقيدة العسكرية الإسلامية تستمد تعاليمها كما قلنا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والقرآن الكريم هو الذي أنزله الله رحمة للعالمين وفيه يقول المولى تبارك وتعالى **﴿وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجٰهلون قالوا سلٰما، والذين يبيتون لربهم سجدا وقيٰما، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما، إنها ساءت مستقرا ومقاما، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما، والذي لا يدعون مع الله إلٰها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما﴾** سورة الفرقان: ٦٣ ــ ٦٨. والسنة النبوية بمجملها دعوة للرحمة والعدل والإحسان. من ذلك يتضح لكل ذي بصيرة أن جند الإسلام قد هذبهم القرآن وبين لهم أنهم عباد مسالمون، لا يمشون على الأرض إلا هونا، ولا يردون على الجٰهلين إلا بكل خير وبمعاني السلام السامية، وهم الذين يقضون ليلهم في القيام والتهجد، وهم الذين يدعون ربهم في كل لحظة أن يصرف عنهم عذاب جهنم، وهم الذي لا يدعون مع الله إلٰها آخر ــ وهم الذين لا يقتلون إلا النفس التي أمر الله بقتلها لما في قتلها من صلاح الدين والدنيا والمجتمع.. إن هؤلاء الجند الذين هذبهم الإسلام بتعاليم كتابه الكريم وسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، سيكونون بطبيعة الحال سلٰما على من سالمهم، وحربا على من حارب دينهم ورسولهم واعتدى على دمائهم وأعراضهم وأموالهم. كما أن هؤلاء الجند المسلمون الذين هذبهم القرآن وطهرتهم سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، سيغلب عليهم الطابع السلمي للإسلام الذي هو دعوة عامة للسلام ورسالة للسلام الذي ارتضاه الله لعباده. فهم جند مسالمون، لا يلجأون للحرب إلا عند الضرورة وحين لاتحتمل الأوضاع السائدة أن يسالم المسلمون أعداءهم الذين يتربصون بهم الدوائر ويتصدون لهم في كل مرصد ويصدون كل إنسان عن الدخول في دين الله، وتلك حقوق لابد من الحرب دونها ولا يمكن أن يوصف المحارب دونها بالجنوح عن السلم والشروع في الحرب.

والإسلام حين يكون دعوة للسلام، وجند الإسلام والمسلمون حين يمشون على الأرض هونا وينشرون الإسلام ــ السلام، وحين يجنحون للسلام دوما ولا يقدمون على الحرب إلا كما يقدم الطبيب على بتر أحد أعضاء مريضه.. فإن هذا لا يعني أن الإسلام دين استكانة وخنوع، أو أنه دعوة للذل والاستعباد. وليس في القرآن آية ولا في السنة حديث يدعوان المسلم إلى فهم السلام بالذل والخنوع والاستكانة، كما يتصور بعض جهلاء المسلمين وعامتهم حين يسمعون قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾ سورة البقرة: ١٩٥، حيث يفهمون من ذلك أنها دعوة للمسالمة وعدم مجابهة الباطل حتى لا تكون التهلكة. بينما لو تدبروا معنى هذه الآية وربطوها بالآية التي قبلها لأدركوا أن التهلكة هي مسالمة الباطل والقعود عن حربه وأن التهلكة هي التكالب على الدنيا وترك الباطل يقوى ويستشري شره في أرض الله ذلك أن نص الآية السابقة لها هو قوله تعالى ﴿**الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمٰت قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله يحب المتقين**﴾ سورة البقرة: ١٩٤. يقول «الشيخ محمد الغزالي» في حديثه عن هذه الآية وإيضاح معناها، وذلك في كتابه «من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث»[١٤]: (كنت أريد شرح الآية الأخيرة ــ يقصد الآية ١٩٥ من سورة البقرة ــ فوجدت أن أقصر طريق للإبانة عن معناها والدلالة على تفسيرها يكون بضم سابقتها إليها، فإن المقصود من الآية الأولى تقديم رائع للمقصود من الآية التي تليها.

إن الله عزوجل يأمر بنصر الحق والنضال دونه ومجاهدة الكافرين بالنفس والنفيس، ويوصي عباده ألا يستكينوا للظلم! ويحرضهم على مقابلة العدوان بمثله، وعلى ألا يتركوا الضلال يستعلي فلا يجد من يقمعه ويردعه. كلا. فرسالة الله أعز في حقيقتها وأعز لدى حملتها من أن يكون لها أمام الباطل منزلة السوء والهواء. وهذا ــ بداهة ــ يستتبع سيلا جاريا من النفقة المبذولة وينابيع دافقة من الإيثار والتضحية وبيع الدنيا بالآخرة وقد وجه المسلمون الأولون صراحة بهذه التكاليف

(١٤) محمد الغزالي: من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث مرجع سابق، ص ١١٨.

الشاقة في هذه الآيات وفي غيرها من كتاب الله، لكن الآية التي نتلوها الآن تمتاز بأنها تضمنت تهديدا خطيرا لمن يجبن عن الكفاح وينكص عن النفقة!! اعتبرت الفار بنفسه وماله ملقيا بنفسه وماله في الهلاك، وأومأت إلى إن الأمة التي تتراجع عن الموقف الواجب في ميدان الشرف والفداء لا تلبث قليلا حتى تذل وتخزى ثم يجر عليها التاريخ أذيال العناء.

ردوا العدوان وابذلوا في سبيل الحق.. وإلا فالتسليم للعدوان والشح بالأموال طريق الضياع والفناء والتهلكة، فلا تلقوا بأيديكم إليها.

غير أن فريقا من المسلمين ظلم هذه الآية أقبح ظلم، وفهمها أغبى فهم، وظن أن الله يقول لعباده.. احرصوا على أعماركم فلا تعرضوها للاستشهاد في سبيلي واحرصوا على أموالكم فلا تضيعوها بالإنفاق في سبيلي!.

وهكذا لم يكف الناس أن يعصوا، حتى ذهبوا يتلمسون لمعاصيهم الفتوى المشروعة! عن أبي عمران قال: كنا بمدينة القسطنطينية فخرج علينا صف عظيم من الروم فبرز إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر. وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ثم خرج إلينا، فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله! ألقى بيديه إلى التهلكة.

فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها.. فأنزل الله هذه الآية..).

إن القرآن دعوة للسلام، ولكنه السلام المسلح الذي يرد كيد الباغين ويحمي حوزة الدين، السلام المسلح الذي يجعل اليد الإسلامية هي العليا. فالقرآن الذي يدعو إلى السلام، يدعو أيضا إلى حراسة هذا السلام كما في قوله تعالى ﴿**إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين عٰهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخٰئنين، ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ورباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون، وإن**

جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ سورة الأنفال: ٥٥ ــ ٦١. تلك إذن دعوة للسلام، ودعوة لحماية السلام بإعداد القوة الروحية والمادية والعددية التي تحمي السلام وتجعله مهاب الجانب، عزيز المقام لأن العزة لله ورسوله والمؤمنين، وحين يفهم المسلمون السلام بمعنى الاستكانة والمهادنة الذليلة، فإنهم يفرطون بعزتهم التي ربطها الله سبحانه وتعالى بعزته جل جلاله وبعزة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله في محكم التنزيل ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنٰفقين لا يعلمون﴾ سورة المنافقون: ٨.

بعدما بينا أن غاية الحرب في الشريعة الإسلامية لا تعدو أن تكون تحقيق حرية العقيدة للناس ومنع اضطهادهم واذلالهم وتعذيبهم من أجل اعتناق الدين الذي يرغبون فيه، ومنع الفتنة أن تستشري ويستشري معها الفساد، وتحقيق الأمن والسلام في أنحاء الأرض كما أراد الله سبحانه وتعالى.

وبعدما بينا بعضا من الأسس التي تقوم عليها العقيدة العسكرية الإسلامية التي تسعى إلى تحقيق الغايات الآنفة الذكر والتي من أجلها شرع الله سبحانه وتعالى الحرب كمبدأ من مبادىء الضرورة. وقلنا إن مصدرها القرآن والسنة وجوهرها الجهاد، وإن حربها بلا أحقاد أو أطماع دنيوية ضيقة، وإن جندها مسالمون وإن سلامها مسلح مهاب الجانب عزيز المقام.

نصل إلى القول إن العقيدة العسكرية الإسلامية ليست بالتي تقاس بالعقائد العسكرية الأخرى، ولا تلك بالتي تقاس بالعقيدة العسكرية الإسلامية إذ لا تشترك مع تلك العقائد في أي من الأسس ولا تخضع للفلسفة الوضعية التي تعرف بموجبها العقيدة العسكرية في ظل النظم الوضعية القديمة والمعاصرة. هذا إلى جانب أني وكما أسلفت أرفض أسلوب المقارنة عندما يتعلق الأمر بأي من نظم الإسلام عقائده ومبادئه، إذ لا مجال كما قلنا لمقارنة ما وضعه الله وارتضاه لعباده، مع ما وضعه البشر وارتضوه لأنفسهم.

خلاصة القول إن العقيدة العسكرية الإسلامية ربانية الفكر سلمية النهج تقوم على مبدأ الجهاد ولنا حديث عن الجهاد في فصل لاحق إن شاء الله.

العلاقـات الدولية في الإسلام

لن تكتمل الصورة عن الإسلام ومكانة السلام فيه دون الحديث عـن العلاقـات الدوليـة في الإسلام والتي تحتل جانبا مهما من مكانة السلام في شريعـة الإسلام وعنـد المسلميـن، فالإسلام دعوة للتعايش السلمي بيـن الـدول ونمـوذج يحتـذى للعلاقـات الدوليـة والوفـاق الدولي الذي تنشده أمم الأرض وشعوبها في زماننا المعـاصر الـذي بلـغ فيـه الصراع أشده وتضاربت فيه المصالح الدولية وتشابكت إلـى حـد لـم تبلغـه مـن قبـل، وذلك أن الإسلام دستوره القرآن الذي أنزله الله تبارك وتعالى على رسوله المصطفـى صلـى الله عليـه وسلـم، وفيه يقول الحق تبارك وتعالى ﴿**وما أرسلنٰك إلا رحمة للعٰلميـن**﴾ سورة الأنبيـاء: ١٠٧، وفيه أيضا ﴿**وما أرسلنٰك إلا كافة للناس بشيرا ونذيـرا ولكـن أكثـر النـاس لا يعلمـون**﴾ سورة سبأ: ٢٨، والقرآن دعوة للتآخـي ونمـوذج ربانـي لمـا يـجب أن تبنـى وتقـوم عليـه العلاقات الدولية كما سنرى من خلال حديثنا.

العلاقات الدولية بشكلها المعاصر هي نتاج القانون الدولي الذي يعرف بأنه (مجموعـة القواعد التي تحدد حقوق الدول وواجباتها في علاقاتها المتبادلة).

وهذه القواعد لا تقتصر على حالة الحرب دون السلم أو السلم دون الحرب، وإنما هي المحدد والمنظم لهذه الحقـوق المتبادلـة فـي السلـم والحـرب. ومنـه أصبـحت العلاقـات الدولية تصنف إلى: علاقات دولية في حالات الحرب، وعلاقات دولية في حالات السلـم. والقانون الدولي السائد اليوم وما ينبثق عنه من علاقات دوليـة للسلـم والحـرب، هـو نتـاج الفكر اليونانـي والرومانـي والأوروبـي المسيحـي، وهـي جميعـا قوانيـن وضعيـة لا مجـال لمقارنتها مع الأسس التي تحدد العلاقات الدولية في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة وهما المصدران الرئيسيان للفكر الإسلامي بمجمله ومنه العلاقات الدولية في الإسلام.

حين قدم المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة مهاجرا مـن مكـة، كـانت القبائل العربية فيها فـي شبـه تكتـلات وأحـلاف حيـن كـان الصراع علـى أشده بيـن هـذه القبائل، وكانت طوائف اليهود داخلة أيضا في أحلاف مع هذه القبائل ضد بعضها البعض. فكـان أول عمـل قـام بـه عليـه أفضل الصلاة والتسليـم، أن كـتب كتابـا بيـــن المهاجريـــن

والأنصار لموادعة اليهود، وقد كان هذا الكتاب بمثابة سعي منه صلى الله عليه وسلم لتحقيق أمرين هما:

ـ تحقيق ما يعرف اليوم عند علماء السياسة بالانصهار الاجتماعي، حيث آخى صلى الله عليه وسلم في كتابه هذا بين المهاجرين من قريش والأنصار مع الأوس والخزرج رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وذلك في إطار الدولة الواحدة التي نشأت بموجب هذا الكتاب في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ـ تحقيق ما يعرف اليوم عند علماء القانون بالعلاقات الدولية، حيث نظم صلى الله عليه وسلم العلاقات بين المسلمين من المهاجرين والأنصار من جهة كطرف دولي وبين اليهود الذميين من جهة كطرف دولي آخر. وهذا ما يعنينا من هذا الكتاب العظيم ونحن في صدد حديثنا عن العلاقات الدولية في الإسلام، وقد جاء فيه كما أورد أبو محمد عبد الملك بن هشام ابن إسحٰق ما نصه(٥): (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحرث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها

(١٥) ابن هشام: سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق المجلد الثاني، ص ١١٩.

بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مغرما بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيمة ظلم أو اثم أو عدوان أو نساء بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة: يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وأن سلم المؤمنين واحدة: لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا، وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش، ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن رضي ولي المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عزوجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإن لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم، وأن لبني الشيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم، وأن موالي ثعلبة كأنفسهم، وأن بطانة يهود كأنفسهم، وأن لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن

يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأن لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عزوجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين: على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم: لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وإثم، وأن الله جار لمن بر وأتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم)

وقد تحقق الانصهار الاجتماعي بين المهاجرين والأنصار بعد كتابه صلى الله عليه وسلم كأروع مثل في تحقيق الانصهار في تاريخ البشرية بأسرها. كما تحقق بموجب هذا الكتاب أروع عهد واتفاق دولي ــ بين المسلمين من طرف واليهود من الطرف الآخر ــ حتى نقضه اليهود باتفاقهم مع المشركين وتحريضهم ومعاونتهم على المسلمين ثم محاولات قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان الرسول ومعه المسلمون في حل من هذا العهد (الاتفاق الدولي).

وهناك مثال آخر ونمط فريد للعلاقات الدولية التي أرسى دعائمها الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم وسنها لأمته من بعده. وهي الهدنة بين المسلمين وقريش والصلح الذي كتبه صلى الله عليه وسلم بينه وبين المشركين من قريش، حين منعته قريش من زيارة البيت الحرام. وقد كتب هذا الكتاب على بن أبي طالب رضي الله عنه في الحديبية وهي المكان الذي منعت فيه قريش الرسول ومن معه من المسلمين من دخول مكة وجاء فيه[١٦]: (باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع

(١٦) المرجع السابق، المجلد الثالث، ص ٣٦٦.

محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة، وإنه لا إسلال ولا إغلال، وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها).

وقد التزم الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون بهذا الصلح حتى نقضته قريش حين تظاهرت بنو بكر (حلفاء قريش) وقريش على خزاعة (حلفاء المسلمين) وأصابوا منها ما أصابوا.

معاهدتان من المعاهدات الدولية اللتان أبرمهما المصطفى صلى الله عليه وسلم مع اليهود في المدينة وقريش في مكة، تنمان عن تميز العلاقات الدولية التي أرسى قواعدها الرسول القائد عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، مسترشدا بما أنزل الله تبارك وتعالى عليه من الذكر الحكيم والذي كان خلقا له صلى الله عليه وسلم كما قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن خلق النبي فقالت: كان خلقه القرآن.

ومن بعد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم كان لخلفائه الراشدين دور في إرساء ذلك النمط الفريد والمتميز من العلاقات الدولية في الإسلام بما أبرموه من اتفاقات ومعاهدات دولية نذكر منها على سبيل المثال ما عرف بالوثيقة العمرية، وهي المعاهدة التي أبرمها الخليفة الراشد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مع أهل إيليا (القدس) من النصارى حين فتحها الله على أيدي عمر وجنده المجاهدين المسلمين. وقد جاء في تلك المعاهدة ما يلي[17]: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود ـــ وقد كان هذا بناء على طلب نصارى بيت المقدس ـــ وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منها فإنه آمن على نفسه وماله وحتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم

(١٧) تاريخ الطبري، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ٦٠٩.

فهو آمن. وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء صار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية)

هذه المعاهدة التي هي نموذج يحتذى به للتعايش السلمي وغيرها من المعاهدات أبرمها الخلفاء وقادة الفتح الإسلامي الذي كان القرآن خلقهم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، حيث تضمن القرآن الكريم والسنة المشرفة أرقى أنواع العلاقات الدولية التي لم يتوصل إليها العالم المتمدن حتى يومنا هذا رغم ما يدعونه من حضارة ومدنية وتقدم، ومحاكم (نورمبرج) التي عقدها الحلفاء المنتصرون لمحاكمة قادة ألمانيا المهزومة عام ١٩٤٥م خير دليل وبرهان.

لقد عرف المسلمون العلاقات الدولية بأعظم وأرقى أشكالها، ولئن توصل العالم المادي المعاصر إلى تقسيم العلاقات الدولية في عصرهم الحاضر إلى : علاقات دولية في حالة السلم وأخرى في حالة الحرب. فإن المسلمين قد عرفوا ذلك قبل أربعة عشر قرنا من الزمان حيث أملتها عليهم آيات الذكر الحكيم وسنة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، وسوف نبين بعضا من جوانب العلاقات الدولية في السلم والحرب عند المسلمين حيث تصعب الإحاطة بذلك في موضع عابر كهذا.

١ ـ العلاقات الدولية في حال السلم: وهذه تقوم كما بينا من قبل على مبدأ أساسي هو أن السلم قاعدة والحرب ضرورة تحتمها حاجة الإنسانية إلى بتر الأعضاء الفاسدة من جسدها ومنع الشر من أن يستشري. وقد بينا ذلك على ضوء العديد من آيات الذكر الحكيم والتي تقرر أن السلم قاعدة والحرب استثناء منها، من ذلك قوله تبارك وتعالى ﴿**وقٰتلوا في سبيل الله الذين يقٰتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقٰتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقٰتلوكم فيه فإن قٰتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكٰفرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين، الشهر**

الحرام بالشهر الحرام والحرمٰت قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ سورة البقرة: ١٩٠ ــ ١٩٤.

خمس آيات من الذكر الحكيم هن دستور المسلمين في علاقاتهم الدولية في حالة السلم حين لا اعتداء إلا على من اعتدى، وحيث الحرمات قصاص، وحيث الرد الفوري الحازم والحاسم على المعتدين فقط، وحيث الدعوة الأكيدة للسلام واللجوء إلى الحرب عند الضرورة. كما أن المسلم مأمور من الله تبارك وتعالى أن يجنح للسلم إن جنح له الأعداء وذلك في قول الحق تبارك وتعالى **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾** سورة الأنفال: ٦١.

وتاريخ الحروب الإسلامية التي قادها الفاتحون الأوائل حافل بما يثبت أن السلم قاعدة والحرب ضرورة، وأن السيف ليس إلا وسيلة لحماية السلام والأمن والعدل. كما أنها تقوم على مبدأ تقسيم العالم إلى دار سلام ودار حرب ودار عهد، وحيث يتشعب هٰذا الموضوع فإننا سنفرد له فصلا مستقلا يلي هذا الفصل مباشرة لنكمل به حديثنا عن العلاقات الدولية في حال السلم عند المسلمين.

كما تقوم العلاقات الدولية في حال السلم عند المسلمين على مبدأ السيادة وحق كل دولة في أن تتمتع بهذا الحق، وضرورة احترام الأطراف الدولية الأخرى لمبدأ السيادة وحق الدولة أو الدول الأخرى به دون الانتقاص منه بأي شكل من الأشكال، وحين تكون محاولة الانتقاص تلك، فإن ذلك يعد اعتداء من تلك الدولة على سيادة الدولة المعتدى عليها أو المنتقص من حق سيادتها. وللسيادة في الإسلام مظهران، هما : السيادة الخارجية والسيادة الداخلية. والسيادة الخارجية هي كما بينا تتعلق بعلاقة الدولة بما يحيط بها من دول، وقد أقر القرآن الكريم مبدأ توفير الاستقلال والعزة لدولة الإسلام دون السماح لأية سلطة أخرى بالانتقاص منه كما في قوله تبارك وتعالى **﴿.. ولن يجعل الله للكٰفرين على المؤمنين سبيلا﴾** سورة النساء: ١٤١. أما السيادة الداخلية فهي المتمثلة فيما أقر القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم للحاكم والهيئات القائمة على شئون الدولة من حقوق الهيمنة التامة على الأفراد والجماعات في الدولة الإسلامية في إطار من الشورى، وضمن شروط للحاكم المسلم ومن يتولى الوظائف العامة معه من المسلمين،

وضمن رقابة الأمة الإسلامية التي أقرها الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم على من يتولى أمر المسلمين. وسيادة الدولة الداخلية هذه على رعاياها تأتي في إطار وجوب الطاعة للحاكم دون معصية الله ورسوله، حيث أن السيادة هي في الأصل للشريعة التي هي شريعة الله ورسوله، وليست للحاكم بحد ذاته الذي لا يختلف عن بقية أفراد الأمة إلا بما فيه من أهلية لتولي أمرهم وتنفيذ أحكام الله في أرضه.

وإذا كانت العلاقات الدولية في حال السلم تصونها المعاهدات الدولية في عصرنا الحاضر، فإن الإسلام قد عرف هذا قبل أربعة عشر قرنا من يومنا هذا كما بينا حين استشهدنا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار الذي وادع فيه اليهود كطرف خارجي، وكذلك معاهدة صلح الحديبية الذي أوردناه من قبل أيضا، ثم كتاب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأهل إيلياء (بيت المقدس) حين فتحها الله على أيدي المسلمين.

تعرف المعاهدة بأنها: عقد العهد بين طرفين (فريقين) على شروط يلتزم بها كل فريق. وعليه فالعهد هو جوهر الاتفاق وأساسه، وهو المقصود بالالتزام. فإن أكد العهد ووثق من قبل المتعاهدين سمي ميثاقا. وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المسلمين باحترام العهود والمواثيق مع الأطراف الدولية وحرم نقضها إلا بشروط حددها سبحانه وتعالى في محكم التنزيل، من ذلك قوله تبارك وتعالى **﴿كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عٰهدتم عند المسجد الحرام فما استقٰموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين﴾** سورةالتوبة: ٧. وقوله تبارك وتعالى **﴿إلا الذين عٰهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾** سورة التوبة: ٤. وقوله تبارك وتعالى **﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثٰق أو جاؤوكم حصرت صدورهم أن يقٰتلوكم أو يقٰتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقٰتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقٰتلوا وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا﴾** سورة النساء: ٩٠. وقوله تبارك وتعالى **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذي قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصٰكم به لعلكم تذكرون﴾** سورة الأنعام: ١٥٢. وقوله تبارك وتعالى **﴿وأوفوا بعهد الله إذا عٰهدتم ولا تنقضوا الايمٰن بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون، ولا تكونوا**

كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمٰنكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيٰمة ما كنتم فيه تختلفون، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون، ولا تتخذوا أيمٰنكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم، ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ سورة النحل: ٩١ ــ ٩٥. وقوله تبارك وتعالى **﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا﴾** سورة الإسراء: ٢٤.

آيات ذكرناها وآيات عديدة أخرى في محكم التنزيل تلتقي حول أهمية العهود والمواثيق وتبين تحريم الله سبحانه وتعالى لنقضها أو انتهاكها وتحث المسلمين على احترامها والالتزام بها. ثم آيات أخرى تبين الحالات التي يتحتم على المسلمين التخلي عن المعاهدات والمواثيق وتحصرها في التخلي المسبق من الأطراف الدولية الأخرى ــ سواء أكانوا مشركين أو كتابيين، من ذلك قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخٰئنين﴾** سورة الأنفال: ٥٨، وقوله تبارك وتعالى **﴿وإن نكثوا أيمٰنهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقٰتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمٰن لهم لعلهم ينتهون، ألا تقٰتلون قوما نكثوا أيمٰنهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين﴾** سورة التوبة: ١٢ ــ ١٣.

وتصنف المعاهدات عند فقهاء المسلمين إلى العديد من التصنيفات وفق الهدف من إبرام هذه المعاهدات والمقصود منها، فإما أن تكون لدعم حسن الجوار والتعاون، وإما أن تكون لتدبير شؤون وآثار ما بعد الحرب كتبادل الأسرى وتثبيت السلم، وإما أن تكون لتنظيم التجارة والمبادلات التجارية بين المتعاهدين، وغير ذلك من التصنيفات التي يجملها الدكتور «محمد الصادق عفيفي» في كتابه «الإسلام والعلاقات الدولية» على النحو التالي[١٨]:

---

(١٨) د. محمد الصادق عفيفي: الإسلام والعلاقات الدولية ،مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي، ١٩٨٤، ص ١٦٦.

أ ـــ معاهدات حسن الجوار: وهي التي تكون بين طرفين دوليين يلجآن لتوقيع معاهدة حسن جوار يلتزم كل طرف منهما باحترام سيادة الطرف الآخر وبعدم المساس بحقوقه المشروعة، معاهدات حسن الجوار تلك منها المعاهدة التي عقدها الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم حينما قدم المدينة بين المسلمين وجيرانهم في يثرب من اليهود وقد أوردنا نصها كاملا في أول حديثنا هذا عن العلاقات الدولية في الإسلام.

ب ـــ معاهدات الأمان: وهي إما أن تكون دائمة أو محددة لأجل مسمى، فإن كانت محددة (مؤقتة) فهي معاهدة أمنية، وإن كانت غير محددة بوقت معين فهي معاهدة هدنة. وبموجب معاهدة الأمان هذه أو تلك فإنه يحق لغير المسلمين حق دخول أراضي الدولة الإسلامية إذا نصت المعاهدة على ذلك.

جـ ـــ معاهدات الصلح: وهي المعاهدات التي تقوم الدولة بعقدها في أعقاب الحروب بعد انتصار جيش وانهزام آخر، أو إذا طالت المناوشات بين الجانبين ورغب كل منهما في انهاء العمليات الحربية، أو إذا عقدت قبل بدء القتال، وذلك حينما يأخذ كل منهم أهبته، ولكنهم وفقوا لعقد هدنة صلح لتفادي أضرار الحرب. وقد ورد لمثل هذه المعاهدات العديد من التسميات في كتب الفقه الإسلامي مثل : المهادنة والمراوضة والمحالفة والمفاداة والمعاهدة والمصالحة والموادعة.

وهناك من يصنف المعاهدات إلى : تجارية وسياسية، حيث يدخل التصنيف السابق تحت المعاهدات السياسية. وقد تجنبنا هذا التصنيف إلى التصنيف السابق حيث لا مجال هنا للحديث عن المعاهدات التجارية أو الثقافية.

٢ ـــ العلاقات الدولية في حال الحرب: وهذه تقوم على مبدأ الجهاد الذي هو جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية كما بينا من قبل، والذي هو دفاع في الأساس ولا يباشره المسلمون إلا لأسباب حددناها من قبل. أما طريقة مباشرة المسلمين للجهاد (الحرب) فتتم وفق إحدى الطرق التالية:

أ ـــ مباشرة الحرب دون إنذار: وذلك أن تكون الحرب امتدادا لحروب سابقة لها كأن تكون الحرب قائمة بالفعل، وما هذه الحرب إلا حلقة في سلسلة

حروب أخرى، أو أن يقوم العدو بنقض عهد سابق أبرم معه من قبل. وفي كلتا الحالتين يمكن للمسلمين البدء بالقتال دون حاجة إلى إنذار العدو، حيث أنه هو المتسبب في نشوب القتال. أما في حالة الدفاع فالأمر بيّن لا حاجة لإنذار عدو بادر بالهجوم على ثغر من ثغور المسلمين.

ولقد أمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بحصار يهود بني قريضة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، وكان ذلك لغدر اليهود ونقضهم للعهد وتعاونهم مع المشركين. كما سار إلى مكة عام الفتح دون سابق إنذار وتمنى عليه الصلاة والسلام أن يعمي الله عليهم بصيرتهم لكي لا يفطنوا لنية المسلمين، وذلك بعد أن نقضت قريش معاهدة صلح الحديبية التي أبرمتها مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

ب ـ مباشرة الحرب بعد الإنذار: والإنذار هنا قد يكون بنبذ العهد الذي بين المسلمين وأي من طوائف الكفر، وذلك إذا أحس الحاكم المسلم بخيانة العدو الذي يربطه عهد مع المسلمين، أو بادر بأي من أعمال التجسس أو التخريب أو التحريض كما إن الإنذار قد يكون بإبلاغ العدو مأمنه وإبعاد رعاياه من ديار الإسلام كإبعاد السفراء والممثلين الدبلوماسيين وقطع العلاقات وما شابه ذلك. كما أن وصول الدعوة إلى ديار العدو يعد إبلاغا مسبقا فإما الدخول في دين الله وإما دفع الجزية عن يد وهم صاغرون وإما الحرب. وقد أغار الرسول القائد صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق دون سابق إنذار كما روي عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه، وذلك أن الدعوة بلغت قبائل الجزيرة بأسرها. كما أن العلاقات الدولية في حال الحرب عند المسلمين تقوم على تنظيم قواعد الحرب وأساليبها وفق ما أملته عليهم آيات الذكر الحكيم وأحاديث سنة المصطفى عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم، حيث قننت قواعد الحرب وأساليبها بما يتلاءم وعظمة الإسلام وسمو منزلته فحرم قتل النساء والأطفال والعجزة وكل من لا يحمل السلاح، كما حرم التمثيل بالقتيل وقتل الأسير والإجهاز على الجريح، وأقر ما يحل من وسائل الخداع والتضليل في الحرب وطرق الحصار، وبينت الطرق التي يجب أن يعامل بها الأسرى والمدنيون وما يحل للمسلمين من

أموالهم وما يحرم، وغير ذلك من أمور عديدة سنبين العديد منها في مواضيع لاحقة بإذن الله تعالى وتوفيقه.

كما إن العلاقات الدولية في الإسلام قد بينت للمسلمين الطرق التي تنتهي بها الحرب على النحو التالي:

أ ـ انتهاء الحرب باعتناق العدو الإسلام، حيث تصبح دار العدو دار إسلام تعصم فيها الدماء والأموال وتطبق فيها شريعة الله ورسوله.

ب ـ انتهاء الحرب بالفتح، حيث تسفر الحرب عن فتح ديار العدو وضمها إلى دار الإسلام حيث تنتهي الحرب وتتوقف عند هذه المرحلة التي هي الهدف، ويصبح رعايا هذه الدولة إما مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وإما ذميين وفق قواعد الإسلام في معاملة أهل الذمة.

ج ـ انتهاء الحرب بالصلح، حيث يقرر العدو الدخول في صلح مع المسلمين، كأن يكون صلحا مؤقتا حيث تكون الهدنة، أو أن يكون صلحا دائما حيث يكون عقد الذمة. فإذا كانت الهدنة تمتع المهادنون بالأمان على دمائهم وأعراضهم وأموالهم حتى تنتهي المدة أو ينقض العدو عهده. أما إذا كان عقد ذمة فإن الصلح يسود بصفة دائمة، ويأمن الجميع على الأنفس والأعراض والأموال، وتصبح ديار العدو المصالح صلحا دائما جزءا من ديار الإسلام يدين أهلها بالدين الذين يريدون ويدفعون الجزية مقابل عدم تكليفهم بواجبات الدفاع عن البلاد مع المسلمين، وعلى المسلمين الدفاع عنهم وعن أعراضهم وأموالهم كما يدافعون عن دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم.

.. تلك بعض من جوانب العلاقات الدولية في الإسلام، وقد تبين العديد من جوانبها من خلال أحاديثنا في مواضيع سابقة، كما سيتبين لنا العديد من هذه الجوانب من خلال أحاديثنا في المواضيع التالية لهذا الحديث.

تقسيم العالم عند فقهاء المسلمين

حين تحدثنا في الموضوع السابق عن العلاقات الدولية في زمن السلم عند المسلمين، قلنا إن هذه العلاقات تقوم على العديد من الأسس والقواعد ومنها تقسيم العالم إلى دارين هما: دار الإسلام، ودار الحرب، وأن هناك دارا ثالثة عند بعض الفقهاء وهي: دار العهد لقد جرى الفقهاء على تقسيم العالم على هذا النحو ووضعوه في عصر التدوين الفقهي حيث تألبت البلاد المجاورة والمعادية على المسلمين، وحين كثرت الحروب بين المسلمين وبين هؤلاء الأعداء من كل جانب. كان لزاما على فقهاء المسلمين وضع أسس فقهية تساير الأوضاع وتكفل للمسلمين احترامهم وحقوقهم وسط عالم يكن العداء للإسلام والمسلمين فذلك التقسيم الذي نحن بصدد الحديث عنه لم يكن معروفا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أو زمن خلفائه الراشدين وصحابته الكرام عليهم رضوان الله تعالى أجمعين(١٩).

ولعل آراء فقهاء المسلمين في تقسيمهم للعالم على هذا النحو في إطار العلاقات الدولية بين الدول، مبني على المعايير التي وضعها الإسلام ورسم بموجبها علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى، من حيث شئونها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والعقائدية والعسكرية. واجتهاد الفقهاء في هذا الأمر نابع من أن وطن الأمة الإسلامية يمتد ليشمل الأرض كلها، إذ أن الله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان في الأرض التي هي في الأصل لله تبارك وتعالى، ثم ارتضى الإسلام دينا لهذا الإنسان، ووعد سبحانه وتعالى في خاتم الكتب السماوية التي أنزلها على رسله باستخلاف المؤمنين في أرضه ووراثتهم لها، كما في قوله تعالى **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصٰلحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولٰئك هم الفٰسقون﴾** سورة النور: ٥٥، وقوله تبارك وتعالى **﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾** سورة الأنبياء: ١٠٥.

---

(١٩) توفيق علي وهبة: الجهاد في الإسلام، الطبعة الرابعة دار اللواء، ١٩٨١م ، ص ٨٣.

وتملك المسلمين للأرض واستخلافهم عليها يعني أن تسودها شريعة الله تبارك وتعالى وحكمه، وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بنشر دينه وجعله فرضا عليهم كما في قوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين**﴾ سورة البقرة: ١٩٣، وقوله تبارك وتعالى ﴿**وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير**﴾ سورة الأنفال: ٣٩، وقوله تبارك وتعالى ﴿**يٰأيها الذين آمنوا قٰتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين**﴾ سورة التوبة: ١٢٣. وما دام هناك سلطان في الأرض لغير الله فإن هناك فتنة، وهناك ضرورة إسلامية لدفع الفتنة ونشر السلام الذي هو الإسلام كما بينا من قبل، أما قبل أن يكون هذا حيث الفتنة وحيث على الأرض متسلط وحين يحكم بغير حكم الله وشريعته، فإن العالم منقسم إلى ديار تحكمها شريعة الله وحكمه، وديار يحكمها البشر ويتسلطون عليها وعلى من عليها وينشرون الفتنة ويغذونها.. ومن هنا كان اجتهاد علماء الفقه المسلمين في تقسيم العالم على النحو الذي نحن بصدد الحديث عنه.

إذن هذا التقسيم عند فقهاء المسلمين، لم يكن بحكم الشرع وإنما باستنباط الفقهاء المجتهدين بحكم الواقع، كما أنه ليس بدائم إذ ينتهي بانتهاء الفتنة وانتشار حكم الله وشريعته وسيادتهما على العالم، فهو أمر طارىء. وهذا ما يؤكده اعتبار الإمام الشافعي رحمه الله أن الدنيا كلها في الأصل دار واحدة، وترتيبه على ذلك أحكاماً باعتبار أن تقسيم العالم إلى دارين أمر طارىء فالأمة التي لم تتعرض لدعاة الإسلام بسوء وتركتهم أحرارا في عرض دينهم على من يشاؤون من غير المسلمين، لا يحل قتالها، كما لا يحل قطع العلاقات السلمية معها. والأمان بينها وبين أمة المسلمين ثابت، لأن الأصل في العلاقات الإسلامية مع الغير هو السلم طالما بقيت الدعوة إلى الله الحرية والأمان.[٢٠].

من الفقهاء من يرى أن الدنيا كلها دار واحدة والأصل في العلاقة بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم هو السلام، أما الحرب فشيء عارض لا يتقرر إلا لدفع عدوان والدفاع عن النفس والدين والمال والعرض ما دامت الدعوة إلى الله تسير دون اعتراض من أي من أمم الأرض، ومن هؤلاء الإمام الشافعي كما بينا من قبل. أما بقية الفقهاء المسلمين فهم

(٢٠) د. وهبة الزحيلي: العلاقات الدولية في الإسلام، الطبعة الأولى (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م)، ص ١٠٢.

يجمعون على تقسيم العالم إلى دار للإسلام ودار للحرب، ويرون أن ذلك طارىء أيضا ينتهي بسيادة دين الله وانتشاره في الأرض، كما أخبر بذلك رسول الهدى صلى الله عليه وسلم أن الإسلام يبلغ ما بلغ الليل والنهار وفي رواية ما بلغ النجم، وفي حديث آخر لا يبقى بيت وبر ولا مدر إلا دخلته كلمة الإسلام، كما بين الله ذلك في كتابه الكريم بقوله تبارك وتعالى **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** سورة الصف: ٩. وهناك ثمة تقسيمات عديدة مثل : دار الإسلام ودار الحرب ودار العهد ودار البغي ودار الردة والدار المسلوبة ودار البدعة. وهناك تقسيم الشافعية للعالم بسبب الحرب (الذي هو طارىء حيث الأصل في العالم دار واحدة كما بينا) إلى ثلاث دور هي: دار إسلام ودار حرب ودار عهد. ولعل ذلك يتضح لنا بعد حديثنا عن التقسيمات الثلاث المهمة وهي : دار إسلام ودار حرب ودار عهد.

١ ــ دار الإسلام: وتعد الأرض والبلاد دار إسلام إذا كانت تخضع لأحكام الإسلام وتشريعاته، ولا يسود فيها غير حكم الله تبارك وتعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.. أي أن العزة فيها والقوة للمسلمين على الكافرين حتى وإن كان المسلمون أقلية. وتعد هذه الدار وطن كل مسلم مهما كان لسانه أو جنسيته أو مكان ولادته، ويجب على المسلم الدفاع عنها ورد العدوان وردع الطامعين والحفاظ فيها على دينه ونفسه وعرضه وماله والمحافظة أيضا على دماء وأعراض وأموال إخوانه المسلمين الذين ينتمون مثله إلى هذه الدار ويتمتعون فيها بجميع الحقوق الدينية والمدنية كما يتمتع بها هو نفسه. ولهذا يطلق على دار الإسلام تسمية أخرى عند بعض الفقهاء هي: دار العدل، حيث يتمتع فيها المسلمون وغير المسلمين بالعدل في ظل الحاكم المسلم الذي يطبق شريعة الله في أرضه.

كما أن واجب المسلمين وبصرف النظر عن لسانهم وجنسيتهم ومولدهم أن يستردوا أي جزء يغتصب من هذه الدار التي هي دارهم كما هو الحال في إريتريا وفلسطين وسبته وأفغانستان ولبنان وغير ذلك من ديار الإسلام التي تخضع اليوم لسلطان الشر والشيطان، وذلك على سبيل الفرضية الكفائية إذا تحققت الحاجة وتم تحرير المغتصب، أو الفرضية العينية حيث يصبح الجهاد والدفاع عن هذه الأرض فرض عين على كل مسلم قادر حتى تتحرر الأرض الإسلامية ولو عم الجهاد وشمل الأمة بأسرها.

وإذا كانت دار الإسلام هي وطن كل مسلم، فهل تجب عليه الهجرة اليها إن لم يكن فيها؟

يقول الحنابلة: إن قدر على إظهار دينه في دار الكفر، فيسن له أن يهاجر إلى دار الإسلام ليتمكن من الجهاد وتكثير عدد المسلمين.. أي أنهم يرون الهجرة سنة على من يقيم بدار الكفر مع تمكنه من إظهار دينه وأداء شعائره دون ظلم أو جبروت أو إنكار، أما إذا عجز عن ذلك كأن يمنع من إظهار دينه أو يكره على تركه إلى غيره فالهجرة واجبة عليه وذلك لقول الله تبارك وتعالى **﴿إن الذين توفاهم الملئكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا﴾** سورة النساء: ٩٧ ــ ٩٩. ويقول الحنفية: إن الهجرة واجبة من دار الكفر إلى دار الإسلام. ويقول الشافعية: إذا قدر على إظهار دينه في ذلك البلد من بلاد الكفر، فقد صار البلد به دار إسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحيل عنها لما يرتجى من دخول غيره في الإسلام.

ويقسم بعض الفقهاء دار الإسلام إلى الأقسام التالية(٢١):

أ ــ دار العدل: وهي التي تقيم الإسلام وتحمي السنة وعلى رأسها الخليفة الشرعي للمسلمين.

ب ــ دار البغي: وهي التي سيطر عليها الخارجون على الإمام الحق ولو حكموا بالإسلام، ويسميها البعض (دار الخوارج).

ج ــ دار البدعة: وهي التي سيطر عليها المبتدعون وأظهروا فيها بدعتهم.

د ــ دار الردة: وهي التي ارتد أهلها أو سيطر عليها المرتدون أو كان أهلها كافرين خضعوا لحكم المسلمين ثم نقضوا العهد وسيطروا عليها.

هـ ــ الدار المسلوبة: وهي الدار التي استولى عليها كافرون من خارج أرض الإسلام وكانت في الأصل دار إسلام.

وعن هذا يقول الإمام أبي حنيفة رحمه الله(٢٢): (إذا غلب أهل الحرب على دار

(٢١) سعيد حوي: الإسلام، مرجع سابق، ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣.

(٢٢) المرجع السابق.

من دورنا أو ارتد أهل مصر وغلبوا وأجروا أحكام الكفر أو نقض أهل الذمة العهد وتغلبوا على دارهم ففي كل هذه الصور لا تصبح دار الإسلام دار حرب إلا بشروط ثلاثة:

(١) بإجراء أحكام أهل الشرك حتى لا يحكم فيها بأحكام الإسلام بتاتا ولو بقسم منها.

(٢) باتصالها بدار الحرب بألا يتخللها بلد من بلاد الإسلام.

(٣) بألا يبقى مسلم ولا ذمي فيها آمنا بالأمان الأول أي أمان الإسلام بل بنوع من الأمان يختلف.

وعليه يتبين أن أبا حنيفة رحمه الله قد اعتبر أن أساس اختلاف الدار بين الإسلام والحرب هو وجود الأمان بالنسبة للمقيمين بهذه الدار، فإذا كان الأمن فيها للمسلمين على الإطلاق فهي دار إسلام، وإذا لم يأمنوا فيها فهي دار حرب. ولا يزول الأمن بالنسبة لمسلم إلا بالأمور الثلاثة المذكورة. وأخيرا فإن دار الكفر تصير دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها.

ويقول الكاساني[٢٣]: (إن المقصود من إضافة الدار إلى الإسلام أو الكفر ليس هو عن الإسلام أو الكفر، وإنما المقصود هو الأمن والخوف. ومعناه أن الأمان إن كان للمسلمين على الإطلاق والخوف للكفرة على الإطلاق فهي دار إسلام، وإن كان الأمان فيها للكفرة على الإطلاق والخوف للمسلمين على الإطلاق فهي دار كفر. والأحكام مبنية على الأمان والخوف لا على الإسلام والكفر، فكان اعتبار الأمان والخوف أولى، فما لم تقع الحاجة للمسلمين إلى الاستئمان بقي الأمر الثابت فيها على الإطلاق فلا تعد دار كفر. وكذا الأمن الثابت على الإطلاق لا يزول إلا بالمتاخمة فتوقف صيرورتها دار حرب على وجودهما معا.

٢ ــــ دار الحرب: وتعد الأرض والبلاد دار حرب إذا كانت لاتخضع لأحكام الإسلام وتشريعاته، ويسودها حكم بغير ما أنزل الله تبارك وتعالى. ويشترط الإمام أبو حنيفة رحمه الله شروطا ثلاثة كما بينا في دار الإسلام إذا سقط أحدها لا تكون دار حرب. أما جمهور الفقهاء فهم يرون أن عدم خضوعها لسلطان الإسلام

---

(٢٣) توفيق علي وهبة: الجهاد في الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٤.

وأحكامه كاف لاعتبارها دار حرب. وعليه فإن الصورة الأولى لدار الحرب تشمل أنماطا متعددة من الدول[٢٤]: النمط الأول، الدولة التي تعلن الحرب على المسلمين، سواء أدخلت معهم في حرب فعلية، أم لم تدخل. والنمط الثاني، هي الدولة التي كانت من قبل تحت إمرة المسلمين وسلطانهم وجلوا عنها ولكنهم باتوا يتوقعون منها الخيانة والغدر، ويتوجسون منها خيفة. والنمط الثالث، وهي الدولة التي لاتكون المنعة والصولة فيها للحاكم المسلم، بحيث لا يستطيع تنفيذ الأحكام الشرعية. والنمط الرابع، وهو أن يكون ثمة إقليم حرب غير مسلم، وقد انشق عن الدولة الإسلامية، وكان في الوقت نفسه متاخما لدار حرب أخرى فيقوى جانبه بحيث يستشعر المسلمون منه انتهاز الفرصة للاعتداء على دار الإسلام. والنمط الخامس، وهو ألا يبقى المسلم والذمي مقيمين في دار الحرب بمقتضى الأمان الإسلامي، وهو أمان المسلمين الذي خول للرعايا المسلمين حق الإقامة فيها.. وكل هذا يقوم على أساس أن العلاقة القائمة بين المسلين وغيرهم هي السلم لا الحرب.

أما الصورة الثانية فهي كما يرى فريق من الفقهاء أن دار الحرب هي البلاد التي لا تكون فيها السيادة والمنعة للحاكم المسلم، ولا يقوى فيها المسلمون على تطبيق الأحكام الإسلامية، وليس بين أهلها وبين المسلمين عهد يحدد أسس العلاقة بين الطرفين، ويؤكد عدم الاعتداء على المسلمين وحماية أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.. وهذا يقوم على أساس السلطان والمنعة للحاكم، بحيث إذا كانت الدار خارجة عن منعة المسلمين من غير عهد فهي دار الحرب التي يتوقع منها الاعتداء.

إذن هناك رأيان في الفقه الإسلامي للتفرقة بين دار الإسلام ودار الحرب وهما:

أ ــ الأول، وهو الذي تراه الحنفية والذي ينظر من خلاله الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أمن المسلم وولايته، فإن كان المسلم آمنا بصفته مسلما ومؤديا لشعائره الدينية بحرية فهي دار إسلام. أما إذا كان غير ذلك فهي دار حرب.. وهذا الرأي يرجحه العديد من الفقهاء حيث يستندون إلى أن السلام قاعدة والحرب ضرورة وإذا كان المسلم آمنا في دينه مؤديا شعائره بحرية فلا ضرورة للحرب.

---

(٢٤) د. محمد الصادق عفيفي: الإسلام والعلاقات الدولية، مرجع سابق، ص ٣١.

ب ــ الثاني، ويراه بعض الشافعية والذي ينظر في الأحكام والنظم المطبقة، فإن كانت أحكامه إسلامية كانت البلاد دار إسلام، وإن كانت مخالفة لأحكام الإسلام فهي دار حرب.. وهذا الرأي يرجحه بعض الشافعية وهو يقوم على أساس أن الباعث على قتال الكفار هو الحرص على استمرار سير الدعوة الإسلامية في طريقها السليم حتى تصبح كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

والأرجح عند جمهور الفقهاء هو الرأي الأول (رأي أبي حنيفة رحمه الله).

٣ ــ دار العهد: وتعد الأرض والبلاد دار عهد إذا لم يظهر عليها المسلمون وإنما عقد أهلها الصلح بينهم وبين المسلمين على شيء يؤدونه من أرضهم يسمى خراجا دون أن تؤخذ منهم جزية رقابهم لأنهم في غير دار الإسلام. أي أنها دار لها منزلة بينية بين دار الإسلام ودار الحرب، فلا هي دار إسلام تطبق فيها أحكام الإسلام، ولا هي دار حرب لا تقر بشريعة الله وتقوم الحرب بينها وبين المسلمين. ولكن أهلها دخلوا في عقد المسلمين وعهدهم على شرائط اشترطت وقواعد عينت، فتحتفظ بما فيها من شريعة وأحكام وتكون في عهد أمان مع المسلمين.

والواضح أن هذا التقسيم عند الشافعية حيث يقسمون العالم إلى : دار إسلام ودار حرب ودار عهد، بينما لم يأخذ به الآخرون حيث قسموا العالم إلى دارين فقط كما أسلفنا: دار إسلام ودار حرب. والواضح أن هذا التقسيم عند الشافعية نابع من كونهم هم أصحاب الرأي الثاني المشار إليه آنفا حيث ينظرون إلى الأحكام والنظم المطبقة فإن كانت أحكاما إسلامية كانت البلاد دار إسلام وإن كانت مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية فهي دار حرب وبين هذه وتلك تقع دار العهد عندهم. أما جمهور الفقهاء فقد عدوا دار العهد داخلة ضمنا في دار الإسلام لأنهم صاروا بالصلح أهل ذمة تؤخذ جزية رقابهم، ولأنهم هم أصحاب الرأي الأول المشار إليه أيضا آنفا حيث ينظرون إلى أمن المسلم وولايته، فإن كان المسلم آمنا بصفته مسلما ومؤديا لشعائره الدينية بحرية فهي دار إسلام، أما إذا كان غير ذلك فهي دار حرب، وفي دار العهد يكون المسلم آمنا وحرا في أداء شعائر دينية لوجود العهد.. إذن هي عندهم دار إسلام، ولا داعي لوصفها بدار الحرب التي هي ضرورة لا يلجأ لها المسلم إلا إذا لم يأمن على دينه بها.

ومن صور دار العهد التي عقدت مع المسلمين عقود مصالحه، صلح أهل نجران

وعقدهم الذي عقدوه مع الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي حدد فيه أن على المسلمين تأمين عقيدة نصارى أهل نجران وأموالهم في أرضهم وما يشاؤون شريطة أن يدفعوا للرسول صلى الله عليه وسلم قدرا من المال، قيل إنه خراج وقيل إنه جزية. وكذلك العهد الذي كتبه عبد الله بن سعد مع أهل النوبة الذين احتفظوا بموجبه باستقلالهم وقامت المبادلات التجارية مع المسلمين. وكذلك فعل معاوية مع أهل أرمينية حيث أقر بصلحه معهم بسيادتهم الداخلية المطلقة.

والواضح أن هذه الدار البينية تصبح دار إسلام بمجرد دخول أهلها في الإسلام وتطبيق أهلها لأحكام الله. كما تصبح دار حرب بمجرد نقضها للعهد وانضمامها أو تعاونها مع أهل دار الكفر ضد المسلمين، والواقع وكما قلنا في بداية الحديث أن تقسيم العالم على هذا النحو ـــ سواء دار إسلام ودار حرب أم دار إسلام ودار حرب ودار عهد ـــ نابع من الاجتهاد الذي هو مصدر ثانوي للتشريع الإسلامي، إذ لم يكن هناك نص قرآني أو سنة محمدية بهذا المعنى وهذا التقسيم ـــ وإنما هي ضرورة الأوضاع الدولية التي عاصرها فقهاء المسلمين الأوائل حيث قيام الحرب بين المسلمين وغيرهم، مما أكد وبلور فكرة هذا التقسيم لدى الفقهاء المسلمين لتبيان واقع العلاقات بين المسلمين وغيرهم والتي كانت تهيمن عليها فكرة الحرب إلا ما ندر حيث توجد المعاهدة.

وحين ننظر في تاريخ تلك الحقبة التي تم هذا التقسيم خلالها، نجد أن الرومان كانوا يقسمون الأشخاص إلى وطنيين ولاتينيين وأجانب، وكان الأجانب يسمون في الأصل بالأعداء وهم سكان البلاد المجاورة والذين إذا لم يرتبطوا مع روما بمعاهدة أو محالفة فإن لأي قادم أن يستولي عليهم كما يستولي على أي مال مباح.

وعليه فإن العالم ينقسم عند الرومان إلى دور ثلاث هي: دار الوطنيين الرومان، ودار الأجانب أو الأعداء ودار المعاهدين. وكذلك الحال في نظر الرومان اليونانيين القدماء حيث كانوا ينظرون إلى غير اليونانيين نظرتهم إلى الأعداء الذين أعدتهم الطبيعة لخدمة اليونانيين كعبيد يهدر دمهم وتستباح أموالهم، كما كانوا يطلقون عليهم تسمية «البرابرة». وكذلك الأمر في المجتمعات القديمة على الإطلاق(٢٥).

---

(٢٥) د. وهبة الزحيلي: العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص ١١٤.

وحين ننظر اليوم إلى المجتمعات المعاصرة نجد أن السائد هو ما يشبه ذلك إن لم يتطابق معه، فالدولة عندما تعلن الحرب كما تنظمها القوانين الدولية السائدة اليوم، فإن العائلة الدولية تنقسم إلى فرق ثلاثة هي على النحو التالي: فريق المحاربين ويشمل الدول المحاربة والمتعاونة معها، وفريق المحايدين ويشمل الدول التي اتخذت وضع الحياد بين المتحاربين وفريق الحلفاء وهم المتعاونون مع الدولة في حربها أو الذين يحاربون معها.

إذن طالما أن الأمر (التقسيم) موجود قديما، وموجود حديثا، ومعروف منذ القدم فلماذا يعاب هذا على المسلمين؟ ولماذا يجند التحالف اليهودي المسيحي كل طاقاته للطعن في هذا التقسيم عند المسلمين؟ ولماذا يتهمون الإسلام بالنزعة إلى الحرب لوجود هذا التقسيم عند فقهائه، بينما هو موجود وبشكل عدواني شرير في قوانينهم القديمة والحديثة؟ إن فقهاء المسلمين لم يقروا هذا التقسيم إلا كأمر واقعي، ولكنه طارىء يزول بزوال الحرب والعدوان وتعود الأرض دارا واحدة بحسب الأصل.

بقي أمر آخر قبل أن نختم حديثنا عن تقسيم العالم عند فقهاء المسلمين، وهو ما يتعلق بعزة المؤمنين وذلة الكافرين. فالله تبارك وتعالى يقول في محكم التنزيل ﴿.. **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنٰفقين لا يعلمون**﴾ سورة المنافقون: ٨، وفي هذا ربط الله سبحانه وتعالى عزة المؤمنين بعزته جل وعلا وعزة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم. ثم جعل المؤمنين أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، رحماء فيما بينهم أشداء على الكفار، وذلك في قوله تبارك وتعالى ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾ سورة الفتح: ٢٩. لهذا فإن المؤمن لابد أن يكون لينا رحيما تجاه أخيه المؤمن، عزيزا قويا تجاه الكافرين. ولهذا فإنه لابد أن يكون للمسلمين عزة وأنفة على الكفار في دار الإسلام، كما لابد أن يكون للمسلمين شدة وقوة على الكافرين في دار الحرب.

إنسانية المسلمين تجاه المدنيين والأسرى وأهل الذمة

قبل أن نختتم الحديث في هذا الفصل عن الإسلام والسلام، نـود أن نتحـدث عـن أحـد الجوانب الأساسية المهمة وهو التعامل الإنساني.الذي بـادر بـه المسلمـون أسرى الحـرب والمدنيين (غير المقاتلين) والذميين في حروبهم مستندين على ما أملته عليهم آيـات الذكـر الحكيم التـي حملوهـا إلـى أطـراف المعمـورة هـداة مبشريـن ومستنيريـن بسنـة رسولهـم المصطفى على خلق الله أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم.

عن سلمان بن بريدة، عن أبيه. قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أمَّـر أميـرا على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلميـن خيـرا. ثـم قـال: (اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغـدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى الإسلام، فإن أجابـوك فأقبـل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، واخبرهم أنهـم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها أخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الـذي يجـري علـى المؤمنيـن،ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلميـن، فـإن هـم أبـوا فسلهـم الجزية، فإن هم أجابوك فأقبل منهم وكف عنهـم، فإن هم أبوا فاستعـن بـالله وقاتلهـم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعـل لهـم ذمـة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حـاصرت أهـل حصن فـأرادوك أن تنزلهـم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن انزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا).

رواه مسلم. وعن أبي موسى قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلـم إذا بـعث أحـدا من أصحابه في بعض أمره قال: (بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا) رواه مسلم. وعـن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله صلـى الله عليه وسلم مقتولة فأنكر رسول الله صلـى الله عليـه وسلـم قتـل النساء والصبيـان) رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلا

قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (ماذا عندك؟ يا ثمامة!) فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم. وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى كان من الغد، فقال: (ما عندك؟ يا ثمامة!) فقال : قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى كان بعد الغد، فقال: (ماذا عندك؟ يا ثمامة) فقال: عندي ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أطلقوا ثمامة) فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله! والله! ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليّ. والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين كله إليّ، والله ما كان بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إليّ. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول لله صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ فقال : لا. لكن أسلمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا والله، لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم) رواه مسلم.

ومن وصايا الرسول لجند الفتخ الإسلامي قوله عليه الصلاة والسلام (لاتقتلوا امرأة ولا ذرية ولا عسيفا) وقوله أيضا (لا تقتلوا النساء والأطفال ولا المكفوفين ولا الصبيان ولا تهدموا المنازل ولا تقطعوا الأشجار) وقوله أيضا (انطلقوا باسم الله وعلى ملة رسول الله.. لا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا صغيرا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وقوله أيضا (اخرجوا باسم الله تقاتلون في سبيل الله، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع).

تلك بعض من وصاياه صلى الله عليه وسلم لسرايا الفتح والتبشير، وبعض مما في كتب السنة المطهرة عن خلقه ودعوته الشاملة لاحترام الإنسان حتى وإن انتمى لمعسكر الأعداء، والرفق بالأسير حتى وإن كان بالأمس عدوا مقاتلا للإسلام والمسلمين، وعدم التعرض للمدنيين من أطفال وشيوخ ونساء وعجزة ورهبان حتى وإن كانوا من ذوي

المقاتلين وينتمون للمعسكر المعادي للإسلام والمسلمين. ثم جاء من بعده صلى الله عليه وسلم خلفاؤه الراشدون رضوان الله تعالى عنهم أجمعين، فكان من وصايا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفيقه في الغار أبي بكر الصديق رضي الله عنه قوله: (إنّي أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكله. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم. وما فرغوا أنفسهم له. وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء، فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواما قد مخصوا أوساط رؤوسهم، وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله).[٢٦].

وهذا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب يكتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهما ومن معه من الجند يقول في كتابه: (أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون،فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا (وإن أسأنا)، ضرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل، لما علموا بمساخط الله، كفار المجوس ﴿**فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا**﴾. وأسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم. أسأل الله ذلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع. وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها

---

(٢٦) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، المجلد الأول، ص ١٢٩.

أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يزرأ أحدا من أهلها شيئا، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتليتم بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا. ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت أرض العدو فاذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم. وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم وموافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم. وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل. فإن لقوا عدوا كان أو ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص بها أحدا بهوي، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية. فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة مالم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك كصنعه بك. ثم اذك أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك. ولا تؤتي بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان).(٢٧).

وكانت وصيته لكل سرية من سرايا الجهاد في عهده رضي الله تعالى عنه عند عقد الألوية: (باسم الله وبالله وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات)(٢٨).

ولعلنا ندرك وعلى ضوء وصايا المصطفى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضوان الله تعالى عنهم أجمعين، أن هناك تلازما وترابطا بين الدعوة للقوة مع العدو المحارب، والرفق في الوقت نفسه بالأسير والعاجز والمدني غير المحارب والأطفال

---

(٢٧) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٢٨) المرجع السابق، ص ١٢٨.

والنساء والممتلكات... وتلك هي سمة الحروب الإسلامية التي خاضها جند الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، تلك السمة الإنسانية التي تميزت بها تلك الحروب وبصفة نادرة لم يعرف لها التاريخ مثيلا.

قال ابن جرير : ذكر سيف عن أبي الزهراء القشيري عن رجل من بني قشير قال : لما خرج هرقل نحو القسطنطينية لحقه رجل من الروم كان أسيرا في أيدي المسلمين ثم أفلت فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم؟ فقال: أحدثك كأنك تنظر إليهم: فرسان بالنهار، ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن (أي لا يأكلون طعام غيرهم إلا من طريق الحلال)، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه. فقال: لئن كنت صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين.

ويقول المستشرق البريطاني «توماس أرنولد»: إن من الخطأ أن نفترض أن محمدا في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام، والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره الداعي إلى الإسلام، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين. كلا، فهذا ابن سعد في طبقاته يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النبي من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم من أعضاء القبائل العربية المختلفة. بالإضافة إلى هذه الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء في خارج الجزيرة العربية، يدعوهم إلى اعتناق الإسلام.

ويقول «جورج سيل» : إن الذين يتخيلون أن دعوة الإسلام قد انتشرت بحد السيف وحده ينخدعون انخداعا عظيما.

إذن وبشهادة الأعداء ندرك أن الحروب الإسلامية كانت إنسانية الطابع وضرورة لصلاح البشرية، قواعدها لا تخرج عن الإطار العام والمحدد بالقواعد التالية(٢٩):

١ ــ لايباح قتل من لا يقاتل ومن لا يشترك في الحرب وقصرها على الميدان، لاتتجاوزه ولا يعتدى على الحرية الدينية.

٢ ــ لا يحل قتل رجال الدين الذين ينقطعون للعبادة في أماكن عبادتهم، أما الذين يشتركون في الحرب فيحل قتالهم.

٣ ــ منع قتال الصبيان والنساء والعجائز، فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن جنده قتلوا بعض الصبية فجمعهم صلى الله عليه وسلم وخطبهم قائلا: «ما بال أقوام تجاوز بهم

(٢٩) توفيق علي وهبة: الجهاد في الإسلام، مرجع سابق، ص ٢١٠.

القتل حتى قتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية، ألا لاتقتلوا الذرية، ألا لا تقتلوا الذرية».

أما الشيوخ الذين يحاربون أو يساعدون المحاربين بآرائهم فيحل قتالهم.

٤ ــ لا يجوز قتل العمال بشرط ألا يشتركوا في الحرب أو يخططوا لها، وأن ينحصر عملهم في أعمالهم.

٥ ــ لا يباح التخريب إذا لم تكن هناك ضرورة حربية، أما إذا كانت هناك ضرورة حربية كأن يتخذ العدو من البناء حصونا للاختباء فيها فيصح تخريبها.

٦ ــ لا يجوز تعذيب الجرحى أو قتلهم إذا كانوا لا يستطيعون القتال للدفاع عن أنفسهم، ويجب مداواتهم حتى يبرأوا من جروحهم ثم يؤسروا.

٧ ــ لا يجوز مقاتلة من يدع سلاحه أو يولي فرارا من المعركة.

ويقول «الماوردي» في «الأحكام السلطانية» في باب «تقليد الإمارة على الجهاد»: ولا يجوز قتل النساء والولدان في حرب ولا في غيرها ما لم يقاتلوا لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتلهم، كما نهى عن قتل الضعفاء ــ أي الأجراء والمماليك ــ وعلى القائد أن يأخذ جيشه بما أوجبه الله بالتزام أحكامه، والفصل بين حلاله وحرامه. فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (انهو جيوشكم عن الفساد، فإنه ما فسد جيش قط إلا قذف الله في قلوبهم الرعب. وانهوا جيوشكم عن الغلول، وانهوا جيوشكم عن الزنا).

تلك هي قواعد الحرب في الإسلام والتي تجعلها حربا إنسانية ولا وحشية فيها ولا غل ولا رغبة في القتل دون التمييز. وهي القواعد التي تميزها عن أي حروب أخرى مما شهده التاريخ القديم وفي عصرنا الحاضر الذي وصلت فيه البشرية إلى قمة التقدم والمدنية والحضارة كما يدعي أدعياء الحضارة في الغرب المسيحي المعاصر.

إن الطبيعة الإنسانية للحروب الإسلامية ذات جوانب متعددة، فهي تشتمل على إنسانية في معاملة العجزة والنساء والأطفال وغيرهم من غير المقاتلين والذين يطلق عليهم في القانون الدولي المعاصر لفظ: المدنيين، كما تشتمل على المعاملة الإنسانية تجاه الجرحى والأسرى والذين لم يتعرف العالم إلى تقنين التعامل معهم إلا في العصر الحديث وبصورة مشوهة لا ترقى إلى ما عرفه المسلمون قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، كما تشتمل على معاملة المسلمين لأهل الذمة والاكتفاء بأخذ جزية رقابهم مقابل أن يدافع عنهم المسلمون وعن أعراضهم وأموالهم كما يدافع المسلمون عن أعراض المسلمين وأموالهم. يقول «اللواء الركن محمد جمال الدين علي محفوظ» في كتابه «المدخل إلى العقيدة

والاستراتيجية العسكرية الإسلامية» عن تلك السمات والشمائل[٣٠]: (كان للإسلام السبق في إيجاد نظام شامل للحرب يتم بالرحمة والعدل وحسن المعاملة، وهذا ثابت مما تضمنه القرآن والسنة العملية والقولية وأعمال الخلفاء من تقنين شامل للحرب منذ أربعة عشر قرنا. في حين أن القواعد المنظمة للحرب في القانون الدولي الأوروبي بدأت منذ ثلاثة قرون وأخذت من الشريعة الإسلامية وظلت لدى أوروبا قواعد عرفية بحتة حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حيث بدأت الدول تدوينها في معاهدات أولها تصريح باريس البحري عام ١٨٥٦م، ثم اتفاقية جنيف لمعاملة جرحى ومرضى الحرب عام ١٨٦٤، ثم تصريح سانت بطرسبرج بتحريم رصاص دمدم المتفجر ثم اتفاقيتا الحرب البرية والبحرية من اتفاقيات مؤتمر لاهاي في عام ١٨٩٩م وعام ١٩٠٧، واتفاقية واشنطون في عام ١٩٢٢م عن حرب الغواصات والغازات، ثم الأشخاص المدنيين، ويلاحظ أنها لا تطبق إلا في حالة قيام الحرب بين دولتين موقعتين على المعاهدة أو الاتفاقية وإلا فلا رحمة ولا قواعد للحرب بل القتل والنهب والسلب للمحاربين وللمدنيين غير المحاربين. وكان العمل ساريا إلى عهد قريب على رد مخالفة قواعد الحرب بالمعاملة بالمثل فلو قامت حرب بين دولتين موقعتين على اتفاقات تقضي بتنظيم حالة الحرب وأخلت إحداهما فللأخرى أن تعاملها بالمثل أو تهدد بالمعاملة بالمثل، لكن المسلمين لا يلجأون إلى المعاملة بالمثل فيما حرمه الله عليهم من المثلة أو قتل النساء وغير ذلك. وبذلك لا تزال قواعد الإسلام أسمى بكثير من قواعد القانون الدولي.

فنظام الحرب في الإسلام من حيث وجوب إعلانها، وعدم قتل الشيوخ والنساء والأطفال ومن حيث إنها لا تشن للبغي والعدوان، ونظام الأسرى في الإسلام من حيث عدم القتل وجواز الفداء والمن المتبادل. كل ذلك أسبق وأكمل مما أتت به قواعد القانون الدولي الموضوعة حديثا، بل إن ما في تلك القواعد من جلال مرجعه إلى الإسلام وانتشار تعاليمه، فقد كانت الحضارة الإسلامية في الأندلس حلقة الاتصال وواسطة التطعيم).

ثم يخلص اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ من حديثه هذا إلى القول إن الحرب الإسلامية هي الحرب العادلة والمثالية في أهدافها وأساليبها ونهج رجالها. عودة

---

(٣٠) اللواء الركن/ محمد جمال الدين محفوظ: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٧٦م، ص ٧٦.

للحديث عن «توراة عزرا» التي تهيمن اليوم على الفكر المسيحي الذي يسود العالم اليوم في ظل النظم الوضعية التي أوجدتها اليهودية العالمية الشريرة، تلك النظم التي تحدثنا عنها وعن توراة عزرا في فصول الباب الأول من هذا المؤلف. وما يهمنا هنا من بنود توراة عزرا وأسفارها الشريرة هو ذلك النص الذي جاء في الإصحاح السابع من سفر التثنية (متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوبا كثيرة من أمامك ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم وخربتهم فإنك تحرمهم — أي تقتلهم. لا تقطع لهم عهدا ولا تشفق عليهم ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه وبنته لا تأخذ لابنك). وكذلك النص الذي جاء في الإصحاح العشرين من السفر نفسه (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا يعطيك الرب نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما — أي العرب الفلسطينيين —، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما — أي قتل كل من في فلسطين) وكذلك النص الذي جاء في الإصحاح العاشر من سفر يشوع (أخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم — أي قتل — ملكها وكل نفس بها ولم يبق شاردا. وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة وحارب لبنة. فدفعها الرب هي أيضا بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد اليسف وكل نفس بها لم يبق شاردا وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلبنة. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وضربوها بحد السيف وحرم — أي قتل — كل نفس بها في ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلخيش ثم صعد إلى حبرون وأخذوها وضربوهابحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها لم يبق شاردا حسب كل ما فعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها. وضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها. لم يبق شاردا بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل. فضربهم يشوع من قادش برنيع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جبعون). وكذلك النص الذي جاء في الإصحاح السادس من السفر نفسه (وحرموا — أي قتلوا

وأهلكوا ـــ كل ما في المدينة ـــ ويقصدون أريحا ـــ من رجل وامرأة وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف . وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب).. نصوص عديدة غير هذه توحي بآداب الحرب التي ابتكرها قتلة الأنبياء وأعداء الله ورسله والبشرية، ولقنوها للعالم المسيحي رويدا رويدا حتى تشبع بها. مع أن هذه النصوص كذب وافتراء إذ لم يتمكنوا من فرض هيمنتهم إلا على عدد ضئيل من قرى فلسطين في عهد يشوع، كما أن مملكة داود عليه السلام لم تمتد لتشمل كل فلسطين رغم أنها تمثل قمة ما امتلكه اليهود من فلسطين بالقوة والغدر في فترة وجيزة[٣١].

إن هذا النهج التوراتي الشاذ هو الذي هيمن على الفكر المسيحي ولا يزال يهيمن، هو الذي استمدت النظم الوضعية المعاصرة أصولها وفكرها منه، وهو الذي تستند إليه معظم القوانين الدولية المعاصرة التي تنظم شئون المدنيين والأسرى والجرحى في الحروب.

في ظروف تاريخية واجتماعية وعقائدية شريرة كتلك التي أتت بها التوراة المحرفة ظهر الإسلام وسار جنده وهم يحملون الرحمة ـــ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ـــ ويسوقون أمامهم إلى الإنسانية البائسة أسمى معاني الحب والإخاء والعدل والمساواة، يحتضنون بأيديهم الحانية كل متقبل لتلك المعاني السامية، ويدعون بالهداية لكل من يرفضها، ويضربون بأمر الله وبسيوفهم كل من يعترض طريق الدعوة ويحاول منع انتشارها ووصول معانيها السامية للإنسانية البائسة والمتعطشة.

في ظل تلك الظروف كانت الحرب للنهب والسلب، وكانت أداة الحرب والقتل لا تفرق بين محارب ومسالم، وكان المقاتلون لا يتورعون عن قتل الجريح والأسير، وكانوا لا يتوانون عن قتل كل طفل وامرأة وعاجز.. ثم جاء الإسلام وحرم الحرب إلا أن تكون ضرورة لدفع شرور هي أكبر وأعظم من شرور الحرب نفسها، ثم بين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أن تلك الضرورة لا تعني الاندفاع في إراقة الدماء دون تمييز بين المقاتل وغير المقاتل ودون تمييز بين القادر على القتال والعاجز عنه مما يخرج المقاتل المسلم عن الهدف السامي الذي قاتل من أجله والمتمثل في أن يجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

(٣١) لمزيد من الإيضاح والتفاصيل يراجع كتاب (صراعنا مع اليهودية بين الصلح والمستحيل والمواجهة الحتمية) للمؤلف.

لقد حرم الإسلام الحرب إلا في الضرورة، وحرم قتل غير المقاتلين على النحو التالي[٣٢]:

١ ــ المرأة.

٢ ــ الصبي.

٣ ــ الشيخ الفاني.

٤ ــ الرجل المقعد.

٥ ــ الرجل يابس الشق.

٦ ــ الرجل الأعمى.

٧ ــ الرجل المقطوع اليد والرجل من خلاف.

٨ ــ الرجل المقطوع اليد اليمنى.

٩ ــ الرجل المعتوة.

١٠ ــ الراهب في صومعته.

١١ ــ السائح في الجبال الذي لا يخالط الناس.

١٢ ــ قوم ترهبوا واطبقوا عليهم الأبواب.

ثم توصل العالم في عصره الحديث إلى العلاقات الدولية في حالات الحرب وما تضمنته من معاهدات دولية تحدثنا عنها في موضوع سابق، وأصبح هناك نوع من تقنين الحرب تجاه المدنيين الذين حماهم الإسلام من ويلات الحرب وحرم قتلهم قبل أربعة عشر قرنا من اليوم. وهذه العلاقات الدولية في حالات الحرب وما تم توقيعها في ظلها من معاهدات تحرم قتل المدنيين وغير المقاتلين وضرب المدن واستخدام أنواع محددة من الأسلحة والذخائر، لا تحمي ولا تستطيع أن تحمي هؤلاء المدنيين في ظل نظم يسيطر عليها الشيطان ويهيمن عليها الفكر التوراتي. إذ إن المتحاربين لن يتورعوا عن عمل ما من شأنه أن يكفل لهم النصر، كما أن الدول غير الموقعة على مثل هذه المعاهدات ستكون معرضة لارتكاب أبشع الجرائم بحقها وحق مواطنيها حيث لم توقع مع الموقعين ولم تتعاهد مع المتعاهدين. كما أن خرق أي دولة لهذه المعاهدات والاتفاقات سيجعل خصومها في حل من هذه المعاهدات وعليه فلا ضير من استخدام كل وسائل الحرب معها ولا ضير من قتل أي من رعاياها سواء كان محاربا أم مسالما.

(٣٢) توفيق علي وهبة: الجهاد في الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧٠.

في حين أن المسلم لا يمتنع عن التعرض للمدنيين من رعايا الدول الأخرى لوجود معاهدة بين «دولته» ودولهم، ولا يرتكب ذلك حين تنقض تلك الدول المعاهدات والمواثيق مع «دولته».. وانما يمتنع لوجود معاهدات أعظم وقيود أعظم ومواثيق أعظم، يمتنع لعهده مع الله تبارك وتعالى ومع رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم. وقد حرم القرآن الكريم والسنة الشريفة عليه ارتكاب ذلك بأي صورة كانت..

وإنسانية الحروب الإسلامية لم تقتصر على المدنيين من غير المقاتلين، وإنما امتدت لتشمل جرحى الحرب وأسراها، وهي الإنسانية التي تنبع من المعاملة التي حرص القرآن الكريم والسنة الشريفة أن يتعامل بها المسلم مع أولئك الجرحى والأسرى. وهذه المعاملة إنما تنبع من الهدف أو مجموعة الأهداف التي يقاتل من أجلها المسلم فهو لا يقاتل كما نعلم ليسلب أو لينهب أو ليحتل أراضي الغير أو ممتلكاتهم ولا ليعتدي على أعراضهم ودمائهم ولا لينتقم من هؤلاء أو أولئك، وهو لا يقاتل لأن رئيس الدولة يضمر العداء لرئيس الدولة الأخرى أو لأن رئيس الحزب يعادي رئيس الحزب الآخر في الدولة المجاورة.. وإنما يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى. إذن لا داعي في ظل هذا الهدف السامي النبيل لأن يقتل الجريح الذي أثخنته الجراح ولا الأسير الذي لا حول له ولا قوة. يقول المولى تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا، فوقٰهم الله شر ذلك اليوم ولقٰهم نضرة وسرورا**﴾ سورة الإنسان: ٥ ــ ١١. في هذه الآيات البينات يبين الله سبحانه وتعالى أن إطعام الأسير مثله كمثل إطعام المسكين واليتيم، وأن هذه الصفة هي من صفات الأبرار الذين وعدهم الله تبارك وتعالى بالجنة. كما بين تبارك وتعالى أن هذا الإطعام ليس منه وأن المسلم لا يريد من اليتيم والمسكين والأسير أي أجر أو جزاء أو شكر، وإنما يريد بذلك رضا الله تبارك وتعالى.. إذن هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بإكرام الأسرى. وقد مرت بنا قصة أسر ثمامة بن أثال حيث قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (أحسنوا اساره) ثم قال: (اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه) والمعروف أن أقوال محمد صلى الله عليه وسلم وأفعاله لا تقتصر على حالة بعينها وإنما هي سنة تمضي إلى يوم يبعث الله عباده.

وعليه ندرك أن القرآن والسنة يأمران المسلم أمرا بإكرام الأسير وإطعامه والرفق به، وليس على المسلم إلا طاعة الأمر إذ هو مأمور بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر من ولاة المسلمين ولا مجال لمن شهد أن: لا إله إلا الله وأن محمدا عبد الله ورسوله، أن يعصى ما أمر به. في حين أن الاتفاقات الدولية التي توصي بحسن معاملة الأسرى قابلة كما بينا للنقض وبعدة طرق مختلفة. حين نصر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين في غزوة بدر وعادوا إلى المدينة ومعهم الأسرى من قريش، كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن كلف بحراسة الأسرى هو قوله صلى الله عليه وسلم (استوصوا بهم خيرا).

وقد روى أحمد في مسنده قول أحد هؤلاء الأسرى وهو «عزيز بن عمير: (كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فأستحي فأردها على أحدهم فيردها علي ما يمسها).

إذن لقد اتسمت معاملة المسلمين لأسرى الحرب بالرفق والرحمة من الناحيتين : النظرية والعملية، ولم يبطرهم النصر، إذ ليس من حقهم التعسف بالمهزمين ورد الكيد لهم، وهم إذ يفعلون ذلك إنما يفعلونه لأنهم مأمورون من الله تبارك وتعالى ومن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بحسن المعاملة، كما أن الإسلام قد أدبهم ونزع الغل الذي هو في صدر كل إنسان لم يهذبه الإسلام بتعاليمه الربانية العظيمة.

والأسر عند المسلمين ليس للقتل أو للانتقام أو للتعذيب، وإنما هو مؤقت ينتهي أمره بعد الحرب بواحدة من الطرق التي أمر الله تعالى عباده المسلمين بها في قوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمٰلهم**﴾ سورة محمد: ٤. إذن المسلمون مقيدون بمبادىء الإسلام وبحكم الإسلام ، حكمه سبحانه وتعالى في الآية إما : المن ويعني الصفح عن الأسير وفك أسره دون مقابل حين تكون مصلحة المسلمين تقضي ذلك، وقد مرت بنا قصة ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، كما أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قد منّ على أهل مكة بعد أن فتحها الله على المسلمين عام الفتح وقال صلى الله عليه وسلم لهم: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، اذهبوا فأنتم

الطلقاء). وإما : الفداء ويعني دفع الفدية بالمال حيث يدفع الأسير فدية مال حتى يخلى سبيله أو أن يفديه قومه بقدر معلوم من المال، كما تعني مفاداة أسرى المسلمين بهؤلاء الأسرى، وذلك وفق ما تقتضيه مصلحة المسلمين أيضا. وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم فدية أسرى المشركين في إحدى الغزوات أن يعلم الأسير من المشركين عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فدى رجلين من أصحابه برجل من المشركين من بني عقيل كما جاء في مسند أحمد والترمذي.

ونظام الأسر في الإسلام يرتبط ارتباطاً وثيقا بنظام الرق الذي كان سائدا حين ظهور الإسلام، فالمعروف أن الإسلام لم يفرض الرق ولم ينه عنه. وقد كان الرق سائدا، فجاء الإسلام وسد المنافذ إليه وجعل تحرير الرقيق مبدأ من مبادئه ومنهجا من مناهجه حيث جعل الله سبحانه وتعالى من تحرير النفس كفارة للقتل وكفارة للعديد من المعاصي التي ربما يرتكبها الانسان، ولم يبح الاسترقاق إلا في الحرب حيث كان الأسير آنذاك يستعبد ويسترق، ولا مجال إلا لمعاملة ذلك بالمثل من قبل المسلمين، إذ من غير المعقول أن يسترق الأعداء المسلمين الذين يقعون أسرى بين أيديهم في حين يطلق المسلمون ما يقع في أيديهم من أسرى الأعداء إما بالمن وإما بالفداء المالي، ولهذا يشتمل الفداء على مفاداة أسرى المسلمين بأسرى الأعداء كما بينا. يقول «الدكتور أحمد شلبي» في كتابه «الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامي»(٣٣): (من الواضح أن الإسلام كان يتجه إلى إلغاء الرق وتحرير البشرية من وصمة استعباد الإنسان للإنسان، فأغلق الإسلام أكثر الطرق التي كانت تؤدي إلى الرق في الأديان والنظم السابقة، ولكن قفل باب الرق عن طريق الأسر في الحروب كان يحتاج لموافقة غير المسلمين عليه حتى لا يسترق غير المسلمين من المسلمين، ولا يستطيع المسلمون أن يعاملوهم بالمثل، فترك الإسلام هذا الباب مفتوحا بعد أن ضيقه ونظمه حتى ترتضي البشرية حكم الله وحكم العقل في قفله تماما).

بقي لنا أن ننوه وقبل أن نختم الحديث عن إنسانية الحروب الإسلامية تجاه الأسرى، بالحالات التي يقدم فيها المسلمون على قتل الأسير، وهي المقتصرة على كون الأسير مطالبا قبل أسره بدم أو أنه كاد للإسلام والمسلمين قبل أسره بما أوجب على المسلمين إهدار دمه. وهذا ما يوضح لنا أن قتله ليس بسبب أسره وإنما بسبب فعله قبل الحرب وربما أثنائها، الأمر الذي يجعل المسلمين يقدمون على قتله في أي فرصة كانت حتى وإن

(٣٣) د. أحمد شلبي: الجهاد والنظم العسكرية، مرجع سابق، ص ١٢٥.

كانت الأسر. وهو على أية حال لم يتم إلا في إطار محدود جدا، كقتل اثنين يوم بدر وواحد يوم أحد وثمانية يوم فتح مكة. وإلى جانب تلك المعاملة للأسرى فقد نهى الإسلام عن قتل الجرحى الذين لم يعودوا قادرين على القتال، كما نهى عن التمثيل بجثث القتلى ولم يمانع في تسليم الجثث للعدو كما حدث في تسليم جثة نوفل بن عبد الله عقب الخندق، وحث الإسلام على دفن جثث القتلى ونهى عن تركها على الأرض.

وإنسانية الحروب الإسلامية تمتد لتشمل أهل الذمة حيث جعل الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم لهم العديد من الحقوق في الدولة الإسلامية:

١ ــ الحرية الدينية.

٢ ــ الحقوق المدنية.

٣ ــ الحقوق الجنائية.

٤ ــ حفظ النفس.

٥ ــ حفظ العرض.

٦ ــ حفظ الممتلكات.

٧ ــ الإعفاء من الخدمة العسكرية.

٨ ــ حرية الأمور الشخصية بما لا يخل بآداب المجتمع المسلم وعقيدته.

وتأمين هذه الحقوق والحريات لهم في الدولة الإسلامية في عهد الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم وفيما تلا عهده من عهود الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية، إنما يدل دلالة قطعية على سماحة الإسلام ونبل أهدافه ومقاصده وعلى إنسانيته حتى مع غير المؤمنين به ممن دخلوا مع المسلمين في عقد ذمة. أما الجزية التي يجب أن يدفعوها مقابل هذه الحقوق والتي اعتقد أعداء الإسلام أنها تحسب عليه في حين أنها تحسب له فهي ما يفرض على أهل الذمة ــ وهم أهل الكتاب من يهود ونصارى ــ من مال يؤدونه للمسلمين إذا انتصر عليهم المسلمون في حرب وملكوا أمرهم، وبموجبها يدخلون في ذمة المسلمين وحمايتهم.. وهي بهذا تكون كالضامن لهؤلاء الكتابيين. والجزية كالضريبة التي تأخذها الدول اليوم من رعاياها وربما بصورة أرفق وأضمن مما هي عليه الضرائب اليوم، فالضريبة تؤخذ بقدر الدخل، والجزية تؤخذ بقدر الاستطاعة. والضريبة تأخذها الدول لتنفق بها على تأمين متطلبات المجتمع ومتطلبات الدفاع عنه، والجزية تؤخذ مقابل قعود الذمي في دولة الإسلام عن قتال الأعداء وتولي المسلمين

الدفاع عنه وعن عرضه وأمواله.. ولا أدري لماذا يضجر أهل الكتاب اليوم من الجزية التي فرضها الإسلام ولا يضجرون من الضرائب التي تفرضها دولهم المعاصرة عليهم ولا يدرون كيف تنفق؟ ولماذا لا يتضجرون من إعفاء العسكريين في هذه الدول من الضرائب في حين يدفعها غير العسكريين؟ أليس في هذا اقتباس من الجزية وحكمها وطرق جبايتها، حيث تؤخذ على الذمي الذي لا يقاتل ويترك المسلم مقابل دفاعه عن الذمي؟ أليست الحالتان متشابهتين حيث يعفى العسكري مقابل دفاعه عن المدنيين الذين يدفعون الضرائب!؟.

لقد عرفت الجزية عند الأمم القديمة وبصورة بشعة، كما توجد اليوم بصور شتى حيث تفرض الدول الضرائب على مواطنيها، كما تفرض الدول الكبرى الإتاوات على الدول المستضعفة، فلماذا يعيبون على الإسلام وهم يفعلون ما هو أنكى منه وأشد وما قد زاوله قدماؤهم بما هو أبشع مما يظنونه بشعا في الإسلام!؟.

إن أمر الله تعالى لعباده المسلمين بفرض الجزية من المال على أهل الكتاب حين الظفر بهم يقابله أمره تعالى بعدم قبول الجزية من المشركين العرب وهم أبناء عمومة ورحم وأمره للمسلمين بأن يتركوا الخيار لهؤلاء المشركين إما بدخول الإسلام أو بالقتل.. إن في هذا ما يكفي من الدليل لهؤلاء الكتابيين لو أنهم يعقلون. يقول «الدكتور كامل سلامة الدقس» في كتابه «العلاقات الدولية في الإسلام»(٣٤): (قال توماس أرنولد : ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين ــ كما يريدنا بعض الباحثين على الظن لونا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كلفتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة: «أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم». وكذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض المدن المجاورة للحيرة: «فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا». ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر. لما حشد الإمبراطور هرقل جيشا ضخما لصد قوات المسلمين، كان لزاما على

(٣٤) د. كامل سلامة الدقس: العلاقات الدولية في الإسلام، الطبعة الأولى (جدة دار الشروق، ١٩٧٦م)، ص ٢٩٩.

المسلمين نتيجة لما حدث، أن يركزوا على نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم: فلما علم بذلك أبو عبيدة بن الجراح قائد العرب (يقصد المسلمين) كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبي من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: «إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع. وانكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم». «وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: «ردكم الله علينا ونصركم عليهم» أي على الروم ــ فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا وأخذوا كل شيء بقي لنا». هذا مع العلم أن الروم بنفس ديانة هؤلاء القوم!.

أين هذا مما تفرضه اليوم الدول العظمى من إتاوات على الشعوب المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها!؟ وأين هذا مما تفرضه اليوم الدول العظمى من ضرائب على شعوبها لتقتل بهذه الضرائب الشعوب المستضعفة في فلسطين ولبنان وأفغانستان وإريتريا وتشاد وفيتنام ودول أمريكا الجنوبية!؟ وأين هذا مما تقدمه الدول الكبرى من حصيلة هذه الضرائب من دعم لليهود المحتلين في فلسطين وعصابات التمرد في أمريكا الجنوبية وأفريقيا وآسيا!؟.. ليس هناك من مجال للمقارنة لو كانوا يفقهون أو يعقلون.

البـــاب الثـالث

تمهيـــد

بعدما تحدثنا عن ماهية السلام في الإسلام في فصول البـاب الثانـي مـن هـذا المؤلـف، حيث تحدثنا عن طبيعة الإسلام الذي هو السلام الذي منحه الله تبارك وتعالى للبشرية وعن الحقوق التي أوجبها الإسلام للإنسان وكذلك الحريات التي منحها لـه. ثـم بينـا الأسبـاب التي من أجلها يحارب المسلمون وماهية العقيدة العسكرية الإسلاميـة، وكـذلك العلاقـات الدولية التي أرسى دعائمها الإسلام الخالد وتقسيـم العالـم عنـد فقهـاء المسلميـن إلـى دار الإسلام ودار الحرب. ثم ختمنا حديثنا عن إنسانية الحروب الإسلامية وإنسانيـة المسلميـن في حروبهم وتعاملهم أثناءها وبعدها مع المدنيين والأسرى وأهل الذمة.

نأتي للحديث في فصول هذا الباب عن ماهية الحـرب فـي الإسلام، وهـو مـوضوع لا ينـفصل الحـديث فيـه عـن سابقـه ــ ماهيـة السلام فـي الإسلام، حيـث أن السلام قاعــدة والحرب استثناء عند المسلمين كما بينا. وعليه فإن حديثنا في فصول هذا الباب ليست إلا استكمالا للحديث في فصول الباب الثاني من هذا المؤلـف، وذلك لارتبـاط الحـرب التـي هي مبدأ من مبادىء الضرورة عند المسلمين كما بينا بالسلام الذي هو القاعـدة والأساس. وهذا يتضح من حديثنا عن أسباب الحرب في الإسلام ودوافعها ضمن مواضيع السلام فـي الإسلام وكذلك حديثنا عن العقيدة العسكرية الإسلامية وعن العلاقات الدولية فـي الإسلام في حالة الحرب وكذلك إنسانية الحروب الإسلامية.

إنني لم أقصد الفصل بين الأمرين كما قد يتبادر إلى الذهن حين خصصت بابا للحديث عن السلام في الإسلام وبابا للحديث عن الحرب في الإسلام، وإنما قصدت تيسير البحث والفهم على القارىء فأرجو ألا أكون قد جانبت الصواب والله الهادي إلى سواء السبيل.

الفصـــل الأول : طبيعة الحرب في الإسلام

* حقيقة الجهاد.
* طبيعة الجهاد.
* فضل الجهاد وأحكامه.
* آداب الحرب في الإسلام.
* استراتيجية الحرب في الإسلام.

حقيقة الجهـاد

الجهاد في اللغة مشتق من الجهد والمشقة، فيقال جهدت نفسي وأجهدت. والجهد هو الطاقة والوسع. والجهد «بالضم» هو الوسع والطاقة، والجهد «بالفتح» هو المشقة كما يستعمل بمعنى الغاية والنهاية وهو مصدر من «جهد» في الأمر جهدا من باب نفع «إذا طلب الشيء حتى بلغ غايته في الطلب. وقال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: الجهد هو الطاقة والمشقة، واجهد جهدك بمعنى ابلغ غايتك، وقال في مفردات القرآن: والجهاد والمجاهدة هو استفراغ الوسع في مدافعة العدو.

والجهاد يعود في اشتقاقه إلى الجهد بالفتح والضم جميعا. ويعني في اللغة: بذل الوسع والطاقة في الطلب، واستفراغها لتحقيق أمر من الأمور. وذلك يقتضي وجود طرفين يبذل كل منهما جهدا ــ أي طاقة ومشقة ــ في دفع الآخر، فهو يتضمن معنى المدافعة بين طرفين يبتغي كل واحد منهما تحقيق غايات متناقضة مع ما يبتغيه الطرف الآخر[1].

ذلك هو معنى الجهاد في لغة العرب.. جاء الإسلام حيث أنزل الله تبارك وتعالى القرآن الكريم على رسول الهدى صلى الله عليه وسلم ليهدي به الناس إلى سبل الرشاد. وكان نهج الدعوة وأسلوبها مسترشدا بقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجٰدلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين**﴾ سورة النحل: ١٢٥، وقوله تبارك وتعالى ﴿**ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون**﴾ سورة المؤمنون: ٩٦، وقوله تبارك وتعالى ﴿**ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقٰها إلا الذين صبروا وما يلقٰها إلا ذو حظ عظيم، وإما ينزغنك من الشيطٰن نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**﴾ سورة فصلت: ٣٤ ــ ٣٦. إلا أن قوى الشر والوثنية لم تترك الرسول والذين آمنوا معه يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولم تتقبل المجادلة بالتي هي أحسن. فقد بادرت إلى الكيد للرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه، وبادرت إلى الإيذاء وصد كل من يحاول

(١) د. محمد نعيم ياسين: حقيقة الجهاد في الإسلام، الطبعة الأولى (الكويت: دار الأرقم، ١٩٨٤)، ص ٣١.

التعرف على حقيقة الرسالة من وفود الحجاج الذين كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يعرض رسالته عليهم. ثم تآمرت تلك القوى الباغية وكان حصارها الاقتصادي للمسلمين والتضييق عليهم وتعذيبهم، ووصل التآمر حده ومنتهاه عندما قرروا قتل رسول الدعوة والقضاء النهائي عليها بقتله.

كان المسلمون يحترقون شوقا لرد الكيد ومقابلة الشر بالدفاع عن النفس على أقل تقدير، وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يحثهم ــ بل ويأمرهم بالتروي، وأخبرهم أن الله لم يأمره بالقتال. ثم استمرت هذه الأوضاع حتى أذن الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم ومن معه من المؤمنين بالقتال وذلك في قوله تبارك وتعالى **﴿أذن للذين يقٰتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسٰجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكنٰهم في الأرض أقاموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾** سورة الحج: ٣٩ ــ ٤١. وقد نزلت هذه الآية كما يقول ابن كثير في تفسيره في محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين أخرجوه من مكة، وذلك أثناء هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعه الصديق أبوبكر رضي الله تعالى عنه بين مكة والمدينة. وقال عروة بن الزبير ومجاهد والضحاك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حبان وقتادة وغيرهم، إن هذه أول آية نزلت في الجهاد. وعن ابن عباس قال: لما أُخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبوبكر: أخرجوا نبيهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن، قال ابن عباس فأنزل الله عزوجل **﴿أذن للذين يقٰتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾** قال أبوبكر رضي الله عنه: فعرفت أن سيكون قتال.

ثم نزل قول الحق تبارك وتعالى **﴿وقٰتلوا في سبيل الله الذين يقٰتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾** سورة البقرة: ١٩٠. ثم نزل قوله تبارك وتعالى **﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عٰهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكٰفرين، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أنَّ الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم، إلا الذين عاهدتم من المشركين**

ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم﴾ سورة التوبة: ١ ــ ٥. ثم نزل قوله تبارك وتعالى **﴿قٰتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتٰب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صٰغرون﴾** سورة التوبة: ٢٩.. هكذا فرض الله الجهاد على مراحل بيناها عند حديثنا عن أسباب الحرب وأهدافها في شريعة الإسلام، ثم جاء تبيانه في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم. وبهذا أصبح للجهاد معنى في شريعة الإسلام إلى جانب معناه الذي بيناه في اللغة، والذي يتتبع آيات الذكر الحكيم عن الجهاد وأحاديث السنة النبوية الشريفة يدرك أن للجهاد عند الشارع معنيين: معنى عام ومعنى خاص يدخل في إطار ومضمون المعنى العام. وهو في معناه العام كما جاء في القرآن والسنة يقترب من معناه الذي بيناه في اللغة، مع وجود قيد عليه وهو أن يكون في سبيل الله ولإعلاء كلمته وتحقيق الحياة التي أرداها الله للإنسان فالجهاد بهذا المعنى العام يعني: بذل الجهد والطاقة وتحمل المشقة في مدافعة العدو ــ أيا كان هذا العدو ــ الذي يسعى لأن يحرف الإنسان عن طريق الحق والحيلولة بينه وبين هدى الله سبحانه وتعالى، ويدخل ضمن هذا المعنى للجهاد جميع الأحوال التي يقسر المؤمن عليها نفسه للالتزام بتوجيهات الإسلام وأوامر الله ورسوله والابتعاد عن المعصية، وجميع الوسائل التي يتخذها لحمل الناس على ذلك الالتزام، وكذلك كل جهد يبذله للمحافظة على تلك الأوضاع ودفع كل من يعتدي عليها أو يحاول تغييرها.. وعليه فإن الجهاد بهذا المعنى الواسع يمثل الجانب العملي الحركي من الإسلام، وهذا ما يتطابق مع قول المصطفى صلى الله عليه وسلم (الجهاد ذروة سنام الإسلام). إذ أن الدعوة الإسلامية وهي تسعى لإحداث التغيير في حياة البشر إلى ما فيه صلاحهم وخير دنياهم ونعيم آخرتهم،

لابد أن يكون لها من الوسائل ما تستطيع أن تحقق به أهدافها النبيلة. والجهاد بمعناه العام كما بيناه هو الوسيلة وهو الجانب الحركي في الدعوة الإسلامية التي لم تكن إلا نظرية وحركة، وقول وعمل. وقد عرف شيخ الإسلام «ابن تيمية» الجهاد بهذا المعنى العام في قوله: (الجهاد حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحب الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان).

وبهذا المعنى العام للجهاد وردت آيات من الذكر الحكيم وبعض من الأحاديث النبوية الشريفة. من بين هذه الآيات قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿والذين جٰهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين﴾** سورة العنكبوت: ٦٩، وقوله تبارك وتعالى **﴿فلا تطع الكٰفرين وجٰهدهم به جهادا كبيرا﴾** سورة الفرقان: ٥٢، وقوله تبارك وتعالى **﴿ومن جٰهد فإنما يجٰهد لنفسه إن الله لغني عن العٰلمين﴾** سورة العنكبوت: ٦، وقوله تبارك وتعالى **﴿وجٰهدوا في الله حق جهاده هو اجتبٰكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمٰكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة واعتصموا بالله هو مولٰكم فنعم المولى ونعم النصير﴾** سورة الحج: ٧٨.

أما الجهاد بمعناه الخاص كما جاء في القرآن والسنة فإنه بذل الجهد والطاقة بالقتال في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، وذلك أهم أنواع الجهاد وأفضله وأخطره لما فيه من زيادة البذل والتضحية بالنفس وتعريضها للقتل في سبيله ولهذه الخطورة لهذا النوع من الجهاد، فقد أبرزه الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم وأبرز فضله وما ينتظر فاعله من النعيم، كما حرصت السنة النبوية الشريفة على إبراز فضله وفضل المجاهد في سبيل الله. والجهاد في سبيل الله بمعناه الخاص لا يقتصر على القتال المباشر فحسب وإنما يشمل الجهاد بالإعداد وبالتدريب وبالحراسة وبالإمداد وبالمرابطة وغير ذلك من الأعمال التي تدعم وتسند المجاهدين في ميدان القتال (المجهود الحربي) للدولة الإسلامية، وإن كانت هذه الأعمال تتفاوت في أجرها عند الله تبارك وتعالى بتفاوت ما فيها من المشقة والتضحية إذ يأتي الاشتراك الفعلي في مقاتلة الأعداء في مقدمتها[٢].

وبهذا المعنى الخاص للجهاد (أي مقاتلة الأعداء) وردت معظم آيات الذكر الحكيم عن الجهاد وكذلك سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم كما سنرى. من بين هذه الآيات قول الحق تبارك وتعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجٰرة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجٰهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنٰت تجري من تحتها الأنهٰر ومسٰكن طيبة في جنٰت عدن ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر**

---

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢.

المؤمنين﴾ سورة الصف: ١٠ ــ ١٣، وقوله تبارك وتعالى **﴿لا يستوي القٰعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجٰهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القٰعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجٰهدين على القٰعدين أجرا عظيما﴾** سورة النساء: ٩٥، وقوله تبارك وتعالى **﴿انفروا خفافا وثقالا وجٰهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** سورة التوبة: ٤١.

وقوله تبارك وتعالى **﴿لا يستأذنك الذي يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجٰهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين﴾** سورة التوبة: ٤٤. إلى جانب تلك الآيات التي ورد فيها الجهاد بلفظه ومعناه الخاص الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال فقد ورد لفظ القتال في العديد من الآيات بمعنى الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقٰتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلونهم عند المسجد الحرام حتى يقٰتلوكم فيه فإن قٰتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكٰفرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين﴾** سورة البقرة: ١٩٠ ــ ١٩٣، وقوله تبارك وتعالى **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقٰتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾** سورة التوبة: ١١١، وقوله تبارك وتعالى **﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾** سورة البقرة: ٢١٦.

من هذا يتضح لنا معنى الجهاد شرعا والذي يتفق أئمة السلف الصالح وعلماء الأمة على أنه يعني: قتال الكفار على وجه الخصوص حتى يسلموا وينقادوا للحق ويؤمنوا بالله تبارك وتعالى وبرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

وعليه ندرك حقيقتين هامتين من كل ما تقدم وهما:

الحقيقة الأولى : أن المعنى اللغوي للجهاد يشترك مع معناه الاصطلاحي في بذل

الوسع والطاقة والجهد والمشقة، وأن معناه في اللغة أوسع وأشمل من الاصطلاح الذي يقتصر كما بينا على بذل الوسع والطاقة وتحمل المشقة وبذل النفس في نصرة الدين وإعلاء كلمة الله سواء باللسان إن أجدى وإلا بالسيف إذا لم يكن هناك بد من تحكيمه.

الحقيقة الثانية: أن الجهاد لا يقتصر على مجاهدة الأعداء من الكفار بقتالهم كما قد يتبادر إلى ذهن المسلمين، وإنما هو أعم وأشمل من ذلك بكثير يقول «ابن قيم الجوزية» رحمه الله في «زاد المعاد في هدي خير العباد»[٣]: (لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقتبه، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها فجاهد في الله حق جهاده بالقلب، والجنان، والدعوة، والبيان، والسيف، واللسان، وكانت ساعاته موقوفه على الجهاد، بقلبه، ولسانه، ويده، ولهذا كا أرفع العالمين ذكرا، وأعظمهم عند الله قدرا.

الجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين. فجهاد النفس أربع مراتب أيضا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى، ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق، ويعمل به، فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السموات.

(٣) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، الجزء الثالث، ص ٥ وما بعدها.

وأما جهاد الشيطان، فمرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاد على دفع ما يلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر. قال تعالى ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا، وكانوا بآياتنا يؤمنون**﴾ سورة السجدة: ٢٤. فأخبر أن إمامة الدين، إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات. وأما جهاد الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

وأما جهاد أرباب الظلم، والبدع، والمنكرات فثلاث مراتب.

الأولى: باليد إذا قدر فإن عجز، انتقل إلى اللسان، فإن عجز، جاهد بقلبه، فهذه ثلاث عشرة مرتبة من الجهاد، و «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق». ولا يتم الجهاد إلا بالهجرة، ولا هجرة ولا جهاد إلا بالإيمان، والراجون رحمة الله هم الذين قاموا بهذه الثلاثة. قال تعالى ﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم**﴾ سورة البقرة: ٢١٨.

ولكون الجهاد عاماً وخاصاً، وعلى نحو ما سار عليه أئمة وعلماء السلف الصالح في تصنيف الجهاد وتعداد مراتبه وأنواعه، فقد سار العلماء المعاصرون من أبناء الأمة الإسلامية، محاولين تصنيف مراتب الجهاد وأنواعه. من هؤلاء «الأستاذ سعيد حوى» في كتابه «جند الله ثقافة وأخلاقا» حيث عدد أنواع الجهاد على النحو التالي(٤):

النوع الأول: الجهاد باللسان، ويتسلسل الجهاد اللساني على النحو التالي:

المرحلة الأولى: بلاغ وبيان وإقامة حجة وتبيان حقائق.

المرحلة الثانية: موعظة وتذكير وتخويف من الله بلطف وشفقة.

المرحلة الثالثة: إن كان مسلما عنفناه، وإن كان غير مسلم كالذمي وأمثاله بقينا في حدود الجدال بالتي هي أحسن.

---

(٤) سعيد حوي: جند الله ثقافة وأخلاقا، الطبعة الثالثة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٩)، ص ٣٦٣ وما بعدها.

النوع الثاني: الجهاد التعليمي، وهو بذل الجهد مع من استجاب للإسلام من أجل تعليمه وتثقيفه وتربيته وقد يتلازم الجهاد اللساني والجهاد التعليمي أحيانا لكن تبقى الفوارق بينهما.

النوع الثالث: الجهاد باليد والنفس، وهو الذي إذا أطلقت كلمة الجهاد انصرفت إليه، وإذا سمعته الأذن انصرف الذهن فيه إلى جهاد الكافرين ابتداء بأن نهاجمهم في عقر دارهم دار الحرب، أو أن ندفعهم عنا إذا هاجمونا، أو نجليهم إذا احتلوا أرضنا، وهذا لا شك من الجهاد باليد، وهو جهاد نحو الخارج. ولكن الجهاد باليد أوسع من ذلك إذ يدخل فيه كذلك جهاد المرتدين، والبغاة، والظالمين، والفاسقين، والناكثين، في الأرض الإسلامية، فهو جهاد بالنفس داخليا.

النوع الرابع: الجهاد السياسي، حيث الحكومات ثلاث:

الأولى: إسلامية واجبنا معها الطاعة لها، والإخلاص لها، وبذل التضحية ودعمها، والمحافظة عليها.

الثانية: إسلامية جائرة واجبنا معها نصحها وتقويمها

الثالثة: كافرة واجبنا تغييرها وإنهاؤها.

النوع الخامس: الجهاد المالي، وهو كالشرط للأنواع الأربعة السابقة في العمل العام، ولا يقوم نوع من أنواع الجهاد إلا به.

الجهاد التعليمي يحتاج إلى مال من أجل الكتب ومن أجل تفرغ المعلمين.

والجهاد اللساني يحتاج إلى مال من أجل الكتب والنشرات والجرائد والمجلات و..
والجهاد باليد بأنواعه كلها يحتاج إلى المال والسلاح والعتاد والإنفاق على أسر الشهداء.

والجهاد السياسي يحتاج إلى مال للمتفرغين والاختصاصيين ولإيجاد وسائل قوة. إن الجهاد بدون مال يتعطل، لذلك قرن الله الجهاد بالمال بالجهاد بالنفس). أما «الدكتور محمد نعيم ياسين» في كتابه «حقيقة الجهاد في الإسلام» فقد عدد أنواع الجهاد على النحو التالي(٥):

أولا: أشكال الجهاد بالنظر إلى الأعداء، والمقصود بالأعداء جميع العقبات والموانع والدوافع التي تحول دون تحقيق أهداف الدعوة الإسلامية وهؤلاء الأعداء كثر يساند

(٥) د. محمد نعيم ياسين: حقيقة الجهاد في الإسلام، مرجع سابق، ص ٥٩ وما بعدها.

بعضهم بعضا، وتختلف أساليبهم في الصد عن سبيل الله، خلقهم الله سبحانه للامتحان والابتلاء.. وهؤلاء الأعداء هم:

١ ـــ شهوات النفس، ويكون جهادها بعدة أمور أهمها:

أ ـــ جهادها على تعلم الهدى ودين الحق من كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وسيرة الصحابة والصالحين.

ب ـــ جهادها على الالتزام بما تعلمت لأن معرفة الطريق لا تجدي إن أحجم الإنسان عن سلوكها، بل تضره، إذ بها تقوم الحجة عليه عند ربه.

ج ـــ جهادها على الدعوة إلى ما تعلمت من الهدى والحق وإلا كان صاحبها من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات.

د ـــ جهادها على الصبر على مشاق الدعوة، فإن الجهاد في الدعوة إلى الله يتبعه حتما أذى ومضايقات من الناس بسبب جهلهم وحفاظا على مكاسبهم الدنيوية التي ارتبطت بالانحراف.

٢ ـــ الشيطان وقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن هذا العدو وأساليبه، ولذلك أمر سبحانه بمجاهدة الشيطان بشدة واستمرار، لأنه عدو لا يفتر ولا يقصر عن محاربة العبد بما يلقيه إلى العبد من شكوك وشبهات في إيمانه وعقيدته، وبما يزينه للعبد من الشهوات الدنيوية الكثيرة والأماني والغرور والمكاسب العاجلة.

٣ ـــ الكفار والمنافقين، وهم أعداء المسلمين في الخارج إذا أعتبرنا أن النفس والشيطان هم أعداء الداخل.

ثانيا: أشكال الجهاد من حيث الوسائل، وهذا النوع من الجهاد يتنوع في أساليبه وأشكاله بتنوع ما أعطى الإنسان من القوى والوسائل.

١ ـــ فقد يكون جهادا بالعقل والفكر.

٢ ـــ وقد يكون جهادا بالجوارح.

٣ ـــ وقد يكون جهادا بالقلب.

٤ ـــ وقد يكون جهادا بالمال.

٥ ـــ وقد يكون جهادا بالنفس.

وهناك العديد من تصنيفات علماء اليوم من أبناء الأمة الإسلامية التي تدور في معظمها في هذا الاطار الذي هو استمرار للتصنيفات التي وضعها علماء السلف الصالح كابن القيم

الذي أشرنا إلى مراتب الجهاد عنده من قبل. والواقع إن كان هناك تفريعات فإنها لا تخرج عن الاطار العام.

من كل ما تقدم نستطيع تلخيص أنواع الجهاد على النحو التالي:

١ ـ من حيث الأعداء وهم النفس والشيطان والمنحرفون والمنافقون والكفار، ويتم ذلك بالتدريج إذ ليس من الممكن أن يجاهد المسلم الكفار قبل أن يجاهد نفسه عن هواها وقبل أن يأطرها على اتباع الهدى والرضوخ للحق، وليس من الممكن أن يجاهد المسلم الكفار قبل أن يجاهد المنحرفين وأصحاب البدع في مجتمعه وهم الذين يكونون مانعا لأي كافر من الدخول في الإسلام حين يراهم ظنا منه أنهم مسلمون وعلى حق.. وهكذا فمراتب هؤلاء الأعداء متفاوتة الأمر الذي يستوجب وضع أولويات لمجاهدتهم.

٢ ـ من حيث الوسائل وهذه إما أن تكون باللسان وإما باليد وإما بالمال وإما مجتمعة فيكون المسلم مجاهدا بلسانه وبنفسه وبماله وتلك أعظم مراتب الجهاد. وحيث أن الجهاد هو وسيلة المؤمنين بالله سبحانه وتعالى لإخراج الناس من عبادة الأرباب إلى عبادة الواحد الأحد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ظلام الدنيا وضيقها إلى نور الحق ورحابة الإسلام ونعيم الدنيا والآخرة فقد فرضه الله سبحانه وتعالى على من سبقنا من أصحاب الديانات السماوية السابقة والذين بعث فيهم الرسل مبشرين ومنذرين، إن الجهاد قد جعله الله سبحانه وتعالى وسيلة كل من آمن بهؤلاء الرسل عليهم السلام لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، إذن فالجهاد موجود منذ أقدم العصور ومفروض طالما وجد من يعبد غير الله الواحد الأحد، يقول الشيخ «صالح اللحيدان» في كتابه «الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع» في هذا الصدد[٦]: (المتتبع لسير الأولين في الديانات السابقة يجد أن الجهاد قد سار في ركابها وعاش معها متنقلا من طور إلى آخر والجهاد في تلك الحقب من التاريخ الموغل في القدم، كان بين الحق والباطل وكان يصور مدى قوة الحق مع صغره ظاهرا أمام الباطل، ونتيجة الموقف في كل معترك تكون ولا جرم للحق على الباطل. وقد صور القرآن ذلك في سورة هود. وصور واقع الحال في مختلف الأزمنة،

(٦) صالح اللحيدان: الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع، الطبعة الثالثة (الرياض دار اللواء للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م)، ص ٢١.

فموقعة بدر، والأحزاب، من الأدلة على ظهور الحق ولو كان هناك بعض الطول.. لقد سار الجهاد مع الإنسان، وسار الإنسان مع الجهاد والحياة بطولها تعيش على الجهاد ما دام هناك آلهة تعبد من دون الله مهما كان نوع هذا المعبود المتخذ من دون الله. وفيما يقوله القرآن هنا شهادة أكبر على وجود الجهاد في بني الإنسان منذ أقدم الأزمان. يقول تعالى﴿**ولولا لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسٰجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**﴾ سورة الحج ٤٠.

لقد آثرت التحدث عن اقتران الجهاد بالديانات السماوية التي سبقت الإسلام، لما لهذا من ارتباط بحقيقة الجهاد التي نحن بصدد الحديث عنها، ولما يروج له أعداء الإسلام والمسلمين من مستشرقي اليهود والصليبيين والشيوعيين من ارتباط الجهاد بديانة الإسلام دون غيرها من ديانات سماوية سابقة ـــ ورغم أن هذا شرف عظيم نعتز به كمسلمين، إلا أن القرآن الكريم وهو الفيصل بين أهل الحق وأتباع الباطل يخبرنا فيه الله سبحانه وتعالى بأن الجهاد قد فرض عى كل من قبلنا من أصحاب الديانات، وأنه شرف لم يحاولوا أن يرتقوا ويسموا به إلى المكانة التي أرادها الله لهم، يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل عن بني إسرائيل وفريضة الجهاد ﴿**وإذ قال موسى لقومه يٰقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتٰكم مالم يؤت أحداً من العٰلمين، يٰقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خٰسرين، قالوا يٰموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غٰلبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يٰموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقٰتلا إنا هٰهنا قٰعدون، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفٰسقين**﴾ سورة المائدة: ٢٠ ـــ ٢٦. ويقول أيضا عن بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام ﴿**وقٰتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم، من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضٰعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون، ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقٰتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقٰتلوا قالوا ومالنا ألا نقٰتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديٰرنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا**

قليلا منهم والله عليم بالظٰلمين، وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفٰه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم، وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هٰرون تحمله الملٰئكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، فلما فصل جالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملٰقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصٰبرين، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكٰفرين، فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتٰه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العٰلمين، تلك آيٰت الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ سورة البقرة: ٢٤٤ ــ ٢٥٢. **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقٰتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾** سورة التوبة: ١١١.

إذن ومن أدلة القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ندرك أن الجهاد ليس مقصورا على أمة محمد كفريضة، وإنما هو شرف لكل اتباع الديانات السماوية ووسيلة لهم بدحر الظلم والظالمين منذ أن خلق الله الإنسان. وأنه لولا الجهاد ودفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض وانتشر الفساد وعبادة غير الله تبارك وتعالى.

طبيعة الجهـاد

الجهاد باللسان وباليد وبالمال وجهاد النفس والشيطان والمنحرفين من أصحاب البدع والمنافقين والكفار.. لماذا؟ للإجابة على هـذا التساؤل الـذي نبـدأ بـه حديثنـا عـن طبيعة الجهاد فإنه لابد من التذكير بما قلناه سابقا عن طيبعـة الإسلام، إذا أن طبيعـة الجهـاد تنبع من طبيعة الإسلام وترتبط بها ارتباطا عضويا.

فالإسلام يعني الاستسلام لله الخالق، والاستسلام يعني الانصياع التام لأمره ونهيه حيث يقول سبحانه وتعالى في محكم التنزيل **﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطـاع بـإذن الله ولـو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفـر لهـم الـرسول لوجـدوا الله توابا رحيما، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثـم لا يجـدوا فـي أنفسهـم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليمـا﴾** سورة الـنساء: ٦٤ ــ ٦٥، والاستسلام لله سبحانـه وتعالى باتباع وإتيان أوامره واجتنـاب نواهيـه يعـد أمـرا بدهيـا إذا أدرك الإنسان أن الله هـو خالقه فالمخلوق لابد أن يخضع للخالق كما تخضع الآلة لصانعها.

ولكي يتبين الإنسان ذلك، ولكي يتعرف على الطريق الحق كانت الرسالات السماوية حيث لم يترك الله سبحانه وتعالى أمة إلا وبعث فيها رسولا يهديها إلى ذلك الطريـق حـيث يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل **﴿ولقد بعثنا في كـل أمـة رسولاً أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطٰغوت فمنهم من هدى الله ومنهم مـن حـقت عليـه الضلٰـلـة فسيـروا فـي الأرض فانظروا كيف كان عٰقبة المكذبين﴾** سورة النحل: ٣٦. وحيث هناك مهتد وهـو من استجاب لدعوة الرسل عليهم السلام وهناك ضال وهو من اتبع هـواه وسار وراء نـفسه والشيطان، فإن هناك ضرورة لأن يضرب المهتدون على أيدي الباغين الضالين.. ومـن هنـا كان الجهاد فريضة على كل المؤمنين بدعوة الرسل منذ الأزل وإلى أن تقوم الساعة، وهذا ما بيناه في الحديث السابق من حيث فـريضة الجهـاد علـى أصحـاب الديانـات السماويـة السابقة عكس ما يدعيه أعداء الإسلام من أن الجهاد لـم يعـرف إلا عنـد المسلميـن، الأمـر الذي جعل المنهزمين ــ كما يسميهم الشهيـد سيـد قـطب ــ مـن أبنـاء الأمـة الإسلامية يدفعون هذه المقولة بالإدعاء أن الجهاد في الإسلام دفاعي، ثم يتجاوزن ذلك إلى تصنيـف

هذا الدفاع بأنه دفاع عن نفس المسلم وعرضه وماله وأرضه، وسوف نأتي لتبيان خطأ ذلك بعد أن نستشهد بما قاله الشهيد في كتابه العظيم «معالم في الطريق» حيث يقول رحمه الله(٧): (والمنهزمون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن «الجهاد في الإسلام» ليدفعوا عن الإسلام هذا «الاتهام» يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تعبد الناس للناس، وتمنعهم من العبودية لله.. وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما.. ومن أجل هذا التخطيط وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة! يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: «الحرب الدفاعية».. والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم، ولا بواعثها، ولا تكييفها كذلك.. إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة «الإسلام» ذاته ودوره في هذه الأرض، وأهدافه العليا التي قررها الله، وذكر الله أنه أرسل من أجلها هذا الرسول بهذه الرسالة، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات).

إذن طالما أن طبيعة الإسلام تعني الاستسلام لله، وطالما أن هناك من البشر من لا يقر بهذا الاستسلام ولا يريده.. فلابد أن تكون طبيعة الجهاد مستجيبة لطبيعة الإسلام ووسيلة لإرغام الإنسان على هذا الاستسلام باللسان وباليد وبالمال، فإن تم باللسان وذلك بدعوة الناس ومجادلتهم بالتي هي أحسن وبالحكمة والموعظة الحسنة كان بها وإلا فلا بد من فرض هذا الاستسلام باليد، والمال لازم لهذا وذاك من أنواع الجهاد.

وطبيعة الإسلام تنبع من كونه نظاما شموليا للحياة يشتمل على العديد من النظم الفرعية كالنظام السياسي للإسلام والنظام الاقتصادي للإسلام والنظام الإداري للإسلام والنظام الاجتماعي للإسلام وغير ذلك من النظم الفرعية التي تضمن للملتزم بها سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، ولهذا فإن طبيعة الإسلام كما يقول الأستاذ سعيد حوي ــ وقد أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن طبيعة الإسلام ــ تنبع من كونه معيارا لا يسع غيره، أي لا يقبل أن ينافسه على النفس البشرية وعلى السيطرة على الحياة البشرية.

فالإسلام يعني استسلام الفرد والجماعة والإنسانية لله رب العالمين في كل شيء، ومن ثم فلا إسلام بدون هذا الاستسلام.

---

(٧) سيد قطب : معالم في الطريق (بيروت: دار الشروق).

والإسلام هو الصيغة الوحيدة لانسجام العقل مع ذاته ومبادئه.
والإسلام هو الصيغة الوحيدة للعقلية العالمية الشاملة.
والإسلام هو الصيغة الوحيدة لتفجير طاقات الإنسان كلها في إطارها الصحيح..
والإسلام هو وحده الذي يعطي الإنسان وضوح الرؤية في كل شيء.
والإسلام هو الصيغة الوحيدة للإنسانية العليا.
والإسلام هو الصيغة الوحيدة للحق الخالص في هذا العالم سواء في ذلك موضوع الربوبية أو موضوع الغيب أو موضوع العالم المحسوس أو في مكانة الإنسان.
والإسلام هو الصيغة الوحيدة للحق المطابقة للواقع في هذه الأمور..
والإسلام هو الصيغة الوحيدة للعدل في الحكم أو المعاملة أو التوزيع.
والإسلام هو الصيغة الوحيدة للسلام الإنساني، لأن السلام الحقيقي هو الإسلام..
والإسلام هو التعبير الصحيح والأصح للشورى على أي مستوى من المستويات.
والإسلام هو الصيغة العليا الوحيدة للحرية الإنسانية.

ودين هذه صفاته وتلك طبيعته لابد أن يكون فيه الخير كل الخير للإنسان، ولهذا فلابد من إيصاله إلى الإنسان ولابد من هداية الإنسان إلى طريقه القويم. وهنا يظهر الارتباط بين طبيعة الإسلام تلك وطبيعة الجهاد في الإسلام، فإما أن تتاح الفرصة لوصوله إلى الناس أينما كانوا، وإن انتدب الفرد لنفسه أو الجماعات للحيلولة دون وصول ذلك الدين إلى الناس فلابد من جهاد اليد لتحطيم كل من يحول دون وصوله إلى الناس وكل من يحاول أن يحجب نوره عن الناس وكل من يمنع الناس من التمتع بخيره ونعيمه.. إذن جهاد باللسان وإن منعه الناس فجهاد باليد، والمال يدعم هذا وذاك.

وطبيعة الإسلام تنبع من حركته وكونه نظرية وتطبيقاً قولاً وعملاً. فقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بقوله ﴿**اقرأ باسم ربك الذين خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ سورة العلق: ١ ــ ٥، ثم أمره تبارك وتعالى بقوله ﴿**يأيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر**﴾ سورة المدثر: ١ ــ ٧.. وكان الإنذار من رسول الله المصطفى صلى الله عليه وسلم للأقربين من عشيرته أولا، ثم سائر بني قومه، ثم من حوله من القبائل العربية في الجزيرة.. واستمر صلوات الله وسلامه عليه ثلاث عشرة سنة على هذه الحال، يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن،

وينذر بالمعروف ويكف عن الأذى ويصبر ويصفح عما يقابله من كيد وأذى كما أمره الله تبارك وتعالى حيث قال في محكم التنزيل مخاطباً رسوله الكريم **﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾** سورة النحل: ١٢٥، وقال سبحانه وتعالى **﴿فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمصيطر﴾** سورة الغاشية: ٢١ ـ ٢٢.. ثم أمره الله تبارك وتعالى بالهجرة إلى المدينة بعد أن أقفل المشركون كل السبل في وجه الدعوة.. وفي طريق هجرته صى الله عليه وسلم أمره الله بالقتال كما بينا من قبل وذلك بقوله تعالى **﴿أذن للذين يقٰتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسٰجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكنٰهم في الأرض أقاموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عٰقبة الأمور﴾** سورة الحج: ٣٩ ـ ٤١.. ومنذ ذلك الوقت وجهاده صلى الله عليه وسلم باليد إلى جانب اللسان، ثم سار على نهجه أصحابه وخلفاؤه الراشدون رضوان الله عليهم أجمعين، ثم سار على هذا النهج القويم التابعون وتابعو التابعين إلى يوم الدين.

إذن فطبيعة الإسلام تتجلى في حركيته، وحركيته هذه ترتبط بالجهاد وتملي طبيعتها، ومن هنا يأتي الارتباط بين طبيعة الإسلام وطبيعة الجهاد فيه يقول «الشهيد سيد قطب» في «معالم في الطريق» السابق الإشارة إليه[٨]: (من تلخيص مراحل الجهاد تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين، جديرة بالوقوف أمامها طويلا ولكننا لا نملك هنا إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

السمة الأولى: هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين، فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً، وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي.. إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية، تقوم عليها أنظمة واقعية عملية، تسندها سلطات ذات قوة مادية.. ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا كله بما يكافئه، تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات، وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها، تلك التي تحول بين

(٨) المرجع السابق، ص ٥٦.

جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات، وتخصهم بالقهر والتضليل وتعبّدهم لغير ربهم الجليل.

إنها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي، كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد.. وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده.

السمة الثانية: هي الواقعية الحركية، فهو حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل متكافئة لمقتضياتها ، وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها. فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة، كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة. والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد، ولا يراعون هذه السمة فيه، ولا يدركون المراحل التي مر بها هذا المنهج وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها.. الذين يصنعون هذا يخلطون خلطا شديدا ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادىء والقواعد النهائية، في هذا الدين. ويقولون ـــ وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع اليائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان ـــ : إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع! ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعا، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد! لا يقهرهم على اعتناق عقيدته ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة، بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها.

السمة الثالثة: هي أن هذه الحركة الدائبة، والوسائل المتجددة، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة، ولا عن أهدافه المرسومة. فهو ـــ منذ اليوم الأول ـــ سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين، أو يخاطب قريشا، أو يخاطب العرب أجمعين، أو يخاطب العالمين، إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة، ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف هو إخلاص العبودية لله، والخروج من العبودية للعباد. لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين.. ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد في خطة مرسومة، ذات مراحل محددة، لكل مرحلة وسائلها المتجددة. على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة.

السمة الرابعة: هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر

المجتمعات الأخرى، وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه، أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي، أو قوة مادية، وأن تخلي بينه وبين كل فرد، يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته، ولكن لا يقاومه ولا يحاربه! فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه!.

إذن طبيعة الإسلام ترتكز على الاستسلام لله وحده لا شريك له، وطبيعة الجهاد سواء باللسان أو باليد أو بالمال تسعى لتحقيق هذا الاستسلام.. ومن هنا يأتي الارتباط بين طبيعة الإسلام وطبيعة الجهاد.. ومن هنا يكون حديثنا عن طبيعة الجهاد ـــ حتى الآن ـــ استمراراً لحديثنا السابق عن: طبيعة الإسلام.. ومن هنا تكون طبيعة الجهاد مرتبطة بمراتب الجهاد وأنواعه حيث هو جهاد باللسان وباليد وبالمال، وجهاد للنفس وللشيطان وللمنحرفين من أصحاب البدع والمنافقين والكفار.

والدعوة الإسلامية التي هي دعوة حركية من حيث سعيها الدؤوب لإحداث التغييرات العملية في حياة البشر، تحتاج للعديد من الوسائل التي تحقق بها التغييرات المطلوبة كما يحتاج الطبيب للوسائل في علاج مريضة.. وإن كانت وسائل الطبيب الأدوية والعقاقير أولا ثم باليد والمال ثانيا، فإن وسائل الدعوة الإسلامية هي الجهاد باللسان والمال أولا ثم باليد والمال ثانيا إن لم يجد الجهاد باللسان أو وجد من يحول دونه ودون الإنسان المستهدف في دعوة الإسلام وما تسعى إليه من تغيير في حياته وإخراجه من عبادة الأرباب إلى عبادة الواحد الأحد ومن جور الأديان وظلمها إلى عدل الإسلام ورأفته ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وهذا ما يحتم على أتباع الدعوة الحركة الدائمة، وعلى كل الأصعدة، وكل حسب طاقته حيث لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، سعيا لإحداث التغييرات التي أمر بها الله سبحانه وتعالى المؤمنين بدعوة الرسل.. وهذا ما يحدد طبيعة الجهاد الذي فرضه الله على عباده واجتباهم للقيام به لإقرار الحق ودحر الباطل أيا كانت صورته ومهما بلغت قوته. يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وجٰهدوا في الله حق جهاده هو اجتبٰكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمٰكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة واعتصموا بالله هو مولٰكم فنعم المولى ونعم النصير**﴾ سورة الحج: ٧٨، ويقول سبحانه

وتعالى أيضا ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقٰتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ سورة التوبة: ١١١.

فالجهاد بمعناه الشامل (العام) هو الوسيلة بأيدي المسلمين لتعريف الناس بعظمة الإسلام وحقيقة الإسلام وما تضمنه الإسلام وما أتى به الإسلام من خير في الدنيا ونعيم في الآخرة. وهو وسيلة المسلمين لتعريف الناس (خارج دائرة الإسلام) بالتصور الصحيح والبعيد عن الشعوذة والخرافات عن الخالق والكون والحياة وما قبل الحياة وما بعد الحياة. وهو الوسيلة للحيلولة دون تسلط الشر المادي والسياسي على رقاب الناس واستعبادهم لغير الله. وهو الوسيلة لفتح الطريق أمام الناس للاختيار الحر بين الإسلام وما عداه دون تسلط الطغاة والمستغلين.. ولهذا فقد سمى المصطفى صلى الله عليه وسلم الجهاد بذروة سنام الإسلام.

وطبيعة الإسلام هذه، وطبيعة الجهاد كوسيلة لتحقيق الإسلام ووصوله إلى الناس كافة، هما اللتان تحددان هوية الجهاد وطبيعته كمبدأ من مبادىء الإسلام حيث أخذ مكانته الطبيعية بين عقائد الإسلام ومبادىء الإسلام ونظم الإسلام، وهما اللتان توجبان الإيمان بتشريع الجهاد بصفة عامة كالإيمان بأي من أركان الإسلام وعقائده كقوله تبارك وتعالى ﴿**إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجٰهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولٰئك هم الصٰدقون**﴾ سورة الحجرات: ١٥، وقوله تعالى ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقٰتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ سورة التوبة: ١١١، وقوله تعالى ﴿**لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجٰهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين، إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون**﴾ سورة التوبة: ٤٤ ــ ٤٥، وقوله تعالى ﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجٰهدوا في سبيل الله أولٰئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم**﴾ سورة البقرة: ٢١٨، وقوله تعالى ﴿**الذين آمنوا وهاجروا وجٰهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله أولٰئك هم الفائزون، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم،**

خٰلدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم﴾ سورة التوبة: ٢٠ ــ ٢٢.. وسوف نبين هذا بمزيد من التفصيل عندما نتحدث عن فضل الجهاد في الموضوع التالي لهذا بإذن الله تعالى.

وطبيعة الجهاد ترتبط بطبيعة الإسلام السلمية، فالإسلام هو السلام والسلام هو الإسلام كما بينا من قبل مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى **﴿يـٰأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾** سورة البقرة: ٢٠٨، وقوله تبارك وتعالى **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمـٰت إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾** سورة المائدة: ١٥ ــ ١٦، وقوله تبارك وتعالى **﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** سورة يونس: ٢٥.

فالجهاد ليس سعيا لأهداف مادية وأغراض دنيوية محدودة، والجهاد ليس لغرض الهيمنة والتسلط على الأمم والجماعات والأفراد، والجهاد ليس للاغتصاب والعدوان على أحد، والجهاد ليس لغرض نظام وضعي لا يتناسب مع طبيعة الإنسان وما خلق من أجله.. وإنما هو جهاد للنفس لردعها عن البغي وعن الضلال وعن الهوى الذي لابد وأن يقودها إلى التيه، والجهاد لردع الشيطان الذي يورد أتباعه جهنم، والجهاد للمنحرفين وأصحاب البدع في المجتمع المسلم لكي لا يحيلونه إلى مجتمع للبدع والانحراف، والجهاد للمنافقين الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم ويسعون في الأرض فساداً وكيداً للإسلام والمسلمين بين ظهرانيهم، والجهاد للكفار الذين يعتدون على كيان المسلمين ودولتهم ويحولون دون الدعوة إلى الله ووصولها إلى الناس كافة.

هذا هو الجهاد بمعناه العام، أما الجهاد بمعناه الخاص (القتال) فهو لقتال أعداء الله أيا كانوا وبكل الوسائل الروحية والمعنوية والمادية المتاحة لقوله تعالى في محكم التنزيل **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾** سورة الأنفال: ٦٠ وقتال الأعداء يتم بصورتين.

الأولى: لرد العدوان ورفع الظلم ومنع الاعتداء على المسلمين وأعراضهم وأموالهم.

الثانية: لردع الباغين، وكسر شوكة الكافرين الذين يمنعون كلمة الله أن تظهر

ويحولون دون الإسلام ووصوله إلى عقول الناس وأسماعهم وأفئدتهم، والقضاء على الفتنة والفساد أينما كانت.

مجمل القول أن طبيعة الجهاد سلمية حيث ترتبط طبيعة الجهاد بطبيعة الإسلام وتنبع منها كما أسلفنا، وطبيعة الإسلام هي السلام كما قلنا.. ولكن سلمية الجهاد والإسلام هذه لا تعني أن نصف الجهاد بالدفاع كما يحلو لبعض الذين يطرقون باب الحديث عن الجهاد وطبيعته بين العقائد العسكرية المعاصرة والتي تصنف على النحو التالي:

١ ــ عقائد عسكرية دفاعية.

٢ ــ عقائد عسكرية هجومية.

وحيث إن الجهاد هو جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية كما بينا من قبل، فإن هؤلاء الكتاب يحاولون الزج بالجهاد كعقيدة عسكرية إسلامية وسط هذا التصنيف الوضعي المعاصر دون مراعاة لطبيعة الإسلام من حيث تميزه عن أي نظام وضعي، ودون مراعاة لطبيعة الجهاد كعقيدة عسكرية متميزة عن العقائد العسكرية الوضعية، ودون اعتبار أن تصنيف هذه العقائد العسكرية المعاصرة والتي تصنف بالدفاع أو الهجوم إنما هو تصنيف نابع من الأوضاع الدولية المعاصرة التي أفرزت دولا قوية ماديا وبشريا وتسمى بالدول العظمى وتسعى لفرض هيمنتها وسيطرتها ونفوذها على دول ضعيفة ماديا وبشريا تسمى بالدول النامية.. فهذه تتخذ من الهجوم عقيدة عسكرية. فالجهاد ليس دفاعا بهذا المعنى الضيق والمحدود وإلا لما انتشر الإسلام على أيدي السلف الصالح من أبناء الأمة وبسيوفهم، كما أنه ليس هجوما بهذا المعنى الجانح الجائر الذي لا هم لمعتنقي هذه العقيدة العكسرية الإجرامية إلا مطامع الدنيا وأهدافها المادية.. وعليه نذكر بوصفنا للجهاد حين تحدثنا عن العقيدة العسكرية الإسلامية، وهو: أن الجهاد هو جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية، والعقيدة العسكرية الإسلامية ليست دفاعية بمعنى الدفاع الذي يتداوله الناس في يومنا هذا. يقول «الشهيد سيد قطب» في استكمال حديثه الذي أوردنا جزءا منه من قبل، وهو من كتابه «معالم في الطريق»(٩): (والذي يدرك طبيعة هذا الدين يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف ــ إلى جانب الجهاد بالبيان ــ ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية ــ بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح

---

(٩) المرجع السابق، ص ٦٤.

«الحرب الدفاعية» كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام ــ إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير «الإنسان» في «الأرض».. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري، وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة. وإذا لم يكن بد أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية، فلابد أن نغير مفهوم كلمة «دفاع» ونعتبره «دفاعا عن الإنسان» ذاته، ضد جميع العوامل والتصورات، كما تتمثل في الأنظمة السياسية، القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية، التي كانت سائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام، والتي ما تزال أشكال منها سائدة في الجاهلية والحاضرة في هذا الزمان!

وبهذا التوسع في مفهوم كلمة «الدفاع» نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في «الأرض» بالجهاد، ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها، وهي أنه إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد، وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين، وتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض، وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان.

أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية، ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة الجائرة على «الوطن الإسلامي» ــ وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب ــ فهي محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين، ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض. كما أنها تشع بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي.

ترى لو كان أبوبكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد، أمام الدعوة، تلك العقبات المادية من أنظمة الدولة السياسية، وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك!؟.

إن حروب الإسلام: حروب دفاعية وحروب إصلاح.. حروب دفاعية حين يكون هناك اعتداء على كيان الأمة، وحين يكون انتهاك لدمائهم وأعراضهم وأموالهم، وحين يكون هناك بغاة لابد من ردعهم حيث يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿وقـٰتلوا في**

سبيل الله الذين يقٰتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تقٰتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقٰتلوكم فيه فإن قٰتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكٰفرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم﴾ سورة البقرة: ١٩٠ ــ ١٩٢،

ويقول سبحانه وتعالى أيضا **﴿وإن طٰئفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقٰتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾** سورة الحجرات: ٩.. وحروب إصلاح حين يكون هناك فتنة وحين يكون هناك صد عن دين الله وجبروت وتسلط على الإنسان وتعبيده لغير الله تبارك وتعالى، وحين يكون هناك فساد في الأرض حيث يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين﴾** سورة البقرة: ١٩٣، ويقول أيضا **﴿قٰتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتٰب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صٰغرون﴾** سورة التوبة: ٢٩، ومعنى دفعهم الجزية هو خضوعهم لسلطان الإسلام دون دخولهم فيه إذ لا إكراه لأحد على الدخول فيه، وليس الجهاد وسيلة لغرض الدخول في الإسلام وقهر الناس على ذلك، وإنما هو وسيلة لتمكين الدعوة من الوصول إلى الناس دون إكراههم على اعتناقه. من كل هذا ندرك أن العقيدة العسكرية الإسلامية مغايرة لأية عقيدة عسكرية أخرى، ومنه ندرك أن طبيعة الجهاد وحروب الإسلام مغايرة لكل حروب ولكل الأساليب الحربية الأخرى.. ذلك أن طبيعة الجهاد تنبعث وترتبط بطبيعة الإسلام الذي هو مغاير لأي دين أو نظام وضعي آخر.

وعليه فإن خصائص الجهاد التي تميزه عن أي حرب أخرى كما يلخصها «الدكتور محمد نعيم ياسين»[١٠] في كتابه المشار إليه من قبل هي:

١ ــ أنه جهاد مبدأ وعقيدة وليس جهاد غرض ومنفعة كما هي حال الحروب الأخرى.

٢ ــ أنه يختص ويتميز بالشمول والعموم حيث يتناول كل أنشطة المؤمن وأحواله ويتم بالعديد من الوسائل.

٣ ــ أنه يتميز بالواقعية حيث يواجه الواقع البشري بكل ما فيه من المعوقات وبوسائل مكافئة لها، وحيث يراعي واقع الدعوة الإسلامية وظروف المسلمين من حيث القوة

(١٠) د. محمد نعيم ياسين: حقيقة الجهاد في الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٥.

والضعف ويتخذ لكل ظرف ما يناسبه من أنواع الجهاد.

٤ ـ أنه يتميز بوضوح الهدف حيث له هدف واحد في جميع أوضاع الدعوة ومراحلها، وهذا الهدف هو تعبيد الناس لرب الناس وتخليصهم من العبودية لغير الله عز وجل، وهو هدف ملازم لكل شكل من أشكال الجهاد.

٥ ـ أنه يتميز بالتنظيم والضبط حيث أنه منظم ومنضبط بأحكام وضوابط ربانية يلتزم بها المسلمون.

إن طبيعة الجهاد طبيعة فردية لا نظير لها، كما أن طبيعة الإسلام فريدة لا نظير لها.. وهذا مرده أنه دين الله تبارك وتعالى الذي ارتضاه لعباده، وفريضته التي فرضها سبحانه وتعالى عليهم وجعلها وسيلة من الوسائل التي تمكن لهم في الأرض التي استخلفهم فيها وجعلهم فيها شهداء على الناس والرسول شاهد عليهم.

فضــل الجهــاد وأحكامــه

الجهاد تكليف وتكريم للأمة الإسلامية الخالدة التي شرفها الله سبحانه وتعالى بأنها خير أمة أخرجت للناس وبأنها شاهدة على الناس، بحمل الأمانة والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه مصداقا لقوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**وجٰهدوا في الله حق جهٰده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمٰكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة واعتصموا بالله هو مولٰكم فنعم المولى ونعم النصير**﴾ سورة الحج: ١٨، وقوله تعالى ﴿**وكذلك جعلنٰكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ سورة البقرة: ١٤٣، وقوله تعالى ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..**﴾ سورة آل عمران: ١١٠.

وقد شرف الله الأمم من قبلنا من أتباع الديانات السابقة بحمل هذه الأمانة والجهاد في سبيلها كما بينا من قبل ولكنها نكثت عهدها مع الله وارتدت على أعقابها وتقاعست عن حمل الأمانة كما يخبرنا المولى تبارك وتعالى عن واحدة من هذه الأمم بقوله تعالى ﴿**وإذ قال موسى لقومه يٰقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتٰكم مالم يؤت أحداً من العٰلمين، يٰقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خٰسرين، قالوا يٰموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غٰلبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يٰموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقٰتلا إنا هٰهنا قٰعدون، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفٰسقين**﴾ سورة المائدة: ٢٠ ــ ٢٥.

ولكن الأمة الإسلامية الخالدة حملت الأمانة وتشرفت بالجهاد في سبيله تبارك وتعالى، وذلك لما عرفته من كتابها الكريم وسنة رسولها المصطفى عليه وآله وصحبه أفضل

الصلاة والتسليم من فضل الجهاد ومكانة المجاهد التي أعدها له الله سبحانه وتعالى حين يقتل في سبيل الله وحين ينتصر على أعدائه ــ أعداء الله.. فلقد جاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)، فقال عمير الأنصاري رضي الله تعالى عنه: يارسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: (نعم) قال عمير: بخ بخ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما يحملك على قول بخ بخ؟) قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: (فإنك من أهلها). فأخرج تمرات من قربة فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من تمرات ثم قاتلهم حتى قتل).. كما روى النسائي عن شداد بن الهادي رضي الله تعالى عنه أن رجلا من الأعراب جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فآمن به ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه. فكانت غزاة غنم فيها النبي صلى الله عليه وسلم، فقسم وقسم له فقال الأعرابي: ما هذا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (قسمة لك)، قال: ما على هذا اتبعتك ولكن اتبعتك على أن أرمي إلى ها هنا ــ وأشار بيده إلى حلقة ــ بسهم فأموت فأدخل الجنة. فقال صلى الله عليه وسلم: إن تصدق الله يصدقك. فلبثوا ثم نهضوا في قتال العدو، فأُتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم محمولا وقد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أهو هو؟) قالوا: نعم. قال: (صدق الله فصدقه)، ثم كفن في جبة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قدمه فصلى عليه، فكان مما قاله مما ظهر من صلاته دعاؤه: (اللهم هذا عبدك خرج مهاجرا في سبيلك فقتل شهيدا. وأنا شهيد على ذلك).. كما حضرت أم عمارة نسيبة الأنصارية غزوة أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثبتت معه حين انهزم المسلمون، وكان معها في ذلك ابنها وزوجها حتى قال صلى الله عليه وسلم فيها: (ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني، وقال لابنها زيد: (بارك الله عليكم من أهل بيت، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان، ومقام ربيبك «زوج أمك» خير من مقام فلان وفلان، ومقامك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل البيت)، قالت أم عمارة: ادع الله أن نرافقك في الجنة، قال صلى الله عليه وسلم: (اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة)، قالت: ما أبالي ما أصابني من الدنيا.. وكتب الصحاح والسيرة النبوية الشريفة والتاريخ مليئة بمثل هذه المواقف التي لم تكن

لتكون لولا رسوخ الإيمان في قلوب أصحابها ولو لم يكن إدراكهم عظيما لفضل الجهاد ومكانة المجاهد التي أعدها له الله سبحانه وتعالى.

وحيث إن الجهاد ذروة سنام الإسلام كما بين المصطفى صلى الله عليه وسلم، وحيث إن الجهاد هو وسيلة الإسلام للوصول إلى أسماع الناس وأبصارهم وعقولهم، وحيث إن الجهاد يستلزم بذل النفس وهي أغلى ما يملك الإنسان.. فقد نهج القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أسلوب الترغيب بالجهاد وبذل النفس في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه، فلقد امتدح الله المجاهدين في العديد من آيات الذكر الحكيم، وجعل لهم الدرجات العليا ووصفهم مرة بعد أخرى بالفائزين بالجنة.

يقول الحق تبارك وتعالى في فضل الجهاد وامتداح المجاهدين **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقٰتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾** سورة التوبة: ١١١. ويقول تبارك وتعالى **﴿يٰأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجٰرة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجٰهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنٰت تجري من تحتها الأنهٰر ومسٰكن طيبة في جنٰت عدن ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾** سورة الصف: ١٠ ــ ١٣.

ويقول سبحانه وتعالى **﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجٰهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظٰلمين، الذين آمنوا وهاجروا وجٰهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولٰئك هم الفائزون، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنٰت لهم فيها نعيم مقيم، خٰلدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم﴾** سورة التوبة: ١٩ ــ ٢٢. ويقول تبارك وتعالى **﴿لا يستوي القٰعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجٰهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجٰهدين على القٰعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجٰهدين على القٰعدين أجراً عظيماً، درجٰت منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً﴾** سورة النساء: ٩٥ ــ ٩٦. ويقول تبارك وتعالى **﴿والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمٰلهم، سيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾** سورة محمد :٤

ـ ٦. ويقول تبارك وتعالى ﴿**ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون**﴾ سورة البقرة: ١٥٤. ويقول تبارك وتعالى ﴿**ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون**﴾ سورة آل عمران: ١٥٧. ويقول تبارك وتعالى ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين**﴾ سورة آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١. ويقول سبحانه وتعالى ﴿**إن الله يحب الذين يقٰتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيٰن مرصوص**﴾ سورة الصف: ٤.. فأي مكانة أعظم من المكانة التي جعلها الله للجهاد في سبيله ؟ وأي منزلة وأجر هو أعظم من المنزلة والأجر الذي وعد الله به المجاهد حين ينتصر لدينه وحين يقتل في سبيله؟ إن الإنسان يكدح ليحصل على لقمة العيش، ويشقى ليحصل على الرفاة في هذه الدنيا. وقد جعل الله سبحانه وتعالى من طباع الإنسان استجابته للإغراء والتشجيع.. فكيف تكون الحال حين يكون الإغراء من الله سبحانه وتعالى لذلك الإنسان الذي ارتضى الإسلام دينا وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؟ كيف يكون عطاء هذا الإنسان وبذله حين يعرف أن أجره على الله وأن منزلته الجنة حين يقتل في سبيل الله؟ كيف تكون حاله حين يخبره الذي لا يشك في خبره بأنه يحبه حين يقاتل عدو الله وعدوه جنبا إلى جنب مع إخوته المسلمين؟.

آيات عديدة في كتاب الله الكريم تبين أن الجهاد شرف عظيم للأمة الإسلامية أن تحمل لواءه، ومنزلة رفيعة لا يبلغها إلا من منّ الله عليه بحلاوة الإيمان الكامل واليقين الصادق. يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله في كتابه «السياسة الشرعية»(١١): (والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة، أكثر من أن تحصر. ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان، وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة، ومن صلاة التطوع وصوم التطوع، كما دل عليه الكتاب والسنة. حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: (رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد).

وهذا باب واسع، لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه، وهو ظاهر عند الاعتبار، فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ويشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتمل على محبة الله تعالى والإخلاص له، والتوكل عليه،

---

(١١) ابن تيمية: السياسة الشرعية، ص ٤٢.

وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد.. والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائما: إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة).

وحين ننظر في المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن، وأقصد بذلك سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم نجد أن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان إمام المجاهدين وأعلمهم بما ينال الشهداء من رضوان الله والفوز بالجنة، وقد كان المعبر الصادق عليه الصلاة والسلام عن موقف المؤمنين من الجهاد فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قوله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل). وقد حفلت كتب السيرة وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم بالعديد من أحاديثه عليه الصلاة والسلام التي يحث فيها المؤمنين على الجهاد، ويبين مكانة الجهاد في الإسلام ومنزلة المجاهد عند ربه. فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟ قال: (إيمان بالله ورسوله). قيل: ثم ماذا؟ قال: (الجهاد في سبيل الله). قيل ثم ماذا؟ قال: (حج مبرور)، وروى البخاري ومسلم أيضا عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال : أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أي الناس أفضل؟ قال: (مؤمن يجاهد بنفسه وبماله في سبيل الله تعالى) قال: ثم من ؟ قال: (ثم مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره). وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: دلني على عمل يعدل الجهاد. قال صلى الله عليه وسلم: (لا أجده. ثم قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟) قال: ومن يستطيع ذلك؟.

وروى مسلم عن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رباط ليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، فإن مات جرى عمله الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان). وروى مسلم والبخاري عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مقام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل عند الله من عبادة الرجل ستين سنة). وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قيل يارسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: (لا تستطيعونه) فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول: (لا تستطيعونه، ثم قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة أو صيام حتى يرجع

المجاهد في سبيل الله). وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها عليَّ يا رسول الله، فأعادها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: (الجهاد في سبيل الله). وروى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل مقنع بالحديد، فقال: يا رسول الله أقاتل أو أسلم؟ قال: (أسلم ثم قاتل) فأسلم ثم قاتل فقتل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عمل قليلا وأجر كثيرا). وروى أبو داود والنسائي والترمذي عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قاتل في سبيل الله من رجل مسلم فواق ناقة ــ أي زمنا يسيرا جدا ــ وجبت له الجنة، ومن جرح جرحا في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها لون الزعفران، وريحها ريح المسك).

وروى مسلم وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يجتمع كافر وقاتله في النار). وروى مسلم والترمذي عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف) فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا؟ قال : نعم، فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه ــ أي قرابه ــ فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل). وروى البخاري ومسلم عن سهل ابن سعد رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رباط يوم في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها). وروى أبو داود والترمذي عن فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتنة القبر) وروى النسائي والترمذي عن عثمان رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل) وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله).

وروى الترمذي وابن ماجة عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: لما قتل عبد الله بن عمر ـ والد جابر ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا جابر: ألا أخبرك ما قال الله لأبيك؟) قلت : بلي يا رسول الله، قال : (ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وكلم الله أباك كفاحا ـ أي بدون حجاب ـ فقال: «يا عبد الله تمن عليّ أعطك». قال: تحييني فأقتل فيك ثانية، قال: «إنه سبق فيها أنهم إليها لا يرجعون» قال : يا رب فأبلغ بذلك من ورائي ـ أي في الدنيا ـ فأنزل الله تعالى قوله **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم .. الآيتين﴾**. وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أحد يدخل الجنة يجب أن يرجع إلى الدنيا وإن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة). وروى النسائي والحاكم عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالرجل من أهل الجنة، فيقول الله له: «يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟» فيقول : أي رب خير منزل، فيقول: «سل وتمنه»، فيقول: وما أسألك وأتمنى؟ أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة). وروى ابن ماجة والترمذي عن المقداد ابن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار. الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه). وروى الترمذي عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس أحب إلى الله من قطرتين وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم تهراق في سبيل الله، وأما الأثران: فأثر في سبيل الله وأثر في فريضة من فرائض الله). وروى الحاكم عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلا أسود أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إني رجل أسود، منتن الريح، قبيح الوجه، لا مال لي، فإن أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل فأين أنا؟ قال: (في الجنة) فقاتل حتى قتل،، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (قد بيض الله وجهك وطيب ريحك وأكثر مالك وقال لهذا أو لغيره: لقد رأيت زوجته من الحور العين نازعته جبة له من صوف تدخل بينه وبين جبته).

أحاديث عديدة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حفلت بها كتب الصحاح، تحبب

بالجهاد وترغب به وتعدد مناقبه وما ينتظر المجاهد من الأجر والثواب.. فهو نصر مبين ورفعة وعزة، وأي نصر!؟ إن الأمم تخلد انتصارات جيوشها لقرون عديدة، فكيف يكون الحال حين يكون النصر هذا لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه ورسوله والمسلمين؟! والأمم تخلد ذكرى أمواتها في الحروب، فكيف يكون الحال حين يكون هذا «القتيل» في العرف شهيدا وحيا يرزق عند الله؟!.

إنها آيات بينات وأحاديث نبوية شريفة تبين للأمة الإسلامية فضل الجهاد ورفعة منزلة المجاهد.. آيات وأحاديث لو أدركت الأمة اليوم كنهها ومعانيها لما وصلت إلى ما وصلت إليه من مهانة وتمزق وضياع.. آيات وأحاديث تبين فضل الجهاد وأجر الشهيد، ومع هذا يُتخبط في تحديد معنى الجهاد والرباط في سبيل الله، وفي تعريف الشهيد الذي صارت وسائل الإعلام في العالم الإسلامي تطلقه ــ وللأسف ــ على كل قتيل دون حتى مراعاة كون هذا القتيل مسلما أم كافرا ودون مراعاة أن جل معارك العالم الإسلامي وحروبه هي في سبيل أغراض الدنيا وبقاء هذا الزعيم أو ذاك ــ أي أنها بعيدة كل البعد عن معنى وهدف وأسباب الحرب في الإسلام كما بيناها من قبل.. إن الشهيد هو الذي يقتل وهو يجاهد أعداء الله لا يهدف إلا لإعلاء كلمة الله ونصرة دينه أو الموت.. فأين الذي يقاتل اليوم لهذا الغرض؟ إنهم قلة قليلة، ومع هذا كل يطلق لفظ الشهيد على قتلاه.. وهذا لجهلنا بماهية الجهاد وأسباب الحرب والمؤهلات التي تؤهل القتيل أن يكون شهيدا.

إلى جانب ذلك هناك غير هذا الشهيد شهداء كثر وفضلهم عند الله تعالى لا يقل عن شهداء المعارك في سبيل الله، وقد جاء بذلك الأحاديث النبوية في كتب الصحاح كما في سنن أبي داود والترمذي عن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)، وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تعدون الشهداء فيكم؟!) قالو: يا رسول الله: من قتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: (إن شهداء أمتي إذاً لقليل!) قالوا: فمن يا رسول الله؟ قال: (من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله ــ خرج مع الجيش ومات ولم يقتل ــ فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات من البطن فهو شهيد) قال ابن مقسم: أشهد على أبيك ــ

يعني أبا صالح ــ إنه قال: (والغريق شهيد)، وجاء في سنن أبي داود والنسائي وابن ماجة وابن حبان رواية أن: (الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المبطون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب ــ الذي ينفجر جرحه في جنبه ــ شهيد، والمطعون ــ من أصابه الطاعون ــ شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تمو بجمع ــ أي تموت وولدها في بطنها ــ شهيدة).

ذلك بعض من فضل الجهاد في سبيل الله آثرنا تبيانه قبل الحديث عن أحكام الجهاد في سبيل الله التي يجب تبيانها لكي يعلم المسلم فضل الجهاد وأحكامه ولكي يدرك ذلك الجانب المهم من جوانب الإسلام الذي ــ وللأسف ــ تراكم عليه الغبار في أوضاع أمة متهالكة تركت الجهاد لقرون عديدة واستكانت بين الجهل وحملات الغزو المعادي بين عسكرية وفكرية، وذلك لأن الجهاد هو «بعبع» أعداء الإسلام من يهود وصليبيين وشيوعيين منذ أن ظهر الإسلام وبزغ نوره، يقول بنجوريون «رئيس وزراء الكيان اليهودي في فلسطين): أخشى ما أخشاه أن يظهر في العرب رجل مثل محمد، يدعو للجهاد..)، وغير بنجوريون العديد من أعداء الإسلام الذين تحدثوا وبوضوح عن تخوفهم من الجهاد في الإسلام لما في طبيعته من خطورة على مصالحهم ولما في فضله من أثر في دفع المسلمين متى ما أدركوا هذا الفضل وحكمه(١٢).

وأحكام الجهاد تختلف باختلاف أسباب الحرب التي بيناها من قبل وذلك بين فرض العين وفرض الكفاية وفق ما تكون عليه الحالة ووفق ما تكون عليه مسببات الحرب، كما أن أحكام الجهاد لا تنحصر في الحر فقط وإنما تمتد لتشمل الحر والرقيق وكذلك المرأة والرجل الذي يعول والذين لا عائل لهما غيره وقد بلغ بهم الكبر، وذلك كما سنرى من خلال حديثنا لتبيان حكم كل حالة. الجهاد أولا واجب الأمة الإسلامية بأسرها وقد قال المصطفى رسول هذه الأمة الخالدة صلوات الله وسلامه عليه: (ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب) رواه الطبراني.. والدليل على وجوبه من مخكم التنزيل قول الحق تبارك وتعالى ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ سورة البقرة: ٢١٦.

---

(١٢) لمزيد من الإيضاح حول آراء أعداء الإسلام يراجع كتابنا «صراعنا مع اليهودية بين الصلح المستحيل والمواجهة الحتمية».

وهو ثانيا فرض من فروض الإسلام يأثم المسلمون جميعا إن هم تركوه جميعا. أو إذا قام به البعض وكان هذا البعض غير كافٍ لصد العدوان.. أما إذا قام به من المسلمين جماعات كفيلة بصد هذا العدوان وحماية الدين والدم والعرض والمال والأرض الإسلامية، فإنه يسقط وجوبه عن الآخرين.

وحين يتعرض المسلمون للخطر بهجوم العدو فمن حق الزوجة أن تخرج دون إذن زوجها والولد دون إذن أبيه والعبد دون إذن سيده، حيث الجهاد في هذه الحالة كالصلاة والصوم فرض على كل مسلم عاقل بالغ. جاء في «بدائع الصنائع» حول هذا ما نصه: (إذا عم النفير بأن هجم العدو على بلد فهو فرض عين يفترض على كل واحد من آحاد المسلمين ممن هو قادر عليه، فإذا عم النفير لا يتحقق القيام به إلا بالكل فبقي فرض على الكل عينا بمنزلة الصوم والصلاة فيخرج العبد بغير إذن مولاه والمرأة بغير إذن زوجها لأن منافع العبد والمرأة في حق العبادات المفروضة عينا مستثناه عن ملك المولى والزوج شرعا كما في الصوم والصلاة، وكذا يباح للولد أن يخرج بغير إذن والديه لأن حق الوالدين لا يظهر في فروض الأعيان كالصوم والصلاة).

وشروط الجهاد كما هي عند جمهور الفقهاء من السلف الصالح هي على النحو التالي:

١ ـــ الإسلام.. وهذا شرط معتبر لوجوده في سائر فروع دين الإسلام وفروضه، إذ أن الكافر لا يكلف بالجهاد لأنه غير مؤتمن أصلا. أما حين يكلف بالقتال مع المسلمين بأمر ولي أمر المسلمين وقائدهم فيجعل له الجعل مقابل قتاله الأعداء وتسقط عنه الجزية، وهذا أمر نادر في تاريخ حروب الإسلام.

٢ ـــ البلوغ.. وهذا شرط معتبر لوجوده في سائر فروع دين الإسلام وفروضه، وعدم وجوب الجهاد على الصبي نابع من ضعف بنيته وعدم قدرته على تحمل مشاق الجهاد في سبيل الله، وقد منع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بعض الصبية من المشاركة في الجهاد وكان بينهم عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما وهو ابن أربع عشرة سنة.. ولهذا استثناء حيث أجاز المصطفى صلى الله عليه وسلم جهاد رافع بن خديج رضي الله تعالى عنه وهو صبي عندما قيل له إنه رام مجيد للرماية، ثم أجاز بعده سمرة بن جندب رضي الله تعالى عنه عندما قال يا رسول الله إنك أجزت

رافعا وأنا أصرعه، فأمر صلى الله عليه وسلم بمصارعة الاثنين وعندما صرع سمرة رافعا أجازه وهو دون سن البلوغ مثله مثل رافع بن خديج.

٣ ــ العقل.. وهذا شرط معتبر لوجوده في سائر فروع دين الإسلام وفروضه، ورفع الجهاد عن المجنون نابع من غياب عقله ولهذا فهو لا يكلف بأداء أركان الإسلام وفروضه ولهذا فهو غير قادر على القيام بالجهاد كتحصيل حاصل.

٤ ــ الحرية.. وهذا لما ثبت في الصحاح من أن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يبايع الحر على الإسلام والجهاد ويبايع العبد على الإسلام فقط حيث العبد مشغول بحقوق سيده، وهذا يؤخذ منه أن الحرية شرط بوجوب القتال.

٥ ــ الذكورية.. وهذا شرط في وجوب الجهاد لما رواه البخاري وأحمد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت يارسول الله هل على النساء جهاد؟ فقال: (لكن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة)، وحكمة إعفاء المرأة من الجهاد في سبيل الله واضحة جلية إذ أن الإسلام أعد المرأة لأعظم أمر وهو تربية الرجال وإعدادهم، وهي ضعيفة الجسم لا قوة لها على تحمل مشاق الجهاد، وهي عورة فكيف يكون جهادها وهي على هذا الحال؟ من يقوم بإعداد الرجال إن خرجت ولم تقم بمهمتها الأساسية والعظيمة؟ كيف تقاتل وتصارع الرجال وهي الضعيفة؟ كيف تقاتل وهي متحجبة لا ترى عدوها ولا تميزه من غيره؟ أمور عديدة وحكم عديدة وراء إعفاء المرأة من الجهاد. إلا أن هناك حالات نادرة شاركت فيها النساء في غزوات المسلم، وعليه فلا ضير من مشاركتها في أعمال التموين والتمريض وغير ذلك من أعمال المساندة الإداية المتعددة. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة وقد قاتلت عنه أم عمارة نسبية بنت كعب الأنصارية، وفي تاريخ الإسلام خولة بنت الأزور وأم خلاد وأم عمارة وغيرهن.

٦ ــ وجود النفقة.. وهي تعني أن يقدر المجاهد على تأمين سلاحه وذخيرته وأن يقدر على تأمين وسيلة المواصلات التي توصله إلى ساحة الحرب وأن يجد ما يعول به زوجه وأولاده في غيابه مجاهدا، فإن تعذر ذلك وهو خالص النية نال أجر المجاهد لقوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله**﴾ سورة التوبة: ٩١.

وقد وقع مثل ذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجد ما يحملهم عليه فعذرهم والله أعلم بسرائرهم.

وهناك أمر لابد من ذكره وهو أن من واجب الأغنياء تأمين متطلبات المجاهد لأن الجهاد بالمال اقترن بالجهاد بالنفس في معظم آيات الجهاد وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، فتجهيز المجاهد جهاد، ورعاية أهله وبيته من بعده جهاد ودعم المجهود الحربي للدولة الإسلامية والدعاء للمجاهدين بالنصر جهاد، وتجنيد القلم واللسان لتبيان حقيقة مطالب المجاهدين جهاد.. الخ طالما كان صادرا عن نية صادقة وإيمان راسخ.

٧ ــ السلامة من الضرر.. إذ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج ولا على المريض حرج، وليس من المطلوب خروج أولي الضرر من المسلمين لميادين القتال، بل قد يكون في خروجهم مضرة بمن يقوم بالجهاد من غير أولي الضرر. والمقصود بهذه العلل ما يمنع أو يحد من قدرة الرجل على أهوال الحرب ومصارعة الرجال، أما الضرر إن كان بسيطا لا يمنع ولا يحد من قدرة الرجل على المنازلة والجهاد فلا ضير في ذلك.

إن الجهاد هو كما بينا إما أن يكون: فرض عين يقوم به كافة المسلمين، وتأثم الأمة كافة إن قعدت عنه. وفرض العين يعني وجوبه على كل مكلف لا يسقط عنه إلا إذا أداه بنفسه، ومنه أن يحضر المجاهد إلى ميدان القتال ثم لا يقاتل بل يقعد ويتقاعس عنه، ومنه إذا نزل العدو ببلد إسلامي وتقاعس بعض من أبناء هذا الثغر عن القتال، ومنه أن يعين الإمام قوما للقتال فيصبح الجهاد فرض عين عليهم.. وإما أن يكون: فرض كفاية يقوم به البعض ويسقط عن الباقين شرط أن يكون هؤلاء القائمون به قادرين على تحقيق النصر على العدو.. والله أعلم.

آداب الحـــرب في الإســـلام

الحرب في الإسلام تختلف عن غيرها من حروب الانحراف والضلال كما بينـا، وهـي حرب جهادية، والجهاد جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية ومبـدأ مـن مبـادىء الإسلام ـ والمبادىء والعقائد والفروع مـن الأصل وهـي انعكـاس لهـذا الأصل وصورة معبـرة عنـه. والإسلام دين أدب وتأديب، وأدبه لابد أن ينعكس على حربه التـي تأخـذ صورة الجهـاد، الذي يكـون بـدوره جوهـر العقيـدة العسكريـة الإسلاميـة ومبـدأ مـن مبـادىء هـذا الديـن الخالد.. إذن محصلة هذا أن يكون لحـرب الإسلام آدابهـا الخـاصة التـي تميزهـا عـن أي حرب، هذا بجانـب الأسباب التي تثيرها وتجعلها مختلفة ومغايرة لأي حـرب مـن حـروب الضلال التـي عرفتهـا ولا تـزال تعانـي منهـا البشريـة المنكوبـة بطواغيـت التجبـر والضلال المادي الملحد.

والحرب في الإسلام التي تأخذ من الجهاد نهجا متميزا لها تستند إلـى عظمـة الإسلام، فطبيعة الجهاد كما بينا تنبع من طبيعة الإسلام وترتبـط بهـا.. وطبيعـة الإسلام هـي السلام، فالسلام دعوة الإسلام وهبة الله تبارك وتعالى للبشرية، فالإسلام جاء ليمنـح البشريـة السلام والطمأنينة وراحة النفس والضمير.

من كل ذلك نخلص إلى القول بأن للحـرب فـي الإسلام آدابهـا، وهـي آداب نستطيـع تصنيفها على النحو التالي: آداب الحرب فيما يتعلـق بالقيـادة، وآداب الحـرب فيمـا يتعلـق بالمحارب.. وسوف نتحدث عن كل على حدة.

أولاً: آداب الحرب فيما يتعلق بالقيادة.. ليست القيادة فـي الإسلام رتبـاً يعلـو بهـا البـعض فوق البعض الآخر، أو مراكز يتأهل لها الإنسان بفارق سنين خدمتـه عـن الآخريـن. وإنمـا هي أقرب ما تكون إلى ما يتفق عليه اليوم علمـاء الإدارة والعلـوم العسكريـة مـن حيـث إن القيادة تعني: القدرة لـدى الشخص فـي التأثيـر علـى الآخريـن بعيـدا عـن وسائـل الإكـراه والسلطة.. وهي تسمو على هذا الفهم المعاصر للقيادة بارتباطها بالعقيدة التي هي مثل عليا يؤمن بها الإنسان ويضحي في سبيلها بالنفس والمال لسموها عنده على نـفسه ومالـه.. ألا وهي عقيدة التوحيد الغالية والتي يضحي المسلم الحق في سبيلها بكنوز الدنيا وبهرجها.

وهذا الارتباط بين العقيدة والقيادة عند المسلمين هو ما جعل من قلتهم في صدر الإسلام «بعبعا» مخيفا للقوى العظمى آنذاك. ذكر ابن جرير حول هذا الارتباط العظيم عن سيف بن أبي الزهراء القشيري عن رجل من قشير قال: (لما خرج هرقل نحو القسطنطينية لحقه رجل من الروم كان أسيرا في أيدي المسلمين ثم أفلت فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم؟ فقال: أحدثك كأنك تنظر إليهم: فرسان بالنهار، ورهبان في الليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن ولا يدخلون إلا بسلام ويقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه. فقال: لئن كنت صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين). وأخرج الطبراني حول هذا الارتباط أيضا، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (خرج جيش من المسلمين أنا أميرهم حتى نزلنا الإسكندرية، فقال صاحبها: أخرجوا إليّ رجلا منكم أكلمه ويكلمني، فقلت: لا يخرج إليه غيري، فخرجت ومعي ترجمان ومعه ترجمان، حتى وضع لنا منبران، فقال: من أنتم؟

فقلنا: نحن العرب، ونحن أهل الشوك والقرظ، ونحن أهل بيت الله، كنا أضيق الناس أرضا، وأشدهم عيشا، نأكل الميتة، ويغير بعضنا على بعض، بشر عيش عاش به الناس، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ شرفا، ولا أكثرنا مالا، فقال: «أنا رسول الله»، يأمرنا بما لا نعرف، وينهانا عما كنا عليه، وكانت عليه آباؤنا، فشنفنا له وكذبناه، ورددنا عليه مقالته، حتى خرج إليه قوم من غيرنا، فقالوا: نحن نصدقك، ونؤمن بك ونتبعك، ونقاتل من قاتلك، فخرج إليهم وخرجنا إليه، فقاتلناه فقتلنا وظهر علينا وغلبنا، وتناول من يليه من العرب، فقاتلهم حتى ظهر عليهم، فلو يعلم من ورائي ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلا جاءكم، حتى يشرككم فيما أنتم فيه من العيش، فضحك ثم قال: إن رسولكم قد صدق، قد جاءتنا رسلنا بمثل الذي جاءكم به رسولكم، فكنا عليه حتى ظهر فينا ملوك، فجعلوا يعملون فينا بأهوائهم ويتركون أمر الأنبياء، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه، ولم ينازلكم أحد إلا ظهرتم عليه، فإذا فعلتم مثل الذي فعلناه، وتركتم أمر الأنبياء وعملتم مثل الذين عملوا بأهوائهم، خلي بيننا وبينكم، فلم تكونوا أكثر منا عددا ولا أشد منا قوة. قال عمرو بن العاص: «فما كلمت رجلا أذكر منه).. وانفصام القيادة عن العقيدة اليوم هو ما جعل من كثرة المسلمين كما مهملا لا وزن له في حسابات الدول العظمى في يومنا هذا. كتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه ومن معه من الجند حول هذا الارتباط وحثهم على مراعاة وتبيان عواقب التخلي عنه قال: (أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على

كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولاتعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله، كفار المجوس (فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا). وأسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم أسأل الله تلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع. وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئا، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا. ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أرض العدو فاذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليكم أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم ومواففهم، وتتبع الطلائع عوراتهم. وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل. فإن لقواعدواً كان أول ما تلقاه القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلاد، لا تخص بها أحدا بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك. ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية، فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة مالم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك كصنيعه بك. ثم اذك

أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك. ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم. والله المستعان).

إن هذا الارتباط بين العقيدة والقيادة كما رأينا في حديث عمرو بن العاص رضي الله تعالى وفي وصية عمر بن الخطاب لقائده على جنده سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه، هو ما جعل للإسلام عزته وهيبته، وهو الذي ساعد على سرعة مده وانتشاره على أيدي قلة ــ إذا قيسوا بما لدى الأعداء آنذاك ــ آمنوا بالله وارتبطت عندهم القيادة بالعقيدة. وانفصام القيادة عن العقيدة في يومنا هذا هو ما جعل من الأغلبية الإسلامية كما مهملا لا وزن له في مقاييس وموازين القوى العظمى المعاصرة التي تنتهك حرمات الإسلام في كل يوم.. ترى كم نحن بحاجة لإدراك هذا الارتباط العظيم.

وحين ترتبط القيادة بعقيدة التوحيد الخالدة وبما ينبثق عنها من عقائد ونظم فإن تلك القيادة لابد أن تتميز بصفاتها الخاصة المميزة، ولابد أن تتأدب بآداب الحرب التي تمليها تلك العقيدة ومنها:

١ ــ مخافة الله: وهي صفة جامعة شاملة، تأتي بعدها صفات القيادة وتنبثق منها واجباتها. فالقائد حين يلتزم بما أمر الله ورسوله به ويجتنب ما نهى عنه الله والرسول، فهو لابد أن يكون رحيما بجنده ملتزما بآداب الحرب التي حددتها آيات الذكر الحكيم وأحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. لايؤثر قريبا ولا يحابي خاصة لا يغدر ولا ينتهك محرما، لا يسعى لمكسب دنيوي ولا يحارب من أجله. وحين تفتقد القيادة مخافة الله وتقدم على ارتكاب المعصية إما: باجتناب ما أمر الله ورسوله به، أو باقتراب ما نهى الله ورسوله عنه فإنها تتساوى مع أعدائها في المعصية وتتيح حينئذ لعدوها أسباب النصر حيث لديه العدة والعدد التي تفوق ما لدى المسلمين كما بين الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في كتابه لقائده سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهما الذي ذكرناه آنفا.. وسبحان الله الذي قيض لأعداء الإسلام قديما وحديثا التفوق الدائم في العدة والعدد، فقد كان المسلمون يواجهون الروم والفرس قديما كقوى عظمى تفوقهم في العدة والعدد، وهم يواجهون اليوم ثالوث الدمار والكراهية (اليهودية والصليبية والشيوعية) وهي جميعا قوى تفوقهم في العدة والعدد وتتفق على العداء للإسلام رغم ما بينها من التناقض الظاهري والتناحر. إن رأس الأمر

في قيادة جند الإسلام مخافة الله وتقواه والعمل بطاعته، وقد جاء في مختصر سياسة الحروب للهرثمي قوله[13]: (.. فينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده، وكثرة ذكره، والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه، ومسألته التأييد والنصر، والسلامة والظفر. وأن يعلم أن ذلك إنما هو من الله جل ثناؤه لمن شاء من خلقه كيف يشاء، لا بالأرب منه والحيلة، والاقتدار والكثرة، وأن يبرأ إليه جل وعز من الحول والقوة، في كل أمر ونهي ووقت وحال، وألا يدع الاستخارة لله في كل ما يعمل به، وأن يترك البغي والحقد، وينوي العفو، ويترك الانتقام عند الظفر، إلا ما كان لله فيه رضا، وأن يستعمل العدل وحسن السيرة، والتفقد للصغير والكبير بما فيه مصلحة رعيته، وأن يعتمد في كل ما يعمل به في حربه طلب ما عند ربه عزوجل، ليجتمع له به خيرا الدنيا والآخرة.

فليتق ربه وليصدق يقينه، ويتجنب الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة، مع ما ينال صاحبه من عاجل عقوبات الدنيا، ولا يعمل بشيء من كتابنا هذا ولا يغير إلا بما كان لله فيه رضا، وبالله العصمة ومنه النصر..).

كما جاء في «الأحكام السلطانية» للماوردي قوله[14]: (.. ولا يجوز قتل النساء في حرب ولا غيرها ما لم يقاتلوا، لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم. ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل العسفاء والوصفاء. وأن يعد القائد أهل الصبر والبلاء منهم بثواب الله لو كانوا من أهل الآخرة وبالجزاء والفضل من الغنيمة إن كانوا من أهل الدنيا، قال تعالى **﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾**، وثواب الدنيا الغنيمة، وثواب الآخرة الجنة. وأن يأخذ القائد جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوقه، وأمر به من حدوده، حتى لا يكون بينهم تجور في دين ولا تحيّف في حق، فإن من جاهد عن الدين كان أحق الناس بالتزام أحكامه والفصل بين حلاله وحرامه. وقد روى حارث بن نبهان عن أبان بن عثمان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (انهو جيوشكم عن الفساد، فإنه ما فسد جيش قط إلا قذف الله في قلوبهم الرعب، وانهوا جيوشكم عن الغلول، فإنه ما غل جيش قط إلا سلط الله عليهم الرجلة ــ وهي نوع من الأمراض ــ وانهوا جيوشكم

(١٣) الهرثمي: مختصر سياسة الحرب، ص ١٥ وما بعدها.

(١٤) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ٤٣ وما بعدها.

عن الزنا، فإنه ما زنا جيش قط إلا سلط الله عليهم الموتان ــ وهو كثرة الموت في صفوفهم ــ .. وأن يقصد القائد بقتاله نصرة دين الله تعالى وإبطال ما خالفه من الأديان ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾، فيكون بهذا الاعتقاد حائزا ثواب الله تعالى ومطيعا له في أوامره ونصرة دينه، ومستنصرا به على عدوه، ليستسهل ما لاقى، فيكون أكثر ثباتا وأبلغ نكاية. ولا يقصد بجهاده استفادة المغنم، فيصير من المتكسبين لا من المجاهدين.

ومن أحكام هذه الإمارة مصابرة الأمير قتال العدو ما صابر، وإن تطاولت به المدة، ولا يولي عنه وفيه قوة..)

وجاء في «الأحكام السلطانية» لأبي يعلي قوله[١٥]: (على القائد ألا يمالي من ناسبه، أو وافق رأيه ومذهبه، على من باينه في نسب، أو خالفه في رأي ومذهب، فيظهر من أحوال المباينة ما تفترق به الكلمة الجامعة، تشاغلا بالتقاطع والاختلاف.. وأن يأخذ جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوقه، حتى لا يكون بينهم تجور في الدين.. وأن يقصد بقتاله نصرة دين الله تعالى، وإبطال ما خالفه من الأديان، فيكون مطيعا لله في أوامره، ولا يقصد في جهاده استفادة المغنم، فيصير من المتكسبين لا من المجاهدين.. وأن يؤدي الأمانة فيما حازه من المغانم، ولا يغل أحد منهم شيئا حتى تقسم بين جميع الغانمين ممن شهد الوقعة، وكانوا على العدو يدا واحدة، لأن لكل واحد منهم فيها حقا..).

وحقيقة هذا الأمر إنما يستند فيه إلى قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.. الحديث) فالقائد إنما هو راع لجنده في ميدان الجهاد كما هو الخليفة أو الوالي أو أي ممن يكلفون برعاية أمر من أمور المسلمين.

وقد أجمع العلماء على أن الجهاد لا يتأثر بقائد الجيش ولا بإمام المسلمين من حيث تقواه أو فجوره فالطاعة واجبة مالم يأمر الأمير أو الوالي أو القائد بمعصية وذلك لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (السمع والطاعة حق واجب ما لم يأمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا طاعة) رواه البخاري.

(١٥) أبو يعلي: الأحكام السلطانية، ص ٢٥ وما بعدها.

والجهاد فرض مثل سائر الفروض كما تقدم بنا ويجب القيام به مع البر والفاجر، ومع التقي والفاسق، ما دام قائما بما يجب عليه من واجبات تجاه المعركة وصالحا لأعمال قيادة القتال لصالح المسلمين ولم يأمر بمعصية، لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) رواه البخاري.. وعليه فإنه لا يحل للمسلم أن يتعلل بفجور القائد أو فسوقه للقعود عن القتال والجهاد في سبيل الله، وإلا دارت الدوائر على المسلمين وتمكن الأعداء من رقابهم وأعراضهم وأموالهم. يقول ابن تيمية رحمه الله (يقدم في إمارة الحرب الرجل القوي الشجاع وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينا).

وسئل الإمام أحمد رحمه الله عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو، أحدهما قوي فاجر والآخر ضعيف صالح، مع أيهما يغزى؟ فقال رحمه الله: (أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين. فيغزى مع القوي الفاجر..)، وقال الشوكاني رحمه الله (الجهاد فرض مع البر والفاجر)، وقال ابن حزم رحمه الله: (يغزى أهل الفكر ويحاربون مع كل فاسق من الأمراء وغير فاسق، ومع المغلب ــ الذي أخذ الحكم بالقوة، ومع المحارب ــ الذي يحارب السلطان خروجا عليه ــ كما يغزى مع الإمام، وكما يغزوهم المرء وحده إن قدر أيضا).

٢ ــ العمل بما أوجبه الله من شورى: وهي صفة من صفات القيادة التي أوجبها الله ورسوله، وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بالأخذ بها بقوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾ سورة آل عمران: ١٥٩. كما وصف الله سبحانه وتعالى أمة محمد بقوله تعالى ﴿**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقنٰهم ينفقون**﴾ سورة الشورى: ٣٨. وجاء في مسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قوله: (ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم). وقد حاز المصطفى صلى الله عليه وسلم أروع صفات القائد بشهادة أعداء الإسلام أنفسهم، ففي بدر أوضح لمن معه من المسلمين الموقف العام وطلب منهم الرأي حيث لم يشأ أن ينفرد برأيه عليه

الصلاة والسلام. وعندما تكلم أبوبكر وعمر والمقداد بن عمرو باسم المهاجرين وأبدوا استعدادهم لقتال القوم عندما أحسوا رغبته صلى الله عليه وسلم بقتالهم.. عاد صلى الله عليه وسلم إلى طلب المشورة، فأحس الأنصار أنه يقصدهم، فوقف سعد ابن معاذ رضي الله تعالى عنه وقال: والله لكأنك تريدنا يارسول الله؟ فأجابه: أجل. فقال سعد: (قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فأمض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا! إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقربه عينك فسر بنا على بركة الله).

وعندما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه عند أول بئر من آبار بدر، تقدم إليه الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح رضي الله تعالى عنه وقال : (يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟) فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) قال: (يارسول الله، هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا، فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون) وقد أعجب صلى الله عليه وسلم فقال: (لقد أشرت بالرأي).

وفي غزوة الأحزاب جمع المصطفى صلى الله عليه وسلم وكعادته في كل غزوة صحابته رضوان الله عليهم أجمعين واستشارهم بعد أن بين لهم الموقف العام وطلب منهم الرأي والمشورة. هنا تحدث سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه وقال : (يارسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا خفنا العدو خندقنا عليه).

وأعجب الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الرأي وأخذ به حيث أن فكرة الخندق لم تكن مألوفة عند العرب وستكون مفاجأة لقريش وحلفائها من قبائل العرب.

وعلى نهجه صلى الله عليه وسلم وهدي سنته الشريفة سار خلفاؤه الراشدون من بعده، فقد جاء في وصية أبي بكر لخالد بن سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنهما حين خرج على رأس جيش إلى الشام: (.. وانصح لعامة المسلمين، واخصص

الوالي على الجند من نصيحتك ومشورتك ما يحق الله للمسلمين عليك)، كما أوصى عمرو بن العاص في أثناء ذهابه لنجدة أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله تعالى عنهم فقال: (.. وأنت قادم على إخوانك، فلا تألهم نصيحة، ولا تدخر عنهم صالح مشورة، فرب رأي لك محمود في الحرب، مبارك في عواقب الأمور)، كما أوصى يزيد بن أبي سفيان فقال: (.. وقد وليتك على رجال من المسلمين أشراف غير أوزاع، فشاورهم في الأمر..). وقد مر بنا ما وصى به عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهما وقد جاء في وصيته: (وليكن معك من العرب أو أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذاب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك).

إن أحدث الأساليب الإدارية اليوم هو ما يعرف بنهج: الإدارة بالأهداف. وهذا النهج أو الأسلوب يمثل قمة ما وصلت إليه الأساليب الديمقراطية في عالم الادارة العامة.. ومع ما بها من محاسن لا ننكرها، فهي لا تكاد تسمو إلى ما وصل إليه نهج الإسلام في الشورى التي جعلها الله سبحانه وتعالى أمرا ملزما لكل من ولي شيئا من أمر المسلمين.

٣ ــ الرفق بالمرؤوسين: وهي صفة من الصفات القيادية التي أوجبها الله ورسوله، وقد ربطها الله سبحانه وتعالى بالشورى في قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾** سورة آل عمران: ١٥٩، وقد نزلت هذه الآية الكريمة لتصف حال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتصل بقيادته للمسلمين في غزوة أحد.. ولهذا نجد أن المصطفى صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس لينا ورحمة وصلة بأتباعه وأصحابه في جميع الغزوات التي غزاها في حياته الكريمة، فلقد جاء في سنن أبي داود عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلف في المسير فيزجي الضعيف ويردف من ليس له ما يحمله ويدعو لهم)، وروى أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به).

وقد سار على هذا النهج المحمدي القويم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، فقد مر بنا ما وصى به الخليفة الراشد أبوبكر الصديق قائد جنده عمرو بن العاص حين سيره إلى الشام «وكن والدا لمن معك، ولا تكشفن الناس عن أستارهم واكتف بعلانيتهم». كما مر بنا ما وصي به الخليفة الراشد عمر بن الخطاب قائده سعد بن أبي وقاص حين سيره إلى العراق «ترفق بالمسلمين في سيرهم، ولا تجشمهم سيرا يتعبهم ولا تقصر بهم عند منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع وأقم بمن معك كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم».

والرفق بالمرؤوسين لا يعني إعفاءهم من التدريبات والإعداد القاسي لأجسامهم لتكون قادرة على تحمل مشاق القتال وأعبائه. ولكن الرفق يعني الحرص على راحتهم ومخالطتهم والتحدث إليهم ومشاورتهم في الأمر كبارا كانوا أم صغارا، والتعامل معهم برابطة إخوة العقيدة الواحدة والهدف الواحد، وكذلك الحرص على تأمين متطلباتهم الحياتية وما يلزمهم من غذاء جيد وملبس حسن، وعدم الاستئثار دونهم بشيء.. ولعل كل هذه الصفات الحميدة وللأسف تتوفر اليوم في قيادات أعداء الإسلام حيث لا يحس الجندي بأية فوارق بينه وبين قائده ورئيسه، أما في دول العالم الثالث وجلها إسلامية وللأسف فالقائد لا يكاد يرى في جنوده إلا خدما ينفذون ما يأمر به ويأكلون ما يتفضل به هو عليهم والويل والثبور لهم إن هم اعترضوا أو تذمروا.. فمن أين يأتي النصر وعوامل النصر وسواعده مهانة مرزوءة بمثل هؤلاء القادة!؟.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفر الخندق مع أصحابه رضوان الله عليهم وهو يشد الحجر على بطنه من شدة الجوع، وحين يأتيه قليل من طعام لا يمسه قبل أن يجمع من حوله للمشاركة.. وليس الخندق هو الموقع الوحيد الذي كان فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم (وهو القائد) مشاركا لجنده في المشاق ومكابدة الأهوال، وإنما هناك الغزوات العديدة والمواقف الكثيرة التي كان صلى الله عليه وسلم مشاركا فيها ما يعانونه ويكابدونه.. أليس لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة!؟ أم أن على قلوب أقفالها!؟.

إن الرفق بالمرؤوسين من عوامل النصر في المعارك قديما وحديثا، ولقد ظهرت نتائج التعامل الإنساني للقيادة مع المرؤوسين واضحة جلية في معارك رمضان من عام ١٣٩٣هـ عندما أدركت القيادة المصرية أن النهج الإنساني للقيادات مع المرؤوسين كان من مسببات هزيمة عام ١٩٦٧م.

ومن مظاهر الرفق بالمرؤوسين : تقديم النصيحة لهم والاهتمام بكل أمورهم الدينية والدنيوية لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (الدين النصيحة)، وقوله أيضا: (كلكلم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.. الحديث). فالذي لا ينصح جنده هو غاش لهم وقد أخبر المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن الله قد حرم الجنة على كل غاش لرعيته، ففي الصحاح عن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة).

ومن مظاهر الرفق بالمرؤوسين: وضع كل إنسان فيما يتلاءم مع مقدرته وتخصصه إن وجد، وذلك ما يطلقون عليه اليوم في علم الإدارة: وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. والقائد حين يضع الرجل فيما لا يتناسب مع قدراته فإنه يظلمه وظلمه هذا بحد ذاته يعد خرقاً وتعدياً على ما أوجبه الله من الرفق بالمرؤوسين.. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك أسوة حسنة، فلقد نهى أبا ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه عن تولي أي من أمور المسلمين حتى وإن كانت وصاية على يتيم لما يعلمه صلى الله عليه وسلم من ضعف أبي ذر تحمل الأمانة. ولقد ولى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه قيادة الجيش بعد إسلامه مباشرة لما يعلمه صلى الله عليه وسلم من قدرات خالد القيادية.

ومن مظاهر الرفق بالمرؤوسين : تفقد أحوالهم والوقوف على راحتهم في مأكلهم ومشربهم وحسن استعدادهم للقتال وحسن علاقاتهم فيما بينهم، وتطهير الجيش من المرجفين وضعفاء النفوس ومثيري الفتن والمدسوسين بين الجند.. ولقد تمكن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله من تحقيق النصر بعد أن أقدم على تطهير جيشه من كل هؤلاء، ولولا رفقه بجنده وتفقد أحوالهم لما تمكن من معرفة هذه الجرائم الخبيثة التي تنخر في جسد قواته.

ومن مظاهر الرفق بالمرؤوسين: ومن الصفات الحميدة للقيادة: المؤاخاة

والصحبة بين الجنود في غير وقت العمل ليزداد الترابط بينهم وتترسخ أواصر المودة، وكلها عوامل من عوامل النصر بإذن الله تعالى. لقد كان مما وصى به أبوبكر رضي الله تعالى عنه قائده يزيد بن أبي سفيان كما مر بنا قوله : (.. وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وأبدأهم بالخير وعدهم إياه، واصلح نفسك يصلح لك الناس، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتتكشف عندك الأستار.. ولقد وليتك على رجال من المسلمين، فاحسن صحبتهم، ولتكن لهم كنفا، واخفض لهم جناحيك).

ومن مظاهر الرفق بالمرؤوسين: أن يكون القائد قدوة حسنة لهم بفعله وقوله حيث إن أنظارهم وقلوبهم مشدودة إليه، ورب جانح دفعه إلى جنوحه حال قائده وما هو عليه من جنوح. لهذا فإن من مظاهر الرفق بجندك أن تكون قدوة حسنة لهم لكي لا تدفعهم إلى ما لاتحمد عقباه.. ولقد كان قادة الفتح الإسلامي قدوة حسنة لجندهم الذين حققوا الانتصارات المتتالية : فرسان في النهار ورهبان في الليل.

٤ ـ الالتزام بتعاليم الحرب من الكتاب والسنة: ومن تعاليم الحرب ضرورة إعلام العدو بالحرب والنهي عن مباغتته بها إن كان لم تصله الدعوة من قبل، حيث إن هناك من قد يستجيب للدعوة ويدخل في كنف الإسلام دون قتال إذا تم إعلامه بها.

ومن تعاليم الحرب: استحباب الهجوم في أول النهار فإن تأخر فيجب أن يؤجل لأول النهار التالي لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (اللهم بارك لأمتي في بكورها). وقد ثبت في كتب السيرة أنه كان إذا بعث جيشا بعثه أول النهار وأنه كان يقاتل في أول النهار.

ومن تعاليم الحرب: أن يستطلع أحوال عدوه ليتعرف على أعداد جنده وعدتهم ومواقعهم وتحصيناتهم وأساليبهم القتالية ومعنوياتهم وغير ذلك من المعلومات الضرورية للتخطيط السليم للمعركة أو المعارك المقبلة. ولقد ثبت في كتب السيرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل عينا يتعرف أخبار قافلة أبي سفيان وقد تعرف على أعداد المشركين في غزوة بدر من عدد ذبائحهم، كما أرسل الزبير بن العوام ليأتيه بأخبار المشركين في غزوة الأحزاب.. وهكذا فعل في كل غزوة، وهكذا كان يفعل قادة الفتح الإسلامي.. وهذا ما تقوم به اليوم أجهزة الاستخبارات المتعددة الأغراض للحصول على كافة المعلومات اللازمة عن العدو.

ومن تعاليم الحرب: أن تتجنب القيادة أعمال الغدر، فقد روى مسلم عن عبد الله ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء، فقيل : هذه غدرة فلان ابن فلان).. وهذا لا يتناقض مع جواز الخدعة في الحرب لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم في رواية مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: (الحرب خدعة).. والخدعة لا تأتي بالغدر أو نقض العهد.

ومن تعاليم الحرب: أن تتجنب القيادة قتل النساء والصبيان والعجزة، فلقد روى مسلم عن ليث بن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما : (أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم مقتولة، فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان). أما إذا اشتركت النساء والصبيان وكبار السن في الحرب فيجب قتلهم لإسهامهم في دفع المجهود الحربي للعدو.

ومن تعاليم الحرب: أن تتجنب القيادة العجب والغرور وذلك لأنها صفات يمقتها الله على المسلم في السلم والحرب لارتباطها بالجاهلية وكونها من عوامل الهزيمة وليست من دوافع النصر ذلك أن القائد المعجب بنفسه المغرور بإمكاناته وقدراته لابد أن يذهب ضحية هذا الشعور الذي لابد أن يدفعه للاستهانة بعدوه.

ولقد بينا العديد من تعاليم الحرب التي أوجب الإسلام الالتزام بها ونهى من خلالها عن كل ما يخل بعظمة الإسلام وكونه دين رحمة وسلام.

إن هذه الآداب التي ذكرناها آنفا لا تنطبق على القائد وقيادته فحسب، وإنما هي آداب يجب أن يلتزم بها المجاهدون سواء كانوا قادة أم جنودا مرؤوسين. وقد خصصنا بها القيادة، لأن القائد حين يلتزم بها فإن جنوده لابد أنهم فاعلون، ولأن القائد مسؤول عن كل ما يفعله جنوده في مراحل المعركة والمراحل الإعدادية التي تسبقها وكذلك المراحل التي تتلوها.. وسوف نبين الآن الآداب التي تتعلق بالمحاربين والتي لابد من توفرها أيضا في القائد ومعاوينه.

ثانياً: آداب الحرب فيما يتعلق بالجند.. جند الإسلام ليسوا طلاب دنيا يغنمون حين يكون النصر ويفرون حين تكون الهزيمة، وليسوا جنودا يقاتلون من أجل غايات وأهداف رخيصة ووضيعة.. إنهم من عباد الرحمن الذين قال عنهم تبارك وتعالى في

كتابه الكريم ﴿**وعباد الرحمٰن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجٰهلون قالوا سلٰما**﴾ سورة الفرقان: ٦٣.. وهم ملتزمون بما جاء به الكتاب والسنة التزاما كاملا كل حسب استطاعته، وذلك ادراكا منهم أن الجهاد في سبيل الله يتطلب انضباطا أخلاقيا في أحرج المواطن لهذا الالتزام، إذ لا يكون مجاهدا من كان جهاده طلبا لدنيا يصيبها أو فخر يتباهى به، ولا يكون مجاهدا من كان منحرف العقيدة مرتكبا للمعاصي والكبائر لا يقيم الصلاة ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، لا يفرق بين الكبيرة والصغيرة يرتضي حكم الإنسان ويرفض حكم الله وشريعته. إن الجهاد يكون طلبا للقاء الله سبحانه وتعالى.. والجهاد وسيلة لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه على الدين كله، ولهذا لابد أن يتأدب المجاهد سواء كان قائداً أو جندياً، رئيساً، أو مرؤوساً بآداب الإسلام، وأن يتعلم تعاليم الإسلام في شؤون الحرب قبل أن يذهب إلى ميادين القتال ومنازلة الأعداء للجهاد في سبيل الله.. ومن هذه الآداب الإسلامية السامية:

١ ــ الإيمان بالهدف والغاية: تجمع العقائد العسكرية السائدة في عالمنا اليوم وكذلك العديد من آراء المنظرين العسكريين على أن: وحدة الهدف والإيمان به، يعد واحداً من المبادىء العامة للحرب.. أما في العقيدة العسكرية الإسلامية فيعد هذا تحصيل حاصل، إذ أن المجاهد لا يكون مجاهدا حقا وفي سبيل الله تعالى حقيقة إلا بعد أن يخلص النية لله تعالى في جهاده. يخرج من بيته لا يخرجه إلا طلب النصرة لدين الله أو الشهادة في سبيله، يخرج من بيته وهو مخلص نفسه من أية غاية سوى رضاء الله سبحانه وتعالى، مؤمناً بالهدف الذي خرج من أجله، وساعياً لتحقيق الغاية التي يؤمن ويدرك تمام الإدراك أنه لم يخلق إلا من أجلها.

إن المسلم يقاتل لنصرة دين الله وإعلاء كلمته ونشر الإسلام وردع الباغين ودفع عدوان المعتدين وحماية دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم وأرضهم من شرور المعتدين.. فلأيّ من هذه الأسباب رفعت راية الجهاد تكون الغاية ويكون الهدف الذي يجب على المجاهد قائداً أو جندياً أن يلتزم به ويسعى إلى تحقيقه باذلا نفسه التي هي أغلى ما يملك.

٢ ــ الطاعة في غير معصية: الطاعة مبدأ من مبادىء الإسلام فيما يتعلق بالخلافة

والإمارة والقيادة وذلك لقول الحق تبارك وتعالى **﴿يٰأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنٰزعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾** سورة النساء: ٥٩. وفي صحيح البخاري ومسلم قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني). وقوله أيضا: (عليكم بالسمع والطاعة، وإن أمّر عليكم عبد حبشي.. الحديث). والمسلم مأمور حين يخرج في جماعة وإن كانوا ثلاثة أن يكون أحدهم أميرا عليهم.. وحين يعين هذا الأمير من قبل ولي أمر المسلمين أو تختاره الجماعة التي معه، فإن طاعته واجبة في غير معصية الله أما حين يأمر بمعصية فلا سمع له ولا طاعة.

٣ ــ الثبات عند اللقاء وعدم الفرار: الثبات عند اللقاء واجب، والفرار كبيرة من الكبائر وقد بيّن المصطفى صلى الله عليه وسلم بأنه من السبع الموبقات أي المهلكات التي تورد صاحبها والعياذ بالله في النار، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (احذروا السبع الموبقات) قيل يا رسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات). وقد بين الحق سبحانه وتعالى حكم الفرار يوم الزحف وما ينتظر الفار من عذاب جهنم في قوله تعالى **﴿يٰأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾** سورة الأنفال : ١٥ ــ ١٦.

والثبات من صفات الجندي المسلم الحق لأنه يسعى للشهادة لما يعرفه من عظم أجره، أما الفرار فلا يقدم عليه إلا من لا علاقة له بالإسلام أو أنه مسلم بالاسم وذلك لعدم معرفته لماذا يقاتل وما الهدف من وراء قتاله، إذ أن الهدف عند المسلم حين يقاتل لا يتعدى طلب إحدى الحسنيين: إما النصر وإما الشهادة.. ومن هنا فإنه لا يقدم على الفرار بل يكون هدفه أن يقتل في سبيل الله لينال شرف الشهادة ويصل إلى ما عند الله من نعيم للشهداء.

٤ ــ الشجاعة والصبر: الشجاعة صفة من صفات المسلم حيث إنه يقاتل من أجل هدف سام ورفيع ويعلم أن شجاعته ستقوده إلى الجنة إن هو أخلص النية وقاتل في سبيل الله دون أي أهداف دنيوية رخيصة، وهذا النوع من الشجاعة هو ما نستطيع أن نطلق عليه: الشجاعة النفسية والروحية. أما الشجاعة في ميدان القتال والتي يعتبر فيها الجندي بعضلاته وسلاحه فهي ما نطلق عليه الشجاعة الحربية.. والجندي المسلم حين يتحلى بهاتين الصفتين من الشجاعة فهو لابد منتصر بإذن الله كما انتصر أسلافه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعهم وأتباع أتباعهم.

والصبر يدعم الشجاعة عند الجندي المسلم لإدراكه معنى قول الله تعالى في محكم التنزيل ﴿**يٰأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صٰبرون يغلبوا مائتين وإن يكن من مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصٰبرين**﴾ سورة الأنفال: ٦٥ ــ ٦٦.

٥ ــ الإيثار وإنكار الذات: الإيثار وإنكار الذات من الصفات الحميدةالتي يحث عليها الإسلام جنده، والتي كان المصطفى صلى الله عليه وسلم للمسلمين فيها أسوة حسنة حيث كان لا يتناول طعاما دون باقي من معه من المسلمين وكان لا يستأثر برشفة ماء دونهم.. وتلك صفات تؤهل جند الإسلام للنصر بإذن الله تعالى لما لها من أثر في وحدة الجماعة ورص الصفوف أمام العدو حيث يختفي دور الفرد في ثنايا العمل الجماعي لجماعة المجاهدين في سبيله، يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص**﴾ سورة الصف: ٤ لقد كان مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش في قتال الروم وقد استعصى على المسلمين اقتحام الحصن فتقدم رجل ملثم وأحدث ثغرة في الحصن اجتاز منها المسلمون وتم لهم النصر بإذن الله وعندما نادى مسلمة بن عبد الملك بصاحب النقب ليشكره أو ليكافئه، رفض الإفصاح عن هويته، فصار مسلمة لا يصلي بعد ذلك إلا ودعى ربه بقوله: اللهم اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة.

٦ ــ ذكر الله وطلب النصر منه وترك التنازع: ذكر الله أثناء القتال يشغل الإنسان بربه ويربط ذهنه بما وعد به الله عباده المخلصين من نصر وعزة، وبما أعده سبحانه وتعالى للشهداء من نعيم مقيم في الجنة التي أعدها الله للشهداء في سبيله ــ هذا إلى أن ذكر المجاهد لربه يقربه من الله ومن رضائه وعفوه ونصرته ونصره، يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملٰئكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم**﴾ سورة الأنفال: ٩ ــ ١٠، وفي سنن أبي داود قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (ثنتان لا تردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس، حين يلحم بعضهم بعضاً) ــ ولقد كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام عند كل لقاء مع العدو: (اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل)..

واللجوء إلى الله بالدعاء وطلب النصر منه وانشغال المسلم بذكر الله في القتال يبعده عن التنازع الذي هو من الأسباب القوية للتباغض وانتشار الحقد والكراهية بين المسلمين ناهيك عن أن الحرب هي أكثر ما تكون فيها الحاجة لوحدة الصف والتلاحم وزيادة القوة، يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**يـٰأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصٰبرين**﴾ سورة الأنفال: ٤٥ ــ ٤٦.

٧ ــ الاستعداد الدائم روحيا وماديا للجهاد: جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبه من نفاق). وجاء في الصحاح قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إذا ضنّ الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعين وأتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله عليهم بلاء فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم).. إذن هو استعداد دائم للجهاد لأن الشر دائم ما دام إبليس قد أمهله الله إلى يوم يبعث عباده.

والإعداد والاستعداد الدائم يجب أن يكون: استعدادا روحيا واستعدادا ماديا والإعداد والاستعداد الروحي والمادي يجب أن يكون على مستوى الفرد والجماعة (أي دولة المسلمين). يقول الله سبحانه وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وأعدوا لهم ما**

استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾ سورة الأنفال: ٦٠.. والمطلوب هنا هو الاستعداد والإعداد الروحي والمادي إذ لن يكون هناك جدوى من الإعداد المادي لجيش فاسد فاجر تنتشر فيه الرذيلة وتنخر في جسده الموبقات. كما أن الاستعداد الروحي لا يكفي دون الاستعداد المادي.

ومن الاستعداد المادى إعداد الجيوش الإسلامية وأفواج المجاهدين على الخشونة وترف العيش.. ولعل لهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيث كان يشد الحجر على بطنه من شدة الجوع في أيام حفر الخندق. إن الجيوش التي تعتاد على ترف العيش ونعيم الحياة لن تقوى على الصمود ولن تكون الجيوش التي تحمي حوزة الدين وتعلي كلمة الله تبارك وتعالى.

استراتيجية الحرب في الإسلام

يتفق المنظرون العسكريون على أن الاستراتيجية: (هي الخطط والوسائل التي يعالج بها الوضع الكلي للصراع الذي يستخدم فيه القوة بشكل مباشر أو غير مباشر من أجل تحقيق هدف السياسة الذي يتعذر تنفيذه عن غير ذلك السبيل).. إن هذا التعريف للاستراتيجية هو الخلاصة التي وضعتها الموسوعة العسكرية لآراء المنظرين العسكريين من أمثال «ليدل هارت» و «كلاوزفيتز» و «أندريه بوفر» و «سوكولوفسكي» و «ماوتسي تونغ».. وهؤلاء جميعا وغيرهم ممن وضعوا تعريفات تدور حول هذا المعنى للاستراتيجية، هم من أبناء العالم الوضعي المادي المعاصر، وفكرهم يعد فكرًا وضعيا معاديا، إذ ينتمون إلى المعسكر الغربي الرأسمالي والمعسكر الشرقي الشيوعي.. فهل ما أتوا به وما حددوده من تعريف للاستراتيجية يتفق مع مفهوم الحرب في الإسلام واستراتيجيتها؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال حديثنا هذا، أضرع إلى الله أن يلهمني الصواب وأطلب منه العفو، وأستميح عباده العذر إن أنا جانبت الصواب في اجتهادي هذا. لكي نصل إلى تحديد معنى واضح لاستراتيجية الحرب في الإسلام، لابد من التذكير ببعض جوانب طبيعة الحرب في الإسلام والحديث عن الجوانب الأخرى التي لم نتعرض لها في أحاديثنا السابقة. وعليه نقول: إنه من خلال حديثنا عن طبيعة الإسلام ثم طبيعة الجهاد في الإسلام تبيّن لنا أن السلام هو القاعدة والحرب استثناء لها، وأن الإسلام هو السلام الذي منحه الله للإنسانية لكي تعرف طريق السلام والطمأنينة ولكي لا تنساق وراء الشيطان وتنضم تحت لوائه وقد نذر نفسه لإغواء الإنسان وقيادته تحت هذا اللواء إلى جهنم والعياذ بالله.. إذن الإسلام سلام ودعوة خلاص، وليس دعوة دنيوية محدودة الأهداف والغايات والتطلعات التي تنتهي بتحقيق تلك الأهداف (السياسات) المادية الدنيوية المحدودة، والتي تستخدم القوة بشكل مباشر أو غير مباشر لتحقيقها. ومن هنا كانت رسائل المصطفى صلى الله عليه وسلم في العام السابع للهجرة إلى أباطرة الروم وأكاسرة الفرس والنجاشي والمقوقس وغيرهم من ملوك العرب والعجم، تتضمن عبارة واحدة مشتركة تحدد أولى الأسس التي تنطلق منها لوضع تعريف للاستراتيجية الحربية في الإسلام، وهي قوله صلى الله عليه وسلم: (أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم أمتك)..

إذن هي لا تنطلق من منطلقات سياسية ومادية دنيوية زائلة، وإنما تنطلق من أهداف إصلاحية نفعها يعود على المستهدف نفسه بالدرجة الأولى، ولا مكسب للمجاهد المسلم إلا رضا الله سبحانه وتعالى وقد أمره بأن يكون وسيلة هداية وإصلاح لأخيه الإنسان.

كما أننا قد عرفنا أن المسلمين لا يفاجئون قوما لم تصلهم الدعوة ولا يباغتونهم بحرب دون إعلامهم بها، وإعلامهم بالحرب هو وصول دعوة الله إلى أسماعهم وعقولهم، فإن قبلوها فقد دخلوا في ربقة الإسلام وحرم دمهم على إخوانهم من المسلمين، وإن رفضوها وحاربوها فحربهم واجبة على المسلمين.. وهنا يبرز لنا المنطلق الأساسي الثاني لتحديد استراتيجية الحرب في الإسلام، إذ لا حرب دون إعلام، والإعلام إما أن يجد القبول فتحرم الحرب، وإما أن يجد الرفض فتجب الحرب.. وما حارب المصطفى صلى الله عليه وسلم قوما قبل دعوتهم للإسلام والرضوخ له، وما حاربهم إلا بعد رفضهم لهذا العرض الذي أريد به صلاح أمرهم في الدنيا وحسن مآلهم في الآخرة.

وحقيقة الجهاد الذي هو جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية والتي تحدد بدورها استراتيجية الحرب في الإسلام تمتد تصاعديا كما علمنا من جهاد النفس إلى جهاد المنافقين والكفار، سعيا لتحقيق الصلاح. وهي بهذا حرب لا تقتصر على صراع الأعداء ومقارعتهم بالسيوف، وإنما تمتد هذه الحرب إلى نفس الإنسان وذاته.. إذن هي حرب لا تقوم على العدوان بمفهومه المادي المعاصر، وإنما تتخذ من استراتيجية دفع العدوان (الردع) وسيلة لها ضد عدوان الإنسان على نفسه وضد عدوان الشيطان على الإنسان وضد عدوان المنافقين والكفار على الصالحين المهتدين، وبذلك تكون استراتيجية ردع لا تعتمد على القوة المادية وحدها وإنما تقوم على وسائل الردع النفسي والذي استند عليه المنظرون المعاصرون في العالمين: الرأسمالي والشيوعي في تحديد مفهومهم للاستراتيجية العسكرية واستراتيجية الردع.

إنهم يعرفون الردع على النحو التالي(١٦): (الوسائل الكفيلة بمنع دولة معادية من اتخاذ قرار باستخدام أسلحتها أو منعها من العمل أو الرد إزاء موقف معين، وذلك باتخاذ مجموعة من التدابير والإجراءات التي تشكل تهديدا كافيا يحقق الردع. ومن ثم تكون النتيجة التي ترد من التهديد نتيجة سيكولوجية. وهذه النتيجة السيكولوجية تأتي كحصيلة

(١٦) الجنرال أندريه بوفر: الردع والاستراتيجية، ترجمة أكرم ديري، ص ٣١ وما بعدها.

لعمليات حساب ومقارنة الأرباح والخسائر (الخطر والمكاسب) التي قد تنتج عن العمليات الحربية المرتقبة وعمليات المقارنة والحساب هذه يدخل ضمنها العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمعنوية والنفسية المعروفة، كما يدخل ضمنها تقدير وتوقيع عوامل أخرى مجهولة لنا وقت التخطيط (الحساب والمقارنة).

ويصنفون الردع هذا على النحو التالي:

١ ـ ردع دفاعي، وذلك حين يقتصر الردع في منع الخصم من أن يجر على نفسه عملا نخشاه.

٢ ـ ردع هجومي، وذلك حين يمنع الردع خصمنا من مواجهة عمل نريد القيام به.

٣ ـ ردع مباشر، وذلك حين يكون (سواء هجومي أو دفاعي) بين طرفين متنازعين.

٤ ـ ردع غير مباشر، وذلك حين يكون (سواء هجومي أو دفاعي) لصالح طرف ثالث.

٥ ـ ردع محدود، وذلك حين يكون محدودا في نطاقه وهدفه من حيث استخدام القوة.

٦ ـ ردع شامل، وذلك حين يكون شاملا في نطاقه وهدفه من حيث استخدام القوة.

من ذلك نستخلص الأمور التالية:

١ ـ أن للرد مظهرين: مظهراً عادياً ومظهراً معنوياً يتممان بعضهما بعضا.

٢ ـ أن هدف الردع: منع العدو من استخدام قوته ضدنا.

٣ ـ تقوم استراتيجية الردع على: عدم استخدام السلاح بفضل الاستخدام الحاذق.

٤ ـ تقوم استراتيجية الردع على : الممارسة قبل استراتيجية الحرب وتهدف لمنعها ـ على حد تعبير أندرية بوفر أيضا.

فهل هذا متفق مع استراتيجية الردع في الإسلام؟

يقول تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ سورة الأنفال: ٦٠، ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير) متفق عليه، وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم

ولم تحل لأحد قبلي، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت للناس كافة، وأعطيت الشفاعة) متفق عليه..

وهذا يبين لنا أن استراتيجية الردع في الإسلام تقوم على الأسس التالية[١٧]:

١ ــ إعداد القوة الشاملة: وهذا يعني إعداد المجاهدين روحيا ومعنويا وماديا، كما يعني إعداد الأمة بأسرها. فالقوة كما بينا من قبل لاتعني الإعداد المادي فقط وإلا لاقيمة لهذا الإعداد دون الإعداد الروحي للمجاهدين وللأمة بأسرها، كما أن الإعداد الروحي وحده لا يكفي استنادا لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير). والقوة المادية لا تقتصر على القوة العسكرية فحسب بل تمتد لتشمل القوة السياسية والقوة الاقتصادية والقوة الاجتماعية والنفسية، فالويل كما قال حكماء المسلمين لأمة تأكل ما لا تزرع وتلبس مالاتصنع.

٢ ــ التأهب الدائم.. وهذا ما نفهمه من قول الحق تبارك وتعالى **﴿ورباط الخيل﴾** إذ لا قيمة للقوة إذا لم يلازمها تأهب دائم ويقظة مستمرة وحذر متواصل من غدر الأعداء، وذلك للوفاء بسرعة الردع الفوري.

٣ ــ إعداد الأمة للحرب بصورة مستمرة.. وهذا ما نفهمه من كون الجهاد فرضا على كل مسلم قادر ومكلف سواء كان فرض عين أو فرض كفاية. وهذا أيضا متمم لإعداد القوة الشاملة إذ لا مجال لإعداد القوة الشاملة دون إعداد الأمة للحرب بصورة مستمرة روحيا ومعنويا وماديا.. وهذا أيضا متمم للتأهب الدائم إذ لا معنى للتأهب الدائم دون أن تعد الأمة بأسرها للحرب وبصورة مستمرة.

٤ ــ تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة.. وهذا ما نفهمه من قول الحق تبارك وتعالى في الآية السابقة **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل.. الآية﴾** إذ أنه من مقتضيات الردع في الإسلام أن تكون الأمة معتمدة اعتمادا ذاتيا كافيا على عقول وسواعد أبنائها في إعداد القوة واستخدامها في تحقيق الردع أولا ثم دحر الأعداء ثانيا إن لم يرتدعوا ويذعنوا لسلطان الإسلام وشريعته. وهذا يتطلب أن تكون

---

(١٧) اللواء الركن' محمد جمال الدين علي محفوظ: المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٠٠ وما بعدها.

المصادر المختلفة لإنتاج وسائط القوة في أراضيها ومن صنع أبنائها للابتعاد عن مخاطر وقوعها تحت رحمة غيرها من الأمم ولتبتعد عن تقلبات المصالح والأهواء وموازين القوى في إعدادها لقوتها الرادعة.

٥ ــ استمرار وجود قوة الردع وتطويرها.. وهذا ما نفهمه أيضا من نص الآية الكريمة السابقة حيث الأمر يعني الاستمرار وإلى أن تقوم الساعة، وحيث الأمر يعني القوة وبكل صورها ووسائطها المختلفة، وحيث الأمر يعني تطوير هذه الوسائط وفق مقتضيات الأمة واحتياجاتها وتطور قوى الإنتاج من زمن لآخر وهذا يدخل بالتالي في مكونات الاستراتيجية وأعني بذلك التكتيك الذي يتعامل مع تطور قوى الإنتاج وتقنية السلاح من وقت لآخر في حين تبقى الاستراتيجية ثابتة وبعيدة عن هذا التغير المستمر الذي يرافق التكتيك.

٦ ــ التصدي للقوى المضادة.. وهذا يعني حماية الأمة والبلاد من الأعداء في الداخل والخارج، فالرسول صلى الله عليه وسلم بادر إلى حرب اليهود وطردهم من المدينة بعدما نكثوا العهد وأصبحوا بمثابة العملاء للمشركين من داخل مجتمع المدينة المنورة ــ نواة الدولة الإسلامية ــ وصلاح الدين الأيوبي بادر إلى تطهير جيشه من العملاء المندسين في صفوف الجند ليضمن القدرة على التخطيط والعمل بمنأى عن علم الأعداء وتدخلهم وليضمن وجود جبهة عسكرية صلبة وجبهة داخلية متماسكة في وجه الأعداء.

ومن ذلك ندرك:

١ ــ أن الردع نظرية استراتيجية إسلامية قبل أن يعرفه المنظرون العسكريون وقبل أن يصبح مفتاح الاستراتيجية التي عرفها هؤلاء المنظرون في القرن العشرين.

٢ ــ أن الردع نظرية استراتيجية إسلامية يهدف إلى إرهاب الأعداء لمنعهم من الاعتداء على الأمة الإسلامية «ردع دفاعي» وردع يهدف إلى إرهاب الأعداء لمنعهم من التصدي للدعوة والدعاة إلى الله «ردع هجومي».

٣ ــ أن الردع الإسلامي ردع مباشر، إذ لا مصلحة للإسلام والمسلمين أن يدعموا كافرا ضد كافر فملة الكفر عند المسلمين واحدة لا تتجزأ وإن تظاهرت بذلك وإن قامت الحرب بينها لأغراض دنيوية وصراعات مادية محدودة الزمان والمكان والهدف.

٤ ــ أن الردع الإسلامي ردع شامل إذ لا محدودية له في النطاق والهدف وإنما هو دائم وشامل كما جاء الأمر به في نص الآية الكريمة السابقة وقد بينا أنه أمر للمسلمين إلى أن تقوم الساعة.

٥ ــ أن الردع الإسلامي لا يغري باستخدام القوة حين يتحقق التفوق، وذلك من منطلق أن الهدف من القوة وإعدادها هو ردع المعتدين على المسلمين والمتصدين لانتشار الإسلام وحين يتحقق ذلك فلا مجال لاستخدام القوة.

وعليه نستطيع القول إن مفهوم الردع في إطار الاستراتيجية العسكرية الإسلامية يختلف عما جاء به أندرية بوفر وغيره من المنظرين العسكريين في القرن العشرين من حيث: الهدف والتصنيف، فأهدافه تنسجم مع أهداف الإسلام النابعة من طبيعته، وتصنيفاته تختلف عن تصنيفات الردع كما هو متعارف عليه عند المنظرين العسكريين اليوم، إذ لا يتقيد بكونه ردعا دفاعيا أو هجوميا وهذا منسجم مع العقيدة العسكرية الإسلامية التي قلنا إنه لا يمكن إخضاعها لتصنيفات من ينظرون للعقائد العسكرية إلى دفاعية وهجومية، كما أنه لا علاقة له بالردع غير المباشر كما يفهمه هؤلاء المنظرون إذ لا يسعى الإسلام والمسلمون لتأييد طرف من الأطراف الدولية بردع طرف آخر.. أما فيما عدا ذلك فهو مشابه للمفهوم المعاصر للردع إن لم يكن متطابقا معه في بقية الجوانب، فالردع يعني القوة الهجومية، والردع يعني العقيدة الهجومية، والآية الكريمة السالفة تأمر بإعداد «القوة» والقوة تعني الدفاع والهجوم على السواء وتأمر بإعداد «الخيل» والخيل تعني عنصري الحرة والمفاجأة وهذه ترتبط غالبا بالهجوم. وعلى الخيل نقيس كل ما يوفر السرعة والحركة والمفاجأة.. وهذا منطلق آخر لتحديد معنى ومفهوم الاستراتيجية العسكرية الإسلامية التي نحن بصددها.. وهذا ما ينقض مقولة المهزومين كما وصفهم الشهيد سيد قطب في قوله الذي ذكرناه نقلا عن كتابه معالم في الطريق، والذين أرادوا الدفاع عن الإسلام بالإدعاء أن العقيدة العسكرية الإسلامية هي عقيدة دفاعية لا علاقة لها بالهجوم ظانين أنهم يسدون للإسلام خدمة ومكرمة وما علموا أنهم ينقصون بفعلهم هذا من حقيقة الإسلام وعظمة الإسلام التي يجب أن ندافع عنها بالبوح بها والاعتزاز بها والحديث عنها بصوت عال أمام الملأ.. ومن لا يعجبه أي من حقائق الإسلام فليشرب من مياه المحيطات التي حوله وما أكثرها.. إن حرب الإسلام هي حرب دفاع وحرب إصلاح كما أسلفنا، وعليه فالعقيدة العسكرية الإسلامية ليست دفاعية فحسب، بل هي دفاعية

وهجومية، أو لنقل خليط من الدفاع والهجوم ولكل من ذلك ظروفه وأسبابه.. وهذا منطلق الحديث عن الاستراتيجية العسكرية الإسلامية.

إن من مبادىء الحرب كما ذكرنا من قبل: مبدأ الاقتصاد في القوة، والاقتصاد في القوة يؤدي إلى التوفيق السليم بين الغاية والوسيلة الذي هو بدوره أحد أبرز المبادى الاستراتيجية المعروفة.. وهذا ما تحققه استراتيجية الردع الإسلامي كما بيناها، إذ أن غايتها: إعلاء كلمة الله تبارك وتعالى والدفاع عن كيان الأمة الإسلامية. وهي في سبيل هذه الغاية مأمورة بإعداد القوة الهجومية الرادعة «القوة» و «الخيل» التي تجعل الأعداء يرضخون لسلطان الإسلام ويمتنعون عن الاعتداء عليه لما يملكه من قوة رادعة وفي إطار استراتيجية الردع التي تسبق الحرب وربما تمنعها.. وحين تحول استراتيجية الردع الإسلامي وأهدافها دون اللجوء للحرب فإن في ذلك تحقيق الغاية السامية: إعلاء كلمة الله وحماية كيان الأمة من الاعتداء عليه دون حرب، وذلك قمة التوفيق بين الغاية والوسيلة، وفي ذلك اقتصاد تام في القوة.. وهذا ما يقودنا إلى تصنيفات الاستراتيجية الشاملة والتي هي(١٨):

١ ــ استراتيجية مباشرة، تبحث في تحقيق الهدف السياسي عن طريق استخدام القوة العسكرية. أي أن القوة العسكرية هي الأداة الرئيسية لتحقيق الهدف الذي يتحقق بالنصر العسكري الحاسم.

٢ ــ استراتيجية غير مباشرة، تبحث في تحقيق الهدف السياسي بطرق أخرى غير النصر العسكري الحاسم. وهذا التصنيف نابع من تعريف الاستراتيجية الشاملة والذي هو: استخدام القوة بشكل مباشر أو غير مباشر لتحقيق أهداف السياسة. واستراتيجية الإسلام الشاملة تتضمن هذا التصنيف فهي تبدأ دعوتها إلى الله بواسطة استراتيجيتها غير المباشرة، وذلك بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتترك الاختيار بين الإسلام كدين وغيره من الأديان لكل إنسان دون ضغط أو إكراه. وهي في الوقت نفسه تعد العدة وتهيء القوة ورباط الخيل التي ترهب الأعداء وتمنع كل من تسول له نفسه بالتصدي للدعوة والاعتداء على أهلها. وهي تلجأ إلى استراتيجيتها المباشرة وتستخدم قوتها الرادعة والمتميزة حين لا تجدي استراتيجيتها غير المباشرة نفعا

---

(١٨) المرجع السابق، ص ١١٧ وما بعدها.

وحين يتصدى الأعداء للدعوة والدعاة وإن كان من اختلاف بين مفهوم الاستراتيجية الشاملة المعاصر وتصنيفاتها: مباشرة وغير مباشرة، وبين الاستراتيجية الإسلامية وتصنيفاتها: غير مباشرة ومباشرة، فإن هذه الفروق تنحصر في أن الأمر اختيار عند الأمم والجيوش في اللجوء إلى الاستراتيجية المباشرة أو الاستراتيجية غير المباشرة، لا قيود على ذلك إلا ما تفرضه العقيدة العسكرية للدولة. في حين أن لا خيار أمام المسلمين في استبدال النهج غير المباشر بالمباشر إلا حين ترفض الدعوة وتجد من يصدها بالقوة المسلحة، أما حين لاتجد الدعوة من يصدها ولا يجد الدعاة من يعترض طريقهم فلا مجال إلا لاستخدام الاستراتيجية غير المباشرة لتحقيق الاستراتيجية الشاملة للإسلام.

وتصنيفات الاستراتيجية الشاملة تقودنا للحديث عن الاقتراب غير المباشر في إطار الاستراتيجية غير المباشرة حيث إنها تتضمن تفريعات وصورا متعددة هي:

١ ـــ اللجوء إلى الأساليب السياسية أو الدبلوماسية أو الاقتصادية لتحقيق الهدف السياسي.
٢ ـــ اللجوء إلى أسلوب الصراع الطويل الممتد بكثافة عسكرية منخفضة.
٣ ـــ اللجوء إلى سلسلة من الأعمال المتتالية التي تجمع بين التهديد المباشر. والضغط غير المباشر مع استخدام محدود للقوة.. أي الجمع بين العمل العسكري المحدود والعمل الدبلوماسي والسياسي.

والاقتراب غير المباشر في إطار الاستراتيجية غير المباشرة تلك يبحث في كيفية زعزعة مركز العدو والإخلال بتوازنه، وذلك للحصول على نتيجة حاسمة.. وقد تبدى ذلك في الاستراتيجية غير المباشرة في إطار الاستراتيجية الشاملة التي سار عليها المصطفى صلى الله عليه وسلم في صراعه الطويل مع قريش وحلفائها من العرب وأعوانها من يهود يثرب وما حولها. ولهذا نراه صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر حيث كانت قوة الأعداء إلى قوة المسلمين ٣ : ١، يأمر أصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين بقوله: (إن دنا القوم منكم فأنضحوهم بالنبال، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم).

ومعنى هذا ألا ترموا نبالكم حين يكون العدو بعيداً عنكم فتطيش، وإنما استخدموها حين يكون العدو قريبا منكم لكي يكون كل سهم في رجل. وحين تلتحموا بالعدو سلوا

سيوفكم واتركوا السهام إذ لا مجال الآن لاستخدامها.. وفي هذا اقتصاد في القوة، وكبت للنيران لتحقيق المفاجأة وضمان الإصابة، واستخدام للسلاح المناسب في الوقت المناسب، وتحقيق الردع المعنوي والنفسي من قوة صغيرة لقوة تفوقها في العدد والعدة.. كما تبدى ذلك في الاستراتيجية غير المباشرة في إطار الاستراتيجية الشاملة التي سار عليها المصطفى صلى الله عليه وسلم في صراعه مع قريش وحلفائها وأعوانها في المعاهدات التي أبرمها مع القبائل لما تنطوي عليه هذه السياسة من عناصر استراتيجية الاقتراب غير المباشر بهدف الإخلال بتوازن قريش وحلفائها وأعوانها حيث تحقق:

١ ـ حرمان قريش من حرية العمل وذلك بتضييق المساحة التي تستطيع التحرك فيها للعمل ضد المسلمين.

٢ ـ حرمان قريش من القواعد الخارجية التي تسمح لها أن تقوم بعدوان غير مباشر ضد المسلمين.

٣ ـ حرمان قريش من القوى التي كانت يمكن أن تحالفها في عدوانها على المسلمين وخاصة تلك القبائل التي تعهدت بحماية المسلمين كالأوس والخزرج.

٤ ـ ضمان حرية المسلمين في نشر الدعوة مما يشكل تهديدا خطيرا لحاضر المشركين ومستقبلهم.

٥ ـ حرمان قريش من أن تسلك طريق التجارة إلى الشام والعراق بعد أن أصبحت محفوفة بالمخاطر مما أدى إلى كساد تجارتهم.

والاستراتيجية العسكرية للدولة تخضع للعقيدة العسكرية وتنبثق عنها كما بينا من قبل بحيث تتولى العقيدة العسكرية تحديد المبادىء العامة، بينما تتولى الاستراتيجية العسكرية انطلاقا من هذه المبادىء العامة، دراسة وتحديد الأساليب بشن الحرب وإدارتها وإعداد الدولة وقواتها المسلحة لهذه الحرب.

يقول اللواء الركن «محمد جمال الدين علي محفوظ» في كتابه الذي أشرنا إليه سابقا «المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية» في صدد ارتباط الاستراتيجية العسكرية بالعقيدة العسكرية وانبثاقها عنها[١٩]: هناك فارق كبير بين العقيدة العسكرية والاستراتيجية العسكرية للدولة، فالعقيدة العسكرية هي تعبير عن النظرة الرسمية للدولة

(١٩) المرجع السابق، ص ٢٨.

تجاه «الحرب» كظاهرة اجتماعية تاريخية تمثل إحدى الوسائل الأساسية لتحقيق سياسة الدولة وأهدافها القومية وهي تحدد الأسس العامة والمبادىء الرئيسية اللازمة لبناء الاستراتيجية العسكرية وتكوينها. أي أن الاستراتيجية العسكرية تبدأ حيث تنتهي العقيدة العسكرية فتتولى بحث هذه الأسس والمبادىء ودراستها تفصيليا للخروج بالأساليب العسكرية الكاملة اللازمة لشن الحروب وإدارتها والإعداد لها من خلال العقيدة العسكرية الموضوعة للدولة.

وتعد العقيدة العسكرية عملا تاريخيا يرتبط ارتباطا بوجود الدولة وكافة أنشطتها الحيوية ككل سواء في المجالات الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية أو المعنوية أما الاستراتيجية العسكرية فهي عمل يختص بالأساليب التنظيمية والتطبيقية الغرض منه تحديد الوسائل والإمكانات المختلفة اللازمة لشن وإدارة وقيادة الحرب وتحقيق الغايات العسكرية للدولة.

والعقيدة العسكرية تعالجها وتحددها أعلى قيادة سياسية عسكرية في الدولة، بينما نجد أن الاستراتيجية العسكرية هي مجال النشاط العملي للقيادات العسكرية العليا.

وقد بينا من قبل أن الجهاد هو جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية، كما بينا أن هذه العقيدة لا يمكن إخضاعها للتصنيفات المعاصرة للعقائد العسكرية إلى: عقائد عسكرية دفاعية أو عقائد عسكرية هجومية. إذ إنها دفاعية حين يكون الجهاد في سبيل الله دفاعا عن كيان الأمة الإسلامية وكرامتها وعزتها، وحين يكون الجهاد في سبيل الله لحماية دماء المسلمين وأعراضهم وممتلكاتهم من اعتداء الأعداء. وهجومية حين يكون الجهاد في سبيل الله لردع الباغين وكسر شوكة الكافرين العامدين إلى صد الدعوة ومنعها من إيصال صوتها إلى سمع الإنسان أينما كان ومنعها من إيصال مفهومها ونهجها إلى عقل الإنسان أينما كان.. إذن العقيدة العسكرية الإسلامية تتولى تحديد المبادىء والسياسات العامة ويكون الجهاد جوهرها، وقد بينا من قبل طبيعة الجهاد وحقيقته وخصائصه وأحكامه وفضله وآداب قيادة المجاهدين في الحرب وآداب الجند المجاهدين.. بينما تتولى الاستراتيجية العسكرية الإسلامية التي نحن بصدد الحديث عنها وفي ضوء هذه المبادىء والسياسات العامة، دراسة وتحديد الأساليب المرتبطة بشن الحرب وإدارتها وإعداد الدولة الإسلامية التي نحن بصدد الحديث عنها. من كل ذلك نخلص إلى القول: بأن الاستراتيجية العسكرية الإسلامية (استراتيجية الحرب في الإسلام)

تستند إلى العقيدة العسكرية الإسلامية وتتولى دراسة وتحديد الأساليب المرتبطة بشن الحرب وإدارتها إنطلاقا من المبادىء والسياسات التي حددتها العقيدة العسكرية الإسلامية.. وعليه فإن استراتيجية الحرب في الإسلام هي:

١ ـ أداة التنفيذ العسكرية الإسلامية التي حددتها الآيات القرآنية الكريمة التالية:

أ ـ قول الحق تبارك وتعالى ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ سورة البقرة: ٢١٦.

ب ـ قول الحق تبارك وتعالى ﴿ **أذن للذين يقٰتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسٰجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكنٰهم في الأرض أقاموا الصلٰوة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عٰقبة الأمور**﴾ سورة الحج: ٣٩ ـ ٤١.

ج ـ قول الحق تبارك وتعالى ﴿**وقٰتلوا في سبيل الله الذين يقٰتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقٰتلوكم فيه فإن قٰتلوكم فاقتلوهم كذلك جزءا الكٰفرين، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم، وقٰتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظٰلمين**﴾ سورة البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣.

د ـ قول الحق تبارك وتعالى ﴿**فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم**﴾ سورة التوبة: ٥.. وقول الحق تبارك وتعالى ﴿**قٰتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دينَ الحق من الذين أوتوا الكتٰب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صٰغرون**﴾ سورة التوبة: ٢٩.

هـ ــ أحاديث السنة النبوية التي يأمر المصطفى صلى الله عليه وسلم المسلمين من خلالها بالجهاد في سبيل الله ويبيّن لهم فضل الجهاد وأحكامه وفضل من يقتل في سبيل الله.. تلك الأحاديث التي أوردنا العديد منها في أحاديثنا السابقة عن الحرب والجهاد في الإسلام.

٢ ــ المسائل التي تتعلق بدراسة وتحديد الأساليب المرتبطة بالحرب التي أمر بها الله سبحانه وتعالى عباده، وإدارتها وإعداد الدولة الإسلامية والمجاهدين المسلمين لخوض هذه الحرب المفروضة.

٣ ــ المسائل التي تختص بالجانب العسكري بهدف تحقيق الأهداف والغايات التي حددتها الاستراتيجية العليا للدولة الإسلامية والتي حددتها العقيدة العسكرية الإسلامية، كتوزيع القوات على الجبهات وتدبير وتوزيع إمدادها باحتياجات الحرب وقيادة الحرب على مستوى الدولة بشكل عام ــ أي التي تهدف إلى كسب النصر العسكري للإسلام وتحقيق عزته وانتشاره بعد هذا النصر.. إذن هي وسيلة الإسلام والمسلمين لتحقيق الانتشار والوصول إلى أسماع الناس وعقولهم.

وعليه نستطيع القول بأن استراتيجية الحرب في الإسلام (الاستراتيجية العسكرية) هي: (علم وفن ينصرفان إلى الخطط والوسائل التي يعالج بها المسلمون صراعهم الشامل مع قوى الشر الذي يستخدمون فيه القوة بشكل غير مباشر «الردع» أو بشكل مباشر بهدف تحقيق نصرة دين الله وإعلاء كلمته والحفاظ على كيان الأمة الإسلامية).

وعليه نجد أن الاستراتيجية العسكرية في الإسلام (استراتيجية الحرب في الإسلام) تختلف عن المفهوم المعاصر للاستراتيجية العسكرية من حيث:

١ ــ ماهية الصراع: فالصراع الذي من أجله تستخدم القوة بشكل مباشر أو غير مباشر في المفهوم المعاصر، هو صراع مادي ومن أجل أهداف مادية دنيوية ضيقة ومحدودة. بينما الصراع الذي من أجله تستخدم القوة بشكلها غير المباشر أو المباشر في المفهوم الإسلامي، هو صراع عقائدي شامل لكل مناحي الحياة فإما أن يكون الدين كله لله وإما أن يستمر الصراع إلى يوم القيامة.

٢ ــ استخدام القوة: فاستخدام القوة بشكلها المباشر وغير المباشر في المفهوم المعاصر، أمر متروك للعقيدة العسكرية للدولة تحدده وتجبر القادة العسكريين على المستوى

الاستراتيجي على العمل من خلاله. بينما استخدام القوة بشكلها المباشر في المفهوم الإسلامي مقيد بعدم جدوى الاستخدام غير المباشر للقوة أما حين يؤدي الأسلوب غير المباشر دوره ويكون له مفعوله فلا مجال البتة لاستخدام الأسلوب المباشر.

٣ ــ الغاية والهدف: فاستخدام القوة بشكلها المباشر وغير المباشر في المفهوم المعاصر، هو مكمل للسياسة التي تنتهجها الدولة، وأداة لتحقيق الأهداف السياسية التي يتعذر تحقيقها بالوسائل الأخرى (غير العسكرية) كالوسائل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية وغير ذلك من الوسائل. بينما استخدام القوة بشكلها غير المباشر والمباشر في مفهوم الإسلام إنما يهدف لتحقيق نصرة الدين وإعلاء كلمة الله حين يتصدى لها الكافرون وغيرهم من أعداء الله.

.. تلك هي استراتيجية الحرب في الإسلام كما حدد معالمها القرآن الكريم وأرسى دعائمها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من خلال غزواته لأهل الشرك والفساد حتى توفاه الله بعد أن أوجد الدولة وهيأ الرجال وأرسى نظم الدولة الإسلامية ومنها نظم الحرب واستراتيجيتها. وفي هذا المجال كانت أعماله الجليلة على النحو التالي:

١ ــ إعداد المسلمين روحيا ونفسيا وماديا للجهاد: لقد تطبع العرب بطباع الصحراء القاسية كالخشونة وشظف العيش وصلابة العود، كما أجبرتهم الأعراف السائدة كالغزو والسلب والنهب على تعلم الرماية والفروسية وفنون الحرب المختلفة. ثم جاء الإسلام وسط عادات منها الحسن المرغوب ومنها السيء المرفوض، فهذب الطباع الحسنة وطالب المسلمين بها، وجب الطباع السيئة وطالب المسلمين بالابتعاد عنها. ولقد مكث المصطفى صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة في مكة وهو يربي الرجال ويعدهم لبناء الدولة الإسلامية المرتقبة.. وعندما أمره المولى تبارك وتعالى بالقتال أثناء هجرته من مكة إلى المدينة بقوله تعالى **﴿أذن للذين يقٰتلون بأنهم ظلموا وأن الله عى نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولوْلا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومسٰجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾** سورة الحج: ٣٩ ــ ٤٠، كانت النفوس مهيأة لتقبل هذا الأمر، وكان المسلمون يطالبون به وهم في مكة قبل هجرتهم إذ قد تم إعدادهم روحيا ومعنويا

وماديا للجهاد بعد أن أذن للمسلمين من ربهم عزوجل، والسنة النبوية الشريفة في كتب الصحاح مليئة بالأحاديث النبوية التي تدعو للجهاد وتحبب به وتبين فضله وأحكامه وفضل المجاهد وما ينتظره من الأجر عند ربه حين يستشهد وحين ينتصر.

٢ ـ اهتمامه بتطوير الكفاءة القتالية للمجاهدين: كان العربي مقاتلا صلبا، وقد أجبرته حياة الأحلاف القبلية والمغازي والغارات على ذلك، فكانت الفروسية واجبا يمارسه الصبي عندما يشتد عوده ليكون رجلا فارسا، وكانت رماية السهام هواية يمارسها الصبية ليكونوا رماة أشداء حين يشبون، وكان الانسحاب والانهزام جريمة يقتل عليها الرجل من قبل أبناء قبيلته وربما من أقربهم إليه.. فجاء الإسلام، ونزل قول الحق تبارك وتعالى مهذبا هذه الطباع ﴿**يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾ سورة الأنفال: ١٥ ـ ١٦.. وكانت أقوال المصطفى صلى الله عليه وسلم وأفعاله مصدرا آخر لتطوير هذه المفاهيم القتالية العالية، ومن أقواله صلى الله عليه وسلم في سبيل تطوير الكفاءة القتالية للمجاهدين المسلمين ما رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)، وما رواه مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها)، وما رواه مسلم عن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن القتال)، وما رواه مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي. ألا إن القوة الرمي)، وعنه أيضا قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (ستفتح عليكم أرضون، ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه) ثم كانت غزوات النبي صلى الله عليه وسلم تطويرا للكفاءة والمهارة القتالية للمجاهدين، حتى أصبحوا وهم قلة «بعبعا» «مخيفا» للقوى العظمى آنذاك (الروم والفرس).

٣ ـ إبراز معالم استراتيجية الردع: لم يكن الإسلام دينا خاصا ولم تكن رسالة المصطفى

صلى الله عليه وسلم رسالة خاصة إلى قوم بعينهم كما كانت رسالات الرسل من قبله، وإنما هو دين الله الذي ارتضاه لعباده ورسالة الهداية والصلاح للإنس والجن كافة. ولهذا لابد أن تتحول قوتها الرمزية القليلة العدد والعدة إلى قوة رادعة متفوقة العدد والعدة.. وعليه فما إن جاء قول الحق تبارك وتعالى **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾** سورة الأنفال: ٦٠، حتى بادر المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى إبراز استراتيجية الردع الإسلامية وذلك بإعداد القوة التي يهابها العدو الظاهر في الخارج ويرهب بطشها العدو المستتر في الداخل، ولتكون سابقة لاستراتيجية الحرب التي أبرز معالمها صلى الله عليه وسلم من قبل ذلك ووسيلة مانعة للحرب حقنا للدماء كما تنادي بذلك تعاليم الإسلام الخالدة.. ثم جاء قول الحق تبارك وتعالى **﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾** سورة الأنفال: ٦١، وذلك بعد أن تكون قوة الردع وسيلة لإرغامهم على السلم وعدم التعرض بسوء للدعوة والدعاة إذ لا فائدة من المسلم الهزيل كما يفهم بعض المنهزمين في عصرنا الحاضر حيث يكون العدو متفوقا ورادعا.. ثم عمد المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى إبراز استراتيجية الاقتراب غير المباشر كما بينا من قبل.. وهو في كل ذلك لم يتلق تعليما عسكريا في أكاديمية عسكرية أو كلية، وإنما كان الوحي الإلهي والإلهام مدرسته العظيمة صلى الله عليه وسلم.

٤ ـــ تطهير الجبهة الداخلية: لقد أذن للرسول صلى الله عليه وسلم بالقتال وهو في طريق هجرته من مكة إلى المدينة كما بينا، وما أن حل بالمدينة المنورة حتى بادر إلى وضع أسس استراتيجية الحرب في الإسلام. وعليه أدرك صلى الله عليه وسلم أهمية تماسك الجبهة الداخلية في إطار هذه الاستراتيجية، فهادن اليهود المقيمين في المدينة وكتب عهده صلى الله عليه وسلم معهم كما بينا ليضمن عدم خيانتهم وليرسي أسس تعامل المسلمين مع من لا يدينون بدينهم من المقيمين معهم.. وفي غزوة الأحزاب نقضت يهود عهدها مع الرسول صلى الله عليه وسلم وتآمروا مع المشركين الغازين فصبر المصطفى صلى الله عليه وسلم حتى هزمت الأحزاب وعادت أدراجها، ثم بادر إلى تطهير المدينة من اليهود لتبقى الجبهة الداخلية قوية

متماسكة في إطار الاستراتيجية العسكرية التي أرسى دعائمها عليه أفضل الصلاة والتسليم.

٥ ــ تحاشي القتال على جبهتين: لقد وادع الرسول صلى الله عليه وسلم يهود المدينة وهو يعلم من وحي ربه سبحانه وتعالى أنهم قوم لؤم وغدر وأنهم قتلة للأنبياء وأعداء للحق والبشرية، وهو لم يبادر إلى هذا إلا أملاً منه صلى الله عليه وسلم بصلاحهم وسعيا لعدم فتح الجبهات المتعددة على دولة الإسلام الناشئة الفتية، وعليه فقد تفرغ لقتال قريش وحلفائها حيث كانت قريش هي العدو الرئيسي إليهم الذي يؤلب عليه بقية الأعداء.. وبعد ما دانت قريش بدين الحق وتبعتها بقية القبائل العربية التي لم تستطع إلا الرضوخ لما رضخت له قريش، بادر صلى الله عليه وسلم بإرسال الرسل إلى أباطرة الروم وأكاسرة الفرس يدعوهم للإسلام.ويستعد لحربهم إن هم رفضوا دعوته.. وهكذا كان.. وعليه فإنه لم يعمد صلى الله عليه وسلم إلى إشغال المسلمين بالقتال على جبهتين حتى قويت شوكة الإسلام وأصبحت جيوشه مهابة الجانب قادرة على القتال على العديد من الجبهات.

.. تلك هي بعض من ملامح استراتيجية الحرب في الإسلام كما أرساها المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو الذي لم يتلق تعليما عسكريا كما قلنا في أي من مدارس الحرب وكلياته.. وإنما تربى وتعلم في مدرسة القرآن العظيمة.. وعلى هذه الاستراتيجية سار الخلفاء وقادة الفتح الإسلامي إلى مشارق الأرض ومغاربها: فرسانا في النهار.. رهبانا في الليل يدعون إلى دين الحق فمن قبله أصبح أخا لهم في الله له ما لهم وعليه ما عليهم ومن رفضه فالجزية.. ومن رفض هذا وذاك فالسيف أولى به وهو كفيل بردعه.

الفصـــل الثاني: الإسلام وسياسة الحرب

* الحرب النفسية
* الأمن والاستطلاع والمخابرات
* الإعداد للحرب

الحـرب النفسـية

الحرب النفسية وسيلة من وسائل الحرب التي أباحها الإسلام كما أباح غيرها من الوسائل التي لا غدر فيها ولا غيلة، وقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: (الحرب خدعة) وتلك إباحة لكل ما قد يؤدي إلى هزيمة العدو وإضعاف روحه المعنوية وكفاءة قادته وجنوده القتالية دون تعارض مع قيم الإسلام وتعاليمه السامية.

والحرب النفسية تتعامل مع النفس الإنسانية لجنود الأعداء، إذ أن المشاعر الإنسانية ذات أثر كبير في تحقيق النصر أو التعجيل بالهزيمة، وعليه فهي أداة فعالة من أدوات القتال وسلاح ماض من أسلحة الحرب قديما وحديثا، ولهذا أولاها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم جل اهتمامه كما سنرى، ولهذا كان اللسان وسيلة من وسائل الجهاد وضربا من ضروبه المتعددة. والجهاد في سبيل الله على نحو ما قدمنا هو: جهاد للأعداء وهم النفس والشيطان والمنحرفون والمنافقون والكفار، وجهاد بالوسائل وهي اللسان واليد والمال.. والحرب النفسية جهاد باللسان لقول المصطفى صلى الله عليه وسلم في رواية لأحمد عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)، وقوله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت وكان من شعراء الإسلام في عهد النبي: (ياحسان اهج المشركين وجبريل معك، إذا حارب أصحابي بالسلاح فحارب أنت باللسان)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه)، وقوله أيضا: (إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل).. وحين قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لعبد الله بن رواحة (بين يدي رسول الله وفي حرم الله تقول الشعر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خل عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النبل) ويعني بذلك القصيدة وأثرها الذي قد يفوق نضح النبل في أجسادهم.

والحرب النفسية ليست كالحرب المادية التي ينحصر دورها في الدمار المادي الذي قد يلحق بالعدو مما يمكنه من بناء قدراته المادية ويستعد للحرب ثانية، وهي غير محددة في زمن الحرب كالحرب المادية ايضا. وإنما دور الحرب النفسية ومجالها غير محدود

فهي وسيلة للتدمير المعنوي قبل الحرب المادية وفي أثنائها وبعدها، كما أنها لا تقتصر في التأثير على المحاربين وإنما يتمد أثرها على الأمة بأسرها ـــ أي على الجبهتين: العسكرية والداخلية، وهنا تكمن خطورتها.. لهذا اهتم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بالحرب النفسية في حروب الإسلام التي قادها عليه أفضل الصلاة والتسليم ضد قوى الشر في الجزيرة العربية وفي امتداد تلك الحروب التي قادها الخلفاء رضوان الله عليهم من بعده. فما هي حقيقة الحرب النفسية، وصورها وأشكالها وآثارها وطرق الوقاية منها في مفهوم الإسلام والمفهوم المعاصر؟

تعرف الحرب النفسية بأنها[٢٠]: (مجموعة الأعمال التي تستهدف التأثير على أفراد العدو بما في ذلك القادة السياسيين والأفراد غير المقاتلين، بهدف خدمة أغراض مستخدمي هذا النوع من الحرب إما بخلق تصورات معينة لديهم أو نفي تصورات وقناعات سابقة لديهم، وذلك بخلق الفوضى والبلبلة في صفوف أفراد العدو وباستخدام وسائل الحرب النفسية المتعددة). أو هي[٢١]: (الاستخدام المخطط للدعاية أو ما ينتمي إليها من الإجراءات الموجهة إلى الدول المعادية أو المحايدة أو الصديقة بهدف التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدول بما يحقق للدولة الموجهة أهدافها)، ولهذا فإن أهداف الحرب النفسية تختلف باختلاف الدولة الموجهة إليها[٢٢]: فمع الدولة المعادية يكون الهدف هو التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدولة أو الدول وجيوشها لتحطيم القوى المعنوية وإرادتها القتالية ودفعها نحو الهزيمة.. ومع الدولة المحايدة يكون الهدف هو التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدولة أو الدول لتوجيهها نحو الانحياز للدولة الموجهة أو التعاطف مع قضيتها أو على الأقل البقاء في وضع الحياد ومنعها من الانحياز إلى الجانب الآخر.. ومع الدول الصديقة يكون الهدف هو التأثير على عواطف وأفكار وسلوك شعوب هذه الدول لتوجيهها نحو تدعيم أواصر الصداقة مع الدولة الموجهة ونحو المزيد من التعاون لتحقيق أهدافها.

---

(٢٠) الموسوعة العسكرية، المجلد الأول، ص ٧٦٧.

(٢١) اللواء الركن: جمال الدين علي محفوظ: المدخل إلى العقيدة الاستراتيجية العسكرية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٤٧ وما بعدها.

ولهذا فإن من أهداف الحرب النفسية العديدة:

١ ـــ إيهام العدو بقدراتنا التي لا قبل له بها.

٢ ـــ تشكيك العدو في سلامة وعدالة الهدف الذي يحارب من أجله.

٣ ـــ زعزعة ثقة العدو في قوته من حيث الرجال والعتاد والقادة.

٤ ـــ زعزعة ثقة العدو في إمكانية إحراز النصر، وإرغامه على الاقتناع بعدم جدوى شن الحرب. أو الاستمرار في القتال.

٥ ـــ بث الفرقة والشقاق بين صفوف العدو وتنظيماته العسكرية والمدنية على السواء.

٦ ـــ التفريق بين العدو وحلفائه ودفعهم إلى التخلي عن نصرته.

٧ ـــ تحييد القوى الأخرى وحرمان العدو من محالفتها.

٨ ـــ إرغام العدو على الاقتناع بتصورات نريدها نحن.

٩ ـــ إرغام العدو على نبذ تصوراته السابقة التي لا نريدها نحن.

١٠ـــ بث الفوضى والبلبلة بين صفوف قوات العدو وجبهته الداخلية وتدمير الروح المعنوية.

ولهذا أيضا تعددت وسائلها لتشمل كل وسائل الإعلام المعروفة والنشر كالكتب والمجلات والجرائد والمنشورات والإذاعة والتلفزيون والأفلام والملصقات والإشاعات واستعراض القوة البدنية والفكرية ومكبرات الصوت وغير ذلك من الوسائل في الحروب النفسية التي تتم عى عدة صور وأساليب منها(٢٣):

١ ـــ الشعارات والهتافات، وذلك إما لإثارة انفعالات الغضب والكراهية، وإما لإثارة دوافع الشجاعة والحماسة.

٢ ـــ الإشاعات، وهي أخبار مشكوك في صحتها ويتعذر التحقق من أصلها، وتتعلق بموضوعات لها أهمية لدى الموجهة إليهم ويؤدي نشرها أو تعريفهم بها إلى إضعاف روحهم المعنوية.

٣ ـــ الكلمة المسموعة أو المقروءة، وذلك بما تحدثه من تأثير على عواطف وسلوك الموجهة إليهم.

---

(٢٣) المرجع السابق، ص ١٤٧ وما بعدها.

لقد أدرك قادة الحرب الحديثة دور الحرب النفسية في خفض معنويات العدو وتدميرها، وفي رفع معنويات القوات الصديقة وبالتالي إرادتها القتالية، إذ أن الحرب النفسية تعمل لهذا الغرض ولهذا يقول القائد الألماني في شمال أفريقيا «روميل»: (إن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم)، ويقول قائد فرنسا ورئيسها السابق «ديجول»: (لكي تنتصر دولة ما في الحرب فإن عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى ميادين القتال، وأن تظل هذه الحرب تساندها هذه القوات حتى تنتهي من مهمتها)، ويقول رئيس وزراء بريطانيا إبان الحرب العالمية الثانية «تشرشل»: (كثيرا ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ).

لقد أدرك القادة العسكريون مدى أهمية وخطورة الحرب النفسية في مطلع هذا القرن، وصار لهذه الحرب فنونها ودروسها الخاصة في الأكاديميات والكليات والمعاهد العسكرية، وبادروا إلى التفنن في صورها وأساليبها وكذلك طرق الوقاية من آثارها. ولعل الغريب أن دعوة الجند للإيمان إحدى هذه الطرق التي وجدوها «وابتكروها»! كما يعتقدون لوقاية قواتهم من آثار الحرب النفسية وعليه بادرت الجيوش في العصر الحديث إلى إنشاء التوجيه العقائدي أو المعنوي أو السياسي وكلها مسميات لتلك الدوائر التي تتولى توجيه الجند في هذه الجيوش للإيمان بالرب ـــ كما يقولون ـــ والتصديق بوجوده، وذلك لإدراكهم بما للإيمان من دور في تحصين النفوس وتقويتها أمام الشدائد، كما بادروا إلى إرسال رجال الدين ـــ كما يسمونهم ـــ مع الجيوش في حروبها كطريقة أيضا من طرق الوقاية من آثار الحرب النفسية وتقوية العزائم لدى أفراد هذه الجيوش وقادتها. كما بادروا إلى إنشاء دوائر للحرب النفسية تتولى أجهزتها توعية الجيوش بأهداف العدو ومخططاته وفضحها قبل أن تؤدي دورها في تثبيط الهمم وتدمير القوة المعنوية. كما بادروا إلى إنشاء المصحات النفسية في ميادين القتال لعلاج المدمرين نفسيا من أفراد هذه الجيوش وجعلوا من فضح الأسرار وترويج الإشاعات جريمة يستحق مرتكبها الإعدام في الميدان بعد محاكمته عسكريا وقت الحرب.. وغير ذلك من طرق الوقاية من آثار الحرب النفسية وقبل إدراك قادة الحروب في العصر الحديث للحرب النفسية وآثارها كان إدراك الإسلام وإدراك الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لحقيقة الحرب النفسية وآثارها.. فماذا عن ذلك في الإسلام؟

إن دوائر وأجهزة الحرب النفسية تعمل اليوم لهدفين:

الأول: حماية القوات الصديقة من آثار الحرب النفسية التي تشنها القوات المعادية وإزالة هذه الآثار.

الثاني: تدمير القوى المعنوية للقوات المعادية لتسهيل عمليات تدميرها ماديا وبالتالي إلحاق الهزيمة بها.

ولقد أدرك الإسلام والرسول القائد صلى الله عليه وسلم هذين الهدفين، فكانت توجيهات القرآن الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم لتحقيق ذلك، وكان إعداد المسلم المقاتل الذي لن تجد إلى نفسه أجهزة الأعداء وإدعاءاتهم سبيلا.

إن أهداف الحرب النفسية كما بيناها من قبل تسعى لزعزعة الثقة والتخويف من الموت وسوء المصير والفقر والهزيمة وما إلى ذلك، والمسلم لا يخشى إلا الله حيث يدرك أنه النافع والضار والرازق والمحيي والمميت والقادر على كل شيء.. يخوفون المسلمين من الموت والله تبارك وتعالى يقول لهم في محكم التنزيل ﴿**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشٰكرين**﴾ سورة آل عمران: ١٤٥، ويقول لهم أيضا ﴿**يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور**﴾ سورة آل عمران: ١٥٤ ويقول لهم أيضا ﴿**أينما كنتم يدركّم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا**﴾ سورة النساء: ٧٨، ويقول لهم أيضا ﴿**ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ سورة الأعراف: ٣٤، ويقول لهم أيضا ﴿**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، فلا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ سورة يونس: ٤٨ ــ ٤٩، ويقول لهم أيضا ﴿**ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون**﴾ سورة النحل: ٦١.. فأين المنفذ إلى هذه النفوس التي تستخف بالموت لإدراكها وتصديقها وإيمانها بما أنزل الله من آيات الذكر الحكيم على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم!؟ إن المؤمن حقا هو من لا يخشى

الموت لإيمانه بهذه الآيات الكريمة، ولأنه يؤمن وكما أمرته هذه الآيات بأنه لا يموت إلا بأجله الموعود.

ويخوفون المسلمين من سوء المآل وحقارة الهدف الذي يحاربون من أجله والله تبارك وتعالى يقول لهم في محكم التنزيل ﴿**وجٰهدوا في الله حق جهاده هو اجتبٰكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سمٰكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلٰوة وآتوا الزكٰوة واعتصموا بالله هو مولٰكم فنعم المولى ونعم النصير**﴾ سورة الحج: ١٨، ويقول لهم أيضا ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقٰتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم**﴾ سورة التوبة: ١١١، ويقول لهم أيضا ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتٰهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمٰنا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم، إنما ذلكم الشيطٰن يخوف أولياءه فلا تخافوه وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾ سورة آل عمران: ١٦٩ ـــ ١٧٥، ويقول لهم أيضا ﴿**يٰأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكمْ إن كنتمْ تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهٰر ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين**﴾ سورة الصف: ١٠ ـــ ١٣، ويقول لهم أيضا ﴿**الذين آمنوا وجٰهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم**﴾ سورة التوبة: ٢٠ ـــ ٢١، ويقول لهم أيضا ﴿**وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهٰر خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم، يٰأيها**

النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ سورة التوبة: ٧٢ ــ ٧٣، ويقول لهم أيضا ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ سورة النساء: ٧٤، ويقول لهم أيضا ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجٰهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم﴾ سورة الأنفال: ٧٤، ويقول لهم أيضا ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجٰهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾ سورة البقرة: ٢١٨.. فأين المنفذ إلى هذه النفوس التي تستخف بالموت لمعرفتها وإدراكها بحسن المآل وعظم الهدف الذي يقاتلون من أجله والذي يدفعهم إلى طلب الموت، وقد مر بنا بعض المواقف التي ذكرناها حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يتسابقون إلى الموت. وما كان هذا ليحدث لولا عظم الأجر وحسن المنقلب وعظم الهدف وحسن المآل!؟ إنهم يدركون تمام الإدراك أنهم عباد الله، وعليه فحياتهم وموتهم ورزقهم بيده، ويدركون تمام الإدراك أنهم جند الله وعليه فإنه ناصرهم إن نصروا دينه، ويدركون تمام الإدراك أن المسلم الحق هو الذي كله خير فإذا ابتلي صبر وإن تنعم شكر وهزيمته لا قدر الله، ابتلاء ونصره أو شهادته نعيم.

ويخوفون المسلمين من الفقر والعوز إن هم حاربوا والله تبارك وتعالى يقول لهم في محكم التنزيل ﴿زين للذين كفروا الحيٰوة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيٰمة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ سورة البقرة: ٢١٢، ويقول لهم أيضا ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبٰت لعلكم تشكرون﴾ سورة الأنفال: ٢٦، ويقول لهم أيضا ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتٰب مبين﴾ سورة هود: ٦، ويقول لهم أيضا ﴿.. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بٰلغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ سورة الطلاق: ٢ ــ ٣.. فأين المنفذ إلى هذه النفوس التي تستخف بالدنيا وبهرجها وتعلم أن الأرزاق بيد الله، وأنه لو اجتمعت قوى الشرق والغرب لتمنع رزق إنسان واحد أو دابة واحدة ما استطاعت وقد كتب الله رزقه لهذه الدابة أو هذا الإنسان، وأنه لو اجتمعت تلك القوى وبذلت ما في وسعها في سبيل اعطاء إنسان أو دابة رزقا كتبه الله لغيرهما ما استطاعت أيضا!؟ إنهم يدركون تمام الإدراك أن الله هو الرازق وهو

المانع للرزق فلا أحد يستطيع أن يمنع ولا أحد يستطيع أن يرزق بغير إرادة الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا الأساس يعمل المسلم في حياته ويشقى وهو مرفوع الرأس لا يحابي أحدا ولا يركع لأحد من أجل لقمة العيش، وهكذا إرادة الله فكيف يريدونه أن يعمل بعكس إرادة خالقه؟ إنه المستحيل الذي يدركه أضعف المسلمين علما وإيمانا وعليه فلا طريق إلى نفسه من خلال هذا الباب.

ويخوفون المسلمين بأعدادهم وعدتهم وبالهزيمة والاندحار إن هم تجرأوا وقاتلوهم والله تبارك وتعالى يقول لهم في محكم التنزيل ﴿.. **قال الذين يظنون أنهم ملٰقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصٰبرين، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكٰفرين، فهزمهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتٰه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العٰلمين**﴾ سورة البقرة: ٢٤٩ — ٢٥١، ويقول لهم أيضا ﴿**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملٰئكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم، إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام، إذ يوحي ربك إلى المٰئكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**﴾ سورة الأنفال: ٩ — ١٢، ويقول أيضاً ﴿**يٰأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صٰبرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصٰبرين**﴾ سورة الأنفال: ٦٥ — ٦٦، ويقول أيضا ﴿**ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما**﴾ سورة النساء: ١٠٤، ويقول أيضا ﴿**إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظٰلمين**﴾ سورة آل عمران: ١٤٠، ويقول لهم أيضا ﴿**ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم**﴾ سورة يونس: ٦٥، ويقول أيضا ﴿**لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا**

وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكٰفرين﴾ سورة التوبة: ٢٥ ـــ ٢٦، ويقول أيضا **﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولٰنا وعلى الله فليتوكل المؤمنون، قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون﴾** سورة المائدة: ٥١ ـــ ٥٢.. فأين المنفذ إلى هذه النفوس التي تستخف بقوى الأعداء مهما بلغت أعدادها وعدتها؟ ويدرك أصحابها أن النصر والهزيمة من الله، وأن النصر لابد أن يكون حليف المؤمنين المجاهدين في سبيله، وأن الهزيمة إن وقعت فما هي إلا درس وموعظة من الله سبحانه وتعالى، وأن جند الله المرئية وغير المرئية تقاتل معهم، وأن الله يمد المؤمنين بالملائكة لتقاتل معهم وبجنود لا يعلمها إلا هو سبحانه.. إنهم يقاتلون متوكلين على الله طلبا للنصر أو الشهادة غير مبالين بما لدى الأعداء وغير مبالين بالنتائج التي لن تكون إلا نصرا أو شهادة أو درسا وموعظة، وهم يقاتلون وهم يعلمون أن النصر من الله وأن لا عزيز على الأرض ولا في السماء إلا الله وحده ولا عزة إلا لعباده المسلمين.. ويحاولون أن يجعلوا من معسكر المسلمين مرتعا للإشاعات والرائجات والأراجيف والله تبارك وتعالى يقول للمسلمين في محكم التنزيل **﴿يٰأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نٰدمين﴾** سورة الحجرات: ٦، ويقول لهم أيضا **﴿لئن لم ينته المنٰفقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً، ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا، سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾** سورة الأحزاب: ٦٠ ـــ ٦٢، ويقول لهم أيضا **﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن والخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا﴾** سورة النساء: ٨٣.. إن نتيجة الإشاعات والأراجيف هي القنوط واليأس، والمسلمون قوم لا يعرف القنوط طريقا إلى نفوسهم لأن الحق تبارك وتعالى يقول لهم في كتابه الكريم **﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾** سورة الحجر: ٥٦، ويقول لهم أيضا **﴿قل يٰعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾** سورة الزمر: ٥٣.. فكيف يكون للإشاعات والرائجات والأراجيف سبيلا إلى هذه النفوس؟ وكيف يجد المروجون والمرجفون سبيلا

إلى هذا المجتمع؟ وكيف يستطيع اليأس والقنوط أن يجد منفذاً إلى هذه النفوس؟؟

إن المجاهدين فئة من المسلمين والمسلمون قوم هذبهم القرآن الكريم وهدتهم السنة النبوية الشريفة إلى كل خصلة حميدة في السلم والحرب، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، وفي النصر أو الهزيمة.. كلهم سواء، أشداء، صابرون حامدون لله في السراء والضراء إذن وكمحصلة لكل هذا فإن وسائل الحرب النفسية التي تأخذ لها الأمم وجيوشها ألف وألف حساب، كالتخويف من الموت والفقر والهزيمة وغير ذلك من الوسائل التي تنفع كثيرا وتؤتي ثمارها جيدة في نفوس لم يعمرها الإيمان بالله تعالى وحكمته البالغة في كل شيء وبالقدر خيره وشره..

هذه الوسائل المسلم في حصانة منها ولكن ذلك لا يتأتى إلا بوجود الجندي المؤمن الذي يلتزم بكل ما جاء به الإسلام قولا وعملا، دينا ومعاملة وعليه فلابد من وجود الأجهزة التي تتولى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل صفوف القوات المسلحة الإسلامية، بحيث تبين للقادة والجند عن طريق المحاضرات والدروس والندوات كل ما يزيد إيمانهم ويبعدهم عن المعاصي وذلك التزاماً بقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آيٰته لعلكم تهتدون، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينٰت وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾ سورة آل عمران: ١٠٣ ــ ١٠٥.

إن وجود هيئة أو جهاز أو إدارة للقيام بهذه المهمة داخل صفوف القوات المسلحة يعد أمرا كافيا للوقاية بإذن الله من آثار الحرب النفسية بعد التزام القادة والجند بالإسلام قولا وعملا وهذه الوقاية المطلوبة هي التي ترصد لها اليوم في الجيوش المعاصرة الأموال الطائلة وتنظم لها الأجهزة العديدة لما للحرب النفسية من آثار على المعنويات وعلى سير المعارك.. أما في الإسلام فالحصانة من هذه الآثار لا تحتاج إلا للقليل لأن الإسلام وحده حصانة ربانية منحها الله لعباده المسلمين وجنده الذين يقاتلون في سبيله ولإعلاء كلمته تبارك وتعالى.

لقد كان المجاهدون الأوائل فرسانا في النهار ورهبانا في الليل، يصلون ويتهجدون

ويدعون ويتدارسون القرآن ويتناقلون أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في الليل، ويقاتلون مسلحين بكل هذا الإيمان في النهار، وعليه فإن أية محاولة للتأثير على معنويات ونفسيات هؤلاء الجند لا تجد نفعا ولا سبيلا إلى نفوسهم وقلوبهم العامرة بالإيمان.

وعليه فإن أدوات الحرب النفسية التي توجه إليهم لابد أن ترتد إلى من أرسلوها كالسهام، حيث أن وسائل الحرب النفسية أسلحة ذات حدين، فهي إما أن تؤتي ثمارها في الموجهة إليه، وإما أن ترتد إلى من أرسلها واستخدمها. فر روماني من الأسر كما قلنا من قبل والتحق بجيش هرقل، فقال له هرقل: أخبرني عن هؤلاء القوم؟ فقال: أحدثك كأنك تنظر إليهم: فرسان بالنهار ورهبان بالليل، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه، فقال هرقل: لئن كنت صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين.. إذن عملهم والتزامهم هو بحد ذاته أقوى أساليب المناعة والحصانة من الحرب النفسية، وهو أيضا أقوى سلاح نفسي يدمر معنويات العدو ويجعله يشعر بقرب هزيمته ودنو أجله قبل أن تصله طلائع المجاهدين وجحافلهم كما رأينا من قصة هرقل من ذلك الأسير.

وعليه نستطيع القول بعد كل ما تقدم بنا من حديث، إن للإسلام أساليبه الخاصة والعديدة للوقاية من الحرب النفسية وإزالة آثارها إن هي حدثت ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر(٢٤):

١ ــ الإيمان الراسخ والعقيدة القوية، وذلك كما قلنا هو الحصانة القوية والسد العظيم ضد الحرب النفسية حيث إن المجاهد يتصور دائما وأبدا قول الحق تبارك وتعالى ﴿**الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ سورة آل عمران: ١٧٣.

٢ ــ الوعي والمعرفة بأهداف العدو وأساليبه في الحرب النفسية، وقد بيّن القرآن الكريم للمسلم كافة أهداف أعداء الله والإسلام وأساليبهم في الكيد ومحاولات التفريق والتخذيل وتثبيط العزائم، فأصبح المسلم بمأمن من مباغتة العدو بأهداف ومحاولات جديدة لم يألفها المسلم أو يتعلمها في مدرسة القرآن الخالد وسنة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك ما بينه القرآن والسنة النبوية عن

---

(٢٤) المرجع السابق، ص ١٥٣ وما بعدها.

محاولات التفرقة وطرق مقاومتها ومحاولات التخذيل وتثبيط العزائم ومحاولات زعزعة ثقة المسلمين بالنصر وتشكيكهم بحصوله أو التهوين من قيمته ومحاولات وطرق التخويف النفسي.

٣ ـــ كتمان الأسرار ومنع ترويج الشائعات، وتلك صفات يلتزم بها المسلمون في سلمهم وحربهم إذ لا يجب أن يتحدث المسلم إلا بما يعلم ولا يصرح لنفسه كما لا يصرح له ولي الأمر بقول ما لا يجب قوله، وذلك التزاما من المسلمين حكاما أو محكومين بقول الحق تبارك وتعالى ﴿**وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطٰن إلا قليلاً**﴾ سورة النساء: ٨٣.

٤ ـــ تطهير النفوس من الآلام النفسية واستعادة القوة المعنوية، فالهزيمة تترك في النفوس آثاراً كبيرة كما يترك النصر آثاره في تلك النفوس، ولكي يحمي الإسلام جنده من آثار الهزيمة يبيّن الله تبارك وتعالى لعباده بعد غزوة أحد أن النصر من عند الله، وأن النصر النهائي سيكون لعباده المؤمنين الصادقين، وأن ما مر بهم من محنة هو بمثابة المزيل للصدأ وبمثابة الامتحان الإلهي لقوة الإيمان والعزيمة، يقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظٰلمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكٰفرين، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جٰهدوا منكم ويعلم الصٰبرين**﴾ سورة آل عمران: ١٣٩ ـــ ١٤٢.

٥ ـــ مواجهة الدسائس والإشاعات بالحقائق الدامغة لها، فالحقائق هي أنجع السبل للقضاء على الإشاعات، حيث الحقيقة تكون منظورة وملموسة أما الدسيسة والإشاعة فتبقى خبرا قابلا لأن يكون صحيحا أو مغلوطا طالما أنه لا يستند إلى الحقائق وهذا ما جعل المسلم في حصانة نفسية جيدة من الدسائس والرائجات والإشاعات وما شابهها من وسائل الحرب النفسية، وقد مر بالمسلمين درس قاس في غزوة أحد عندما أشاع المشركون خبرا كاذبا مفاده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، وكان ما كان من تنحي بعض المسلمين عن ساحة القتال حتى صاح فيهم أنس بن النضر رضي الله تعالى عنه: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله صلى

الله عليه وسلم.. فقال: وماذا تصنعون بالحياة بعده، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٦ ــ إزالة آثار الهزيمة بالعمل العسكري، وهذا ما يطلق عليه اليوم في العلوم العسكرية لفظ: الهجوم المضاد، حيث يتم الهجوم المضاد بعد هجوم معاد، بهدف دحر العدو وإزالة الآثار النفسية التي يكون قد تركها هجوم العدو. وقد بادر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بالمسير خلف قريش بعد غزوة أحد في عملية هجوم مضاد كان له أثر في محو آثار الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في غزوة أحد.

لقد قلنا إن أجهزة الحرب النفسية المعاصرة تعمل لهدفين هما:

ــ حماية القوات الصديقة من آثار الحرب النفسية التي تشنها القوات المعادية ومحو هذه الآثار.

ــ تدمير القوة المعنوية للقوات المعادية لتسهيل عمليات تدميرها ماديا وبالتالي الحاق الهزيمة بها.

وقد تحدثنا عن الهدف الأول لهذه الأجهزة في ظل الإسلام الخالد، وسوف نلقي الضوء فيما يلي من حديث على الهدف الثاني لكي يكتمل بذلك حديثنا عن الحرب النفسية كإحدى سياسات الحرب التي يوليها الإسلام جل اهتمامه لما لها من آثار سلبية على قوات العدو وإيجابية على قواتنا.

إن أول ما يطالعنا في أسلوب الإسلام في تدمير القوى المعنوية للقوات المعادية هو أمر الله سبحانه وتعالى للمسلمين وإلى أن تقوم الساعة بإعداد القوة الإسلامية الرادعة، وأمره بالسلم من موقع القوة إن جنح إليه الأعداء، وذلك في قوله تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾** سورة الأنفال: ٦٠ ــ ٦٢. وأي شيء أشد تأثير وأمضى سلاحا من الرهبة بين وسائل الحرب النفسية؟ إن أسلحة ووسائل الحرب النفسية تهدف جميعها إلى إدخال الرهبة في نفوس الخصم ــ والله سبحانه وتعالى يدعو المسلمين إلى إعداد القوة الكفيلة بإدخال هذه الرهبة في نفوس الأعداء، وقد بينا أن القوة ورباط الخيل يعنيان السلاح الدفاعي والهجومي

الرادع في آن واحد، وتدمر القوة المعنوية للقوات المعادية إذ أن كل قوة لديك سوف تحدث ضعفا حتميا لدى العدو.. والقوة كما بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية هي لإحداث الردع المادي وقبله الردع المعنوي، وذلك نتيجة الهزة النفسية التي سوف تصاب بها قوات العدو بعد إجراء عمليات حساب الربح والخسارة كما قلنا من قبل، وهي القوة التي ترغم العدو على الوصول بعد كل هذه الحسابات إلى القناعة بأن هزيمته حتمية لا مفر منها.. فأي رهبة وأي دمار معنوي بعد هذا؟ إنها القوة الروحية والنفسية والمادية التي أمر الله عباده بها، وجعلها تبارك وتعالى أمرا ماضيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وامتدادا لأمر الله هذا يقول الرسول القائد صلى الله عليه وسلم: (نصرت بالرعب مسيرة شهر) رواه البخاري في صحيحه.

إذن فإن أساس الحرب النفسية التي شرع الله تبارك وتعالى للمسلمين انتهاجها وحرص الرسول صلى الله عليه وسلم كقائد عسكري على تطبيقها يقوم على: الردع النفسي بالقوة المادية الرادعة والمستندة إلى القوة الروحية والعقيدة الراسخة.

كما أن الإسلام لا يمانع من انتهاج العديد من أساليب الحرب النفسية المختلفة إلا ما كان فيه نقض لعهد أو كذب أو تغرير لا يقره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ولا رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم في سنته المطهرة.

إن الإسلام يحرم الكذب إلا أن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم قد أذن بالكذب خلال الحرب إن كان هذا الكذب يؤدي إلى خديعة العدو لأنه صلى الله عليه وسلم قال: (إن الحرب خدعة) فكل ما يخدع العدو في الحرب مباح.. ومن ذلك ما حدث في غزوة أحد عندما انكفأ المشركون وظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: (اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها، لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها). فخرج علي فرآهم يمتطون الإبل ويجنبون الخيل.. وفي اليوم الثاني لأحد كما جاء في حديث عكرمة قال: (إن معبد بن أبي معبد الخزاعي، أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه فقال ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه قد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من

أصحابهم، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكره عليهم لنستأصلهم. قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح.. فرجعوا على أعقابهم إلى مكة(٢٥).

كما روى الشيخان في مقتل كعب بن الأشرف عندما أهدر الرسول صلى الله عليه وسلم دمه أن محمد بن مسلمة قال: (أتحب أن أقتله يا رسول الله؟) قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (نعم) قال: (فأذن لي، فأقول ــ أي الكذب والأراجيف ــ قال رسول الله: (قد فعلت) ــ أي أذنت لك.

ومن ذلك ما حدث في غزوة الخندق حيث جاء نعيم بن مسعود بن عامر رضي الله تعالى عنه، وهو من غطفان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت فمرني بما شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا استطعت فإن الحرب خدعة)، فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة وكان عشيراً لهم في الجاهلية، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه فقال: يا بني قريظة إنكم قد حاربتم محمدا، وإن قريشا إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا انشمروا إلى بلادهم راجعين، وتركوكم ومحمدا، فانتقم منكم ــ والمعروف أن اليهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم وتآمروا مع قبائل الأحزاب العربية المشركة ضد المسلمين ــ قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن، قالوا: لقد أشرت بالرأي، ثم مضى على وجهه إلى قريش، فقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي لكم، قالوا نعم قال: إن يهودا قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وأنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يمالئونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم. ثم ذهب إلى غطفان فقال لهم مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت من شوال. بعثوا إلى اليهود: إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدا، فأرسل إليهم اليهود: إن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن. فلما جاءتهم رسلهم بذلك، قالت قريش: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحدا، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدا فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم، فتخاذل الفريقان، وأرسل الله على المشركين جندا من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدرا إلا

(٢٥) إبن قيم الجوزية: زاد المعاد، المجلد الثالث، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

كفأتها، ولا طنبا إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار وجند الله من الملائكة يزلزلونهم ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رد الله عدوه بغيظه، لم ينالوا خيرا وكفاه الله قتالهم، فصدق الله وعده وأعز جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده. فدخل المدينة ووضع السلاح فجاءه جبريل عليه السلام وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: أوضعتم السلاح، إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها، انهض إلى غزوة هؤلاء ــ يعني بني قريظة فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة) ثم كان ما كان من أمر بني قريظة[٢٦].. وهكذا كان الكذب وسيلة للخداع والتضليل لكسب الحرب عن طريقهما وما يحدثانه من آثار نفسية.

ومن ذلك ما حدث في غزوة مؤتة حينما تسلم خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه قيادة الجيش الإسلامي وكانوا ثلاثة آلاف مقاتل مقابل مائة ألف يمثلون جيش الروم إذ بعد قتل ثلاثة قواد، غير في ترتيب الجيش، فجعل المقدمة مؤخرة والميمنة ميسرة، فانخدع الروم وظنوا أنه قد جاء مدد، فدب الرعب في نفوسهم وانخدعوا، وقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك نصرا حربيا. ومن ذلك ما حدث في فتح مكة حيث أمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بإيقاد نيران عظيمة في مر الظفران على الجبال ليوهم قريشا بكثرة عدد الجيش الإسلامي، حتى قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا وقال أيضا للعباس حينما عرضت جيوش رسول الله صلى الله عليه وسلم والقبائل أمامه: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما، فقال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة، فقال: نعم إذن.

من كل ما تقدم ندرك أن الحرب النفسية مشروعة في الإسلام لتوهين العدو وتدمير قواته معنوياً، ومن وسائلها الكذب فيما لا يتعارض مع قيم الإسلام وعقيدة المسلم اللتين تأبيان الكذب وتحرمانه، فالكذب من وسائل الخدعة أمر مطلوب في الحرب لما رواه الشيخان عن المصطفى صلى الله عليه وسلم بأن: (الحرب خدعة.. إن الإسلام يمنع الكذب والخداع الذي فيه نقض للعهد أو التغرير والغدر، ومن ذلك أن يتظاهر المسلمون بالتسليم أو بطلب المفاوضة لأن ذلك غدر لا يقبله الإسلام، ومن ذلك أن يرتدي المسلمون أزياء عدوهم أو محاكاة نداءاته وما شابه ذلك[٢٧].

(٢٦) المرجع السابق، ص ٢٧٣.

(٢٧) د. وهبة الزحيلي: العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص ٦٠.

وإلى جانب إرهاب العدو بالقوة الإسلامية التي أمر المسلمون بإعدادها، وكذلك الخداع والتضليل كوسائل استخدمها المسلمون في حربهم النفسية للأعداء وصور من صورها. نجد أن هناك أساليب وصورا أخرى، وقد قلنا من قبل إن من صور الحرب النفسية وأساليبها[٢٨]:

ــ الشعارات والهتافات، وقد اتبع المسلمون هذا النهج في حروبهم مع المشركين. فإلى جانب الهتاف الإسلامي العظيم (الله أكبر) نجد هناك هتافات أخرى تضعضع معنويات الأعداء وتدخل الرعب والهلع في نفوسهم، مثل (أحد، أحد) في غزوة بدر، و (أمت، أمت) في غزوة أحد، و (ياخيل الله اركبي) في غزوة ذي قرد.

ــ التفريق بين العدو وحلفائه، وقد مر بنا قصة نعيم بن مسعود رضي الله تعالى عنه وغيره، حيث عمد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إلى التفريق بين قريش وحلفائها من يهود وغيرهم من قبائل العرب التي تحالفت مع قريش.. وقد تم للمسلمين تفريق صفوف الأعداء بواسطة هذا النهج الذي عمد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ــ تحييد القوى الأخرى وحرمان العدو من محالفتها، وقد مر بنا بعض من صور المعاهدات والاتفاقات التي عمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عقدها مع اليهود وبعض القبائل العربية لتحييد هذه القوى ومنع قريش من التحالف معها.

ــ زعزعة ثقة العدو في إحراز النصر، وقد تجلى ذلك في التخطيط والنهج الذي عمد إليه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في فتح مكة، إذ دفع قريش إلى التسليم وقبول دخوله إلى مكة دون قتال بعدما أدخل في روعهم أن لا قبل لهم بالنصر على المسلمين وأن ليس أمامهم إلا التسليم.

وغير ذلك من أساليب الحرب النفسية التي استخدمها المسلمون بقيادة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين من بعده، لتدمير القوة المعنوية للقوات المعادية لتسهيل عمليات تدميرها ماديا.

---

(٢٨) اللواء الركن/ محمد جمال الدين علي محفوظ: النظرية الإسلامية في الحرب النفسية (القاهرة: دار الاعتصام)، ص ٣٣.

الأمـــن والاستطلاع والمخابـرات

تهتم الدول المعاصرة بقضايا الأمن والمخابرات، وتنظم لذلك الأجهزة السرية والعلنية، وتنفق في سبيل حفظ أمنها من تسلل الأعداء الأموال الطائلة وتنفق مثل ذلك وأعظم في سبيل الحصول على معلومات عن الخصم لتستخدمها في عملية التخطيط المستقبلي للتعامل مع العدو. ولقد عني الإسلام بقضية الأمن كما عني بغيرها من القضايا والأمور التي تهم مصلحة المسلم وجماعة المسلمين ودولة الإسلام، وقد وجه الله سبحانه وتعالى عباده المسلمين إلى قضية الأمن ووجوب الحيطة والحذر بقوله تعالى في محكم التنزيل **﴿يٰأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا﴾** سورة النساء: ٧١، وقوله تعالى في السورة نفسها **﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلٰوة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكٰفرين كانوا لكم عدوا مبينا، وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلٰوة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكٰفرين عذابا مهينا، فإذا قضيتم الصلٰوة فاذكروا الله قيٰماً وقعودا وعلى جنوبكم فإذا أطمأننتم فأقيموا الصلٰوة إن الصلٰوة كانت على المؤمنين كتٰباً موقوتا﴾** سورة النساء: ١٠١ ــ ١٠٣.

والحيطة التي أمر الله تبارك وتعالى المسلمين بالأخذ بها هي أمر من الله تبارك وتعالى لعباده بامتلاك درجة الاستعداد العالية للقتال التي عرفها العلم العسكري المعاصر.. وامتلاك الدرجة العالية من الاستعداد للقتال هي وسيلة لحرمان العدو من تحقيق المفاجأة التي عرفها العلم العسكري المعاصر أيضا وجعلها أحد مبادىء الحرب المتفق عليها لدى معظم القادة والمنظرين العسكريين في العصر الحديث.. فالإسلام يعد الحذر أمرا بالغ الأهمية، وليس أدل على ذلك من أمر الله سبحانه وتعالى عباده به حتى وهم في صلاتهم، كما أنه يفتح عيون المسلمين على الخطر المحيط بهم ويأمرهم بالاحتراس منه بأخذ الحيطة

والحذر وهي وسائل من وسائل الأمن العديدة قديما وحديثا، ويحذر الإسلام أتباعه أيضا من الاستهانة بالعدو وعدم الاحتراس من مفاجأته لأن مباغتة المسلمين قد ترفع من معنويات العدو وتدمر معنويات المسلمين وبذا يتحقق للعدو النصر بقواته التي كانت محل سخرية المسلمين، كما يحذر الإسلام أتباعه من الاعتزاز بالقوة بين يدي المسلمين مما قد يجعلهم يسخرون من قوة العدو ولا يولون الحيطة والحذر الأهمية المطلوبة فيقع ما لاتحمد عقباه(٢٩).

والحيطة والحذر اللذان أمر الله تبارك وتعالى بهما في الآية السابقة هما من صميم أركان العقيدة العسكرية الإسلامية، ولهما متطلبات يحددها اللواء الركن/ محمد جمال الدين محفوظ على النحو التالي(٣٠):

المطلب الأول: وسائل الإنذار المبكر وإجراءات المخابرات والاستطلاع والأمن التي توفر للمسلمين أمرين هما:

١ ــ حصول مبكر على المعلومات عن العدو ونواياه واستعداداته العدوانية.

٢ ــ حرمان العدو من الحصول على المعلومات عن الأمة وعن جيشها.

المطلب الثاني: الحراسة المستمرة لحدود البلاد ومواقع الجيش والمنشآت الحيوية في أنحاء البلاد بهدف وقايتها من الأعمال العدوانية والتخريبية ورد العدوان عنها حال وقوعه حتى يصل الدعم من القوة الرئيسية.

المطلب الثالث: الاحتفاظ بصفة مستديمة بأجزاء من القوات المسلحة على درجة عالية من الاستعداد للعمل الفوري دون أدنى حاجة إلى إجراءات أو وقت إضافي للاستعداد للقتال، وهو ما يسمى درجة الاستعداد القصوى.

المطلب الرابع: وجود قوات مسلحة عاملة على درجة عالية من التنظيم والتدريب والتسليح وغيرها من مقتضيات الكفاءة القتالية العالية. وهذه هي القوة الأساسية التي تقاتل العدو المهاجم.

---

(٢٩) اللواء الركن/ محمد جمال الدين علي محفوظ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٧٢ ــ ١٧٣.

(٣٠) المصدر نفسه ص ١٧٢ ــ ١٧٣.

المطلب الخامس: وجود نظام دقيق يكفل التعبئة السريعة للقوات الاحتياطية التي هي مصدر الرصيد الرئيسي الذي يدعم القوات العاملة وقت الحرب.

المطلب السادس: إعداد الأمة للحرب من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والمعنوية.

والحيطة والحذر يعنيان الرباط في سبيل الله والحراسة، وقد أوجب الإسلام الرباط في سبيل الله والحراسة فهما من الجهاد في سبيله، ففي صحيح البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)، وفي صحيح مسلم عن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه)، وفيه أيضا قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (رباط يوم في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطا في سبيل الله كان له أجر مجاهد إلى يوم القيامة)، وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله)، وروى الطبراني عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من رابط ليلة حارسا من وراء المسلمين كان له مثل أجر من خلفه ممن صام وصلى).. وغير هذا فإن كتب الصحاح مليئة بتبيان المصطفى صلى الله عليه وسلم لفضل الرباط والحراسة في سبيل الله وهما من وسائل الأمن التي أوجبها الإسلام تحرزا من مباغتة العدو وأخذه المسلمين على حين غرة.

والحيطة والحذر يستلزمان القيام بعمليات الاستطلاع للتجسس على أخبار العدو ومعرفة تحركاته، ولقد نهى الله سبحانه وتعالى المسلم عن التجسس على أخيه المسلم في قوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم**﴾ سورة الحجرات: ١٢.

والتجسس لغة هو: تتبع أخبار العدو والفحص عن بواطن الأمور، وقد فسر البخاري رحمه الله التجسس بالتبحث. وحددت المادة ٢٩ من لائحة الحرب البرية معنى الجاسوس بأنه: الشخص الذي عمل في الخفاء أو تحت ستار كاذب، فيحصل أو يحاول

الحصول على معلومات في منطقة التحركات العسكرية لأحد المحاربين بنية إبلاغها للخصم: ونصت المادة ٢٣ من لائحة الحرب على جواز استعمال الوسائل اللازمة للحصول على معلومات عن العدو وعن ميدان القتال[٣١].

وهو من الأمور المباحة في الإسلام عندما يكون المستهدف هو العدو لأخذ الحيطة والحذر منه والتحرز من مباغتته وغدره، ولقد عرف النظام العسكري الإسلامي العيون والأرصاد (التجسس) لتسقط الأخبار واستطلاع أنباء المجهود الحربي للعدو، لكي يتكشف للقائد كافة أو معظم الحقائق التي تساعده لتخطيط عملياته المختلفة إما للتحرك للهجوم أو للتقهقر أو التريث حتى يتجمع لديه مزيد من الحقائق عن العدو.. وقد عرف نظام العيون والأرصاد (التجسس) منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث جعل عمه العباس عينا له في مكة بعد هجرته منها كما جعل عمر بن ساعدي عينا له في نجد كما جعل حذيفة بن اليمان العبسي عينا له على المنافقين في المدينة. وقد كان اختيار الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لهؤلاء العيون (الجواسيس) وغيرهم لتمتعهم بالعديد من الصفات التي تؤهلهم للقيام بأعمال المخابرات ومنها: الذكاء والقدرة على التصرف في المواقف الحرجة والفهم العميق والرؤية الجيدة للأمور والقدرة على إصدار الأحكام السليمة وسرعة البديهة والمرونة والقدرة على التكيف وغير ذلك من الصفات التي يعددها اليوم خبراء المخابرات والتي يرون ضرورة توفرها فيمن يتم اختياره لمثل هذه المهمة. ولقد روى حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كلفه بمهمة الدخول في صفوف العدو يوم الخندق لمعرفة أخبارهم، فقال: (دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ياحذيفة»، اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا». قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرا ولا نارا ولا بناء. فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسة؟ فقال حذيفة: فضربت بيدي على يد الذي عن يميني، فأخذت بيده فقلت: من أنت؟ فقال: معاوية بن أبي سفيان. ثم ضربت بيدي على يد الذي عن شمالي فقلت: من أنت؟ فقال: عمرو بن العاص).. وقد كان ذلك دليلا على سرعة البديهة وحسن التصرف عند حذيفة رضي الله تعالى عنه، إذ لو تأخر عن ذلك لبادره معاوية أو عمرو بالسؤال

---

(٣١) د. وهبة الزحيلي العلاقات الدولية في الإسلام، مرجع سابق، ص ٦١.

ولانكشف أمره وافتضح سره وأضاع على المسلمين الحقائق التي أرادوا الحصول عليها بواسطته عن العدو.

وعلى هذا النحو كان اختيار الرسول القائد صلى الله عليه وسلم للعيون الذين يأتونه بأخبار العدو كرجال مخابرات بالمفهوم المعاصر. والأدلة على ذلك عديدة، فلم ترد في السيرة النبوية حادثة واحدة وقد انكشف فيها أمر أحد من رجال مخابرات النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانت نيات الأعداء بالعدوان تبلغ النبي صلى الله عليه وسلم في وقت مبكر يمكنه من اتخاذ إجراءات المواجهة حسبما يقتضي الموقف، ولم يضع صلى الله عليه وسلم خطة لغزو أو سرية دون أن تكون لديه المعلومات اللازمة للتخطيط الناجح عن العدو وعن الأرض والظروف المحيطة(٣٢).

ولقد كان المصطفى صلى الله عليه وسلم يقدر لكل حالة «حجم المخابرات» التي ينتدبها لهذا العمل أو ذاك، فكان يكلف الفرد بترصد أخبار العدو من الداخل أو يكلف المجموعات والسرايا كوحدات استطلاع بالمفهوم العسكري المعاصر، وذلك وفق ما تقتضيه المصلحة والحاجة. ومن أعمال المخابرات والاستطلاع التي تمت في عهده صلى الله عليه وسلم نورد ما يلي للتدليل لا الحصر(٣٣).

١ ــ سرية عبد الله بن جحش: في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، بعث الرسول القائد صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش الأسدي ومعه ثمانية من المهاجرين، وكتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحدا ــ وفي هذا ضمان لعدم تفشي الخبر قبل خروجهم من المدينة، إذ لو فتح الكتاب قبل خروجه لربما فقدت سرية الأمر وافتضح أمر العمل المراد تدبيره سرا.

فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب فإذا فيه قول الرسول القائد صلى الله عليه وسلم: (إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل «نخلة» ــ وهي موضع بين مكة والطائف ــ فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم).

---

(٣٢) اللواء الركن: محمد جمال الدين محفوظ: مدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(٣٣) لمزيد من الإيضاح والتفصيل يراجع أي من كتب تاريخ السيرة النبوية الشريفة.

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: (سمعا وطاعة)، ثم قال لأصحابه: (قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منها بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم، فمن كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم) فمضى معه أصحابه ولم يتخلف عنه منهم أحد كما جاء في سيرة ابن هشام وغيرها من كتب تاريخ السيرة النبوية الشريفة. ولم تكن سرية عبد الله بن جحش هي السرية الوحيدة في تلك الفترة التي تلت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وسبقت غزوة بدر التي هي أول قتال فعلي بين المسلمين والمشركين من قريش. فلقد كانت من بين سرايا عديدة أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم لأهداف عديدة نذكر منها:

أ ــ الاستطلاع وترصد أخبار العدو الذي أدرك صلوات الله وسلامه عليه أن الحرب معه حتمية ووشيكة.

ب ــ تأمين الحماية للمدينة المنورة ولمناطق بعيدة نسبيا حتى لا يؤخذ المسلمون على حين غرة.

جـ ــ قطع الطريق على يهود المدينة الذين أدرك صلى الله عليه وسلم طباعهم في الغدر وعدم الوفاء بالعهد.

د ــ إشعار الأعداء الذين كانت قريش على رأسهم بما صار للإسلام من قوة في المدينة وبما صار للمسلمين من منعة جعلتهم يرسلون السرايا للاستطلاع والقتال.. وهذا لا يصدر إلا عن قوة.

هـ ــ إعطاء الفرصة للمهاجرين للتعرف على طبيعة الأرض من حول المدينة، والتي ستكون مسارح للعمليات المقبلة.. ويلاحظ عدم خروج الأنصار في هذه السرايا لأن العهد الذي بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الأنصار ينص على مناصرته عندما يهاجمهم العدو للدفاع عن المدينة وعن المسلمين.

و ــ إعطاء الفرصة للرجال الذين لم يعرفوا الغزو من قبل، ليشتد ساعدهم ويقوى عودهم ويألفوا الصعاب، وذلك استعدادا للحرب المقبلة.

ز ــ عقد المحالفات والعهود مع بعض القبائل المجاورة لتخفيف الضغط على

المسلمين الذين لا يريدون أن يقاتلوا على جبهات عدة، وقد مر بنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يقاتل في جبهتين قط. ومن بين هذه السرايا: سرية حمزة بن عبد المطلب وسرية عبيدة بن الحارث وسرية سعد بن أبي وقاص وغزوة الأبواء وغزوة ذات العشيرة وسرية عبد الله بن جحش التي تحدثنا عنها.

وقد خرج صلى الله عليه وسلم مع ثلاث منها وقيل أربع.

٢ ـ في غزوة بدر: لقد أراد المسلمون اعتراض قافلة قريش وهي في طريقها إلى الشام ولكنها أفلتت منهم في خريف السنة الثانية للهجرة. وعند عودتها أرسل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم مفرزة استطلاع صغيرة مكونة من طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد ينظران القافلة، وقد سارا حتى وصلا إلى «الحوراء» على الطريق الذي تسلكه القافلة بين الشام ومكة، ومكثا فيها فلما مرت القافلة أسرعا يخبران النبي صلى الله عليه وسلم بأمرها، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالخروج وقال لهم: (هذه عير قريش فاخرجوا لعل الله ينفلكموها).

وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون للاعتراض والظفر بالقافلة، وعند موقع يسمى «الصفراء» بعث صلى الله عليه وسلم بمفرزة استطلاع أخرى قوامها رجلان هما: بسيس بن عمر الجهني وعدي بن الرعباء للحصول على المعلومات عن قريش وقافلتها، وسارا حتى وصلا إلى «وادي ذفران» فجاءهما خبر خروج قريش من مكة لنجدة قافلتها حيث أرسل أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفاري ليبلغ قريشا بخروج المسلمين لاعتراض القافلة.

وفي ذفران أعاد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم تقدير الموقف حيث كان الهدف إعادة تقدير الموقف العام.. وكان إجماع المسلمين على قتال قريش.

وحيث كانت بدر هي أول معركة حربية توفرت لها مقومات المعركة بين معسكر المسلمين والمشركين، فقد وضع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أهمية قصوى للاستطلاع في مرحلة الحشد. وعليه فقد دفع صلى الله عليه وسلم بأصحابه إلى ماء بدر، وانطلق ومعه رجل قيل إنه أبوبكر رضي الله عنه في عملية استطلاعية تتفق مع ما يسمى اليوم: بالاستطلاع الشخصي للقائد والأركان حيث كان أبوبكر بمثابة الصديق والصاحب والركن والخليفة من بعد. وقد سارا أمام قوات المسلمين

التي عسكرت في بدر حتى وقفا على رجل من العرب يدعى سفيان الضمري فسألاه عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا أخبرتنا أخبرناك) فقال سفيان؟ (أذاك بذاك)، قال: (نعم). قال سفيان: (فإنه بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا ــ وقد حدد المكان الذين به رسول الله وأصحابه ــ وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ــ وحدد المكان الذي فيه قريش) فلما فرغ سأل الرسول: (فمن أنتما؟) فقال صلى الله عليه وسلم (نحن من ماء) وانصرفا من عنده.

وبعد عودته إلى بدر أرسل مفرزة استطلاع نهائي مكونة من علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص لتصيد أخبار قريش في مواقع حشدها. وخرج الثلاثة إلى مواقع قريش وعند الماء وجدوا سقاة قريش فأمسكوا بغلامين منهم وجاءوا بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي تولى صلى الله عليه وسلم عملية استجوابهما الذي تم على النحو التالي:

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أخبراني عن قريش؟
قال الغلامان: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.
قال الرسول صلى الله عليه وسلم: كم القوم؟
قال الغلامان: كثير.
قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ما عدتهم؟
قال الغلامان: لا ندري؟
قال الرسول صلى الله عليه وسلم: كم ينحرون كل يوم؟
قال الغلامان: يوما تسعا ويوما عشرا
قال الرسول صلى الله عليه وسلم: من فيهم من أشراف قريش؟
قال الغلامان: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البحتري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطعيمة بن عدي، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود، ومنبه بن الحجاج.

وبهذا تعرف الرسول القائد صلى الله عليه وسلم على مواقع حشد الأعداء وأعدادهم وقادتهم وأشرافهم.

٣ ــ في غزوة أحد: لقد واجه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بعد غزوة بدر أمورا ثلاثة كان لابد من حسمها حتى يتفرغ للمواجهة القادمة مع قريش التي لابد أن تثأر لهزيمتها وأن تحاول استعادة هيبتها بين القبائل.. هذه الأمور هي:

أ ــ القبائل العربية التي تقطن حول المدينة والتي بدأت المخاوف تساورها على نفوذها ومكانتها بعد انتصار المسلمين على قريش وهي أقوى قبائل العرب آنذاك.

ب ــ موقف قريش نفسها والتي لم تتصور أن تلحق بها مثل هذه الهزيمة من نفر خرجوا عنها مطاردين مضطهدين لا حول لهم ولا قوة.. وعليه لم يكن ليخفف عنهم وقع ذلك على نفوسهم سوى الانتصار على محمد والانتقام منه ومن أصحابه.

جـ ــ موقف يهود المدينة الذين آلمهم ما حل بقريش وقد كانوا ينتظرون أن تزول هيمنة محمد ودينه ليعودوا إلى فرض هيمنتهم ودسائسهم واستغلالهم لقبائل يثرب.. أما وقد حل بقريش ما حل بها في بدر فإن مركزهم لابد ذاهب إلى الفناء، وعليه فلابد أن يعملوا كل ما في وسعهم للحيلولة دون ذلك.

وفي تلك الأثناء بعث العباس بن عبد المطلب رجلا من مكة إلى المدينة ليخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بخبر خروج قريش للحرب، وقد كان عينا للرسول صلى الله عليه وسلم في مكة يرصد له أخبار قريش وتحركاتهم. وقد سار ذلك الرجل الغفاري وقطع المسافة بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام. وعندما وصل إلى المدينة وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء، فسلمه كتاب عمه العباس، فاستدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب وسلمه الرسالة فقرأها عليه، وطلب منه النبي ألا يبوح بمضمونها.

وعليه جهز الرسول القائد صلى الله عليه وسلم مفرزة استطلاع مكونة من أنس ومؤنس ابني فضالة، فعادا وأخبراه بمنزل قريش في وادي أحد وقدروا له أعدادهم وعتادهم، وأخبراه أن قريشا أطلقت خيلها وإبلها في مزارع المدينة تأكل الزرع والشجر.

ثم بعث صلى الله عليه وسلم بالحباب بن المنذر للاستطلاع وعاد بمعلومات تؤكد الحشد وما جاء به أنس ومؤنس.

ثم بعث صلى الله عليه وسلم سلمة بن سلامة للاستطلاع وعاد بمعلومات تؤكد المعلومات السابقة وقد أخبره سلمة بأن طليعة خيل قريش تقترب من المدينة وتكاد تدخلها.

وهنا يبرز لنا مدى اهتمام الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بالاستطلاع وضرورة تطوير المعلومات وتجديدها أولا بأول وفق تطورات الموقف.. وعلى ضوء هذه المعلومات كان اجتماع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بصحابته طلبا للرأي والمشورة لوضع الخطة اللازمة للمواجهة والتي تجمعت لديه معلومات وافية عنها.

وبعد غزوة أحد بعث النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أنيس ليتجسس على حقيقة خبر أن خالد بن سفيان زعيم بني لحيان من هذيل، أقام بنخلة أو عرنة يجمع الناس ليغزو الرسول صلى الله عليه وسلم.

٤ ــ فيما بين أحد والخندق: بعدما تلقى المسلمون الدرس والعبرة في غزوة أحد وبعدما فقدوا سبعين صحابيا على رأسهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين، بادرت قريش إلى ترويج أخبار انتصارها العظيم على محمد وأصحابه في أحد، فظن اليهود وقبائل العرب المجاورة أن لن تقوم لمحمد وأصحابه قائمة بعد أحد.. وعليه بادر اليهود من بني النضير وغيرهم إلى الكيد وإظهار العداء الذي كانوا يبطنونه خوفا قبل أحد، ثم تآمر يهود بني النضير لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم.. وكان ما كان من أمرهم وإجلاء الرسول لهم من المدينة إلى خيبر والشام.

ثم كانت غزوة ذات الرقاع حيث خرج الرسول صلى الله عليه وسلم يريد بني محارب وبني ثعلبة بعد أن وصلته معلومات استخبارية تفيد بأنهم يجمعون جموعهم لمحاربته للنيل منه ومن المسلمين بعد هزيمتهم في أحد.

وحين دنا من منطقة الحشد المعادية ليلا قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (من رجل يكلؤنا؟ فتقدم رجلان هما عباد بن بشر وعمار بن ياسر وقالا: (نحن يا رسول الله نكلؤكم)، ثم قال عباد لعمار: (أنا أكفيك أول الليل وتكفيني آخره).. وقد كان هذا العمل الاحترازي من الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ليحول بين العدو وتحقيق المفاجأة.

ثم كانت غزوة بدر الآخرة حيث أن أبا سفيان قال عند مغادرته لمسرح العمليات في أحد: (إن موعدكم بدرا العام المقبل)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هو بيننا وبينكم موعد).. وقد خرج المسلمون على موعدهم وتردد أبو سفيان ثم خرج ثم عاد إلى مكة بعد مسير يومين منها، ولم يلتق الجمعان، وكان ذلك نصرا ضمنيا للمسلمين على المشركين ورد اعتبارهم بعد أحد.

ثم كانت غزوة دومة الجندل حيث بلغ الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من عيون أرصاده ورجال مخابراته في نجد أن القوم قد أجمعوا أمرهم بالسير إلى المدينة، فسار إليهم بألف من أصحابه، وكان يسير ليلا ويكمن نهارا حيث تتميز المنطقة بخولها من السواتر التي تحمي التحرك فضلا عن حرارة الشمس في تلك المناطق الجرداء وحيث كان التحرك صيفا.. ولكن القوم تفرقوا عندما علموا بقدوم الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن يصمدوا للقائه.

ثم كانت غزوة بني المصطلق حيث بلغ الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من عيون إرصاده ورجال مخابراته أن الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق من خزاعة قد جمع الجموع وأعد العدة لحرب المسلمين: وبناء على هذه المعلومات الأولية انتدب الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بريدة بن الحصيب ليستطلع الأمر، فخرج بريدة حتى أتى الحارث فقال له: (قدمت لما بلغني من جمعكم لهذا الرجل فأسير في قومي ومن أطاعني فنكون يدا واحدة حتى نستأصلهم)، فقال له الحارث: (فنحن على ذلك فعجل علينا)، فقال بريدة: (اركب الآن فآتيكم بجمع كثير من قومي).. ثم رجع بريدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي أثناء مسير المسلمين إليهم وقع في يد المسلمين رجل من رجال الحارث كانوا قد بعثوا به ليأتيهم بأخبار المسلمين، وعند استجوابه رفض الرجل أن يقدم ما لديه من معلومات وعرض الرسول صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام ولكنه رفض، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فضرب عنقه.. وعندما سمع الحارث ورجاله تملكهم الخوف والفزع فتفرقوا.. ثم كان القتال وقتل من قتل من قوم الحارث وأسر من أسر وكان من بين السبايا برة بنت الحارث التي تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وأسماها جويرية. ثم وصلت إلى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من عيون ارصاده ورجال

مخابراته في مكة أنباء مفادها أن قريشا قد عبأت عشرة الآف مقاتل من قبائل العرب المتحالفة معها لحرب المسلمين عدا اليهود الذين نقضوا العهد وتحالفوا مع قريش في تلك الغزوة.. فكانت خطة سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه بحفر الخندق حول المدينة وقد تحققت بذلك المفاجأة لقريش وحلفائها حيث لم يكن لها أي قدرة استخبارية في معسكر المسلمين: ثم كانت مهمة حذيفة بن اليمان الاستطلاعية والتي ذكرناها من قبل للتعرف على نوايا الغزاة.

٥ ــ في غزوة حنين: بعد فتح مكة ودخول قريش في الإسلام قررت بعض القبائل العربية مهاجمة المسلمين للحفاظ على سلطانها الذي لابد أن يبادر المسلمون لتقويضه بالهجوم على تلك القبائل وعليه اجتمع أمر هوازن وثقيف على مهاجمة المسلمين، وعندما وصلت تلك المعلومات إلى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من عيون ارصاده ورجال مخابراته، أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ليأتيه بالمعلومات عنهم وقد أمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدخل في القوم فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه.. وبعد أن أقام فيهم وعلم بما هم مقدمون عليه، أسرع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يخبره بما أجمع عليه القوم وبأعدادهم وعدتهم.. ثم كانت غزوة حنين على ضوء هذه المعلومات.

وهكذا كان دور الاستطلاع وأهمية الأمن في استراتيجية الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الذي لم يكن يقاتل فحسب، بل كان يرسي دعائم العقيدة العسكرية الإسلامية واستراتيجية الحرب للمسلمين من بعده وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وقد حدد اللواء الركن محمد جمال الدين علي محفوظ «النظرية الإسلامية في الاستطلاع» على النحو التالي[٣٤].

أ ــ الاستطلاع ضرورة حيوية.

ب ــ الكتمان والسرية

جـ ــ صغر حجم مفرزة الاستطلاع.

د ــ أن يقوم بالاستطلاع الراغبون فيه.

---

(٣٤) اللواء الركن/ محمد جمال الدين علي محفوظ / النظرية الإسلامية في الاستطلاع والأمن ومقاومة الجاسوسية (القاهرة: دار الاعتصام)، ص ١٥.

هـ ـ ضرورة تجنب القتال.

و ـ قيام القائد بالاستطلاع الشخصي.

ز ـ ضرورة إعلام القوات بالمعلومات عن العدو.

ح ـ تكريم رجال الاستطلاع.

ط ـ قوة التحمل لدى رجال الاستطلاع.

وحيث أباح الإسلام التجسس على العدو، وحرمّه حين يكون من المسلم على أخيه المسلم فقد جعل الإعدام عقوبة لمن يتجسس على المسلمين لحساب الأعداء، وهذه العقوبة لا تقصر على العناصر التي تدين بغير الإسلام كالكفار وأهل الكتاب وإنما تشمل المسلم حين يتجسس على المسلمين لحساب أعدائهم، فقد روى أحمد وأبوداود أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل فرات بن حيان الذمي الذي كان عينا في المدينة لأبي سفيان، وفي موقعة هوازن روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن سلمة بن الأكوع قال: (عزونا مع رسول الله صلى الله في هوازن فبينما نحن نتضحى إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه، ثم تقدم يتغدى مع القوم، وجعل ينظر وفينا ضعفة ورقة ظهر وبعضنا مشاة، إذ خرج يشتد فأتى جمله فقعد عليه فأثاره، فاشتد به الجمل.. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (اطلبوه فاقتلوه) قال سلمة: فخرجت أشتد حتى أخذت بخطام الجمل فأنخته، فلما وضع ركبته في الأرض، امتشقت سيفي فضربت رأس الرجل فسقط ثم جئت بالجمل أقوده..)، وقد مر بنا قصة الرجل الذي أرسله الحارث بن ضرار للتجسس على المسلمين في غزوة بني المصطلق حيث امتنع أن يبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم بما لديه من أخبار ورفض الدخول في الإسلام فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب بضرب عنقه.

والأمن الذي هو الحيطة والحذر من العدو ومنعه من التقاط أخبارنا، يرتبط بالمخابرات حيث إن السعي للحصول على المعلومات عن العدو يرتبط ارتباطا وثيقا بإجراءات الوقاية من نشاط المخابرات المعادية، ويعتمد نجاح كل من المهتمين بدرجة كبيرة على الأخرى.. وعليه فإن هذا الارتباط قد حتم تقسيم نشاط المخابرات إلى نوعين في العلم العسكري، هما(٣٥).

---

(٣٥) اللواء الركن/ محمد جمال الدين محفوظ: المدخل إلى العقيدة الاستراتيجية العسكرية الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٨١.

النوع الأول: وهو النشاط الإيجابي للمخابرات، وهو الذي يهدف إلى الحصول على المعلومات عن العدو.

النوع الثاني: وهو النشاط الوقائي أو ما يعرف بالمخابرات المضادة، وهو الذي يهدف إلى مواجهة أعمال المخابرات المعادية وإلى حرمان العدو من الحصول على المعلومات والأسرار.

ولقد بينا فيما سبق من حديث الدور البارز والأهمية البالغة التي أولاها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم للنشاط الإيجابي للمخابرات حيث تمكن وفي جميع غزواته من الحصول على المعلومات الاستخبارية الكافية للتخطيط السليم للمعارك المقبلة، وذلك عن طريق العيون والارصاد ورجال المخابرات الذي كانوا يكاتبونه ويبلغونه بالمعلومات أولا بأول عن تحركات ونوايا وحشود الأعداء كالعباس في مكة وعمر بن ساعدي في نجد وحذيفة بن اليمان العبسي في المدينة على المنافقين. ولعل أبرز مظاهر هذا الدور الإيجابي البارز كما قلنا هو أنه لم يرد في تاريخ السيرة النبوية الشريفة انكشاف حالة واحدة أو أمر واحد من الذين كان الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ينتدبهم لهذه المهام الاستخبارية، كما أن نشاط هذه المخابرات قد مكن المسلمين من إحباط كل نوايا الغزو التي دبرها أعداء الإسلام من مشركي العرب بالتعاون مع أعداء الله من يهود المدينة.

أما عن النوع الثاني لنشاط المخابرات وهو ما يعرف بالمخابرات الوقائية فقد كان مثار اهتمام الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، لوقاية المجتمع المسلم في المدينة من أعمال التجسس لحساب أعداء الإسلام المحيطين بالمسلمين من كل جانب، وليرسي صلى الله عليه وسلم دعائم العقيدة العسكرية الإسلامية واستراتيجية الحرب للمسلمين من بعده.

ولقد مر بنا الحوادث التي وقعت حيث أمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بقتل الجواسيس الذين حاولوا تسقط أخبار المسلمين وتزويد الأعداء بها.. ثم جاء القانون الدولي المعاصر ليقرر إعدام الجاسوس شنقا أو رميا بالرصاص بعد المحاكمة وذلك في المادة ٣٠ من اتفاقية لاهاي.

والمخابرات الوقائية تقوم على ركائز أهمها: إجراءات السرية والأمن ومقاومة الجاسوسية، وقد عني الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بكل هذه الركائز إذ كان يلتزم بالسرية في كل غزواته وحشوده ويولي فيها الأمن جل اهتمامه. ولقد تجلى ذلك في أروع صورة عندما أراد المسير إلى مكة عام الفتح حيث دخل صلى الله عليه وسلم على زوجته

عائشة، وهي أحب نسائه إليه، وأبوها، أبوبكر الصديق رضي الله تعالى عنه أحب الرجال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لها: (جهزينا واخفي أمرك) ثم قال صلى الله عليه وسلم: (اللهم خذ من قريش الأخبار والعيون حتى نأتيهم بغتة)، وقد كان صلى الله عليه وسلم يريد دخول مكة دون قتال. ثم دخل أبوبكر على ابنته عائشة رضي الله عنهما وهي تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعمل قمحا وسويقا ودقيقا، فقال لها : يا عائشة. أهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو؟ قالت: فاستعجمت عليه حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما على هذه الحال. فقال له أبوبكر: أردت سفرا ؟ قال: نعم، قال أبوبكر: أفأتجهز؟ قال: نعم، قال: فأين تريد يا رسول الله؟ قال: قريشا وأخف ذلك يا أبابكر.. وتجهز الناس دون أن يدري أحد منهم سوى عائشة وأبيها رضي الله عنهما، حتى ظن البعض أنه يريد ثقيفا، وظن آخرون أنه يريد هوازن، وظن آخرون أنه يريد بني سليم، وظن آخرون أنه يريد الشام.. ولم يدركوا اتجاه المسير والهدف منه حتى كانوا على مقربة من مكة، وتحققت المفاجأة وفتح الله مكة على المسلمين دون قتال كما أراد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم.

أما مقاومة الجاسوسية فقد كانت تقوم على الحيطة والحذر وسد المنافذ التي يتسلل منها العملاء في صفوف المسلمين، ولقد اكتسب المسلمون خبرة بسبب وجود المنافقين بين ظهرانيهم. وإلى جانب الحيطة والحذر فقد أرسى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم النهج الذي يجب أن يسير عليه المسلمون في مقاومة الجاسوسية إذ كان يعرض على الجاسوس الإدلاء بما لديه من معلومات، فإن رفض عرض عليه الإسلام، فإن رفض أمر بقتله كما مر بنا. وهو بهذا يسبق علماء المخابرات في العصر الحديث من حيث إجراءات الجاسوس ليصبح جاسوسا لهم لا عليهم. وفي قيسارية قتل جنود عمرو بن العاص جاسوسا رومانيا فغضب عمرو وقال لهم هلا أتيتموني به لاستخبره؟ فكم من عين تكون علينا ثم تصير لنا.

يحدد اللواء الركن محمد جمال الدين علي محفوظ أركان النظرية الإسلامية في الأمن ومقاومة الجاسوسية على النحو التالي[٣٦].

---

(٣٦) اللواء الركن/ محمد جمال الدين علي محفوظ: النظرية الإسلامية في الاستطلاع والأمن ومقاومة الجاسوسية، مرجع سابق، ص ٥٥.

١ ـــ الكلمة أمانة
٢ ـــ كتمان الأسرار
٣ ـــ غرس الوعي بالأمن بالتربية والتوعية
٤ ـــ الصمت.
٥ ـــ كبح شهوة الكلام
٦ ـــ النهي عن التطفل
٧ ـــ النهي عن الفضول

تلك بعض من جوانب سياسة الأمن والاستطلاع والمخابرات في الإسلام كما أرسى قواعدها المصطفى صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه، وكما سار على هديها قادة الفتح الأوائل رضوان الله عليهم أجمعين.

الإعداد للحرب

الحرب هي كما عرفنا: حسم الصراع بالقوة، والصراع معروف منذ أن انشطرت الخلية البشرية الأولى على وجه الأرض. وتطور الصراع وتطورت وسائله ودوافعه كما علمنا في ظل تطور البشرية وانتقالها من طور إلى طور. ومن خلال تطور الوسائل والدوافع، تطورت طرق الإعداد للحرب في ظل الأسرة ثم تكتل الأسر في جماعات ثم تكتل الجماعات في قبائل ثم تكتل القبائل في أحلاف، ثم تكونت الدولة وتطورت وتعقدت أجهزتها ومهامها.. وفي ظل الدولة تطورت طرق الإعداد للحرب. فكان الإعداد في أول الأمر لا يعدو تجهيز بعض المقاتلين المأجورين، ثم «تجييش» الأمة بأسرها، ثم أصبحت الصورة كما نراها اليوم: جيوشاً نظامية محترفة، يتخذ جنودها من الحرب مهنة لهم. يتم إعدادهم للحرب، ويتم في الوقت نفسه إعداد الأمة لتقبل الحرب من جهة ولدعم هؤلاء الجنود المحترفين في ميادين القتال من جهة أخرى.

هذا بطبيعة الحال عن النظم الوضعية قديما وحديثا، وهو مغاير لمعنى وطرق وأهداف الإعداد للحرب في ظل الإسلام.. وهذا ما سنراه من خلال حديثنا التالي. إن الإعداد للحرب في الإسلام ينطلق ابتداء من قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿أذن للذين يقٰتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوٰت ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾** سورة الحج: ٣٩ ــ ٤٠، ثم من قول الحق تبارك وتعالى في موضع آخر من محكم التنزيل **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾** سورة الأنفال: ٦٠.

ففي الآية الأولى أذن للمسلمين بالقتال لدفع الظلم أيا كان نوعه وأيا كان مصدره، ثم وعد من الله سبحانه وتعالى بالنصر للمسلمين وهذا الوعد قائم إلى أن يرث الله الأرض

ومن عليها، ثم تبيان في الآية الثانية من آيات الحج أن نصر الله واقع لا محالة لكل من ينصر الله تبارك وتعالى، وذلك تبيان من الحق سبحانه وتعالى لماهية هذا النصر «والمؤهلات» المطلوبة فيمن يريد الحصول عليه».. وفي الآية الأخرى ــ آية سورة الأنفال ــ تبيان من الله تبارك وتعالى لهؤلاء المسلمين الذين أذن لهم بالقتال بالطريقة التي يجب أن يتم بها القتال المأذون لهم به من قبل، وفيها أمر بإعداد القوة التي تقوم عليها كما قلنا من قبل استراتيجية الردع التي هي من مكونات استراتيجية الحرب في الإسلام.

والإعداد المأمور به في هذه الآية هو:

ــ إعداد روحي.
ــ إعداد نفسي
ــ إعداد مادي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هو:
ــ إعداد للأمة الإسلامية.
ــ إعداد لقادة الفتح الإسلامي.
ــ إعداد للجند المجاهدين في سبيله.

وهذا منطلقنا للحديث عن سياسة الإعداد للحرب في ظل مبادىء الإسلام وتعاليمه إن القوة التي أمر الله تبارك وتعالى عباده المخلصين بإعدادها لا تعني القوة المادية فحسب كما يفهم الكثيرون اليوم، وإنما هي أمر بالإعداد الشامل ولكل مظاهر القوة. فالجندي الذي بيده بندقية أو صاروخ موجه بأشعة الليزر أو حتى قنبلة نيترونية أو هيدروجينية، ليس قويا حين يكون منحطا في قيمه الروحية ومنهكا في قواه الجسدية ومحطما في قواه المعنوية، فلعل ما بيده من أسلحة الدمار تلك تصبح وبالا عليه حين لا يكون قوي العقيدة والروح والجسد والمعنويات ولعل صورة الجندي الفرنسي في الحرب العالمية الثانية ماثلة أمامنا الآن حين لم تنفعه القوة المادية التي كان يمتلكها في ظل الضياع الروحي والانحطاط الخلقي والدمار النفسي، مما جعله فريسة سهلة للجند الألمان الذي أعدوا للحرب إعدادا عقائديا وجسديا وماديا. ولعل صورة الجندي الأمريكي في الحرب الفيتنامية ماثلة أيضا أمام عيوننا الآن حين لم تنفعه القوة المادية الرهيبة التي كان يمتلكها

في ظل الضياع الروحي والانحطاط الخلقي والدمار النفسي، مما جعله فريسة سهلة ولقمة سائغة لجند فيتنام الشمالية الذين أعدوا عقائديا وجسديا وبقليل من السلاح والقوة المادية.

إن الإعداد الذي أمر الله تبارك وتعالى به عباده يأتي منسجما مع حقيقة أن الإسلام هو دين الفطرة والواقع، وأن قوى الشر وأتباع إبليس من البشر يرفضون هذا الواقع ويسعون جهدهم لتدمير هذا الواقع والقضاء عليه. وواقعية الإسلام هي التي جعلته يسالم ويدعو للسلام شريطة أن يجنح له الأعداء، ويذعنون لسلطانه بخوف من قوة الإسلام.. والواقع أن قوى الشر لم تذعن إلا خوفا من القوة الإسلامية، فلقد تكالبت قوى الشر هذه من قريش وسليم وغطفان وبني مرة وغيرها وتعاونت للقضاء على دولة الإسلام الناشئة في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم. ثم تعاونت قوى الشر في الجزيرة العربية مع الفرس والروم في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه فيما عرف بالردة. ومن بعد أبي بكر كان ما كان من فتن يعرفها المسلمون جيدا في عهد عمر ثم في عهد عثمان ثم في عهد علي رضي الله تعالى عنهم، بدفع وإغراء وتدبير وتخطيط من الأعداء الرئيسيين للإسلام والمسلمين ـــ وأقصد بذلك أبناء إبليس من اليهود والأشرار. وفي العصور الوسطى وفي غفلة المسلمين وبعدهم عن أمر ربهم تبارك وتعالى بالإعداد للأعداء تجمعت كل دول أوروبا المسيحية وزحفت بجيوشها ورهبانها وشعوبها نحو أرض الإسلام فيما عرف بالحروب الصليبية الحاقدة. وفي العصر الحديث توجهت أوروبا في غزوتها الصليبية المعاصرة نحو بلاد المسلمين التي رضخت وترضخ حتى يومنا هذا للعديد من مظاهر الاستعمار العسكري والاقتصادي والفكري الصليبي الحاقد. وفي العصر الحديث أيضا تعاونت القوى الأوروبية ـــ الشرقي منها والغربي ـــ والأمريكية أيضا على دق الأسفين اليهود وكيانه الصنيع في قلب العالم الإسلامي على أرض فلسطين.

ومن هنا ندرك أن قوى الشر هذه وعلى مر العصور لم يكن ليجد كيدها ودسائسها طريقا للمسلمين لو تمسك المسلمون بأمر الله تبارك وتعالى لهم في قوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ سورة الأنفال: ٦٠.. إنهم لو تمسكوا بأمره تعالى وأعدوا القوة الإسلامية الرادعة لما تجرأ الأعداء ولما أصبح أمر المسلمين هينا للدرجة التي يتحكم بها شرذمة اليهود الذين لا يتعدون في تعدادهم عجائز المسلمين في دولة من الدول

الإسلامية.. وإنهم لو تمسكوا بأمره تعالى وأعدوا القوة الإسلامية الرادعة لأجبروا الأعداء على الجنوح للسلام الذي يفرضه المسلمون من موقع القوة لا السلام الذي يقبلونه من موقع الضعف. يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل بعد آية الإعداد السابقة الذكر مباشرة ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾ سورة الأنفال: ٦١.

من هنا كان لابد من المواجهة الجزيئة، ومن أجل هذا كانت دعوة القرآن الكريم وأمر الله تبارك وتعالى بالاستعداد والإعداد للحرب لحماية الإسلام ودفع العدوان عن المسلمين ورفع الظلم عن المظلومين.. ومن هنا وجب علينا الحديث عن مفهوم الإعداد للحرب كما أمر الله تبارك وتعالى عباده به في الآية السالفة الذكر من سورة الأنفال، وسوف يكون حديثنا التالي حول إعداد الجند والقادة والأمة للحرب متضمنا بطبيعة الحال الإعداد الروحي والنفسي والمادي.

أولاً: إعداد الجند المجاهدين للحرب.. حين تحدثنا عن آداب الحرب في الإسلام، قلنا إنها تقع في شقين: شق يتعلق بآداب القيادة في الحرب، والشق الآخر يتعلق بآداب المحاربين (المجاهدين) في سبيل الله وفي إمرة هذه القيادة وتحت راية التوحيد الخالدة.

ثم قلنا إن من آداب الحرب فيما يتعلق بالجند:

١ ــ الإيمان بالهدف والغاية.

٢ ــ الطاعة في غير معصية.

٣ ــ الثبات عند اللقاء وعدم الفرار.

٤ ــ الشجاعة والصبر.

٥ ــ الإيثار وإنكار الذات.

٦ ــ ذكر الله وطلب النصر منه وترك التنازع.

٧ ــ الاستعداد الدائم روحيا وماديا للجهاد.

وما كانت هذه الآداب لتأتي ويتطبع بها المجاهدون لولا الحرص على الالتزام بأمر الله تعالى في الإعداد الشامل للحرب.. وما كان الإسلام لينتشر بالسرعة الهائلة التي شهدها عصر الإسلام الأول وعصر الفتوحات الإسلامية الرائعة، لو لم يحرص الخلفاء المسلمون وقادة الفتح الإسلامي على إعداد المجاهدين روحيا ونفسيا وماديا للحرب والجهاد في سبيله، ولو لم يتحل جند الإسلام بآداب الحرب السالفة الذكر وغيرها من الآداب التي لم نذكرها، وما أكثرها.

لقد أعد الجند المجاهد ليطيع، والطاعة هي ما تطلق عليه المصطلحات العسكرية الحديثة لفظ: الضبط العسكري، والذي يعني إطاعة الأوامر وتنفيذها دون تردد وعن طيب خاطر وبحرص وأمانة وإخلاص.. وإذا نظرنا للطاعة (الضبط) في عرف القادة المسلمين وجنودهم في صدر الإسلام، لوجدنا أنه يعني الالتزام بما جاء في القرآن والسنة ثم طاعة أولي الأمر فيما لا معصية فيه لأمر القرآن والسنة.

ولقد وردت مادة «يطيع» في القرآن الكريم في تسع وعشرين آية من آيات الذكر الحكيم كقوله تعالى ﴿**يٰأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنٰزعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾ سورة النساء: ٥٩.

لقد أعد الجندي المجاهد ليؤمن بالهدف والغاية، ووحدة الهدف والإيمان به مبدأ من مبادىء الحرب الحديثة كما قلنا، وهو يعني أن يكون للحرب هدف وغاية لا يحيد عنها الفرد ولا تحيد عنها القيادة، ولابد من السعي لتحقيقها مهما كان الثمن ومهما بلغت التضحية، ولابد من أن تستمر الحرب حتى يتحقق الهدف إن عاجلا أم آجلا.. وإذا نظرنا للإيمان بالهدف والغاية ووحدة هذا الهدف في عرف القادة المسلمين وجنودهم في صدر الإسلام، لوجدنا أنه واحد لا محيد عنه ولا يعد مجاهدا من يحيد عنه ولو قيد أنملة وهو المتمثل في نصرة دين الله وإعلاء كلمته وجعل الإسلام هو المهيمن على كل ما سواه.

ولقد أعد الجندي المجاهد ليثبت عند اللقاء دون أن يتراجع إلا بما حدده الله تبارك وتعالى في قوله الحق ﴿**يٰأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير**﴾ سورة الأنفال: ١٥ ــ ١٦.. ولكي لا يولي المجاهد المسلم ولا يفر، فقد أعد ليكون شجاعا والشجاعة ضد الجبن، والجبن والإسلام خصمان لا يلتقيان.. ولكي لا يجبن المجاهد المسلم ولا يخاف، فقد أعد ليكون صبورا والصبر صفة تلازم المسلم في كل أمر يلم به في حياته، والصبر زاد المسلم ومعينه على الشدائد والتغلب على الصعاب.. ولقد أدرك المسلمون الأوائل أن التولي يوم الزحف كبيرة من الكبائر، وأن الصبر زاد المسلم، وأن الشجاعة والصبر يمثلان مفتاح النصر في الحروب، ثم بادروا إلى التحلي بهذه وتلك وعدم التولي الذي نهى الله تبارك وتعالى عنه وجعله صفة من صفات الكفار والمنافقين في قوله تعالى في محكم التنزيل ﴿**ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا**

الأدبٰار ولا يجدون وليا ولا نصيرا﴾ سورة الفتح: ٢٢، وقوله أيضا **﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتٰب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكٰذبون، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبٰر ثم لا ينصرون﴾** سورة الحشر: ١١ ــ ١٢.. ولقد ورد ذكر الصبر الذي هو مفتاح الشجاعة والباعث على عدم التولي يوم الزحف في مائة وثلاثة مواضع من آيات الذكر الحكيم، ومنها قوله تبارك وتعالى **﴿والعصر، إن الانسٰن لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصٰلحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾** سورة العصر: ١ ــ ٣.

ولقد أعد الجندي المجاهد ليكون حذرا متيقظا، والحذر واليقظة لمنع المباغتة من قبل العدو في الزمان أو المكان الذي لا يتوقعه الجندي المسلم.. وهذا يعني الالتزام بقول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل **﴿يٰأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا﴾** سورة النساء: ٧١.. وهذا يعني الالتزام بأمر الله تبارك وتعالى بصلاة الخوف التي شرع الله تعالى لعباده في كتابه الكريم أن يصلوها بالصيغة التي تحرم العدو من تحقيق المباغتة على المسلمين وهم في صلاتهم وبعيدا عن سلاحهم، قال تعالى وقوله الحق **﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلٰوة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكٰفرين كانوا لكم عدوا مبينا، وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلٰوة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكٰفرين عذابا مهينا﴾** سورة النساء:١٠١ ــ ١٠٢.. ولإعداد الجندي المجاهد الحذر والمتيقظ بادر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وبعد سبعة أشهر فقط من هجرته إلى المدينة بإرسال ما عرف بالسرايا، وهي وحدات استطلاعية تهدف إلى تحقيق العديد من الأهداف التي سنبينها في حديث لاحق، ومن بين هذه الأهداف الحيلولة دون مباغتة قريش أو أي من أعداء المسلمين للمسلمين بحرب لم يحسبوا حسابها ولم يعدوا لها عدتها.. والمباغتة تلك التي أعد الجندي المجاهد ليأخذ حذره منها وليكن يقظا لمنع تمتع العدو بها، هي اليوم مبدأ من مبادىء الحرب الحديثة.

ولقد أعد الجند المجاهد ليؤثر الآخرين على نفسه وليكون منكرا لذاته، وهي صفات تؤهل أصحابها للظفر بنصر الله بإذنه تعالى، وهي صفات تحبب الجند ببعضهم البعض وتحفزهم على التكاتف ورص الصفوف في وجه الأعداء وهي صفات تمنع العدو من العمل من داخل الصفوف بما يسمى اليوم وسائل الحرب النفسية ووسائل الاستخبارات وجمع المعلومات، وهي صفات حين يتحلى بها الجندي المجاهد فإنما هو يتحلى بما تحلى به الرسول القائد صلى الله عليه وسلم والذي كان أعظم منكر للذات وأعظم مؤثر لأصحابه على نفسه حتى في رشفة الماء أو كسرة الخبز أو شق التمرة كما مر بنا من قبل في أيام حفر الخندق وغيرها من الأيام العصيبة التي مر بها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام عليهم رضوان الله أجمعين.

ولقد أعد الجندي المجاهد ليترك التنازع، وأعد أن يكون ذاكرا لله تبارك وتعالى على الدوام طالبا النصر منه مرتبطا في السراء والضراء بربه الكريم الذي بيده الخير وعنده النصر يسبغه على من يشاء من عباده. وحين يرتبط العبد بربه ويتذكر من خلال هذا الارتباط ما أعده الله له من نعيم حين يستشهد، وما وعده الله به من نصر في الدنيا، فإنه لن يأبه بما عدا ذلك من أمور دنيوية، كما لن يأبه على أي جنب كان في الله مقتله، وسوف يؤثر الموت في سبيل الله على كل ما في الدنيا من نعيم زائل وصائر إلى الفناء لا محالة.. ولقد مر بنا العديد من مواقف المسلمين الذين سعوا إلى الموت في سبيل الله وهم غير مبالين، مما تسبب في نشر الذعر في صفوف أعدائهم، إنهم في ظل هذا الإعداد فرسان بالنهار، رهبان بالليل بحق.

ولقد أعد الجندي المسلم إلى جانب كل هذا إعدادا روحيا وماديا للحرب، وهو الإعداد الذي قلنا وفي أكثر من موضع سابق: إنه لا ينفصل جانب منه عن الجانب الآخر. فالإعداد الروحي دون الأخذ بجوانب الإعداد المادي وتزويد المقاتلين بوسائل الحرب التي تتلاءم مع حروب العصر ومعاركه لن يكون ذا فائدة. كما أن الإعداد المادي ومهما بلغ، ومهما كانت نوعية السلاح وتطوره بيد المقاتل، لن يكون ذا فائدة إذا لم يكن هناك إعداد روحي للمقاتل الذي سوف يستخدم هذه القوة المادية.. إنها معادلة صعبة على الذين لا يدينون بالإسلام، ولكنها معادلة أدرك الإسلام أهميتها وحث أتباعه على الموازنة الأكيدة والراسخة بين القوة الروحية والمادية ليكون الجندي المجاهد قادرا على تحقيق الأهداف السامية التي رسمها الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين والتي ربط نصره لهم سبحانه وتعالى بسعيهم الأكيد لتحقيقها.

إن للإسلام نهجه الخاص والفريد في بناء الإنسان، وهذا النهج يستند إلى حقيقة مهمة تتمثل في أن جوهر الشخصية الإسلامية هو الإسلام التام لله سبحانه وتعالى وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالقضاء خيره وشره، والإيمان بأنه تبارك وتعالى هو المحيي والمميت وأنه الرازق والمنان، وأن كل شيء بأمره.. وبهذا تتحرر شخصية المسلم من العديد من مظاهر الرق والعبودية والتي تجثم على صدور غير المسلمين وتجعلهم يرزحون تحت نير العديد من مظاهرها.. وحين تتحرر شخصية المسلم من مظاهر الرق والعبودية لغير الله وحده، فإنها لابد أن تتحرر من عقدة الخوف من الموت، ولابد أن تتحرر من هم الرزق والبحث عنه، ولابد أن تتحرر من البحث عن الوظيفة والحرص عليها في سبيل إيجاد هذا الرزق، ولابد أن تتحرر من هم الخوف من الناس وجمعهم.. والحصيلة بعد هذا كله هي الشخصية الإسلامية الآمنة المطمئنة التي لا هم لها إلا رضا الله والفوز بالجنة التي وعد سبحانه وتعالى عباده المخلصين بها.

لقد أدرك القادة المسلمون في صدر الإسلام توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وسيرة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في بناء الشخصية الإسلامية المتميزة وعرفوا من خلال هذه التوجيهات والسيرة أن: الإنسان هو العنصر الحاسم في الحرب، وبادروا إلى التصرف من خلال ذلك في بناء المسلم المقاتل القوي روحيا ومعنويا ونفسيا وجسديا وماديا، فكانت الغلبة للمسلمين على أعدائهم.. فهل ندرك اليوم ما أدركه القادة المسلمون الأوائل ونبادر إلى بناء المقاتل المسلم القوي امتثالا لأمر الله تعالى ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**﴾ سورة الأنفال: ٦٠.. وهل ندرك اليوم ما أدركه القادة المسلمون الأوائل ونبادر إلى بناء القوة المتكاملة الجوانب والتي ترهب العدو وتجعله يجنح للسلام الذي نريده والنابع من قوتنا وليس السلام الذي يريده العدو والنابع من قوته هو وضعفنا نحن امتثالا لأوامر الله تعالى ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾ سورة الأنفال: ٦١. تلك بعض من جوانب الإعداد الروحي والنفسي والمعنوي والجسدي والمادي على مستوى الفرد في الإسلام والتي تطرقنا إلى بعض جوانبها في مواضع عديدة سابقة، وسوف نتبين أيضا بعضا من جوانبها عند حديثنا في الموضوع التالي وهو: مختصر الغزوات والعبر منها.

ثانيا: إعداد القادة للحرب: القيادة ظاهرة اجتماعية تتصل بطبيعة الإنسان وترتبط بجذوره العميقة في التاريخ.. ومبعث هذه الظاهرة هو ضرورة وجود المنظم للعلاقات القائمة بين أفراد الجماعة (أكثر من اثنين)، ودور كل فرد (عضو الجماعة) في خدمة الآخرين وتحقيق أهداف الجماعة.. وهذا القول يقودنا للحديث عن الإدارة التي هي الأخرى ظاهرة اجتماعية مارسها الإنسان منذ أن خلق ومنذ أن وجدت الخلية البشرية الأولى كما بينت في مؤلفاتي عن الإدارة. والقيادة كظاهرة اجتماعية ترتبط بالإدارة كظاهرة وضرورة اجتماعية وتنبثق منها إذ لابد للإدارة من قيادة، وعليه فالإدارة أقدم وأعم وأشمل من القيادة.

ولقد أدرك الرسول القائد صلى الله عليه وسلم دور القيادة كظاهرة وضرورة اجتماعية فجعلها شريعة تلتزم بها أمته من بعده، فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم) متفق عليه.. كما أوجب على المرؤوسين طاعة القائد مالم يأمر بمعصية، فقال صلى الله عليه وسلم: (اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي) متفق عليه، وقال أيضا: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله. ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني) متفق عليه. وبهذا ربط الرسول القائد صلى الله عليه وسلم طاعة المرؤوسين للرئيس (القائد) بطاعة هذا المرؤوس لله ورسوله، وذلك التزاما بقول الحق تبارك وتعالى من قبل ذلك ﴿**يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنٰزعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾ سورة النساء: ٥٩.

وفلسفة الطاعة التي أوجبها الله في كتابه الكريم وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم تنبعث من كون القيادة ضرورة اجتماعية لمصلحة الجماعة، وعليه فهي لا تعني الخنوع والخضوع لأي من مظاهر الاستبداد والتحكم، وإنما تستند إلى كون القيادة وسيلة تحقيق الأهداف التي تسعى القيادة لتحقيقها (أهداف التنظيم) والتي لا يمكن تحقيقها دون وجود القيادة الفاعلة والقادرة على السير بالتنظيم نحو تحقيق الأهداف المرحلية والنهائية للتنظيم.. هذه الأهداف التي لا يمكن للقيادة تحقيقها دون الطاعة الداعية والمتيقظة من قبل المرؤوسين فيما لا معصية فيه ولا مخالفة لأمر صريح من الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة رضوان الله عليهم.

إن القيادة هي إحدى وظائف الإدارة ومكون من مكونات العملية الإدارية المعقدة

والتي هي عبارة عن دورة متكاملة من النشاط الذي يتميز بالديناميكية اللامتناهية.. والقيادة هي: المعبر عن العنصر البشري الذي يتولى قيادة المنظمة (الجماعة) وإيجاد الترابط بين وحداتها وأعضائها من خلال أداء العديد من الوظائف القيادية كالتوجيه والإشراف والتنسيق والاتصالات والرقابة.. والقيادة هي: القدرة المتوفرة لدى الشخص «القائد» والدافعة للآخرين على تنفيذ أوامره بعيدا عن أي أثر للسلطة وما يترتب عليها من إكراه[٣٧].. ولكي تؤدي القيادة دورها في تحقيق أهداف الجماعة لابد من توفير شرطين مهمين فيمن يتولى قيادة الجماعة (المنظمة): أولهما الكفاءة القيادية، وذلك من خلال توفر العديد من الصفات القيادة الموروثة والمكتسبة والتي تمنحه القدرة على التأثير على سلوك الآخرين.. وثانيهما تمتعه بحب مرؤوسيه من خلال صفاته القيادية وقدرته على التأثير في سلوكهم.. ولهذا نقول في تعريف القيادة إنها القدرة على دفع الآخرين لتنفيذ الأوامر بعيدا عن أي أثر للسلطة وما يرافقها من إكراه ذلك بعض من نتائج الفكر الإداري المعاصر، والذي هو من بديهيات ما جاء في الفكر الإداري الإسلامي الذي ساد الدولة الإسلامية في عهد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين من بعده وما تلا ذلك من فترات إثراء للفكر الإسلامي في كافة مناحي المعرفة.. ولننظر إلى بعض مما جاء في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد.

١ ـــ جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله تعالى عنه، قال: قلت يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: (يا أباذر! إنك ضعيف. وإنها أمانة. وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها).

٢ ـــ وجاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته).

---

(٣٧) الرائد محمد مهنا العلي : الوجيز في الإدارة العامة (جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤)، ص ٧٠.

٣ ــ وجاء في صحيح مسلم عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وأشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم).

لقد حاول علماء الإدارة في العصر الحديث تصنيف الصفات الواجب توافرها في الإنسان ليكون قائدا، وقاموا من أجل ذلك بالعديد من الدراسات والأبحاث بقصد حصر هذه الصفات وتعميمها لتصبح معيارا يسهل بموجبه اختيار القادة من بين من يتمتعون بأغلب هذه الصفات. من بين هذه المحاولات ما قام به «تشارلزبرد» عام ١٩٤٠م من جمع للصفات القيادية لدى العديد من القادة الذين أخضعهم لدراسته، وقد توصل إلى أن كل قائمة تختلف عن الأخرى، وعليه أدرك أن هذه الصفات لا يمكن تعميمها[٣٨].

ولقد توصلت العديد من هذه الدراسات إلى العديد من الصفات القيادية الموروثة والمكتسبة ومنها:

١ ــ قوة الشخصية.

٢ ــ الحماسة.

٣ ــ القدرة على التأثير.

٤ ــ حسن المظهر.

٥ ــ اليقظة.

٦ ــ الثقة.

٧ ــ قوة التحمل.

٨ ــ المبادأة.

٩ ــ الذكاء.

١٠ ــ الحكمة.

١١ ــ الحسم.

١٢ ــ الشجاعة.

١٣ ــ العدل.

١٤ ــ النزاهة.

---

(٣٨) المرجع السابق، ص ١٧٨.

١٥ ـ الولاء.
١٦ ـ اللباقة.
١٧ ـ إنكار الذات.
١٨ ـ الروح المرحة.
١٩ ـ القدرة على التعبير والخطابة.
٢٠ ـ المشاركة الوجدانية للمرؤوسين.
٢١ ـ التواضع.
٢٢ ـ الكفاءة العلمية.
٢٣ ـ الإخلاص.
٢٤ ـ المظهر.
٢٥ ـ الاعتماد على النفس.

تلك بعض الصفات التي تعرف عليها المفكرون الإداريون في العصر الحديث، وهي الصفات التي تحلى بها وبغيرها قادة المسلمين وخلفاؤهم في صدر الإسلام والذين كان لهم في الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيث كان في شخصه وسلوكه وسيرته موطن لهذه الصفات وغيرها من الصفات القيادية التي لا يمكن أن تجتمع في شخص قيادي واحد. ولقد عدد اللواء الركن محمد جمال الدين علي محفوظ على ضوء الصفات القيادية العديد من صفات المصطفى صلى الله عليه وسلم على النحو التالي:[٣٩].

١ ـ كمال الأخلاق.
٢ ـ كمال العقل.
٣ ـ احترام النفس والتواضع.
٤ ـ الصبر وقوة الاحتمال والثبات على المبدأ.
٥ ـ الوفاء.
٦ ـ الشجاعة والنجدة.
٧ ـ اللياقة البدنية.
٨ ـ حسن العشرة.

(٣٩) اللواء الركن: محمد جمال الدين محفوظ: النظرية الإسلامية في القيادة الحربية (القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٨١)، ص ٢٨.

٩ ـ الثقة المتبادلة.
١٠ ـ المحبة المتبادلة.
١١ ـ روح الدعابة.
١٢ ـ التوازن النفسي.
١٣ ـ بعد النظر.
١٤ ـ الشخصية.
١٥ ـ القدوة الحسنة.

إن إعداد القادة للحرب يعد من الأمور المهمة التي توليها الدول والجيوش جل اهتمامها، وذلك من منطلق أن هدف القيادة دائما هو الحصول على النصر في الحرب بدون أو بأقل قدر من الخسائر في الأرواح والمعدات وفي أقل وقت ممكن. وهذا لن يتسنى دون وجود القائد المعلم والذي يؤمن برسالته ويدرك مسئولياته ويحرص على إعداد مرؤوسيه للحرب وتحقيق الأهداف من جهة، وإعداد فئة من المرؤوسين لتولي مهام القيادة في الوقت المناسب.

وحين نمعن النظر في شخصية الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من خلال صفاته القيادية العديدة نجد أنه القائد المعلم وصاحب المدرسة الإسلامية العظيمة في القيادة، فقد أوجد القادة المعلمين الذين حملوا لواء الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها كما أرسى ومن بعده القادة المعلمون أسس النظرية الإسلامية في إعداد القادة والتي منها[٤٠]:

الأساس الأول: اكتساب القائد لصفات المقاتل.
الأساس الثاني: التحلي بصفات القيادة.
الأساس الثالث: المشاركة في التخطيط للمعارك (الشورى).
الأساس الرابع: تولي قيادة بعض مهام القتال المحدودة.
الأساس الخامس: قيادة وحدات الجيش تحت القيادة العليا للرسول القائد صلى الله عليه وسلم.
الأساس السادس: تولي مركز القائد الثاني في المعركة.
الأساس السابع: تولي القيادة الكاملة المستقلة للمعارك الكبيرة.

---

(٤٠) اللواء الركن/ محمد جمال الدين محفوظ: النظرية الإسلامية في بناء المقاتل وإعداد القادة (القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٧٧)، ص ٥٣.

الأساس الثامن: رعاية الموهوبين والاشادة بكفاءتهم.

واهتمام الرسول القائد صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين من بعده ثم خلفاء الدولتين: الأموية والعباسية بإعداد القادة للحرب وفق ما تمليه شريعة الإسلام وتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، هو الأساس الأول في وجود القادة الذين تحلوا بصفات القيادة والذين تأدبوا بآداب الحرب التي تحدثنا عنها من قبل وهي:

١ ـــ مخافة الله.

٢ ـــ العمل بما أوجبه الله من شورى.

٣ ـــ الرفق بالمرؤوسين.

٤ ـــ الالتزام بتعاليم الحرب من الكتاب والسنة.

وهذا وذاك هو ما أوجد القادة الفاتحين الذين يستحقون أن يطلق عليهم لفظ «القادة» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان عظيمة وصادقة. فهم القادة الذين لم يحملوا رتبا يعلو بها البعض فوق البعض الآخر أو يستبدون بموجبها وما تخوله لهم من سلطة وصلاحيات وهم القادة الذين لم يتحملوا مسئوليات القيادة ويحوزوا على السلطة والصلاحية بموجب فارق سني خدمتهم عن الآخرين.. وإنما هم القادة الذين أهلتهم صفاتهم القيادية لتحمل المسئوليات وامتلاك السلطة والصلاحية. وهم القادة الذين تأدبوا بأدب القرآن ونهلوا العلم من مناهله العظيمة وفي مدرسة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لإعداد القادة الذين شهد الأعداء بعظمتهم قبل الأصدقاء. وهم القادة الذين ينتمون بهذا إلى نمط: القيادة الإقناعية حيث تصنف أنماط القيادة اليوم إلى: نمط القيادة الإرغامية ـــ الدكتاتورية والديمقراطية كما يطلق عليها اليوم. وهم القادة الذين حددوا مبادىء القيادة من قبل أن يتعرف عليها القادة والمفكرون العسكريون في عصرنا الحديث، ومن بين هذه المبادى(٤١).

١ ـــ معرفة القائد لعمله.

٢ ـــ معرفة القائد لنفسه.

---

(٤١) اللواء الركن : محمد جمال الدين محفوظ : النظرية الإسلامية في القيادة الحربية، مرجع سابق، ص ٦٥.

٣ ــ معرفة القائد برجاله.
٤ ــ رعاية القائد لشئون جنده وحسن معاملتهم.
٥ ــ المحافظة على أرواح الجند.
٦ ــ توضيح الأهداف للجند ومداومة إعلامهم.
٧ ــ اتخاذ القرارات السليمة والحاسمة.
٨ ــ تحمل المسئولية وتنميتها لدى المرؤوسين.

ثالثا: إعداد الأمة للحرب.. ليس الجند والقادة إلا شريحة من الأمة التي لابد أن تعد للحرب لتتقبل فكرة الحرب من جهة ولتدعم جهود المقاتلين في ميادين القتال من جهة أخرى، وعليه فاعداد الأمة للحرب أعم وأشمل من إعداد القادة والجند المجاهدين. وإعداد الأمة لابد أن يكون هو الآخر إعدادا روحيا ونفسيا وماديا للحرب.

واصطلاح إعداد الأمة للحرب حديث العهد كما بينا حيث كانت الحروب قاصرة على تصارع الجيوش في ميادين القتال. أما اليوم فالحرب تعني التأثير في مقدرات الأمة ومكوناتها بصورة شاملة، إذ لابد من إعداد الجيوش وتزويد وحداتها المقاتلة بالمعدات والوسائل القتالية اللازمة. وهذا يعني التأثير على تركيبة مجتمع الأمة الذي ينتمي إليه أفراد هذه الجيوش، كما يعني التأثير على اقتصاد الدولة الذي لابد أن يوفر المعدات ووسائل القتال. والحرب كما قلنا هي استمرار للسياسة في ظل النظم الوضعية السائدة اليوم، وهذا يعني تسخير السياسة وأجهزتها المتعددة في الدولة لخدمة الحرب. والحرب اليوم تعتمد على التقنية وما تفرزه من آلات للحرب، وهذا يعني التأثير والتأثر بالتقدم العلمي الذي وصلت إليه الأمة.. إذن فإن إعداد الأمة للحرب لم يعد مقتصرا على تجهيز الجيوش، وإنما هو الإعداد الشامل وعلى كافة الأصعدة السياسي منها والاقتصادي والاجتماعي والعلمي.. من هنا ظهر أيضا في العصر الحديث ما يطلق عليه: الجبهة الداخلية والتي تعني الأمة بأسرها، إلى جانب الجبهة الخارجية والتي تعني القوات العسكرية في مسارح العمليات ومناطق القتال.

هذا عن إعداد الأمة في مفهومه المعاصر، وهو الإعداد الذي عرفته الدولة الإسلامية وأمة محمد صلى الله عليه وسلم قبل ذلك بقرون عديدة. فالإعداد للحرب في إطار العقيدة العسكرية الإسلامية يمتد ليشمل الأمة الإسلامية بأسرها، وقد قلنا من قبل إن الجهاد هو جوهر العقيدة الإسلامية، والجهاد لا يقتصر كما بينا على شريحة معينة من أبناء الأمة وهو

ما يطلق عليهم اليوم الجيوش، كما لايقتصر على القتال بصورته المباشرة. وإنما هو أمر من الله تبارك وتعالى لكل من آمن بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا وبالإسلام دينا، وهو واجب على كل مسلم قادر على حمل السلاح، والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأمين المال اللازم لشراء السلاح ودابة الركوب للمجاهد والقيام على زوجه وأولاده في غيابه عنهم للجهاد في سبيل الله. ومن هنا فهو أمر للأمة الإسلامية بأسرها ــ ارجع إلى ما ذكرناه حين تحدثنا عن حقيقة الجهاد وطبيعته وفضله وأحكامه لتتضح لك الصورة إذ لا مجال لتكرار ما ذكرناه من قبل. إن أمر الله تبارك وتعالى في قوله الحق في محكم التنزيل **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾** سورة الأنفال: ٦٠، يرينا بوضوح أنه أمر للأمة الإسلامية بأسرها وليس مقتصرا على فئة معينة من الأمة (ما يطلق عليهم الجيوش في عصرنا الحديث)، كما أنه أمر لا يقتصر على فترة معينة من الزمن، وإنما هو أمر شامل للأمة بأسرها، ودائم ما دام في الدنيا من لا يدين بدين الإسلام. ويذكر اللواء الركن محمد جمال الدين مجفوظ أسس النظرية الإسلامية في إعداد الأمة للحرب على النحو التالي[٤٢]:

١ ــ وحدة الأمة وتماسك الجبهة الداخلية الإسلامية.

٢ ــ قوة معنويات الأمة الإسلامية وإرادتها القتالية.

٣ ــ الأمن ومقاومة الحرب النفسية والجاسوسية.

٤ ــ الدفاع الشعبي وحراسة المنشآت الحيوية.

٥ ــ الإعلام والتوعية والنشاط السياسي والدبلوماسي.

وقد تعرضنا للعديد من جوانب إعداد الأمة للحرب في أحاديثنا السابقة، وسوف نرى بعضا من هذه الجوانب في حديثنا التالي عن مختصر غزوات الرسول القائد صلى الله عليه وسلم والعبر والدروس المستفادة منها بإذن الله.

---

(٤٢) اللواء الركن محمد جمال الدين علي محفوظ: النظرية الإسلامية في إعداد الأمة للحرب (القاهرة: دار الاعتصام، ١٩٧٧)، ص ٢٧.

الفصل الثالث: مختصر الغزوات والعبر منها

- السرايا والغزوات قبل بدر.
- الدروس المستفادة والعبر.
- السرايا من بعد بدر.
- غزوة بدر كحد فاصل وما تلاها.
- الدروس المستفادة والعبر.

السرايا والغزوات قبل بدر

يقول الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾** سورة الأحزاب: ٢١.. وعليه فسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم هي الضياء والنور الذي يجب أن يهتدي به المسلم في سيره، وهي القيم والآداب التي يجب أن يتأدب بها المسلم في حياته.. وفي سيرته صلى الله عليه وسلم العديد من المغازي والحروب التي قادها بنفسه إما لرد العدوان عن دولة الإسلام الناشئة في المدينة، وإما لردع الباغين وقمع فتنتهم قبل أن تظهر وكسر شوكتهم قبل أن تقوى.. وفي هذه الحروب والمغازي العديد من العبر التي لابد أن يسترشد بها العسكريون من أتباعه صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين.

لقد أمضى صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة وهو يدعو قومه ووفود الحجاج إلى البيت العتيق من قبائل العرب وكذلك القبائل العربية حول مكة. وكان صلى الله عليه وسلم يربي الأتباع على الصبر ومكارم الأخلاق ويعدهم لما ينتظرهم من مجد وسؤدد. وكان صلى الله عليه وسلم يرد عليهم حين يشكون ما يلقونه من أذى وتعنت وجبروت قريش: (إنني لم أؤمر بقتال).. ولنا معشر المسلمين في كل ذلك العبر العديدة التي أرى أن المسلمين اليوم في كل مكان يلقون فيه العذاب، في أمس الحاجة لإدراك العبر هذه والتصرف على ضوئها والاهتداء بهداها.

ثم هاجر إلى المدينة حيث وصلها صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول من عام الهجرة، وفي طريق هجرته صلى الله عليه وسلم نزل قول الحق تبارك وتعالى **﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور، أذن للذين يقٰتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديٰرهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوٰت ومسٰجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوٰة وآتوا الزكوٰة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عٰقبة الأمور، وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحٰب مدين وكُذِّبَ**

موسى فأمليت للكـٰفرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير، فكأين من قرية أهلكنٰها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد، أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصٰار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ سورة الحج: ٣٨ ـ ٤٦.. وعليه باشر الاستعداد للقتال فور وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين، وكانت موادعة اليهود في المدينة المنورة وحولها وهو العليم صلى الله عليه وسلم بخبثهم وكيدهم للمسلمين اليوم وللأنبياء منهم من قبل، وذلك بما قصه الله تبارك وتعالى عليه من قصصهم وبما وصفهم من صفات الذلة والغدر والخبث والكيد. وما موادعتهم تلك إلا ليعطيهم صلى الله عليه وسلم الفرصة للتوبة والانتهاء عن كل عمل دنيء، ولكي يتفرغ لرد عدوان قريش ومن دار في فلكها من قبائل العرب المتحالفة معها.

لم تدرك قريش الهدف العظيم من وراء انتقال مركز الدعوة المحمدية من مكة إلى المدينة، فاستمرت في غيها وتعنتها ولم تبادر إلى التفاهم مع المسلمين لتصل معهم إلى سلام تترك قريش بموجبه الدعوة تشق طريقها وترفع عن كاهل الناس سيف التجبر وحب الهيمنة: فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، لا سيما وأن الله تبارك وتعالى لم يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ومن آمن بدعوته بإرغام الناس على الدخول في الدين بل قرر لهم: أن لا إكراه في الدين.. ومن هنا أدرك المصطفى صلى الله عليه وسلم أن الصدام آت لا محالة، وأن قريشا هي السد المنيع للشرك فإن تحطم هذا السد دخل الناس من بقية القبائل في دين الله أفواجا.. وعليه كان الاستعداد للقتال، وهذا أمر حتمي لعدة أمور منها:

١ ـ فالصدام أمر حتمي بين مجتمع الطبقية السائد، ومجتمع المساواة الذي يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم.

٢ ـ والصدام أمر حتمي بين مجتمع يدين بالعبودية لأرباب عديدة من دون الله، ومجتمع يدعو إلى عبودية الواحد الأحد.

٣ ـ والصدام أمر حتمي بين مجتمع يدين بعادات وتقاليد ومعتقدات وثنية موروثة، ومجتمع يدعو إلى عادات وتقاليد ومعتقدات تحملها مبادىء الإسلام ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم.

٤ ـ والصدام أمر حتمي بين مجتمع منحل وحياة ترف ومجون، ومجتمع يذكر بالبعث والحساب والعقاب وبالجنة والنار بعد البعث والحساب.

٥ ــ والصدام أمر حتمي بين مجتمع يسوده أصحاب المال والسلطان والجاه، ومجتمع يسوده دين الحق وشريعة الله ونبي فقير اختاره الله واصطفاه ليكون رسولا إلى خلقه أجمعين.

٦ ــ والصدام أمر حتمي بين مجتمع لا يحرم الخبائث ولا يرتدع عن الكبائر، ومجتمع منضبط يرعى حدود الله ويأتمر بأمره فيأتي ما أمر الله به ويجتنب ما نهى عنه.

٧ ــ والصدام أمر حتمي بين مجتمع يأبى الصلاح ويريد الحفاظ على كل منكر موروث، ومجتمع يدعو إلى الصلاح ونبذ كل منكر موروث عن حقب الضلال والطغيان والبعد عن الله.

لقد أدرك المصطفى صلى الله عليه وسلم أن الحرب آتية لا محالة، فكان الاستعداد لها امتثالا لأمر الله تبارك وتعالى حين قال ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾ سورة الأنفال: ٦٠ ــ ٦١.

لذلك فقد كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين.. وكانت المعاهدة مع اليهود في المدينة.. وكان الاستعداد والإعداد الروحي والنفسي والمادي ليوم الصدام.. وكان الاستعداد لرفع الكفاءة القتالية عند المسلمين.. وكان الاستعداد لتأمين الجبهة الداخلية في هذا وذاك. لقد كان وصول المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة في ربيع الأول، وبعد سبعة أشهر من وصوله واستقراره وتأمين الجبهة الداخلية والاستعداد والإعداد للقتال بادر إلى عملية تأمين المدينة المنورة من كل الجهات حيث كان يحيط بها الأعداء من كل جانب، وكانت ضرورة الحماية تلك تستلزم بعث دوريات الاستطلاع والقتال ووحدات الإغارة لتمتد الحماية إلى مدى بعيد تأمن في ظله المدينة من مفاجأة الأعداء لها ويطمئن المسلمون بموجبها من المباغتة والأخذ على حين غرة ويسد بموجبها على اليهود كل المنافذ والطرق التي يمكن أن يسلكوها للاتصال بالقبائل المعادية والمحيطة بالمدينة المنورة.. وهكذا كانت السرايا التي بعث بها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم والتي رأى بفكره العسكري المتألق أنها تحقق هذه الأهداف وغيرها من الأهداف التكتيكية والاستراتيجية. ومن بين هذه السرايا التي انطلقت أولاها بعد سبعة أشهر من هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة مايلي:

١ ــ سرية حمزة بن عبد المطلب.. وهي أول سرية في الإسلام، خرج فيها حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه في رمضان من السنة الأولى للهجرة على رأس ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض طريق قافلة تجارية لقريش قادمة بقيادة أبي جهل من الشام إلى مكة وفيها ثلثمائة رجل من قريش وحلفائها. وقد التقى الجمعان في منطقة «العيص» على ساحل البحر الأحمر، إلا أن مجدي بن عمرو الجهني حجز بينهما حيث كان حليفا للطرفين ولم يقع فيها قتال.

٢ ــ سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.. خرج فيها عبيدة بن الحارث رضي الله تعالى عنه في شهر شوال من السنة الأولى للهجرة ــ لاحظ أنها بعد شهر من سرية حمزة ــ على رأس ستين رجلا من المهاجرين ليعترض طريق قافلة تجارية لقريش قيل إنها بقيادة أبي سفيان بن حرب وقيل إنها بقيادة عكرمة بن أبي جهل بن هشام وفيها أكثر من مئتي راكب وراجل.. وقد التقى الجمعان عند ماء بوادي رابغ يقال له «أحياء» أسفل ثنية المرة، وقد وقع بينهم الرمي بالنبل ولكن لم يسلوا السيوف من أغمادها ولم يصطفوا للقتال. وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أول الرماة فكان صاحب أول سهم في الإسلام، وفي ذلك قال شعره:

ألا هل أتى رسول الله أني ... حميت صحابي بصدور نبلي
أذود بها أوائلهم ذيادا ... بكل حزونة وبكل سهل
فما يعتد رام في عدو ... بسهم يا رسول الله قبلي
وذلك أن دينك دين صدق ... وذو حق أتيت به وعدل

٣ ــ سرية سعد بن أبي وقاص.. خرج فيها سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه في شهر ذي القعدة من السنة الأولى للهجرة ــ لاحظ أنها بعد شهر من سرية عبيدة بن الحارث ــ على رأس عشرين رجلا من المهاجرين ليعترض طريق قافلة لقريش. ولم يلتقِ سعد ومن معه بالقافلة في «الخرار» وهو المكان الذي كان مقررا أن يلتقوا فيه بالقافلة حيث مرت به عير قريش قبل وصول المسلمين بيوم واحد.. وسرية سعد هذه هي آخر سرايا السنة الأولى للهجرة.. كما أنها السرايا التي يؤمر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخرج في أي منها، حيث تبعتها في التسلسل الزمني غزوة الأبواء «ودان» كما سنرى في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم.

٤ ـ سرية عبد الله بن جحش.. وهي السرية ذات الأهمية البالغة إذ كانت عبارة عن نقطة تحول في سياسة الإسلام حيث شرع فيها للمسلمين أن يقاتلوا الذين فتنوهم عن دينهم حيث نزل قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطٰعوا ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمٰلهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون**﴾ سورة البقرة: ٢١٧.. وهي ذات أهمية بالغة إذ بدأت قريش تولي قوافلها من مكة وإليها اهتماما بالغا في أمور الحراسة والحيطة والحذر. وقصة هذه السرية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يبعث سرية للاستطلاع وتقفي أخبار قريش، ووقع اختياره على أبي عبيدة عامر بن الجراح ولكن أبي عبيدة حزن لمفارقة الرسول صلى الله عليه وسلم. فقرر الرسول صلى الله عليه وسلم تكليف عبد الله بن جحش الأسدي وانتدب معه ثمانية من المهاجرين هم: سعد بن أبي وقاص، وخالد ابن البكير، وأبو حذيفة بن عتبة، وعتبة بن غزوان وسهيل بن بيضاء، وعكاشة بن محصن، وواقد بن عبد الله، وعامر بن ربيعة وعند لحظة انطلاق عبد الله بن جحش سلمه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم كتابا مقفلا وحدد له اتجاه المسير وطلب منه أن لا ينظر في الكتاب إلى بعد مسير يومين من المدينة باتجاه الهدف، ثم طلب منه أيضا أن لا يستكره أحدا على تنفيذ المهمة حتى ينظر في الكتاب ويخبر أصحابه بما فيه.

انطلق عبد الله بن جحش ومن معه من المهاجرين رضوان الله عنهم أجمعين حتى كان مسير يومين، ففتح الكتاب وإذا به أمر تحرك وأمر عمليات في آن واحد وفيه قول الرسول القائد صلى الله عليه وسلم: (إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل «نخلة» بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم).. عند ذلك اجتمع قائد العملية برجاله وأخبرهم بما جاء في الكتاب وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمره بأن لا يستكره أحدا منهم. فكان ردهم جميعا بالإيجاب والسمع والطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

استمرت السرية في طريقها حتى وصلت إلى «بحران» حيث ضاع بعير كان سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان يتعاقبان في الركوب عليه، فخرجا يبحثان عنه حتى عثرت عليهما قريش وساقتهما أسيرين إلى مكة. أما عبد الله بن جحش ومن بقي معه فقد التقوا بعير لقريش يقودها عمرو بن الحضرمي ومعه عثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان في «نخلة» وهي الموضع الذي حدده لهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في أمر التحرك وبالصدفة كان اللقاء هذا في آخر يوم من شهر رجب الذي يحرم فيه القتال.. وبعد تشاور قائد العملية (عبد الله بن جحش) مع رجاله قرروا المواجهة إذ لا مجال أمامهم لأنهم إذا تركوا القافلة فستكون بعد قليل في الأرض الحرام حيث لا يمكنهم النيل منها أو متابعتها.. وهكذا كانت المواجهة حيث قتل عمرو بن الحضرمي وأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وفر نوفل إلى مكة، ثم استولى عبد الله بن جحش ومن معه على العير وقادوها إلى المدينة.

وفي المدينة نزل قول الحق تبارك وتعالى في الإذن بما أقدموا عليه وكذلك في طريقة تقسيم الغنائم، كما تمت مبادلة أسرى المسلمين بالأسرى من قريش. وسرية عبد الله بن جحش تلك هي آخر السرايا قبل غزوة بدر، إذ تمت في رجب من السنة الثانية للهجرة وغزوة بدر في رمضان من العام نفسه.. وقبل هذه السرية كان هناك العديد من الغزوات التي قادها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، والتي لابد لنا من الحديث عنها الآن ومن خلال حديثنا عن السرايا، وذلك لارتباط أهدافها مع أهداف السرايا نفسها ولاشتراكها معها في الدروس المستفادة التي سنبينها بعد حديثنا عن هذه الغزوات، ثم نكمل حديثنا عن بقية السرايا وبعدها نتحدث عن بقية غزوات المصطفى صلى الله عليه وسلم.

لقد كان هناك بعض الغزوات التي قادها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم قبل غزوة بدر الكبرى، ومن بينها:

١ ــ غزوة الأبواء.. ويطلق عليها غزوة ودان، وهي أول غزوة يخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأتي في تسلسلها الزمني بعد سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه حيث خرجت سرية سعد كما قلنا في ذي القعدة من العام الأول للهجرة وخرج الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في غزوة الأبواء في شهر صفر من العام الثاني للهجرة.

خرج الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في جمع من المهاجرين في شهر صفر من العام الثاني للهجرة واستخلف على المدينة سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه، حتى وصل إلى «الأبواء» وهي قرية بين مكة والمدينة، قيل سميت بالأبواء لما كان بها من الوباء والمرض، وقيل سميت بهذا الاسم لتبوىء السيل فيها عند المطر لانخفاضها عما جاورها. وكان هدفه صلى الله عليه وسلم قافلة لقريش من مكة إلى الشام، إلا أنه لم يلحق بها حيث مرت القافلة بالأبواء قبل وصوله.. وفي هذه الغزوة وادع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بني ضمرة ـــ وهذا بيت القصيد، حيث كتب بينه وبين سيدهم مخشي بن عمرو الضمري كتابا ينص على أن لا يغزو الرسول صلى الله عليه وسلم بني ضمرة ولا يغزو بنو ضمرة المسلمين، كما ينص على أن لا يكثروا عليه صلى الله عليه وسلم ولا يعينوا عليه.

ثم عاد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك وقد غاب عن المدينة خمس عشرة ليلة فقط.

٢ ـــ غزوة بواط.. وقد تمت في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة حيث لم يمض على عودة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من غزوة ودان غير وقت قصير حتى علم من مصادر استخباراته النشطة أن قافلة لقريش في طريق عودتها من الشام إلى مكة، تشتمل على ألفين وخمسمائة بعير بأحمالها من الأغذية والبضائع، ويقودها أمية بن خلف ومعه مائة من قريش.

وعليه قرر المصطفى صلى الله عليه وسلم الخروج لاعتراض القافلة في منطقة بواط من بلدان قبيلة جهينة. فخرج في ربيع الأول في مائتين من المهاجرين، وقد استخلف على المدينة سعد بن معاذ وقيل السائب بن مظعون في رواية أخرى. وعند بلوغ الرسول صلى الله عليه وسلم منطقة الاعتراض «بواط» وجد أن القافلة قد مرت من المكان قبل وصوله، فعاد إلى المدينة.

٣ ـــ غزوة سفوان.. بعد عودة الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من غزوة بواط في ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة، علم أن كرز بن جابر الفهدي قد أغار على سرح المدينة المنورة في غياب الرسول صلى الله عليه وسلم فاستاق السرح وهرب به. فقرر الرسول صلى الله عليه وسلم اللحاق به فاستخلف على المدينة زيد بن حارثة وخرج من توه في آثار كرز بن جابر حتى بلغ سفوان قرب بدر ولم يلحق بكرز

وسلبه الذي سلبه من المسلمين، فعاد للمدينة.

٤ ــ غزوة العشيرة.. وقد تمت في جماد الأول من السنة الثانية للهجرة حيث تلقى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم معلومات استخبارية تفيد بأن قافلة لقريش في طريقها من مكة إلى بلاد الشام وعليها أبو سفيان ومعه تسعة وثلاثون رجلا. فقرر المصطفى صلى الله عليه وسلم اعتراضها في العشيرة، فخرج في جماد الأول ومعه مائة وخمسون رجلا من المهاجرين بعد أن استخلف على المدينة سلمة بن عبد الأسد.

وصل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إلى العشيرة فوجد أن القافلة قد مرت من المكان قبل وصوله بقليل، فعاد إلى المدينة وفي طريقه صالح بني مدلج مثلما صالح بني ضمرة في غزوة الأبواء ــ وهذا بيت القصيد.

ثم كانت سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه في رجب من العام نفسه كما مر بنا، ثم كانت غزوة بدر في السابع عشر من رمضان من العام الثاني للهجرة حيث كانت سرية عبد الله بن جحش آخر السرايا قبل بدر الكبرى.. وسوف ندون بعضا من السرايا بعد أن نورد بعضا من العبر والدروس المستفادة من السرايا والغزوات قبل بدر.

الدروس المستفادة والعبـر

١ ـــ يلاحظ أن هذه السرايا التي بعث بها الرسول القائـد صلى الله عليه وسلـم لـم تكـن بقيادة رجل واحد، وإنما كانت بقيادة رجال مختلفين: حمزة ثم عبيدة ثم سعـد ثـم عبد الله رضي الله تعالى عنهم أجمعين. كمـا يلاحـظ أنـه صلـى الله عليـه وسلـم لـم يستخلف على المدينة في غزواته رجـلا واحـدا، وإنمـا استخلـف رجـالا مختلفيـن: سعد بن عبادة ثم سعد بن معاذ وقيل السائب بن مظعون ثم زيد بن حارثة ثـم سلمـة ابن عبد الأسد رضوان الله تعالى عنهم أجمعين.

وفي هذا سعي منه صلى الله عليه وسلم إلى إيجاد الكفاءة والقدرة القياديـة والإداريـة في العديد من أصحابـه الذيـن سيقـودون البشريـة إلـى سعـادة الداريـن، دون تركيـز السلطة القيادية العسكرية والسياسية في رجل واحد أو رجلين فقط.. وهذا كما قلنـا من قبل من أسس النظريـة الإسلاميـة فـي إعـداد القـادة: رعايـة الموهوبيـن والإشادة بكفاءتهم.

٢ ـــ يلاحظ أن هذه السرايـا والغـزوات ـــ وهـي التـي تـمت قبـل غـزوة بـدر ـــ كـانت مقتصرة على المهاجرين. وفي هذا تحقيق أمرين مهمين هما:

أ ـــ التزام الرسول القائد صلى الله عليه وسلـم بكتابـه وعهـده مـع الأنصار فـي بيعـة العقبة والمتضمن أن يحمـي الأنصار الـرسول صلـى الله عليـه وسلـم ومـن معـه من المهاجرين في المدينة، ولـم تنص البيعة علـى القتـال مـع المهاجريـن خـارج المدينـة المنورة.. والتزامه صلى الله عليه وسلم هذا يعد من أسس النظرية الإسلامية في إعداد القادة: التحلي بصفات القائد، ومن صفات القائد كما قلنا الأمانـة والالتـزام والعـدل وما إلى ذلك.

ب ـــ إن المهاجرين رضي الله تعالى عنهم أجمعين يجهلون طبيعة المنطقة من حول المدينة المنورة من حيث المنـاخ والتضاريس والسكـان. وحـيث إن هـذه المناطـق ستكون مسارح للعمليـات المقبلـة مع قـريش وغيرهـا مـن قـوى الشر والوثنيـة فـي الجزيرة العربية، فلابـد والحـال هكـذا مـن أن يلـم هـؤلاء المهاجـرون بطبيعـة هـذه

المناطق إلماما جيدا يؤهلهم لإدارة العمليات المقبلة.. وهذا كما قلنا من قبل من صفات الرسول القائد القيادية: بعد النظر، وهذا أيضا من أسس النظرية الإسلامية في إعداد القادة: التحلي بصفات القائد وكذلك المشاركة في التخطيط للمعارك «الشورى».

٣ ــ كانت هذه السرايا والغزوات تهدف إلى إشعار قريش بما صار للإسلام من قوة ومنعة في المدينة المنورة، إلى الحد الذي أصبح في مقدور المسلمين تهديد قوافل قريش بين مكة والشام، وفي ذلك حرمان لها من القوة الاقتصادية التي كانت تتمتع بها بين قبائل الجزيرة العربية بين الشام واليمن: رحلات الشتاء والصيف.. وفي هذا إثبات للعديد من الصفات القيادية التي كان يتحلى بها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم كالمبادأة واليقظة وهكذا.

٤ ــ كانت هذه السرايا والغزوات تهدف إلى بث الرعب في قلوب اليهود في المدينة وردعهم عن التآمر على المسلمين في المدينة مع قبائل العرب. وقد تحقق ذلك إذ لم يجرؤ اليهود على الاتصال بقريش وغيرها من قبائل العرب إلا في السر وقد ترتب على اتصالاتهم تلك نتائج وخيمة على اليهود أنفسهم كما سنرى.

٥ ــ كانت هذه السرايا والغزوات تهدف إلى عقد التحالفات مع القبائل العربية بقصد تحييدها في الصراع القادم مع قريش. وقد تحقق ذلك كما رأينا حيث تحالف الرسول القائد صلى الله عليه وسلم مع بني ضمرة في غزوة الأبواء وكتب كتابه معهم، ثم تحالف صلى الله عليه وسلم مع بني مدلج في غزوة العشيرة وكتب كتابه معهم.. وفي ذلك أيضا تأمين لمنطقة المدينة ومن فيها من المسلمين : المهاجرين والأنصار من مباغتة الأعداء لهم وتحقيق الأعداء للمفاجأة.

٦ ــ كانت هذه السرايا والغزوات تهدف إلى تحقيق الأمن للمسلمين في المدينة حيث كانت في معظمها دوريات استطلاع بالمفهوم العسكري المعاصر.. وقد تحقق ذلك إذ انطلقت أول سرية كما رأينا بعد سبعة أشهر من وصول المصطفى صلى الله عليه وسلم ثم تتابعت بعد ذلك السرايا والغزوات بفاصل زمني قصير حتى كانت غزوة بدر في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة، وهي التي تمثل حدا فاصلا وتحولا مهما في الصراع بين المسلمين من جهة وقريش من جهة أخرى.

٧ ــ يلاحظ في هذه الغزوات تولي الرسول القائد صلى الله عليه وسلم قيادة بعض هذه

العمليات بنفسه وفي ذلك إرساء لواحد من الأسس التي تقوم عليها النظرية الإسلامية في إعداد القادة كما بينا وهي: تولي قيادة بعض مهام القتال المحدودة. كما أن في ذلك ترسيخا للعديد من الصفات القيادية: الشجاعة وإنكار الذات والمشاركة الوجدانية للمرؤوسين وهكذا.

٨ ــ يلاحظ من توالي هذه السرايا والغزوات وبفواصلها الزمنية القصيرة، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدرك بفكره العسكري المتألق أن بقاء المهاجرين في المدينة دون عمل سوف يفسد النفوس ويدفعها للاستسلام للخذلان والدعة والهدوء. فأراد أن يدفع بهذه الأعمال العسكرية المتكررة كل دوافع الفساد والاستسلام، وأن يجعل من مجتمع المدينة مجتمعا متيقظا وواعيا ومهيأ لتحمل الأعباء الثقيلة المقبلة.

٩ ــ يلاحظ من هذه السرايا والغزوات حرص الرسول القائد صلى الله عليه وسلم على سرية العمليات والتحركات والنوايا وذلك في سبيل أمن القوات. فسعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه يقول وهو يصف تحركه مع أفراد سريته: (..فخرجنا على أقدامنا، فكنا نكمن بالنهار، ونسير الليل، حتى صبحناها ــ يقصد الخراز ــ صبح خمس، فنجد العير قد مرت بالأمس، فانصرفنا إلى المدينة) وهذا أسلوب التحرك المعاصر في المناطق الصحراوية المكشوفة، وهذا أسلوب التحرك المعاصر في المناطق الصحراوية الحارة نهارا، وهذا أسلوب التحرك في المناطق القريبة من مواقع الأعداء ووسط دورياته وعيونه.

أما في سرية عبد الله بن جحش فقد علمنا أن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم قد اكتفى بتحديد اتجاه السير وترك تحديد المهمة ومعرفة القائد بها بعد يومين من مسيره وذلك في كتابه صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن جحش. وفي هذا ضمان لأمن العملية وسريتها إذ لو حدد لهم المهمة وهم في المدينة لأصبح من الممكن أن يصل خبرها إلى معسكر الأعداء فتفشل المهمة وتفشل السرية في أدائها.. إن الكتمان أمر حيوي ومهم لنجاح العمليات.

١٠ــ يلاحظ من أمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن جحش ألا يستكره أحدا من رجاله على تنفيذ المهمة الحرص على سلامة الرجال وأمنهم فهم عدة المعركة ودعامة النصر الرئيسية. وفي ذلك اشعار للمرؤوسين باهتمام القيادة

بأمرهم وهذا مبدأ من مبادىء القيادة الإسلامية التي أرسى نظريتها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم.

بعد أن بينا أهم العبر والدروس المستفادة من السرايا والغزوات قبل غزوة بدر الكبرى، وقبل الحديث عن بقية غزوات المصطفى صلى الله عليه وسلم، أود أن أذكر بعض السرايا التي توالت بعد بدر حتى السنة الحادية عشرة للهجرة في الموضوع التالي.

السرايا من بعد بدر

١ ـ سرية زيد بن حارثة الكلبي.. وقد خرج فيها زيد بن حارثةالكلبي رضي الله تعالى عنه على رأس مائة راكب من المسلمين بعد غزوة بدر بسبعة أشهر أي بعد غزوة حران، حيث علم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بقافلة لقريش على الطريق الشرقي من مكة إلى الشام وقد حولت قريش إليه قوافلها بدلا من الطريق الغربي بعد تزايد تهديد المسلمين للقوافل على هذه الطريق. وقد حدد لهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم موقع الاعتراض عند القردة في نجد، وقد غنم المسلمون القافلة التي كانت بقيادة صفوان بن أمية.

٢ ـ سرية أبي سلمة بن عبد الأسد.. وقد خرج فيها أبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله تعالى عنه على رأس مائة وخمسين رجلا من المسلمين في شهر ذي الحجة من السنة الثالثة للهجرة ـ أي بعد غزوة أحد ـ حيث علم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بنوايا بني أسد العدوانية خصوصا بعد هزيمة المسلمين في أحد. وقد فر بنو أسد عندما علموا بسرية أبي سلمة.

٣ ـ سرية عبد الله بن أنيس.. وقد خرج فيها عبد الله بن أنيس وحيدا لقتل المتمردين من هذيل. وقد نتج عن اللقاء في نخلة ـ بين مكة والطائف ـ قتل خالد بن سفيان الهذلي وهو رئيس هذيل وانتهاء فتنته وذلك بعد غزوة أحد بفترة قصيرة.

٤ ـ سرية عبد الله بن عتيك.. على رأس خمسة من المسلمين للحاق باليهودي أبي رافع ابن أبي الحقيق الذي فر إلى خيبر. وقد عادت السرية بعد مقتل اليهودي الفار في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة.

٥ ـ سرية عكاشة بن محصن الأسدي.. على رأس أربعين من المسلمين حيث قصدت السرية الغمر في ديار بني أسد. وقد فر بنو أسد وغنم المسلمون منهم مائتي بعير في ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة.

٦ ـ سرية محمد بن مسلمة.. في ربيع الآخر من السنة السادسة للهجرة، حيث خرج محمد بن مسلمة رضي الله تعالى عنه على رأس عشرة رجال من المسلمين إلى ذي

القصة في ديار بني ثعلبة وبني عوال الذين فروا وغنمهم المسلمين.

٧ ــ سرية أبي عبيدة عامر بن الجراح.. في ربيع الآخر أيضا من السنة السادسة للهجرة، حيث خرج أبو عبيدة عامر بن الجراح على رأس أربعين رجلا من المسلمين إلى ذي القصة أيضا لغزو بني محارب الذين فروا وغنمهم المسلمون.

٨ ــ سرية زيد بن حارثة الكلبي.. في ربيع الآخر أيضا من السنة السادسة للهجرة، حيث خرج زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه ومن معه لغزو بني سليم في الجموم حيث فروا وغنمهم المسلمون.

٩ ــ سرية زيد بن حارثة الكلبي.. في جماد الأولى من السنة السادسة للهجرة، حيث خرج زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه ومن معه لاعتراض قافلة لقريش في العيص حيث غنم المسلمون القافلة وأسروا حراسها.

١٠- سرية زيد بن حارثة الكلبي.. في جماد الآخرة من السنة السادسة للهجرة، حيث هاجم زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه ومعه خمسة عشر من المسلمين بني ثعلبة في الطرف وغنمهم المسلمون، ولكن الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أعاد الغنائم إلى بني ثعلبة.

١١- سرية عبد الرحمن بن عوف.. في شعبان من السنة السادسة للهجرة، حيث غزا عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه ومن معه من المسلمين بني كلب في دومة الجندل وقد أعلنوا إسلامهم.

١٢- سرية علي بن أبي طالب.. بعد سرية عبد الرحمن بن عوف، حيث خرج علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ومعه مائة من المسلمين لغزو بني سعد بن بكر. وقد انتصر عليهم المسلمون في فدك.

١٣- سرية زيد بن حارثة الكلبي.. حيث خرج زيد بن حارثة ومن معه من المسلمين لغزو بني بدر. وقد انتصر عليهم المسلمون في وادي القرى.

١٤- سرية عبد الله بن رواحة.. حيث خرج عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه ومعه ثلاثون رجلا من المسلمين لغزو أسير بن زارم وأصحابه الذين تجمعوا من حوله. وقد التقى الجمعان عند قرقرة ثبار فقتل أسير ومن معه.

١٥- سرية كرز بن جابر الفهري.. حيث خرج ومعه عشرون فارسا نحو عرينة حيث

هاجم جماعة أنعام المسلمين وسبوها. وقد أعيدت الأنعام وأسر المهاجمون.

١٦- سرية عمر بن أمية الضمري.. حيث خرج ومعه رجلان من المسلمين نحو مكة. وقد قتل رجلان من المشركين وفر أبو سفيان الذي كان قائدهم ومن تبقى معه من المشركين.

١٧- سرية عمر بن الخطاب.. حيث خرج رضي الله تعالى عنه ومعه ثلاثون رجلا من المسلمين لتأديب هوازن في شهر شعبان من السنة السابعة للهجرة في تربة وقد فرت هوازن من أمام المسلمين دون قتال.

١٨- سرية أبي بكر.. حيث خرج في شهر شعبان أيضا من السنة السابعة للهجرة لتأديب بني كلاب وقد التقت السرية ببني كلاب في ضربة فقتلت جزءا منهم وسبت الباقين.

١٩- سرية بشير بن سعد الأنصاري.. حيث خرج في شهر شعبان أيضا من السنة السابعة للهجرة لتأديب بني مرة وقد التقت السرية ببني مرة في فدك حيث قتل الأعداء ثلاثين من المسلمين وعاد سعد بن بشير إلى المدينة المنورة جريحا.

٢٠- سرية غالب بن عبد الله الليثي.. حيث خرج في شهر رمضان من السنة السابعة للهجرة لتأديب بني عوال وبني عبد من ثعلبة. وقد التقت السرية بالمشركين في الميفعة بنجد وانتصر المسلمون.

٢١- سرية بشير بن سعد الأنصاري.. حيث خرج في شوال من السنة السابعة للهجرة لتأديب غطفان. وقد التقت السرية بالمشركين في الجناب وانتصر المسلمون.

٢٢- سرية أبي العوجاء السلمي.. حيث خرج في ذي الحجة من السنة السابعة للهجرة لتأديب بني سليم. وقد التقت السرية بالمشركين في ديار بني سليم وقضى المشركون على سرية أبي العوجاء.

٢٣- سرية غالب بن عبد الله الليثي.. حيث خرج في صفر من السنة الثامنة للهجرة لتأديب الملوح. وقد التقت السرية بالمشركين في كديد وانتصر المسلمون وغنموا بني الملوح.

٢٤- سرية غالب بن عبد الله الليثي.. في صفر أيضا من السنة نفسها وبعد غزو بني الملوح وذلك لتأديب بني مرة. وقد التقت السرية وعددها مائتا رجل من المسلمين

بالمشركين في فدك وانتصر المسلمون حيث قتلوا قسما من المشركين وغنموا الباقين.

٢٥- سرية شجاع بن وهب الأسدي.. حيث خرج في ربيع الأول من السنة الثامنة للهجرة لتأديب بني عامر من هوازن وقد التقت السرية بالمشركين في السبي وانتصر المسلمون وغنم المسلمون ممتلكات المشركين الذين فروا.

٢٦- سرية كعب بن عمير الغفاري.. حيث خرج في ربيع الأول أيضا من السنة الثامنة للهجرة لتبليغ الدعوة. وقد قتل أفراد السرية من المسلمين عند ذات إطلاح ماعدا واحدا.

٢٧- سرية مؤتة.. حيث خرج المسلمون وعددهم ثلاثة آلاف في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة لقتال الروم. وقد تولى القيادة على التوالي: زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة وقد استشهدوا رضوان الله تعالى عنهم، ثم تولى القيادة من بعدهم خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وقد أتم عملية الانسحاب المنظم من أمام الروم.

٢٨- سرية ذات السلاسل.. حيث خرج عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه على رأس خمسمائة من المسلمين لتأديب قبائل شمال الجزيرة العربية الذين تمردوا بعد اندحار المسلمين في معركة مؤتة مع الروم. وقد تمكن المسلمون في جمادى الآخرة من السنة الثامنة من الهجرة من دحر هذه القبائل.

٢٩- سرية الخبط.. حيث خرج أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله تعالى عنه في رجب من السنة الثامنة للهجرة على رأس ثلاثمائة من المسلمين لغزو جهينة في منطقة القبلية ولم يلتق المسلمون بالمشركين.

٣٠- سرية أبي قتادة الأنصاري.. حيث خرج في شعبان من السنة الثامنة للهجرة لتأديب غطفان وقد التقت السرية بالمشركين في حاضر وانتصر فيها المسلمون.

٣١- سرية أبي قتادة الأنصاري.. حيث خرج أيضا في رمضان من السنة الثامنة للهجرة ولم يلق المسلمون كيدا.

٣٢- سرية خالد بن الوليد.. حيث خرج في رمضان من السنة الثامنة للهجرة لهدم العزى.

٣٣- سرية عمرو بن العاص حيث خرج في رمضان من السنة الثامنة للهجرة لهدم سواع.

٣٤- سرية سعد بن زيد الأشهلي.. حيث خرج في رمضان من السنة الثامنة للهجرة لهدم مناة.

٣٥- سرية خالد بن الوليد.. حيث خرج في شوال من السنة الثامنة للهجرة ومعه ثلاثمائة من المسلمين لغزو بني جذيمة. وقد التقت السرية بالمشركين في يلملم وانتصر المسلمون.

٣٦- سرية الطفيل بن عمرو الدوسي.. حيث خرج في شوال من السنة الثامنة للهجرة لهدم ذي الكفين وهو صنم لعمرو بن حممة الدوسي.

٣٧- سرية عيينة بن حصن.. حيث خرج في محرم من السنة التاسعة للهجرة على رأس خمسين فارسا من المسلمين لغزو تميم. وقد انتصر المسلمون على تميم.

٣٨- سرية خالد بن الوليد.. حيث خرج في محرم أيضا من السنة التاسعة للهجرة لغزو بني المصطلق الذين أسلموا.

٣٩- سرية قطبة بن عامر بن جديد.. حيث خرج في صفر من السنة التاسعة للهجرة لغزو خثعم. وقد التقى بهم المسلمون في بيشة وانتصروا عليهم.

٤٠- سرية الضحاك بن سفيان الكلابي.. حيث خرج في ربيع الأول من السنة التاسعة للهجرة لغزو بني كلاب.. وقد التقى بهم المسلمون في الزج وانتصروا عليهم.

٤١- سرية علقمة بن مجزر المدلجي.. حيث خرج في شهر ربيع الأول أيضا من السنة التاسعة للهجرة لتأديب بعض المشركين من الأحباش وذلك على رأس ثلاثمائة من المسلمين. وقد هرب المشركون الأحباش.

٤٢- سرية علي بن أبي طالب.. حيث خرج في شهر ربيع الآخر من السنة التاسعة للهجرة على رأس مائة وخمسين من المسلمين لهدم صنم الفلس عند جبل أجا في ديار طي. وقد هدم الصنم وغنم المسلمون.

٤٣- سرية عكاشة بن محصن الأسدي.. حيث خرج في شهر ربيع الآخر أيضا من السنة التاسعة للهجرة لغزو قبيلة بلي. وقد التقى بهم المسلمون عند الجناب وانتصروا عليهم.

٤٤- سرية خالد بن الوليد.. حيث خرج في شهر ربيع الأول من السنة العاشرة للهجرة على رأس أربعمائة وعشرين من المسلمين لغزو دومة الجندل. وقد صالح أهل دومة

الجندل.

٤٥- سرية خالد بن الوليد.. حيث خرج في شهر ربيع الأول من السنة العاشرة للهجرة على رأس أربعمائة رجل من المسلمين لغزو بني الحارث عند نجران. وقد أسلم بنو الحارث ومن معهم.

٤٦- سرية خالد بن الوليد.. حيث خرج في شهر رمضان من السنة العاشرة للهجرة لغزو أهل اليمن وقد أسلم الناس.

٤٧- سرية علي بن أبي طالب.. حيث خرج في شهر رمضان أيضا من السنة العاشرة للهجرة لغزو أهل اليمن وقد أسلم الناس.

٤٨- سرية أسامة بن زيد.. حيث خرج أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه في شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة لغزو قبائل مؤتة بعد التحاق الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى.

تلك بعض من السرايا التي ورد ذكرها في كتب السيرة وتاريخها. وسوف نتحدث عن العبر والدروس المستفادة منها بعد الحديث عن الغزوات التي خرج فيها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم.

غـزوة بـدر كحـد فاصـل ومـا تـلاهـا

١ ـــ غزوة بـدر.. قلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج في جمادى الأولى من السنة الثانية للهجرة لاعتراض قافلة ضخمة لقريش في طريقها من مكة إلى الشام وعلى رأسها أبو سفيان وذلك في غزوة العشيرة.. وقلنا أيضا إنه لم يتمكن من اللحاق بالقافلة إذ مرت قبل وصوله صلى الله عليه وسلم.

وقد عاد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبدأ يترقب عودة هذه القافلة التي تحمل جل ممتلكات قريش إذ ليس هناك بيت في مكة لم يساهم بها، وتجمع العديد من الروايات في كتب السيرة على أن في هذه القافلة ألف بعير، وفي ترقبه صلى الله عليه وسلم عودة هذه القافلة قدر مدة ذهابها وإيابها بثلاثة أشهر، وعليه قرر الخروج لاعتراضها في رمضان عند عودتها.

وبالفعل فقد كلف سرية استطلاع مكونة من طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد لجمع المعلومات عن سير القافلة، ثم خرج قبل أن يعودوا إليه بأخبار القافلة إذ كان تقديره للوقت سليما فخاف أن تفلت تلك القافلة الضخمة.. وعند خروجه صلى الله عليه وسلم خاطب أصحابه بقوله: (هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها).

إذن هو خروج للاعتراض والغنيمة وليس للقتال وفيه نزل قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وإذ يعدكم الله إحدى الطٰئفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكٰفرين، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون**﴾ سورة الأنفال: ٧ ـــ ٨. وذلك أن قريشا لما علمت بخروج المسلمين لاعتراض القافلة حيث أرسل أبو سفيان يطلب النجدة، خرجت لنجدة القافلة.. فأصبح المسلمون بين غنيمة القافلة وبين حرب قريش وكسر شوكتها، فنزلت آيات سورة الأنفال تلك.

إن خوف الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من إفلات القافلة إن هو تباطأ في الخروج، وعدم تبييته النية بالقتال، هو ما جعله يخرج على رأس ثلاثمائة ونيف من المسلمين فقط معظمهم من الشباب، وليس معهم سوى فرسين للزبير بن العوام والمقداد

ابن عمرو وسبعين راحلة. وعند الخروج من المدينة كان قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (لا يتبعنا إلا من كان بعيره حاضرا)، وذلك مخافة أن تفلت القافلة إن تباطأ المسلمون في الاستعداد وإحضار رواحلهم وخيلهم. كما كان قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يصحبنا إلا من كان على ديننا) و (لانتصر بأهل الشرك على أهل الشرك). وقد كان الخروج من المدينة في اليوم الثامن من رمضان. وقد كان خروجه من المدينة إلى آبار علي بغير لواء معقود، أما بقية المسير فقد عقد الألوية واتخذ تشكيل الحرب وتم المسير في تشكيل مفتوح ليضمن سرعة السير وأمن مفاجأة العدو للقوة.

استمر في المسير حتى بلغ وادي ذخران حيث بلغه أن قريشا خرجت لحماية قافلتها التي لم يكن معها من الرجال سوى أبي سفيان ومعه تسعة وثلاثون رجلا.

خرجت قريش بعد ثلاثة أيام من وصول رسول أبي سفيان، وكانوا تسعمائة وخمسين رجلاً، ومعهم مائة فرس وسبعمائة بعير.. ولم يصلوا ماء بدر إلا وهم على أضعف ما تكون درجات الروح المعنوية إذ تفشت فيهم الروح الانهزامية، وكان كل رجل منهم يتمنى لو لم يخرج. وذلك لما تركته رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب، ومقالة سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه لأمية بن خلف، ورؤيا جهيم بن الصلت من بني عبد المطلب، ورؤيا ضمضم بن عمرو.. وكلها تصف الويل والثبور الذي ستلقاه قريش في بدر — وإن أردت التفصيل أخي القاريء فارجع إلى كتب السيرة — وبدهاء أبي سفيان وحنكته العسكرية نجا بالقافلة حيث مال بها ميلا حادا نحو البحر، ثم أرسل إلى الخارجين من قريش يبلغهم بنجاته وقافلته ويطلب منهم العودة إلى مكة. ووجدت تلك الدعوة رغبة أكيدة في صدور الكثيرين ممن كانت تطحن نفسياتهم وتقتل أرواحهم الرؤى التي نوهنا عنها ومقالة سعد ابن معاذ لأمية بن خلف. إلا أن أبا جهل وفئة معه رفضوا العودة وقرروا المسير إلى بدر والاقامة عليه ثلاث ليال حتى يعلم العرب بقوة قريش ومكانتها.. وقد انتصر أصحاب هذا الرأي وساروا إلى بدر ونزلوا بالعدوة القصوى.

تلقى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم خبر خروج قريش لنجدة قافلتها، كما تلقى خبر إفلات أبي سفيان بقافلته ونجاته بها، وهو في وادي ذخران.. فكان لابد من إعادة تقدير الموقع الذي لابد أن يتطور بتطور مجريات الأمور ومستجداتها. فقرر عليه الصلاة والسلام مشاروة أصحابه، فكان إجماع المهاجرين على القتال، وكان ترديد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وإلحاحه في طلب المشورة. فأدرك الأنصار رضوان الله عليهم مراده

من ذلك إذ أن عهدهم معه على أن يمنعوه في ديارهم لا خارج ديارهم وعليه فقد وقف سعد بن معاذ وقال: (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟) فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم: (أجل)، فقال سعد رضي الله تعالى عنه: (قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا. إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله).

سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا فقال: (سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين ــ ويقصد صلى الله عليه وسلم بذلك ما جاء في الآية التي أوردناها من سورة الأنفال ــ والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم).

تحرك الرسول القائد صلى الله عليه وسلم من ذخران إلى قرب بدر بعد أن غير خطته للحرب بدل الاعتراض، وعليه كلف علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص بدورية استطلاع لجمع المعلومات عن قريش أولاً بأول. وقد مكنته دورية الاستطلاع تلك من أسر غلامين من سقاة قريش، تعرف بهما صلى الله عليه وسلم على موقع قريش.. بالعدوة القصوى، وعلى عدد الخارجين من قريش.. ما بين تسعمائة وألف، وعلى الخارجين من أشراف قريش.. من أمثال أبي جهل وأمية بن خلف. وصل المسلمون مياه بدر ونزلوا عند أولها، فبادر الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟) فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة) فقال الحباب: (يارسول الله، هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا، فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون).

أخذ الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بهذا الرأي واستحسنه، وتحركت قوة المسلمين إلى أدنى ماء من المشركين ونزلوا عليه، وقد نزل جبريل عليه السلام مؤيدا رأي الحباب رضي الله تعالى عنه.

اقتربت ساعة الهجوم وجاء قول الحق تبارك وتعالى **﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملئكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم**

وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم، إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطٰن وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام، إذ يوحي ربك إلى الملٰئكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب، ذلكم فذوقوه وأن للكٰفرين عذاب النار، يٰأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير، فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم، ذلكم وأن الله موهن كيد الكٰفرين﴾
سورة الأنفال: ٩ ــ ١٨.

ثم خرج الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين وأخذ حفنة من الحصباء واستقبل بها المشركين وهو يقول: (شاهت الوجوه).. ثم أصدر أمره بالهجوم، فدارت على المشركين الدوائر وقتل رؤوس الكفر والفتنة وانتصر المسلمون بإذن الله وعاد من بقي من المشركين وهم يجرون أذيال الهزيمة والخزي والعار.. ولم تدم المعركة سوى بضع ساعات بين صباح السابع عشر من رمضان وعصره.

وقد ترتب على نصر المسلمين في بدر مواقف ثلاثة لابد للمسلمين من مواجهتها وهي:

أ ــ موقف ضد قريش التي لابد أن تخطط للانتقام لكرامتها المهانة والثأر لدم أشرافها الذين قتلوا في بدر.

ب ــ موقف ضد اليهود الذين يقطنون المدينة والذين لابد من أن يعملوا تفكيرهم ودهاءهم للكيد للمسلمين والتآمر عليهم مع كائن من كان لكي لا يأتي اليوم الذي يجدون أنفسهم وجها لوجه مع محمد وأصحابه.

جـ ــ موقف ضد القبائل العربية التي رأت ما حل بقريش وهي كبرى القبائل وأعظمها والتي لابد أن تخطط للقضاء على محمد وأصحابه لكي لايأتي دورها كما أتى على قريش.

فعن الموقف ضد قريش بعد بدر، فإن قريشا التي فقدت فلذات أكبادها ورؤوس عشائرها وعظماء بيوتها، لن تسكت عن طلب الثأر لدماء هؤلاء، كما لن تسكت على أن

تبقى كبرياؤها مجروحة بعد بدر. وعليه فلقد تولى أبو سفيان قيادة أهل الشرك من قريش بعد أبي جهل، فبادر وزوجه هند بنت عتبة بدعوة المشركين إلى منع البكاء على القتلى، والتجمع والسير للثأر لهم بدل البكاء عليهم. وفي هذا الإطار نذر أبو سفيان ألا يمس الماء رأسه حتى ينتقم، وهجرت زوجه هند فراش الزوجية وحرمت الطيب على نفسها حتى تأخذ بثأر أبيها وأخيها وعمها وكل من قتل من أهل بيتها في بدر.. ولقد أدرك الرسول القائد صلى الله عليه وسلم كل هذا بفكره العسكري المتألق وواصل على ضوء ذلك الاستعداد للقاء القادم والذي لابد أن يكون أشرس من سابقه.

أراد أبو سفيان التحلل من نذره بعد نحو شهرين ونصف، فسار نحو المدينة على رأس مائتي راكب من مشركي قريش. ثم تسلل خلسة والتقى باليهوديين حيي بن أخطب وسلام بن مشكم حيث تعرف من الأخير على بعض أخبار المسلمين في حين أبى حيي لقاء أبي سفيان. ثم سار إلى العريض حيث قتل رجلين من المسلمين وأحرق بعض النخيل.. فعلم بذلك الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وأسرع في مطاردته، فهرب أبو سفيان ومن معه من العريض وهم يلقون ما تبقى معهم من السويق.. فسميت الغزوة لهذا: بغزوة السويق، وهي كما قلنا بعد بدر بنحو شهرين ونصف الشهر ـــ أي في ذي الحجة من السنة الثانية للهجرة.

وبعد بدر بنحو سبعة أشهر جهزت قريش قافلة إلى الشام بلغت قيمة ما تحمله نحو مائة ألف درهم وسلكت القافلة الطريق الشرقي إلى الشام عبر نجد إذ أصبح الطريق الساحلي كما قلنا تحت هيمنة المسلمين.. وعليه كانت سرية زيد بن حارثة التي تحدثنا عنها والتي غنمت القافلة التي فر أصحابها عندما فاجأهم زيد رضي الله تعالى عنه ومن معه عند القردة في نجد.

ثم كان بعد ذلك استعداد قريش لأحد التي سنتحدث عنها بعد أن نكمل الحديث عن الموقفين الآخرين اللذين بيناهما آنفا.

وعن الموقف الثاني ـــ الموقف ضد يهود المدينة، فإن اليهود تلقوا خبر انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم في بدر وكأنه كارثة حلت بهم، إذ إن هذا النصر سوف يزيد موقف المسلمين في المدينة قوة، وسوف يزيد موقف اليهود ضعفا، وسوف لن يجعل لهم مجالا للكيد والغدر، وسوف يعجل بيومهم إذ إن الجولة التالية سوف تكون عليهم.. وعليه بدأوا يزيدون في كيدهم للمسلمين ويدفعون بالمنافقين إلى مزيد من الأعمال الدنيئة ضد

الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين. كما بادروا بالاتصال بقريش وتأليبها على طلب الثأر، إذ خرج إليهم كعب بن الأشرف وهو من كبراء اليهود وراح يرثي موتاهم ويدعوهم للثأر، ومما قاله في رثاء أصحاب القليب (قتلى المشركين في بدر إذ أمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بدفن موتى المشركين في قليب مهجورة في بدر):

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا أن الملوك تصرع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع

ثم عاد إلى المدينة وراح ينشد الأشعار ويؤذي نساء المسلمين، فضاق به المصطفى صلى الله عليه وسلم ذرعا فانتدب جماعة من المسلمين وعلى رأسهم محمد بن مسلمة لقتله.. ونفذوا فيه حكم الله ورسوله.

ثم كان الصدام مع بني قينقاع وهم أقوى طوائف اليهود الثلاث في المدينة وأغناها إذ كانوا صاغة للذهب وذلك بعد أن صبر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم على أذاهم للمسلمين والمسلمات مراعاة للعهد الذي بينه وبينهم. حتى حدث ذات يوم في سوق بني قينقاع أن كشفوا عورة واحدة من نساء المسلمين فاستنجدت المسلمة بمن في السوق من المسلمين، فوثب رجل من المسلمين وقتل الصائغ الذي ربط ثوب المسلمة، فاجتمع اليهود على المسلم وقتلوه.

وعليه قرر الرسول القائد محاصرتهم، فخرج إليهم واستخلف على المدينة أبا لبابة. ثم دام الحصار خمسة عشر يوما لم ينجدهم فيها بنو النضير وبنو قريظة كما توقعوا فاستسلموا، وأمهلهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام يخرجون فيها ويتركون المال والسلاح. وخرجوا من المدينة إلى أذراعات بالشام. أما عن الموقف الثالث ـــ الموقف ضد القبائل العربية الأخرى، فقد خافت تلك القبائل أن يحل بها ما قد حل بقريش من جهة، وأخذت تراعي خاطر قريش التي هي الكبرى بين هذه القبائل وتحافظ على المكاسب التي تحصل عليها من قريش كالإتاوات التي تدفعها قريش حين مرور قوافلها في ديار هذه القبائل.. وعلى ضوء هذه الدوافع وغيرها، أخذت تناصب الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين العداء. فكان الحزم والحسم جواب الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لمواجهة هذا الموقف مع تلك القبائل.

وعليه كانت غزوة بني سليم أول أعمال الحزم والحسم تلك، إذ خرج إليهم الرسول

القائد صلى الله عليه وسلم في أواخر شهر شوال من السنة الثانية للهجرة ـ أي بعد عودته من بدر بسبع ليال. وذلك لوصول معلومات استخبارية تفيد بأن قبيلتي سليم وغطفان تعدان العدة لغزو المدينة. خرج الرسول القائد صلى الله عليه وسلم على رأس ثلاثمائة من المسلمين واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة وفي رواية أخرى ابن مكتوم، وقد سار المسلمون حتى وصلوا إلى ماء لبني سليم يقال له الكدر وأقاموا ثلاثة أيام ثم عادوا ولم يلقوا قتالا من القوم.

ثم وصلت معلومات استخبارية أخرى تفيد بأن رجلا من غطفان نفسها يقال له دعثور، قد جمع قوما من بني محارب وبني ثعلبة لمهاجمة المدينة. فخرج إليه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم على رأس أربعمائة وخمسين رجلا من المسلمين واستخلف على المدينة عثمان بن عفان وذلك في محرم من السنة الثالثة للهجرة. وفي الطريق وقع في يد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم رجل منهم يدعى جبار فأسلم وأبلغ الرسول بأخبار القوم ثم قاد المسلمين إلى مواقعهم. وعند وصول الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إلى مواقعهم عند ماء يسمى ذو أمر ــ ولهذا تسمى الغزوة بـ: غزوة ذي أمر ــ تفرق القوم وهربوا إلى رؤوس الجبال ــ ثم أصاب المسلمين وابل من مطر فنزع المصطفى صلى الله عليه وسلم ثيابه ونشرها لتجف، فقال القوم لدعثور سيدهم هاهو محمد بمفرده فعليك به، فتسلل دعثور حتى وقف فوق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (من يمنعك مني؟) فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: (الله)، فجاء جبريل عليه السلام فدفع دعثور في صدره فوقع على الأرض ووقع سيفه من يده، فأخذه رسول الله وقال له: (من يمنعك مني؟) فقال دعثور: (لا أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله) فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم سيفه، ثم عاد إلى قومه يدعوهم للإسلام.

ثم وصلت معلومات استخبارية أخرى إلى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم تفيد بأن قوما من غطفان يريدون غزو المدينة. فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم على رأس مائتين من أصحابه حتى وصل إلى ماء عند قرقرة الكدر، وعنده غنمت دورية الاستطلاع التي بعث بها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم خمسمائة بعير للقوم وعاد المسلمون دون أن يلقوا قتالا.

ثم كانت غزوة بحران في ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة حيث حاول بنو سليم تجميع قواهم والإغارة على المدينة، فخرج إليهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم حتى

وصل إلى ديارهم، فهربوا ومكث في ديارهم صلى الله عليه وسلم شهرين ثم عاد إلى المدينة.

٢ ــ غزوة أحد.. أربعة عشر شهرا هي الزمن الفاصل بين غزوة بدر وغزوة أحد. وقد واجه فيها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الموقف بحزم وحسم صارمين بفكره العسكري المتألق، فكان الحصار الاقتصادي لقريش إذ حرم عليهم المسلمون المرور بقوافلهم من وإلى الشام عبر الطريق الساحلي المعتاد لقوافلهم، وتمكنوا أيضا من تهديد قوافلهم من الطريق الشرقي عبر نجد كما رأينا، فأصبحت قريش في حصار اقتصادي شبه تام.. وهذا ما دفعها إلى غزو المدينة في ذي القعدة من السنة الثالثة للهجرة، إلى جانب طلب الثأر لقتلى بدر من قريش وإعادة هيبتها المفقودة في بطاح بدر في يوم السابع عشر من رمضان للسنة الثانية للهجرة، إلى جانب الرغبة الأكيدة في القضاء على الإسلام والمسلمين قضاء مبرما.

تلك هي الأسباب الثلاثة وراء خروج قريش في غزوة أحد. وقد خرجوا بثلاثة آلاف مقاتل من قريش ومن بطون كنانة وقبائل تهامة والأحابيش وبني المصطلق وبني الهون، وفيهم مئتا فارس وثلاثة آلاف بعير وسبعمائة دارع، وفيهم النساء والشعراء لتحريض الرجال على القتال.. وقد تولى أبو سفيان بن حرب قيادة قوات المشركين فهو خليفة أبي جهل في المشركين.

جمع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال لهم: (رأيت البارحة في منامي خيرا. رأيت بقرا تذبح، ورأيت في ذبابة سيفي ثلما، ورأيت أنني أدخلت يدي في درع حصينة). ثم فسر صلى الله عليه وسلم رؤياه هذه فقال: (فأما البقر فناس من أصحابي يقتلون، وأما الثلم فهو رجل من أهل بيتي، وأما الدرع الحصينة فالمدينة).

وعند خروج قريش من مكة استأجر العباس بن عبد المطلب رجلا من غفار وسلمه كتابا لابن أخيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ــ يخبره بخروج قريش وحجم قواتها، وقد طلب العباس من الغفاري الإسراع إلى المدينة والوصول إليها في ثلاثة أيام.. وقد بينا من قبل أن العباس كان عينا للرسول صلى الله عليه وسلم في مكة.

وصل الغفاري إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في قباء وسلمه الكتاب وحين علم الرسول بذلك بادر صلى الله عليه وسلم بتشديد الحراسة على المدينة ليلا لكي لا تحقق

قريش المفاجأة، ثم بعث بدورية استطلاع عاجلة ترصد تحركات قريش، ثم جمع أصحابه وعرض عليهم الأمر وطلب مشورتهم.. إذن أمن واستطلاع وشورى. تداول المسلمون الأمر وكان هناك رأيان:

ــ البقاء في المدينة والدفاع عنها (اتخاذ حالة الدفاع).

ــ الخروج إلى أحد حيث عسكرت فيه قريش كما جاء في تقارير دوريتي الاستطلاع اللتين بعث بهما الرسول صلى الله عليه وسلم (اتخاذ حالة التعرض والهجوم).

وبعد مداولة الأمر استقر رأي المسلمين على الخروج إلى أحد والتعرض للمشركين ــ وهذا عكس رأي الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إذ كان يميل في هذه الحالة للدفاع وذلك من قوله صلى الله عليه وسلم: (فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ــ أي المدينة).

خرج الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إلى المشركين في أحد على رأس ألف رجل من أصحابه واستخلف ابن أم مكتوم على المدينة. وفي طريقه صلى الله عليه وسلم إلى أحد التقى عند الثنية بكتيبة من اليهود حلفاء عبد الله بن أبي بن سلول فردهم بقوله صلى الله عليه وسلم: (إنا لا نستنصر بأهل الكفر على أهل الشرك). وفي الطريق إلى أحد أيضا وفي مكان يدعى الشوط رجع عبد الله بن أبي بن سلول ورجع معه ثلثمائة من أصحابه، وقد همت بنو سلمة من الأوس وبني حارثة من الخزرج بالرجوع مع أس المنافقين ولكن الله عصمهم عن ذلك، وقد نزل فيهم قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم، إذ همت طٰئفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ سورة آل عمران: ١٢٢.

وصل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بجيشه من المسلمين إلى مسرح العمليات في أحد ونزل بوادي أحد في عدوة جنب الوادي وجعل ظهر الجيش إلى الجبل ليحتموا به في منطقة صحراوية مكشوفة.. وقد أدرك الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أهمية الجبل في تلك المنطقة المكشوفة، وقرر السيطرة على الجبل فالذي يسيطر عليه يستطيع أن يتحكم في سير المعركة وأرضها.

وهذا ما حدث إذ سيطر المسلمون على الجبل حيث احتل الرماة الجبل الذي سمي بهذا الاسم «جبل الرماة»، وهيمنوا على مجريات المعركة في الفترة الأولى من الحرب. حتى إذا انهزمت قريش ورأى الرماة الغنائم، نسوا أمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم

بالتمسك بالجبل، ونزلوا يتبعون المنهزمين طلبا للغنائم.. فأعطوا الفرصة للقائد خالد بن الوليد الذي كان قائد ميمنة المشركين، وكان يلي الجبل، فلما رأى رماة المسلمين يخلون الجبل، سارع بدهائه وحنكته القتالية إلى احتلال الجبل، فوضع بذلك جيش المسلمين بين فكي ملزمة حيث كر المنهزمون من قريش وجعلوا جيش المسلمين بينهم وبين خالد ومن معه على جبل الرماة.. وتحول نصر المسلمين في بداية العمليات إلى هزيمة نسبية بعد أن خالف الرماة أمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم حين كلفهم بالمهمة، وذلك فيما نطلق عليه اليوم اصطلاح: الهجوم المضاد.

انكفأت قريش بعد نصرها هذا إذ رأت أنها انتقمت لبدر وقتلاها فيه، وانتهت المعركة عند ذلك. ووقف أبو سفيان مخاطبا المسلمين بقوله: (إن موعدكم بدر العام المقبل) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قولوا له هو بيننا وبينكم موعد). ثم علم أبو سفيان من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أن الرسول لم يقتل، فسار وأمر بدفع موتى قريش وقد بلغوا اثنين وعشرين، في حين استشهد من المسلمين سبعون رجلا سيدهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه إذ غدر به وحشي الذي وعدته قريش بالحرية إن قتل حمزة وقد كان من مهرة الرماة.

عاد المسلمون للمدينة المنورة بعد أن أرسل الرسول القائد صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ليتأكد من نوايا المشركين وذلك خوفا من مهاجمة المدينة.. وكان لابد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من مواجهة ثلاثة مواقف أخرى، مثل تلك التي واجهها بعد بدر. فقريش الآن منتصرة ولابد أن تتصرف على ضوء ذلك، واليهود سوف يجدون ما يكيدون به للمسلمين وسوف يرتفع صوتهم في المدينة وكذلك المنافقون. والقبائل العربية الأخرى سوف تنتهز أي فرصة للنيل من المسلمين إما كيدا لهم وإما إرضاء للأخت الكبرى ــ قريش.

أدرك الرسول القائد صلى الله عليه وسلم كل هذا، ووجد فور وصوله إلى المدينة أن الفرصة سانحة لامتصاص كل أثر للوهن والتمزق النفسي. وذلك أن عبد الله بن عوف قد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة قدومه من أحد، وأخبره أن قريشا تجمعت من جديد وأنه سمع أبو سفيان يخاطبهم بقوله: (ما صنعتم شيئا، قد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا نستأصل من بقي). فدعا أصحابه وأبلغهم بالنبأ وعزمه على الخروج إليهم ــ فيما نطلق عليه اليوم عمليات المطاردة. ثم أمر بلالا أن ينادي: أن رسول

الله يأمركم بطلب العدو، ولا يخرج إلا من حضر القتال بالأمس. وخرج صلى الله عليه وسلم على رأس سبعمائة رجل من المسلمين واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم سار بأصحابه حتى وصل إلى حمراء الأسد. ولهذا يطلق عليها البعض غزوة حمراء الأسد ـ فعسكر بها وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: (إن قريشا لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن).

وفي حمراء الأسد دب الذعر في قلوب المشركين من قريش لما رأوا من عدد نيران المسلمين في الليل إذ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بإيقاد النيران العديدة في الليل، فكانوا يوقدون خمسمائة نار. كما دب الذعر في قلوبهم للدور الذي لعبه معبد الخزاعي في تثبيط هممهم وتهديدهم بالويل والثبور إن هم تجرأوا على مهاجمة المسلمين الذين خرجوا إلى حمراء الأسد بألوف لا تحصى.

وبالفعل قرر أبو سفيان الهرب من أمام المسلمين، فعاد الرسول القائد إلى المدينة وقد تحقق له ما أراد من غسل وإزالة لآثار الهزيمة من النفوس.

وبعد انتصار قريش في أحد ارتفع صوت اليهود والمنافقين في المدينة وظنوا أنها الفرصة للقضاء على محمد وأصحابه، ثم بدأوا يتحينون الفرص للقضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وجدوا هذه الفرصة عندما جلس صلى الله عليه وسلم إلى جدار بيت من بيوت بني النضير، فقرروا أن يلقوا بصخرة على الرسول من أعلى الجدار.. وجاء الخبر بذلك من السماء، فنهض الرسول صلى الله عليه وسلم وعاد إلى المدينة، ثم كان حصار بني النضير كما نعلم حيث سار إليهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.. ثم دب الذعر في قلوب اليهود من بني النضير بعد أن طال الحصار ولم يأتهم المدد الذي وعدهم به عبد الله بن أبيّ ابن سلول ولم تبادر بنو قريظة لنجدتهم، فطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل إلا آلة الحرب. فوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلت بنو النضير من المدينة إلى خيبر والشام بعد أن دمرت بيوتهم حيث جاء فيهم قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتٰب من ديٰرهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يٰأولي الأبصٰر**﴾ سورة الحشر: ٢.

وبعد انتصار قريش في أحد طمعت بعض القبائل العربية حول المدينة بالمسلمين، إذ اعتبرت أن هزيمتهم دليل ضعف لابد من استغلاله.. لقد كان بنو أسد أول المارقين، فكانت سرية أبي سلمة بن عبد الأسد كما علمنا والتي فاجأت القوم وغنمت ممتلكاتهم.. ثم تبعهم بعد ذلك رجل من هذيل يدعى خالد بن سفيان حيث بدأ يحرض قومه للإغارة على المدينة، فأرسل إليه الرسول القائد صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أنيس رضي الله تعالى عنه متنكرا حتى تمكن منه وقتله. وقد بينا ذلك عند حديثنا عن السرايا.. ثم كانت محاولة بني محارب وبني ثعلبة في تجميع القبائل لغزو المدينة وقتال المسلمين، وعندما وصلت التقارير الاستخبارية عن ذلك للرسول القائد صلى الله عليه وسلم قرر الخروج إليهم.

فخرج في جماد الأولى من السنة الرابعة للهجرة على رأس ستمائة رجل من المسلمين واستخلف على المدينة أباذر الغفاري. سار صلى الله عليه وسلم إلى القوم حتى وصل إلى ذات الرقاع التي سميت الغزوة باسمها، فأقام بها. وخاف بنو محارب وبنو ثعلبة اللقاء فانسحبوا ولم يلق المسلمون كيدا في هذه الغزوة أو قتالا. ثم كانت غزوة بدر الآخرة أو بدر الموعد كما تسميها بعض كتب السيرة، وذلك في ذي القعدة من السنة الرابعة للهجرة. وسببها أن أبا سفيان بن حرب وقف بعد أحد وخاطب المسلمين كما قلنا بقوله: (إن موعدكم بدر العام المقبل) فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هو بيننا وبينكم موعد).. وبدر سوق للعرب في شهر شوال من كل عام يجتمعون فيه للتجارة، وعليه قرر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الخروج بتجارة إلى بدر فإن التقى بقريش كان القتال وإلا تاجروا بما معهم مع قبائل العرب ثم يعودون للمدينة دون أن يخلفوا موعدهم.

إلا أن هذه السنة كانت عام جدب وسوء حال لقريش، فقرر أبو سفيان القعود عن الخروج، ولكنه يريد من المسلمين أن يشاركوه القعود لكي لا يكون هو المخلف لوعده. فأرسل نعيم بن مسعود كما بينا من قبل إلى المدينة لتثبيط همم المسلمين وتخويفهم بقوة قريش التي أعدت للقاء.. إلا أن دعوة نعيم لم تجد لها صدى في المدينة، إذ قرر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الخروج إلى بدر. خرج صلى الله عليه وسلم على رأس ألف وخمسمائة من أصحابه رضوان الله عنهم أجمعين واستخلف على المدينة عبد الله بن أبي ـ وقد كان مؤمنا عكس أبيه رأس عصابة المنافقين في المدينة.

وخرج أبو سفيان على رأس ألفين من قومه وسار يومين نحو بدر حتى وصل إلى مجنة

وخاطب قومه بقوله: (يا معشر قريش لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون الماء، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا).. وقد كان يريد بذلك أن يخرج وفاء بوعده، فإن كان نعيم نجح في مهمته ولم يخرج المسلمون فيكون هو الفائز، وإن كانوا خرجوا فيكون هو أيضا وفيا بالوعد ولكن الجدب هو الذي حال دونه ودون مواصلة المسير نحو بدر.. وهكذا لم يكن لقاء في بدر الآخرة(الموعد) وعاد المسلمون بعد انقضاء المهلة وانقضاء فترة التجارة في بدر.. وهكذا ارتفعت معنويات المسلمين وانحطت في المقابل معنويات قريش ومن بقي من يهود المدينة والقبائل العربية المبيتة للغدر والعدوان.

ومن بعد بدر الموعد كانت غزوة دومة الجندل في المحرم من السنة الخامسة للهجرة حيث قرر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم الخروج إلى دومة الجندل لتأديب قبائلها التي تعتدي على كل من يمر بأراضيها، ولكونهم أيضا يعدون العدة لغزو المدينة. وخرج صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري رضي الله تعالى عنه. تحرك المسلمون يدلهم رجل من بني غدرة، وكان تحركهم في الليل حيث يكمنون في النهار لحرارة الطقس في الصحراء ولتأمين التحرك من الاكتشاف الذي يفقدهم عنصر المفاجأة.. وهربت تلك القبائل حيث علمت بدنو المسلمين منهم فغنم المسلمون ممتلكاتهم ولم يلقوا كيدا كما لم يلقوا حربا.

ثم كانت غزوة بني المصطلق في شعبان من السنة الخامسة للهجرة حيث وصلت تقارير استخبارية للرسول القائد صلى الله عليه وسلم تفيد بأن الحارث بن ضرار قد جمع نفرا من قومه بني المصطلق من خزاعة وجهزهم لغزو المدينة. وعليه أوفد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بريدة بن الحصيب ليتأكد من المعلومات التي وصلته، فعاد بريدة بتأكيد الخبر، فخرج الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ومعه ألف من المسلمين واستخلف على المدينة زيد بن حارثة. وقرب ديار بني المصطلق وقع رجل من رجال الحارث في يد المسلمين، فطلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم معلومات عن قومه فأبى الإفصاح، ثم عرض عليه الإسلام فأبى أيضا، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب بضرب عنقه.. وعندما بلغ ذلك الخبر إلى الحارث تمكن منه ومن رجاله الفزع فهرب جزء كبير منهم. ثم بلغ المسلمون موضع اللقاء في المريسيع، وفيه هزم جمع الحارث وغنم المسلمون ممتلكاتهم وسبوا نساءهم، فكانت برة بنت الحارث بن

ضرار من السبايا فعرض عليها المصطفى صلى الله عليه وسلم العتق والزواج فقبلت ودخل قومها الإسلام وأصبحت جويرية رضي الله تعالى عنها بدلا من برة.

٣ ــ غزوة الخندق.. أدركت قوى الشر ــ قريش واليهود وقبائل العرب ــ بعد أحد وما تلاها من غزوات، أن لا مجال للنيل من الإسلام بالجهود الفردية التي تقوم بها كل فئة على حدة.. وعليه تآمروا وقرروا غزو المدينة لتحقيق الهدف الذي يجمع بين شتاتهم وهو القضاء على محمد والإسلام. لقد تولى التدبير للغزو يهود بني قريظة في المدينة ومن طرد من المدينة من بني قينقاع وبني النضير، فهم أصحاب فكرة التحالف الشرير وهم الداعون إليه والمحرضون عليه. وفي هذا السبيل قدم كل من حيّي بن أخطب وسلام بن مشكم من اليهود ومعهم هوذة بن قيس من بني وائل وغيره من أشراف اليهود وقبائل العرب، إلى مكة للقاء أشراف قريش وكبرائها، ثم دعوهم إلى التحالف معهم لحرب محمد ومن معه. وقد لقيت الدعوة الشريرة كل ترحيب من قريش إذ كان رد أبي سفيان وهو كبير مكة قوله: (أحب الناس إلينا من أعاننا على حرب محمد). وفي أمر اليهود جاء قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتٰب يؤمنون بالجبت والطٰغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا**﴾ سورة النساء: ٥١ ــ ٥٢.

ومن قريش اتجه هؤلاء الأشرار من اليهود إلى غطفان، ثم إلى كل القبائل العربية المجاورة للمدينة وغير المجاورة لها، حتى تحقق لهم ما أرادوا فكانوا عرافي هذا التحالف الشرير على الإسلام والمسلمين في المدينة، وعادوا إلى قومهم من يهود ليعدوا العدة لاقتطاف ثمرة غباء العرب من قريش وقبائل العرب حين يظفرون بمحمد إذ لم يكن اليهود محاربين منذ أن وجدوا على وجه الأرض ومسرح التاريخ الذي رزىء بوجودهم حتى يومنا هذا، وما نصرهم المؤقت اليوم إلا لتقاعس المسلمين إذ لم يلقوا حربا منذ أن وجدوا في دولتهم الصنيعة على أرض فلسطين.

خرجت قريش في أربعة آلاف مقاتل، وخرجت غطفان في ألف مقاتل، وخرج بنو سليم في سبعمائة مقاتل، وخرج بنو مرة في أربعمائة مقاتل، وخرج بنو أسد، وخرجت أشجع.. حتى فاق حشدهم العشرة آلاف مقاتل تولى قيادتهم كبير مكة (أبو سفيان).

وحين وصلت التقارير الاستخبارية إلى الرسول القائد صلى الله عليه وسلم تفيد بالتحالف وخروج الأقوام باتجاه المدينة بتدبير اليهود. ثم وصلت رسالة من أبي سفيان إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيها: (أما بعد، فإنك قد قتلت أبطالنا وأيتمت الأطفال وأرملت النساء، والآن قد اجتمعت القبائل والعشائر يطلبون قتالك وقلع آثارك. وقد جئنا إليك نريد نصف نخل المدينة. فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار).

وعليه اجتمع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بأصحابه للمشاورة كعادته في كل أمر، فقال صلى الله عليه وسلم مخاطبا أصحابه: (هل نبرز من المدينة أم نكون فيها؟)، فبادر سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه بالقول: (يارسول الله. إنا كنا بأرض فارس إذا خفنا العدو خندقنا عليه). فأعجب الرسول القائد والمسلمون بهذا التكتيك الذي لم يألفه العرب والذي سوف يحقق المفاجأة.. وعلى الفور بادر المسلمون بحفر الخندق من الجهة الشمالية للمدينة إذ هي المنطقة المكشوفة بينما الجوانب الأخرى بها من الموانع الطبيعية ما يمنع الدخول منها.. ثم حفر الخندق في شهر من العمل الشاق والدؤوب، ثم تم تحصين المدينة من الجهات الأخرى وكلف مسلمة بن أسلم على رأس مائتي رجل من المسلمين بحراسة الذراري في المدينة من بني قريظة الذين أفادت التقارير بنقضهم للعهد مع المسلمين.

احتشد المسلمون في ثلاثة آلاف مقاتل عند سفح جبل سلع وجعلوا ظهورهم إلى الجبل واستقبلوا الخندق والأعداء من خلفه.. وأقبل الأعداء نحو المدينة فكانت المفاجأة التي لم تخطر ببالهم إذ لم يكونوا يعرفونها ـ وأقصد بذلك الخندق.. وعليه لابد من تغيير الخطة برمتها والقتال في ظروف مغايرة.. وهذا ما أراده الرسول القائد صلى الله عليه وسلم، إذ كانت المفاجأة الاستراتيجية، وما ترتب على هذا من تدمير للمعنويات وتحييد معظم قوات العدو التي لن تقدر على المشاركة في حرب كتلك. ثم ما ترتب على هذا أيضا وبعد تدمير المعنويات، من انتظار ثم ملل ثم رحيل إلى غير رجعة بعد أن فعلت بهم الريح ـ وهي من جنود ربك التي لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ـ ما فعلت كما سنرى.

استمرت محاولات المشركين في اجتياز الخندق دون جدوى، إذ كانت السهام والرماح بانتظار من ينجح منهم في اجتياز الخندق أو محاولة الوصول إليه. واستمرت المناوشات حتى بدأت الخلافات تدب بين صفوف الحلفاء المتآمرين كما قد مر بنا، إذا ابتدأ الأمر بنقض بني قريظة للعهد مع المسلمين، وانتهى بشك كل طرف بتآمر الطرف

الآخر.. ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك بفكره العسكري الثاقب أن السلاح الأمضى في مثل هذه الحالة هو: تحطيم هذا التحالف ثم أتى نعيم بن مسعود الذي أسلم دون أن يعرف أحد بإسلامه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطب الرسول بقوله: (يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرني بما شئت) فقال له الرسول القائد صلى الله عليه وسلم: (إنما أنت رجل واحد من غطفان فلو خرجت فخذلت عنا إن استطعت كان أحب إلينا من بقائك معنا، فاخرج فإن الحرب خدعة).

استجاب نعيم للخطة بعد أن استوعبها، وخرج من فوره إلى بني قريظة وقد كانت له مودة سابقة عندهم فقال لهم: (يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم)، فقالوا: (قل فلست عندنا بمتهم)، فقال: (لقد جئتكم تخوفا عليكم لأشير عليكم برأي.. ثم قال: لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع وبني النضير.. وإن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم وبها أموالكم وذراريكم، لا تقدرون على أن ترحلوا منه إلى غيره. وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهرة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين بلدكم، والرجل ـــ يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم ـــ ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم. فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم ـــ سبعين رجلا يكونون بأيديكم ـــ ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا حتى يناجزوه..)، فاستحسن بنو قريظة رأي نعيم هذا وقالوا: (أشرت بالرأي والنصح ونحن فاعلون).. ثم طلب منهم أن يكتموا عنه، ووعدوا بذلك. ثم انطلق نعيم بن مسعود إلى قريش واجتمع بأبي سفيان وكبراء قريش ثم قال: (قد عرفتم ودي لكم وفراقي لمحمد، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا) فوعدوه ثم قال: (تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه وأنا عندهم، إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين رجالا من أشرافهم؟ فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارنا، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم.. فأرسل إليهم محمد: نعم.. فإن بعثت إليكم يهود يطلبون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلا واحدا، واحذروهم على أسراركم.. واكتموا عني) ووعدوا بذلك.

ثم اتجه إلى قومه من غطفان وفعل معهم مثل ما فعل مع قريش.. وعليه أرسلت قريش

وغطفان عكرمة بن أبي جهل على رأس نفر من القبيلتين لليهود ليلة سبت يطلبون منهم سرعة المناجزة للمسلمين. فكان رد اليهود أن هذا سبت لا نعمل فيه، وإنه لابد من أن يكون لديهم رهن من قريش وغطفان.. فنجحت خطة نعيم، ودبت الخلافات والشكوك في أطراف التحالف الثلاثة: قريش وغطفان وبنو قريظة.

وفي الليل والشكوك تعصف بقوى الأحزاب أرسل الله جندا من جنوده، ريحا عاصفة اقتلعت الأوتاد وكفأت القدور، وسفت التراب في وجوه المتآمرين، وأدخلت الرعب في نفوسهم.. وتنادوا : النجاة، النجاة ثم ارتحلوا. وفي ذلك جاء قول الحق تبارك وتعالى في محكم التنزيل ﴿**يٰأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصٰر وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا، وإذ يقول المنٰفقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا**﴾ سورة الأحزاب: ٩ ــ ١٢.

وانتهت غزوة الأحزاب بتفرق شملهم وإلى الأبد، إذ جمع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال لهم: (والآن نغزوهم ولا يغزوننا.. ثم هتف المسلمون وراءه: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده).

ومن بعد ما تفرقت الأحزاب جاء دور بني قريظة وذلك لنقضهم العهد وللدور الخطير الذي لعبوه خلال غزوة الأحزاب. فقد جاء أمر الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يخرج لقتال بني قريظة، حيث جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاطبه بقوله: (أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟) قال: (نعم) قال: (وما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم. إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة) فقال صلى الله عليه وسلم: (إن في أصحابي جهدا فلو نظرتهم أياما) فقال له جبريل عليه السلام : (انهض إليهم، فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا، ولأدخلن فرسي هذا في حصونهم ثم لأضعضعنها) عند ذلك أمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بلالا رضي الله تعالى عنه أن يؤذن في الناس: (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة).

وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم وخرج معه المسلمون ومن بعده حتى اجتمع ثلاثة

آلاف من المسلمين حول حصون بني قريظة وتم حصارهم الذي دام خمس وعشرين ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب، وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير، فرفض الرسول عرضهم هذا، فقالوا نخرج دون أي شيء من المال والسلاح، فرفض الرسول عرضهم.. ثم حكم فيهم سعد بن معاذ، وهو حليفهم من الأوس.. وكان الموت حكم سعد رضي الله تعالى عنه، وهو حكم الله ورسوله، وهو قتل الرجال وسلب الأموال وسبي الذراري والنساء، وأن تكون الديار للمهاجرين دون الأنصار.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة ــ سموات).. فقتل الرجال وكانوا أزيد من ستمائة يهودي، وأخرجت النساء والذراري من الحصون للسبي وكانوا ألفا. وتطهرت المدينة المنورة من الوباء اليهودي.

ثم جاء دور بني لحيان حيث لم ينس رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلهم لأربعة من أصحابه رضوان الله عليهم وبيعهم لاثنين آخرين لقريش من أصحاب بعثة الرجيع. لهذا خرج إليهم صلى الله عليه وسلم ومعه مئتان من أصحابه واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم.. وقد توجه شمالا ثم أسرع إليهم لتحقيق المفاجأة، ولكنهم أحسوا به فهربوا إلى الجبال فغنمهم ثم عاد إلى المدينة.

ثم كانت غزوة ذي قرد حيث أغار حصن بن حذيفة الفزاري من غطفان على أطراف المدينة حيث سلبوا إبلاً للرسول يرعاها أبو ذر الغفاري وقتلوا ابنه وسبوا زوجته. فخرج الرسول القائد صلى الله عليه وسلم في طلبهم بعد أن أرسل سعد بن زياد على رأس جماعة لمطاردة القوم، وقد تمكن منهم المقداد بن الأسود واسترد بعض الإبل وأنقذ المرأة. وعاد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن أقام عند ذي قرد يوما وليلة.

ثم جاء دور يهود خيبر الذين ألبوا القبائل ودعوا إلى تحالفها في غزوة الأحزاب، وقد أدرك يهود خيبر وهم أقوى اليهود وأكثرهم مالا وعددا، أن دورهم قد أتى، وأن محمدا لا بد أن يغزوهم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحددوا موعد الغزو فبادروا إلى الإعداد للحرب بقيادة زعيمهم أسيد بن رزام. وفي أثناء إعدادهم للحرب بعث الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إليهم عبدالله بن رواحة ومعه ثلاثون رجلا من المسلمين لعرض الصلح على يهود خيبر والدخول معهم في حلف. فوافق أسيد بن رزام وخرج معهم إلى المدينة ومعه ثلاثون من رجاله.. وفي الطريق حاول الغدر بهم، فقتله المسلمون ومن معه.. ثم أمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم المسلمين بالتهيؤ للخروج إلى خيبر. وخرج في محرم

من السنة السابعة للهجرة بعد أن اشترط ألا يخرج معه إلا من شهد الحديبية، وكان الخارجون معه صلى الله عليه وسلم ألفا وستمائة من المسلمين واستخلف على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي.

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم سيرا إلى خيبر التي وصلها في أربعة أيام ونزل بجيشه في المناطق التي تفصل بين يهود خيبر وقبيلة غطفان لمنع وصول الإمداد منهم ليهود خيبر الذين كانوا معهم في حلف.

تحققت المفاجأة إذ فاجأ المسلمون الرعاة والعمال صباحا، فاتخذ اليهود موقف الدفاع، وتم حصار خيبر التي كانت حصنا منيعا في ظن اليهود ولا يمكن لأي قوة مداهمتها. وفي الليلة السادسة من الحصار دفع رسول الله بالراية إلى عمر بن الخطاب الذي أمسك وأصحابه برجل يهودي قدم المعلومات التي يحتاجها المسلمون لمهاجمة الحصون.. فبات المسلمون ليلتهم تلك بعد أن قال الرسول القائد صلى الله عليه وسلم: (لأدفعن الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبانه).. وبات المسلمون ليلتهم وكلهم يتمنى ذلك الشرف، وفي الصباح كان علي بن أبي طالب هو المعقود له اللواء.. وكان القتال فسقط الحصن وقتل سلام بن مشكم وتولى القيادة من بعده الحارث بن أبي زينب، ثم انتقل اليهود إلى حصن آخر حيث كانت تلك الحصون عبارة عن خطوط للدفاع.

استمر القتال من حصن إلى حصن حتى تمكن المسلمون من دحر اليهود، ومحاصرتهم في حصني الوطيح والسلالم، وفيهما قبلوا الصلح والخروج من خيبر بذراريهم فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك.

ثم طلب يهود فدك الصلح وكان لهم، ثم تبعهم يهود تيماء.. وبقي اليهود في جزيرة العرب يدفعون الجزية إلى أن أمر الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه باجلائهم إلى الشام امتثالا لأمر سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يجتمع في جزيرة العرب دينان.. أو كما قال صلى الله عليه وسلم) ثم كانت سرية مؤتة بقيادة زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة ثم خالد بن الوليد بعد استشهاد الثلاثة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين كما تحدثنا من قبل ثم كانت سرية ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص لتأديب قبائل الشمال بعد مؤتة.

وبعد أن تداعى صلح الحديبية حيث نقضته قريش، تم للمسلمين فتح مكة دون قتال وذلك بعد أن خرج إليها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم لعشر ليال من رمضان من

السنة الثامنة للهجرة على رأس جيش من المسلمين قوامه عشرة آلاف رجل من المسلمين وقد استخلف على المدينة كلثوم بن الحصين. ثم كانت غزوة حنين حيث أدركت ثقيف وهوازن ونصر وجشم وسعد بن بكر أن نهاية الشرك والوثنية في الجزيرة العربية قد اقتربت، فتشاور القوم وقرروا مبادرة المسلمين بالغزو حيث تولى قيادتهم مالك بن عوف، واحتشدوا للغزو في منطقة أوطاس، ثم سار بهم مالك إلى وادي حنين وجعل الرماة على رؤوس الجبال عند المضايق وجعل بقية الجيش على جنبات الوادي. ويقصد بذلك مفاجأة المسلمين بالرماة الذين هم فوق الجبال، ثم يقوم بالهجوم ببقية الجيش.. وهذه خطة دريد ابن الصمة الذي كان شيخا أعمى يرافق الجيش وهو في نهاية أيام عمره.

بعث الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بعبد الله أبي حدرد الأسلمي لجمع المعلومات من داخل صفوف ثقيف وهوازن، وعاد عبد الله بأخبار القوم بعد أن مكث يومين بين القوم يجمع المعلومات. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين على رأس ما يربو على الاثني عشرة ألفا من المسلمين، وخرج معه ثمانون من المشركين الذين لم يسلموا بعد ومنهم صفوان بن أمية واستخلف على مكة عتاب بن أبي العيص.. وصل جيش المسلمين، وبعث الرسول القائد صلى الله عليه وسلم كعادته بدورية استطلاع عاجلة استرقت السمع من مالك في خيمته وهو يضع مع رؤساء القوم اللمسات الأخيرة للخطة التي عرف منها رسول الله صلى الله عليه وسلم تفاصيل الهجوم وموعده.. ثم قرر أن يفاجيء القوم وحدد ضوء اليوم التالي ساعة للصفر.

وتقدمت قوات المسلمين في ساعة الفجر الأولى يتقدمها خالد بن الوليد كقائد لقوة المقدمة.. ونفذ المشركون خطة دريد بن الصمة وانهالوا بالسهام من فوق رؤوس الجبال على المسلمين الذين انهزموا دون تخطيط لهول المفاجأة، ولم يبق إلا نفر قليل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي فيهم وهم لا يسمعون ولا يلوون على شيء، فصاح بعمه العباس بن عبد المطلب الذي كان جهوري الصوت : (يا عباس، اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، وبالأنصار الذين آووا ونصروا) ففعل العباس، وعادت الجموع رويدا رويدا وهم يرددون: (لبيك لبيك). ثم بدأ القتال الفعلي مع طلوع فجر اليوم الثاني، ولم يأت المساء إلا وكانت جموع المشركين بين قتيل وأسير وفار لا يلوون على شيء وقد تركوا وراءهم الذراري والنساء والأموال، حيث غنم المسلمون اثنين وعشرين ألفا من الإبل وأربعين ألفا من الشياه وأربعة آلاف أوقية من الفضة، كما بلغ الأسرى من المشركين

في هذا اليوم ستة آلاف.

انهزم المشركون وتفرقوا، فمنهم من قصد الطائف ومعهم مالك بن عوف، وعسكر بعضهم في أوطاس التي كانت منطقة حشدهم قبل الحرب، واتجه بعضهم إلى نخلة.. وأمر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بمطاردة الفارين، حيث أسلم بعضهم وأسر البعض وقتل دريد بن الصمة خلال عمليات المطاردة.

انتهت المطاردة بحصار مالك بن عوف ومن معه بالطائف حيث تهيأ أهلها للجولة القادمة بعد حنين إذ أدركوا أن الطائف ستكون هدف محمد بعد حنين.. استمر الحصار ثمانية عشرة يوما.. وانتهى الحصار، وعاد الرسول القائد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ثم تبعه وفد ثقيف حيث أعلنوا إسلامهم وعادوا إلى الطائف ومعهم المغيرة بن شعبة ليهدم اللات وليعلمهم دينهم وأسلم الجميع وانتهت معاقل الشرك القوية في الجزيرة العربية.

ومن بعد حنين كانت غزوة تبوك (جيش العسرة) للقاء الروم بعد مؤتة التي واجه فيها ثلاثة آلاف من المسلمين مائتي ألف من الروم وقبائل شمال الجزيرة العربية المتحالفة معهم والواقعة تحت هيمنتهم.. وتأتي غزوة تبوك بعد وصول المعلومات الاستخبارية الأولية بحشود الروم وقبائل شمال الجزيرة العربية لكسر شوكة الإسلام الذي سيطر على الجزيرة العربية بعد فتح مكة وغزوة حنين. وقرر الرسول القائد صلى الله عليه وسلم التقدم بجيش المسلمين إلى حدود الشام لقتال الروم ومن معهم من العرب.

اجتمعت قوة المسلمين وهي تقدر بثلاثين ألف مقاتل ومعهم عشرة آلاف فرس، وسارت حتى تبوك (حدود الروم) حيث لم تجد أي أثر للروم الذين آثروا أمام هذا الحشد الإسلامي الانسحاب إلى حصونهم.. ولم يشأ الرسول القائد صلى الله عليه وسلم العودة إلى المدينة دون تتويج نصره هذا على الروم بعمل يؤمن به حدود دولة الإسلام. وعليه وادع العديد من قبائل الشمال، ثم عاد للمدينة بعد أن قضى بعيدا عنها عشرين ليلة.

ثم بدأ الإعداد لحملة أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه الذي تحرك بعد أن التحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، وتولي أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه للخلافة.

الدروس المستفادة والعبر

لو درست الحياة العسكرية للرسول القائد صلى الله عليه وسلم دراسة عسكرية إسلامية متكاملة، لأصبحت مدرسة محمد العسكرية حية بين يدي كل عسكري مسلم، ينهل منها كل ما يحتاجه عن الحرب وبكافة جوانبها.. إنها أعظم مدرسة عرفها التاريخ.

وعليه فإنني مهما حاولت أن أحيط بالدروس المستفادة من معارك وحروب الرسول القائد والسرايا التي خطط لها أو خاضها، ومهما حاول غيري بمجهود فردي، فلن نحيط بها.. وإنما سيكون حالي وحال غيري كمن يغترف بكأس من بحر لا قرار له، فهو والحال هذا لن يعرف حدود هذا البحر ولن يحيط به.

وعليه فإن ما سأدونه من بعض الدروس المستفادة والعبر، لن تكون إلا كقطرات من بحر، ولن تكون إلا كمن يعبر عن مجلد بسطر لا معنى له ولا فائدة.. إنها مدرسة عسكرية شاملة جامعة، لو نهل منها قادة وجند جيوش المسلمين اليوم لأغنتهم عن أولئك الذين نتغنى بإبداعاتهم العسكرية والقتالية، ولتمكنوا من خلالها من التعرف على طريق النصر على أعدائهم وما أكثرهم في يومنا هذا.

وعليه فلن أحيط بالعبر والدروس المستفادة مهما حاولت جهدي فأنا بشر يلازمني النقص، وإني لأهيب بالدول الإسلامية جمعاء أن تدرس السيرة العسكرية للرسول القائد صلى الله عليه وسلم لجميع قادتها العسكريين ومفكريها، ليكون عملهم منهجا يدرسه أبناؤهم وأحفادهم من بعدهم، وليكون عملهم مدرسة يتخرج منها المنتصرون بإذن الله على كل عدو لله ظالم لنفسه.

إن من هذه الدروس المستفادة والعبر:

أولا: إن الحرب تتطلب وجود القيادة الواعية التي تأخذ بمبادىء القيادة التي حددها المفكرون العسكريون في عصرنا الحديث على النحو التالي:

١ ـــ معرفة القائد لعمله.

٢ ـــ معرفة القائد لنفسه.

٣ ـــ معرفة القائد لرجاله.

٤ ــ رعاية القائد لشئون جنده وحسن معاملتهم.
٥ ــ المحافظة على أرواح الجند.
٦ ــ توضيح الأهداف للجند ومداومة إعلامهم بها.
٧ ــ اتخاذ القرارات السليمة والحاسمة.
٨ ــ تحمل المسئولية وتنميتها لدى المرؤوسين.

فأي هذه المبادىء القيادية لم يأخذ بها الرسول القائد صلى الله عليه وسلم؟ لقد رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب الرأي والمشورة من أصحابه وهو النبي المرسل، في بدر وفي أحد وفي الأحزاب وغيرها. ولقد رأينا أنه العارف بعمله وبرجاله والراعي لشئونهم والرفيق بهم والمحافظ على أرواحهم. ولقد رأينا تحمل المسئولية وتنميتها لدى المرؤوسين. ورأينا المداومة على توضيح الأهداف للمرؤوسين.

ثانيا: وللحرب مبادىء يحدد إطارها وحيزها ويسعى من خلالها لتحقيق الهدف من الحرب، وقد عددها القادة والمفكرون العسكريون في عصرنا الحديث على صور مختلفة منها:

١ ــ ملاحقة هدف واحد.
٢ ــ التعرض.
٣ ــ حشد القوى.
٤ ــ الاقتصاد في القوى.
٥ ــ الحركية.
٦ ــ المفاجأة.
٧ ــ الحيطة.
٨ ــ العمل الموحد.
٩ ــ البساطة.

فأي هذه المبادىء لم يأخذ به الرسول القائد صلى الله عليه وسلم؟ لقد رأينا ملاحقة الهدف الواحد للقضاء على معاقل الشرك واحداً تلو الآخر. ولقد رأينا الاعتماد على التعرض ومحاولة تجنب الدفاع ما أمكن ذلك. ورأينا الحشد يتجلى بأوضح صورة في فتح مكة وفي حنين وفي غزوة تبوك. ورأينا الاقتصاد في القوى في كل السرايا والغزوات. ورأينا الاعتماد على الحركية. ورأينا السعي المتواصل لتحقيق المفاجأة. ورأينا الحيطة من

خلال سرايا الاستطلاع التي كان يبعث بها صلى الله عليه وسلم. ورأينا العمل الموحد. ورأينا البساطة في التخطيط والتنفيذ. ورأينا غير ذلك العديد في الأعمال العسكرية للرسول القائد صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: وللقائد صفات لابد من توفرها ليستطيع تحقيق الهدف الذي تسعى القيادة لتحقيقه وقد عدد علماء الإدارة ومفكروها العديد من صفات القيادة في عصرنا الحديث ومنها كما قلنا:

١ ــ قوة الشخصية.

٢ ــ الحماسة.

٣ ــ القدرة على التأثير.

٤ ــ حسن المظهر.

٥ ــ اليقظة.

٦ ــ قوة التحمل.

٧ ــ الثقة.

٨ ــ المبادأة.

٩ ــ الذكاء.

١٠ ــ الحكمة.

١١ ــ الحسم.

١٢ ــ الشجاعة.

١٣ ــ العدل.

١٤ ــ النزاهة.

١٥ ــ الولاء.

١٦ ــ اللباقة.

١٧ ــ إنكار الذات.

١٨ ــ الروح المرحة.

١٩ ــ القدرة على التعبير والخطابة.

٢٠ ــ المشاركة الوجدانية للمرؤوسين.

٢١ ــ التواضع.

٢٢ ــ الكفاءة العلمية.
٢٣ ــ الإخلاص.
٢٤ ــ المظهر.
٢٥ ــ الاعتماد على النفس.

فأي هذه الصفات القيادية لم تكن من صفات الرسول القائد صلى الله عليه وسلم وهو الذي وهبه الله كمال الأخلاق وكلفه بالرسالة إلى الناس كافة؟

رابعا: وللعملية الإدارية عناصر وللقيادة وظائف، حددها علماء الإدارة المعاصرون على النحو التالي:

١ ــ التخطيط.
٢ ــ التنسيق.
٣ ــ الإشراف.
٤ ــ اتخاذ القرارات.
٥ ــ الرقابة.

إن الإدارة والتنفيذ اللذين تمت بهما غزوات الرسول القائد صلى الله عليه وسلم والسرايا التي بعث بها تقف شاهدا على أنها لم تتم دون تخطيط وإشراف وتنسيق ورقابة، كما لم تتم دون اتخاذ قرارات صائبة في كل لحظة من لحظاتها.

إن أهم الدروس المستفادة من غزوات الرسول القائد صلى الله عليه وسلم والعبر التي نستخلصها منها إنه قد حدد صلى الله عليه وسلم مبادىء القيادة ومبادىء الحرب وصفات القيادة وعناصر العملية الإدارية قبل أربعة عشر قرنا من مجيء القادة والمفكرين العسكريين والإداريين الذين ادعوا استخلاص هذه وتلك من تجاربهم وبنات أفكارهم.. فهل ندرك نحن المسلمين ذلك!؟. لقد سبق الرسول القائد صلى الله عليه وسلم كل هؤلاء، ونأتي اليوم نتغنى بما جاء به هذا وذاك، فعجبا من حالنا وعجبا من زمننا هذا!؟.

لقد أجملت الدروس والعبر على هذا النحو لأني لن أحيط بها بمفردي مهما بذلت من جهد.. ولمن أراد وضوح المزيد فليرجع إلى كتب الصحاح والسيرة النبوية الشريفة، ففيها من الدروس والعبر الكثير والكثير من حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم الإدارية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، فهي المعين الذي يجب أن ينهل منه أبناء الأمة الإسلامية.

خاتمــة القــول

آيــات في الحــرب لابـد من إدراك معانيها

جاء في القرآن الكريم عن القرآن ذاته قول الحق تبارك وتعالى:

﴿الر كتٰب أحكمت آيٰته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ سورة هود: ١.

وقوله تبارك وتعالى:

﴿الم، ذلك الكتٰب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ سورة البقرة: ١ ـــ ٢.

وقوله تبارك وتعالى:

﴿الم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتٰب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيٰت الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ سورة آل عمران: ١ ـــ ٤.

وقوله تبارك وتعالى:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحٰفظون﴾ سورة الحجر: ٩.

إذن هو من عند الله مفصل وفيه تبيان كل شيء.. وهو من عند الله هدى للعباد.. وهو من عند الله مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل وما فيهما من هدى للعباد، وإن العذاب مآل كل من يكفر بهذا الذكر والهدى.. وهو من عند الله وقد تعهد بحفظه فهو محفوظ بأمر الله تبارك وتعالى وقدرته.

وما دام من عند الله، وما دام هو هدى للناس، وما دام هو مفصل الآيات.. فإنه والحال هكذا لابد أن يكون دستورا للحياة، وأن يكون سعادة للبشرية ونعيمها في الدنيا وفوزها بالجنة ونجاتها من النار. حدثني أحد الأخوة في الله عن موقف مر بجماعة للدعوة أثناء جهادهم في سبيل الله بالدعوة إليه في الولايات المتحدة الأمريكية فقال: كان هؤلاء الأخوة في الله في طريق سفرهم من مدينة لأخرى في إحدى الولايات الأمريكية، فانشغلوا بأمر من أمور الدعوة وتأخروا عن موعد رحيل القطار الذي كان من المقرر أن يستقلوه

في سفرهم، فافترشوا الأرض في محطة القطار وعقدوا حلقة للذكر. وبينما هم يتدارسون أمور دينهم غط أحد الجماعة في النوم، فمر أحد الأثرياء في سيارته التي يقودها سائقه الخاص ورأى ذلك المنظر ــ رجال غرباء يتحدثون إلى بعضهم البعض وصاحبهم يغط في نومه ــ فأمر سائقه بالتوقف، ثم نزل من سيارته حتى أتى إلى الجماعة وبادرهم بالسؤال عن أمر هذا النائم وعن ماهية الحديث الذي يخوضون فيه. فأوضحوا له هويتهم ودينهم والأمر الذي هو مدار حديثهم. وقد كان كتاب الله الكريم.

كانت الساعة العاشرة ليلا، وبينما هم يتحدثون إلى ذلك الرجل فإذا به يغط في نوم عميق لم يستيقظ منه إلا في تمام الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي.. فاق من نومه ثم قال: إنني أحد أثرياء سان فرانسيسكو وإنني لم أذق طعم النوم لليال عديدة وقد خرجت مع سائقي لعلني أتعب من المسير وأجهد فأنام.

استمر الحديث وما هي إلا لحظات حتى شهد أن لا إله إلا من أنزل هذا القرآن وأن محمدا رسول الله الذي أنزل إليه هذا القرآن.

ذلك هو القرآن ولقد تعودت أن أختم كل عمل وكل مؤلف من مؤلفاتي بآية منه تتناسب في موضوعها مع ما أردت تبيانه في هذا العمل أو المؤلف.. ولقد جهدت كثيرا وأنا أبحث عن أي الآيات الكريمة أختم بها مؤلفي هذا عن: منهج الإسلام في السلم والحرب، إذ إن آيات الحرب ــ الجهاد عندنا معشر المسلمين، حيث قد بينا أن الجهاد هو جوهر العقيدة العسكرية الإسلامية ــ عديدة، فقررت أن أختم بثلاث آيات يفسرها عامة المسلمين تفسيرا لا يتفق ومعانيها، ويفهمها هؤلاء العامة ويحملونها ما لا تحتمل من المعاني وهي:

أولا: قول الحق تبارك وتعالى ﴿**انفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾ سورة البقرة: ١٩٥.

وتفسير هذه الآية عند العامة من المسلمين في أن الحق سبحانه وتعالى ينهى المسلم عن مصارعة الباطل عندما يمتلك الباطل القوة على المسلم بحيث يكون مقارعة المسلم لهذا الباطل بمثابة الانتحار لما في هذه المقارعة من هلكة للمسلم. إن هذا المفهوم الخاطىء لدى عامة المسلمين يعني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألقى بيده إلى التهلكة عندما قارع بثلثمائة من المسلمين تسعمائة ونيف من المشركين في بدر.. وأنه قد

ألقى بيده إلى التهلكة على هذا النحو في أحد وفي الخندق وفي مؤتة عندما بعث بثلاثة الآف من المسلمين لمجابهة الروم وجيشهم يربو على المائتي ألف من المقاتلين.

وهذا المفهوم الخاطىء لدى عامة المسلمين يعني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ألقى بيده إلى التهلكة عندما صدع بدعوة الحق وهو الوحيد دون ناصر في مجتمع الشرك العتيد في مكة.

وهذا المفهوم الخاطىء لدى عامة المسلمين يعني أن خلفاءه الراشدين من بعده قد ألقوا بأيديهم إلى التهلكة عندما قارعوا دولة الروم والفرس أوج قوتهم في حين لم يكن المسلمون يمتلكون من العتاد والرجال إلا جزءا يسيرا مما كان يمتلك هؤلاء الأعداء.

حاشى أن يكون أمر الله هكذا، وحاشى أن يجهل رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة أمر ربه ونفهمه نحن، وحاشى أن يجهل خلفاؤه الراشدون وصحابته الكرام رضوان الله عليهم أمر الله ورسوله ونفهمه نحن.

إن حقيقة معنى الآية هو النهي عن القعود عن الجهاد، إذ أن التهلكة تعني هنا النكوص عن أمر الله تبارك وتعالى لعباده بالجهاد في سبيله والركون إلى ملذات الدنيا ونعيمها. وقد نزلت في الأنصار رضي الله تعالى عنهم عندما اشتد ساعد الإسلام وقويت شوكته فقال قائلهم لم لا نلتفت إلى زراعتنا وتجارتنا بعدما اشتد ساعد المسلمين.. فجاء أمر الله سبحانه وتعالى ينهاهم عن ذلك كما بينا في أحد مواضيع بحثنا هذا.

ألاما ما أحوج المسلمين اليوم لإدراك معنى هذه الآية الكريمة وقوى الشر اليهودي والشيوعي والصليبي والبوذي والمجوسي تفتك بهم في فلسطين وإريتريا وأفغانستان وسبته ولبنان والهند والفلبين وكل مكان تهان فيه اليوم كرامتهم وتدنس أعراضهم وتسلب أراضيهم وممتلكاتهم وتراق على مسرح التآمر الثلاثي الشرير دماؤهم (تآمر اليهودية والصليبية والشيوعية).

ثانيا: قول الحق تبارك وتعالى **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾** سورة الأنفال: ٦٠ ـــ ٦١.

وتفسير هاتين الآيتين عند العامة من المسلمين يتمثل في أن الحق سبحانه وتعالى يأمر

عباده المسلمين بإعداد القوة المادية للحرب، ويأمرهم أن يسالموا عدوهم دون قيد أو شرط إن هو جنح للسلم.

وهذا المفهوم الخاطىء لدى عامة المسلمين يعني تجهيز الجيوش الإسلامية بآلة الحرب دون النظر إلى مصدرها حتى وإن كان عدو المسلمين ذاته، كما يعني وجوب مصالحة إسرائيل ـــ مثلا ـــ إن هي طلبت السلام وفرضته علينا معشر المسلمين بالقوة الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية.

وهذا المفهوم الخاطىء لدى عامة المسلمين يعني تجهيز الجيوش الإسلامية بآلة الحرب دون الاكتراث بتجهيزها بما هو أهم وأعظم من آلة الحرب، وأقصد بذلك الإعداد الروحي والمعنوي للحرب. إذ ما فائدة السلاح بيد رجل لا يعرف الله؟ وما فائد السلاح بيد رجل منهار القوى الجسمية والمعنوية؟

لقد قاد هذا الفهم الخاطىء لنص الآيتين العديد من الدول الإسلامية اليوم إلى الركون إلى ترسانة صنائع اليهود.. بل اليهود أنفسهم، لتجهيز جيوشها وتسليحها، دون النظر إلى نقائص هذا السلاح، ودون النظر إلى موقف هذه الدول المصنعة وهي معادية للإسلام مع عمليات التعريف بقدرات هذا السلاح وتبيين طرق إصلاحه والإمداد بقطع غياره ووسائل إسناده في حالة نشوب حرب مع هؤلاء الأعداء وهم شركاء في العداء للمسلمين.

ولقد قاد هذا الفهم الخاطىء لنص الآيتين دولا إسلامية لقبول الصلح الذي فرضه الأعداء الأساسيون للإسلام والمسلمين ـــ اليهود ـــ بقوة السلاح ولقد قاد هذا الفهم الخاطىء لنص الآيتين دولا إسلامية لتجهيز جيوشها بآلة الحرب، في حين يحظر على الجندي إقامة الصلاة في المعسكرات، وفي حين تطارد سلطات هذه الدول المسلمين وتضيق عليهم الخناق.

حاشى أن يكون أمر الله تبارك وتعالى مقتصرا على الإعداد المادي للحرب، وحاشى أن يكون أمر الله تبارك وتعالى بالجنوح للسلم من موقف الضعف.. إنه أمر إلهي بالإعداد الكامل للحرب، وقد بينا معنى الإعداد وأنواعه.. وهو أمر إلهي بقيام الردع الإسلامي الذي يرهب العدو ويرغمه على الجنوح للسلم من موقف ضعفه ومن موقف قوة المسلمين. إنه أمر إلهي لدرء الحرب.. ولكن لمصلحة المسلمين ومن منطلق قوتهم وعزتهم.

ثالثا: قول الحق تبارك وتعالى ﴿**إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذي عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون، فإما تثقفنهم في**

الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخٰئنين﴾ سورة الأنفال: ٥٥ ــ ٥٩.

لقد نزلت هذه الآيات لتحكي قصة اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أولئك الذين عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة المنورة، ثم نكثوا عهودهم حين آذوا المسلمين، وحين كشفوا عن عورة المرأة المسلمة وقتلوا المسلم الذي ثأر لدينها وكرامتها، وحين تآمروا لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين حرضوا القبائل الوثنية في الجزيرة العربية وتحالفوا معها للقضاء على الإسلام وأصدروا فتواهم بأن الوثنية أصدق من الإسلام والوحدانية.

إن هؤلاء اليهود الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكادوا له وللإسلام والمسلمين هم أبناء دين اليهود الذين نراهم اليوم يعيثون في الأرض فسادا وقد سلبوا الأرض وانتهكوا العرض وسفكوا الدم في فلسطين ــ لا أقول أجدادهم ولكن أقول أبناء دينهم فهؤلاء ليسوا من سلالة أولئك.

ووصف الله لليهود بالدواب ــ بل بشرها ــ لا يقتصر على الأسلاف دون الأتباع، فهم وفق هذا النص القرآني في الوصف سواء. وما ذكره القرآن من صفاتهم وإفسادهم في الأرض لا يقتصر على جيل دون آخر ولا على زمان، وإنما هو دائم ما دامت الدنيا. وأمر الله بحربهم في هذه الآية لا يقتصر على جيل دون جيل ولا زمان دون زمان، وإنما هو دائم ما دام إفسادهم وما داموا على ما ذكره الله سبحانه وتعالى من صفاتهم. فكيف يأتي الفلسطينيون اليوم ومن ورائهم بعض العرب والمسلمين وهم يسعون إلى صلح اليهود ومعاهدتهم؟ هل نسوا هذا النص القرآني الكريم؟ أم أن اليهود تخلوا عن الإفساد ونبذوا الصفات الرذيلة والتزموا بأوامر التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام والتي تأمرهم بالإيمان بمحمد والتصديق به؟ أم إنه البعد عن القرآن وعدم إدراك معانيه والتزام أوامره واجتناب نواهيه؟ والتي إن تمسكنا بها أصبحنا وبحق خير أمة أخرجت للناس.

إخوتي في الله، إن الله سبحانه وتعالى يخاطبنا في كتابه الكريم الذي أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بقوله الحق **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عٰقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله**

لا يحب الظٰلمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكٰفرين، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جٰهدوا منكم ويعلم الصٰبرين﴾ سورة آل عمران: ١٣٧ ــ ١٤٢.

كما يخاطبنا سبحانه وتعالى بقوله وقوله الحق **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما﴾** سورة النساء: ١٠٤.

كما يخاطبنا سبحانه وتعالى بقوله وقوله الحق **﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾** سورة النساء: ٧٧ ــ ٧٨.

فهل نحن مدركون إخوتي في الله بأننا نحن الأعلون حين نلتزم بالقرآن؟ وهل نحن مدركون أن القرح الذي يصيبنا لابد وأنه مصيب الآخرين؟ وهل نحن مدركون أمر الله لنا في طلب القوم وإنهم يألمون كما نألم وإننا نرجو من الله ما لا يرجون؟ وهل نحن مدركون أن الموت هو مصير كل كائن حي؟.. إننا حين ندرك هذا فلابد أن ننتصر بإذن الله..

والسلام على كل مسلم ورحمة الله وبركاته.

تم بعون الله تعالى في الخامس عشر من
رمضان للعام السابع بعد الأربعمائة وألف للهجرة.

حوار لدينية

المـراجـع

١ ــ القرآن الكريم.
٢ ــ كتب الصحاح.
٣ ــ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.
٤ ــ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد.
٥ ــ ابن تيمية : السياسة الشرعية.
٦ ــ أبو يعلى: الأحكام السلطانية.
٧ ــ أحمد شلبي : الجهاد والنظم العسكرية.
٨ ــ أحمد شلبي : اليهودية.
٩ ــ إيريك موريز : مدخل التاريخ العسكري، ترجمة الهيثم الأيوبي وأكرم ديري.
١٠ ــ أكرم ديري : آراء في الحرب.
١١ ــ أندريه بوفر : الردع والاستراتيجية، ترجمة أكرم ديري.
١٢ ــ بسام العسلي : الحرب والحضارة.
١٣ ــ جان غيتون : الفكر والحرب، ترجمة الهيثم الأيوبي وأكرم ديري.
١٤ ــ دائرة المعارف البريطانية.
١٥ ــ الهرثمي : مختصر سياسة الحرب.
١٦ ــ وهبه الزحيلي : العلاقات الدولية في الإسلام.
١٧ ــ وليم غاي كار : اليهود وراء كل جريمة، شرح وتعليق خير الله الطلفاح.
١٨ ــ وليم غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج، ترجمة سعيد الجزائري.
١٩ ــ حسن أيوب : الجهاد والفدائية في الإسلام.
٢٠ ــ كامل سلامة الدقس: العلاقات الدولية في الإسلام.
٢١ ــ كارل فون كلاوز فيتز : الوجيز في الحرب، ترجمة أكرم ديري والهيثم الأيوبي.
٢٢ ــ الماوردي : الأحكام السلطانية.
٢٣ ــ محمد جمال الدين علي محفوظ : المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية.

٢٤ ــ محمد جمال الدين علي محفوظ : النظرية الإسلامية في الحرب النفسية.
٢٥ ــ محمد جمال الدين علي محفوظ : النظرية الإسلامية في الاستطلاع والأمن ومقاومة الجاسوسية.
٢٦ ــ محمد جمال الدين علي محفوظ : النظرية الإسلامية في القيادة الحربية.
٢٧ ــ محمد جمال الدين علي محفوظ : النظرية الإسلامية في بناء المقاتل وإعداد القادة.
٢٨ ــ محمد جمال الدين علي محفوظ : النظرية الإسلامية في إعداد الأمة للحرب.
٢٩ ــ الموسوعة العسكرية : المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٣٠ ــ محمد حمد خضر : الإسلام وحقوق الإنسان.
٣١ ــ محمد مهنأ العلي : الوجيز في الإدارة العامة.
٣٢ ــ محمد مهنأ العلي : الإدارة ودورها في تحديد معالم المستقبل.
٣٣ ــ محمد مهنأ العلي : صراعنا مع اليهودية بين الصلح المستحيل والمواجهة الحتمية.
٣٤ ــ محمد فريد وجدي : الإسلام في عصر العلم.
٣٥ ــ محمد الصادق عفيفي : الإسلام والعلاقات الدولية.
٣٦ ــ محمد نعيم ياسين : حقيقة الجهاد في الإسلام.
٣٧ ــ محمد الغزالي : من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث.
٣٨ ــ منير شفيق : علم الحرب.
٣٩ ــ سيد قطب : السلام العالمي والإسلام.
٤٠ ــ سيد قطب : معالم في الطريق.
٤١ ــ سعيد حوى : من أجل خطوة إلى الأمام على طريق الجهاد المبارك.
٤٢ ــ سعيد حوى : الإسلام.
٤٣ ــ سعيد حوي : جند الله ثقافة وأخلاقا.
٤٤ ــ عبد الكريم الخطيب : الحرب والسلام في الإسلام.
٤٥ ــ ابن عبد ربه الأندلسي : العقد الفريد.
٤٦ ــ صالح اللحيدان : الجهاد في الإسلام بين الطلب والدفاع.
٤٧ ــ صفا : الحرب.

٤٨ ــ روهلنج : الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة يوسف نصر الله.
٤٩ ــ شيريب سبير وفيتش : حكومة العالم الخفية، ترجمة مأمون سعيد.
٥٠ ــ تاريخ الطبري.
٥١ ــ توفيق علي وهبة : الجهاد في الإسلام.

المحتـــويات

الموضـوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

OOOOO



مطابع الشرق الأوسط
تلفون ٤٠٢٧٦٣٣ ـ الرياض